
معالم
تاريخ الشرق الأدنى القديم
من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر
الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور
Bibliotheca Alex
0007927


معالم
تاريخ الشرق الأدنى القديم
من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر

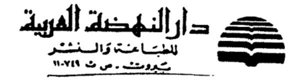
معالم

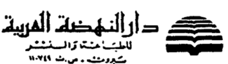
تاريخ الشرق الأدنى القديم

من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور

استاذ بجامعة بيروت العربية





* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون: ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً: دانهضة، ص.ب ٧٤٩-١١
تلكس: NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣، غربي الجامعة العربية، تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠

اهداء

إلى ذكرى مثال الصبر وإنكار الذات

الى روحِ أخي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نفذت الطبعة الأولى منذ سنوات ظهر فيها عدد لابأس به من المؤلفات العربية والأجنبية التي تعالج بعض أوجل موضوعات هذا الكتاب ، غير أنها جميعاً لم تغير شيئاً من الحقائق الواردة فيه ، وما زلت أعتقد أنه ـ في منهجه ومحتواه ـ يمثل الإطار العام الذي ينبغي أن يلم به كل من يريد التعرف على التاريخ القديم لإقليم الشرق الأدنى بصفة عامة وفي سهوله ويسر دون التعرض لتفصيلات لا جدوى منها لغير المتخصصين تخصصاً دقيقاً .

وما أن شرعت في إعادة طبعه حتى أخذت في إعادة النظر فيه لأن من المألوف أن لا يرضى الإنسان عما ينتجه إذا ما اتيحت له فرصة التأمل فيه ، لذا وجدت أن أجري فيه بعض التعديلات كي يصبح ـ من وجهة نظري على الاقل ـ أكثر ملاءمة للغرض الذي وضع من أجله .

وقد يؤخذ على هذا الكتاب أنه خصص جزءاً لابأس به عن العصور قبل التاريخية مع أن موضوعها ـ في نظر الكثيرين ـ حضاري في جملته ولكن

دراسة هذه العصور ما زالت هي الوسيلة الوحيدة للتعرف على تاريخ الإنسان قبل معرفته للكتابة ولذا كان لا بد من التعرض لها .

كذلك قد يرى البعض أنه لم يأخذ بالاتجاه الجديد في نطق أسماء الملوك والحكام وخاصة فراعنة مصر وملوك فارس إلا أن هذا الاتجاه لم يستقر بعد ومازال الكثيرون يفضلون التمسك بالنطق المألوف لديهم ولذا فقد التزمته حتى لا يلتبس الأمر على بعض القراء .

وأرجو أن يكون في هذا الكتاب ما يفي بالغرض والله ولي التوفيق

د/ محمد أبو المحاسن عصفور

مقدمة الطبعة الاولى

لست أزعم أن هذا الكتاب يخرج في صورة مرضية حتى لنفسي ، ولكنني أعتقد أنه كان ضرورة أوجبتها ظروف عملي ، فرغم وجود عدد لا بأس به من المطبوعات العربية التي تتناول بعض موضوعه أو معظمه بالدراسة (سواء كانت تأليفاً أو ترجمة) إلا أنني أرى أننا ما زلنا في حاجة إلى الكثير من المطبوعات العربية التي تعرض لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم دراسة عامة ليتسنى لقارىء العربية أن يجد بين يديه ما يوضح له تاريخ هذا الجزء الذي نعيش فيه من العالم .

ومع أن إتقان اللغات الأجنبية أمر توجبه نهضتنا الحديثة وفي مؤلفاتها ما يمكن أن يجد فيه القارىء بغيته للتعرف على هذا التاريخ إلا أن ما يتوخاه عالمنا الحديث من السرعة في إنجاز كل الأمور يستدعى أن يكون بين يدي طلابنا — بل وقرائنا العاديين — مؤلفات بلغتهم يسهل عليهم الرجوع اليها للبحث في مختلف العلوم أو خطوطها العريضة على الأقل دون التعرض لما دار ومـا يدور حولها من مناقشات وجدل، وقد أردت لكتابي هذا أن لا يخرج عن هذا الحيز العام وإنني لعلى يقين من أنه يفي بهذا الغرض ولكنه لا يغني دارس التاريخ عن قراءة غيره من الكتب الأخرى .

ودراسة التاريخ في مفهومها الحديث لا تعني سرد الأحداث التاريخية ذات الصبغة السياسية فحسب بل يجب أن يتناول دارس التاريخ بالبحث كل ما يمر

على مسرح الحياة من مظاهر حضارية مختلفة وأن يجعل من المكان الذي يدرس تاريخه مسرحاً يتعرض لكل ما فيه وما يدور به من أحداث بالدراسة والبحث خلال فترة أو فترات معينة غير أنني أرى ـ من تجاربي الخاصة ـ أن تشعب هذه الدراسة يؤدي إلى تعقيدها أمام الطالب المبتدىء ويشتت أفكاره وقد يعجز أو يزهد في دراسة التاريخ في كثير من الأحيان ، كما أن الجمع بين هذه النواحي المختلفة في مؤلف واحد يكاد يكون امراً مستحيلا ، ولذا ما زلت اعتقد ـ وقد أكون مخطئاً ـ بأن دراسة التاريخ السياسي دراسة مستقلة عما عداها تتيح للطلاب فرصة فهم المعالم الرئيسية للتاريخ الذي يدرسونه وتهيئهم للجمع في دراستهم بين نواحيه المختلفة .

وأرجو ان يكون واضحاً بأن هذا الكتاب يعد تنقيحاً للكتاب الذي سبق أن قدمته لطلاب جامعة البصرة « موجز تاريخ الشرق الأدنى البصرة ١٩٦٦ » وقد أضفت إليه بعض الإضافات التي تراءت لي ضرورتها حاليا والله ولي التوفيق؟

د . محمد أبو المحاسن عصفور

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن

قائمه بالأشكال والرسوم

الصفحة

الصفحة

الجـــداول

صفحة

الخرائــــط

الاختصارات الواردة بالكتاب

ASA Annales du Service des Antiqntés de l'Egypte, Le Caire, 1900 ff.

BIFAO Bulletin de L'Institut français d'archeologie orientale, Le Caire, 1901 ff.

Breasted, AR. J. E. Breasted, Ancient Records of Egypt, Historical Documents from the Earliest Times to the Persian conquest (4 vols. + 1 index), Chicago, 1906-7.

Chr. d'Eg. Chronique d'Egypte, Bruxelles, 1928 ff.

Drioton & Vandier, L'Egypte = E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte (Les Peuples de L'Orient Mediterranéen II), (4e ed), Paris, 1962.

JEA Journal of Egyptian Archaeology, London, 1914 ff.

Luckenbill, ARAB, D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, (2 Vols.) Chicago, 1926-7.

Macadam, Kawa, M.F.L. Macadam, The Temples of Kawa, (2 Vols.), *Oxford*, 1949, 1955.

Mem Inst, Fr. Memoires Publiés par, les membres des L'Institut Français d'Archeolegie Orientale, Le Caire, 1902 ff.

PSBA Proceedings of the Society of Biblical Archaeology. London, 1879 ff.

Rec. de Trav. Recueil de Travaux relatifs à la philologie et a

l'archélogie égyptienne et assyrienne, Paris, 1870 — 1923

Sethe, Urkunden (or Urk.) K. Sethe, Urkunden des Aegyptischen Altertums, Leipzig, 1906 — 9 & 1913 — 33.

الفصل الأول

منهج التاريخ

يقدر عمر الأرض بنحو ألفي مليون عام اصطلح الجيولوجيون على تقسيمه إلى أزمنة او دهور طويلة وهذه قسموها بدورها إلى أقسام فرعية [1] ، وقد أخذت الأرض منذ نشأتها تتجه نحو البرودة التدريجية بوجه عام ولكنها تعرضت لذبذبات طويلة الأجل تناوبت فيها فترات اشتدت برودتها فتقدم غطاء الجليد فيها نحو العروض ذات الحرارة المعتدلة حالياً وفترات مال المناخ فيها إلى الدفء نسبياً فتراجع الجليد إلى العروض الباردة ، وكانت آخر هذه الذبذبات هي تلك

---

(١) هذه الأزمنة هي :

أ ـ أقدم الأزمنة (الدهر الأقدم) ويعرف باسم الزمن الأركي أو الايوزوي .

ب ـ الزمن الأول أو الباليوزوى وينقسم إلى عصور : الكامبري ، الأردفيشي ، السيلوري ، الديفوني ، الفحمي ، البرمي .

جـ ـ الزمن الثاني أو الميزوي وينقسم إلى عصور : الترياسي ، الجوراسي ، الكريتاسي .

د ـ الزمن الثالث أو الكاينوزوي أو الترياسي وينقسم إلى عصور الأيوسين ، الأوليجوسين الميوسين ، البليوسين .

هـ ـ الزمن الرابع أو البليوستوسين وهو أحدث الأزمنة .

التي حدثت في آخر الأزمـنة الجيولوجية وتعرف لدى الباحثين باسم العصور الجليدية [1] .

ولم تبدأ الحياة على سطح الأرض منذ نشأتها ، وحين بدأت كانت عبارة عن كائنات بسيطة التكوين ثم أخذت الكائنات المعقدة في الظهور ، وبعد ذلـــك وجـدت كائنات شبيهة بالإنسان ولكنها كانت أقرب إلى القردة العليا [2] ثم ظهرت كائنات تعد أسلافاً للانسان الحديث [3] إلا أن تلك المخلوقات الشبيهة

---

(١) حدثت هذه الذبذبات في الزمن الرابع وسمي كل دور تقدم فيه الجليد باسم أحد وديان الألب حيث عثر على الركامات الجليدية في تلك الوديان وهذه العصور الجليدية هي :
جنائزاً Güntz ، مندل Mindel ، رس Riss ، فرم würm على التوالي .

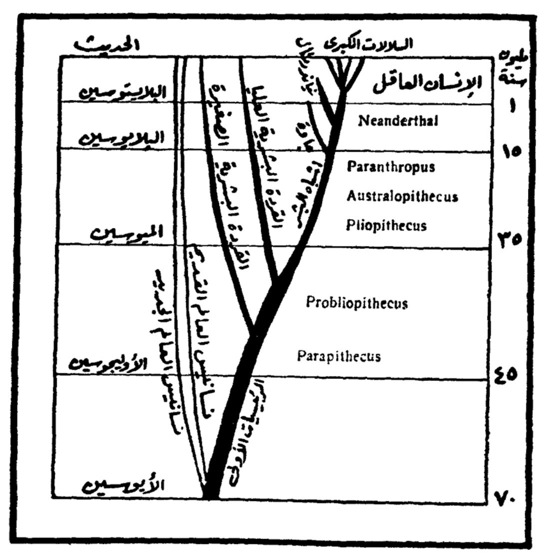
(٢) يمكن تقسيم هذه الكائنات الى :
أ ـ سلالات أشبه بالقردة العليا وقد وجدت بقايا هياكلها العظيمة في جاوه (انسان جاوه) وفي الصين (انسان الصين) وغيرها .
ب ـ سلالات أقل شبهاً بالقردة العليا من السلالات السابقة وقد وجدت بقايا هياكلها العظيمة في نياندرثال «انسان نياندرثال » وفي هيدلبرج « انسان هيدلبرج » بألمانيا وفي روديسيا «انسان روديسيا » وصولو في جاوه .
ويعرف إنسان هاتين المجموعتين من السلالات او انسان المجموعة ب على الاقل باسم الانسان العامل Homo Faber

(٣) هذه السلالات قريبة الشبه بالانسان الحديث وحجم المخ لديها أكبر منه لدى السلالات السابقةوقد عثر على بقايا هياكلها العظميةفي أماكن مختلفةمن العالم مثل جالي هل وسوانسكومب في انجلترا وشتاينهايم في ألمانيا وجبل الكرمل في فلسطين وكرومانيون في فرنسا وجريمالدي في ايطاليا وغيرها . ويعرف الانسان في هذه السلالات والانسان الحالي بأنه الانسان العاقـــل Homo Sapiens .

وقد يرى البعض تقسيم هذه السلالات الأخيرة إلى قسمين :
أ ـ أسلاف الانسان الحالي الأقـــدم الذين يتمثلون في جالي هل وسو نسكومب وشتاينهايم وجبل الكرمل .
ب ـ أسلاف الانسان الحالي الأحدث وهم كرومانيون ـ كومب كابل ـ برن ـ وجريمالدي .

بالإنسان وهذه الأسلاف انقرضت قبل الإنسان الحديث ولا يوجـــد من الأدلة القاطعة ما يؤكد صلتها به وقد حاول الباحثون وما زالوا يحاولون العثور على ما يعتبرونه الحلقة المفقودة بينها وبين الإنسان ولكن لم يتحقق ذلك حتى الآن (شكل ١) .

ولا شك في أن تاريخ الإنسان يبدأ منذ اللحظة الـــتي ظهر فيها على سطح الأرض وأخذ يتفاعل مع بيئته فبدأ في انتاج مظاهر حضاراته المختلفة وتدرج



(شكل ١) تطور الكائنات والعائلة البشرية في العصور الجيولوجية

فيها وبالطبع لم يتوصل إلى ما نشاهده من حضارات راقية إلا بعد آلاف عديدة من السنين ، ومن البديهي أنه لم يتدرج في مراحل الرقى بسرعة واحـــدة في مختلف أنحاء العالم كذلك لم يمر في منطقة ما بالمراحل الحضارية التي مرت بهـا المناطق الأخرى كما أنه لم ينتقل من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية أخرى بنفس الترتيب التي مرت به غيرهـــا كذلك لم تكن الفترة التي قضاها في إحدى المراحل الحضارية مساوية للفترة الـــتي قضاها في نفس المرحلة في أماكن أخرى .

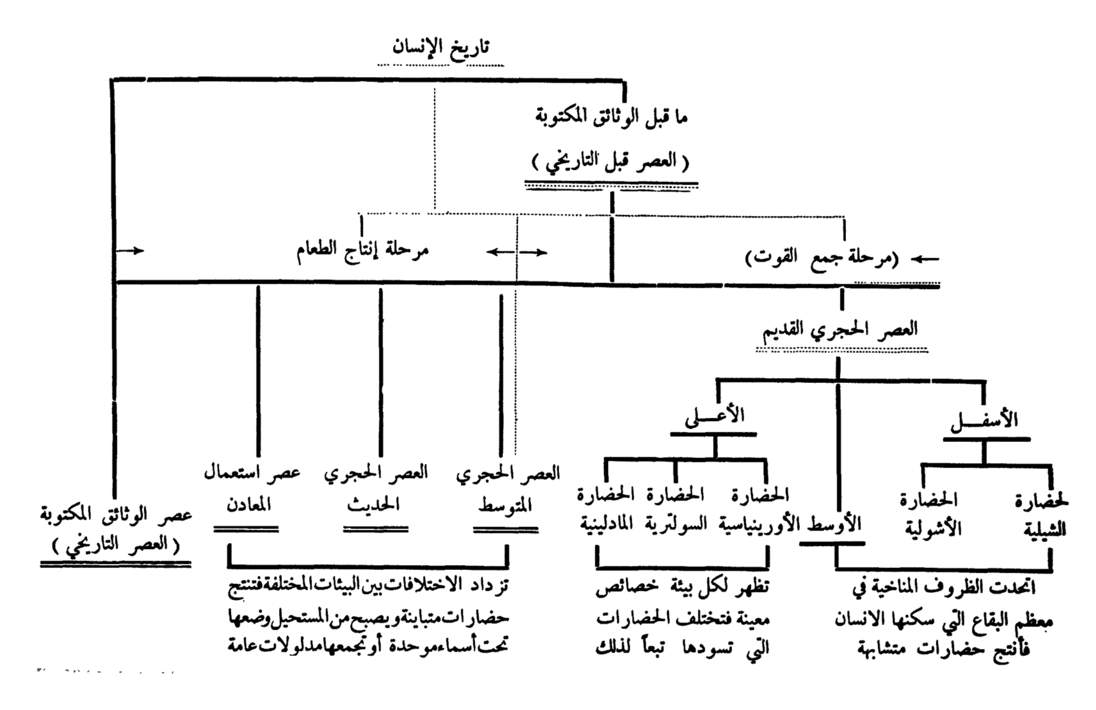
وقد درج الباحثون على تقسيم تاريخ الإنسان على أساس تطوره الحضاري إلى قسمين رئيسين : القسم الذي سبق معرفته للكتابة والقسم الذي عـــرف فيه الكتابة ، وأطلقوا على الأولى اسم « ما قبل التاريخ » وأطلقوا على الثاني اسم « العصر التاريخي » على اعتبار أن الإنسان في هذا القسم من حياته توصل إلى التدوين وبذلك وجد التاريخ » إلا أن تسمية القسم الأول باسم « ما قبل التاريخ » لا تتفق مع ما يعرف من أن تاريخ الإنسان يبدأ منذ لحظة ظهوره على الأرض ومن الأفضل أن يطلق عليه اسم « عصر ما قبـــل الكتابة أو التدوين » أو « العصر قبـــل التاريخي » للتفرقة بينه وبين « العصر التاريخي » أو « عصر الكتابة أو التدوين » ، ومع كل فإن اصطلاح « ما قبل التاريخ » أصبح من الشيوع بحيث لا يشك أحد في المقصود به .

ومن الطبيعي – وقد مر الإنسان بمراحـــل حضارية مختلفة – أن يختلف أسلوب حياته في هذه المراحل ، وعلى هذا تعددت تقسيمات الباحثين في تاريخ الإنسان وحضاراته واختلفت وجهات نظرهم في هذا الشأن على أن أشهر هذه التقسيمات تلك التي قسمت تاريخ الإنسان حسب المادة التي صنع منها أدواته إلى دورين : « دور استعمال الحجر » ، « دور استعمال المعادن » وهذا الأخـير ما زلنا نعيش فيه إلى اليوم ، وتلك التي تقسمه على أساس إقتصادي إلى مرحلتين :

« مرحلة جمع الطعام » ، « مرحلة انتاج الطعام » ، وقد نضيف إلى ذلك فنعتبر أول إنتاج للطعام ثورة صناعية يطلق عليها « مرحلة الثورة الصناعية الأولى » لما صاحب هذا الانتاج من صناعات جديدة كالفخار ، تمييزاً لهـا عن النهضة الصناعية التي حدثت في القرن الثامن عشر الميلادي التي يمكن اعتبارها الثورة الصناعية الثانية وفيها بدأت « حركة التصنيع » ، ومع كل فما زال مختلف الباحثين يقسمون تاريخ البشر حسب أسس متباينة وفق اختصاصاتهم والدراسات التي يهتمون بها – وهذه التقسيمات جميعها تهدف إلى تيسير دراسة تاريخ الإنسان والأدوار الحضارية التي مر بها ، إلا أنه ينبغي أن ندرك بأنه لا توجد حدود زمنية فاصلة بين قسم وآخر في كل من هذه التقسيمات التي لا يخلو أي منها من نقائص ولكنها على كل حال تتيح لنا تتبع المراحل التي مر بها الإنسان في تاريخه الطويل ، وهي – وإن اختلفت في الأسس التي بنيت عليها – تتفق فيما بينها إلى حد كبير بحيث يمكن مطابقة أحد الاقسام في أي من هذه التقسيمات على مراحل واضحة المعالم في التقسيمات الأخرى إذ من الممكن مثلاً التوفيق بين « مرحلة جمع الطعام » والجزء الأول من « دور استعمال الحجر » الذي يعرف باسم « الدور الحجري القديم » وبين « مرحلة انتاج الطعام » و « الجزء الأخير من عصر استعمال الحجر » و « دور استخدام المعادن » أي أنها تبدأ بأوائل « الدور الحجري الحديث وتستمر إلى وقتنا الحالي وذلك إذا ما تغاضينا عن فترة الانتقال بين « الدور الحجري القديم » و «الدور الحجري الحديث » وهي التي يطلق عليها اسم « الدور الحجرى المتوسط » ، وإن كان البعض يجعل « مرحلة انتاج الطعام » قاصرة على الفترة التي مرت على الإنسان ابتداء من « الدور الحجري الحديث » إلى بداية « العصر التاريخي » .

ويبين المخطط التالي تقسيم تاريخ البشر إلى الأقسام الرئيسية العامة :

وإذا كان في مقدورنا الآن أن نؤرخ الأحداث حسب وقت حدوثها بالنسبة


تاريخ الإنسان
ما قبل الوثائق المكتوبة
(العصر قبل التاريخي)
(مرحلة جمع القوت)
مرحلة إنتاج الطعام
العصر الحجري القديم
الأسفل
الأعلى
الحضارة الشيلية
الحضارة الأشولية
الأوسط
الحضارة الأورينياسية
الحضارة السولترية
الحضارة المادلينية
العصر الحجري المتوسط
العصر الحجري الحديث
عصر استعمال المعادن
عصر الوثائق المكتوبة
(العصر التاريخي)
اتحدت الظروف المناخية في معظم البقاع التي سكنها الانسان فأنتج حضارات متشابهة
تظهر لكل بيئة خصائص معينة فتختلف الحضارات التي تسودها تبعاً لذلك
تزداد الاختلافات بين البيئات المختلفة فتنتج حضارات متباينة ويصبح من المستحيل وضعها تحت أسماء موحدة أو تجمعها مدلولات عامة

لحادث هام له أثره في الحياة البشرية مثل ميلاد المسيح وهجرة الرسول ﷺ حيث اتخذ كل منها أساساً للتأريخ ، فإن الأمر لم يكن كذلك في العالم القديم إذ اتخذ سكان بلاد النهرين من كل حادثة مهمة أساساً يؤرخون به ما حدث في سنتها أو السنوات اللاحقة لحدوثها وبالطبع اختلفت هذه الأسس باختلاف المدن ثم جعلوا من حكم كل ملك تقويماً مستقلاً أو أطلقوا على السنين أسماء كبار رجال الدولة الذين عاشوا فيها واتخذوها أساساً يؤرخون بالنسبة له ، أما المصريون القدماء فقد جعلوا من حكم كل فرعون تأريخاً تنسب اليه أحداث عهده .

وقد توصل معظم أهل الحضارات القديمة إلى التوقيت وتقسيم الزمن بصورة أو بأخرى إذ عرف أهل العراق الشهور القمرية وكانوا يضبطون تقويمهم باضافة بضعة أشهر كل عدة سنوات[1] أما المصريون فقد عرفوا السنة على أساس ٣٦٥ يوماً أي بفارق $\frac{١}{٤}$ يوم في السنة عن تقويمنا الحالي ، وعلى هذا لا تكاد تعترض المؤرخ صعوبة في تأريخ الأحداث التي أشارت إليها الوثائق والنصوص القديمة إذا ما أمكن ربطها بعهد ملك من الملوك حيث أصبح في الإمكان تأريخ حكم معظم ملوك الشرق الأدنى القديم وتقدير عمر كل مرحلة تاريخية في أي قطر من الأقطار بتتبع قوائم الملوك الذين حكموا فيه وتسلسلهم ومدة بقاء كل منهم على عرش بلاده إذا ما توفرت لدينا وثائق ونصوص تشير إلى ذلك ، أما إذا أردنا تاريخ أحداث ترتبط بحلقات مفقودة في قوائم الملوك وتسلسلهم ووجدت لها آثار لا تعززها وثائق مكتوبة من ذلك القطر فإن المؤرخ يستعين بمعاصرة

---

(١) بما أن السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية ١١ يوماً فمن المرجح انهم كانوا يضيفون ثلاثة أشهر كل ثمانية أعوام أحدها من ٣٠ يوماً والشهران الآخران كل منهما ٢٩ يوماً .

تلك الأحداث لأحداث أخرى معروفة التاريخ من أقطار أخرى كما يمكن التوصل إلى تأريخها من إشارات عن حدوث ظاهرات معينة يمكن احتساب تاريخ وقوعها بالاستعانة بعلم الفلك ، فمثلاً لم يكن من اليسير تحديد تأريخ عهد حورابي ولكن كان من المعروف أنه عاصر الملك الأشوري « شمشي – أدد الأول » ، وقد أشار أحد النصوص الاشورية إلى حدوث كسوف للشمس في عهد أحد خلفاء هذا الأخير ويدعى « آشور دان الثالث » وعند تأريخ حدوث هذه الظاهرة فلكياً وجد أنها ترجع إلى عام ٧٦٣ ق . م – ومن تتبع قوائم ملوك آشور وتسلسلهم فيما بين « آشوردان الثالث » ، « وشمشي – أدد الأول » واحتساب مدة حكم كل منهم أمكن تأريخ عهد هذا الملك الأخير وبالتالي أمكن تقدير عهد حورابي بالفترة ما بين عامي ١٧٢٨ ، ١٦٧٦ ق . م .

أما في العصور السابقة للكتابة أو في حالة عدم وجود وثائق مكتوبة وعند العثور على مخلفات حضارية لا ترتبط بالعصر التاريخي فيمكن الالتجاء إلى طرق المقارنة والنسبية ، وأهم هذه ما يلي :

١ – دراسة الطبقات التي توجد بها المخلفات الحضارية وتقدير عمرها جيولوجيا وبالتالي يمكن تأريخ الآثار التي توجد في هذه الطبقات ، ومن أهم ما يعتمد عليه الجيولوجيون في تقدير عمر الطبقات احتساب معدل الإرساب في حالة الطبقات الرسوبية أو تقدير عمر الحفريات الموجودة في الطبقة المراد تأريخها ويمكن الاستعانة بعلم النبات القديم وبعلم الحيوان الوصفي ، ومن ذلك يمكن أيضاً استنتاج الظروف المناخية التي كانت تسود فترة قيام الحضارات التي تدرس آثارها ومخلفاتها بل ومن الممكن عند وجود آثار مصنوعة من الأشجار تقدير الزمن الذي استغرقته الحضارة التي أنتجت هذه الآثار بدراسة حلقات نمو تلك الأشجار وتقدير عمرها .

٢ – دراسة الطرز ومقارنتها (التيبولوجيا) Typology من المسلم به

أن تشابه آثار جهة من الجهات مع آثار جهة أخرى يوحي بأن الحضارات المنتجة لها كانت متعاصرة أما اختلافها فيدل على أن إحداها كانت أسبق من الأخرى وعلى هذا يمكن استنتاج تأريخ آثار مختلف المناطق بالنسبة إلى بعضها البعض وأن نحدد على أساس ما نشاهده من تطور في صناعة آثار معينة أي الحضارات المنتجة لهذه الآثار كانت أسبق من غيرها كما يمكن ترتيب الحضارات التي توجد آثارها في منطقة من المناطق على حسب التطور الذي يحدث في طراز وصناعة هذه الآثار ، وأول من استعمل هذه الطريقة الأثري الانجليزي سير فلندرز بتري Sir Flinders Petrie حيث اتخذ من الفخار الذي عثر عليه عند التنقيب على الآثار في منطقة نقادة بجنوب مصر أساساً لتأريخ هذه الآثار وذلك بترتيب الفخار الذي وجد معها على حسب ما شاهده من تطور في أشكاله وصناعته وبذلك تمكن من ترتيب الحضارات المنتجة لهذه الآثار وتأريخها بالنسبة إلى بعضها البعض .

٣ - **طريقة الكربون ١٤** : [١] - هي أحدث طريقة ولكن لا يمكن إجراؤها إلا على المواد العضوية وخاصة المواد النباتيه ، وهي مبينة على أساس أن كل مادة عضوية بها كربون ١٤ المشع وكربون ١٢ غير المشع بنسبة ثابتة - ويكتسب النبات كربون ١٤ المشع من تفاعله مع الأشعة الكونية التي بالغلاف الجوي المحيط به وحينما تنتهي حياة النبات يأخذ في فقد كربون ١٤ الموجود به لأنه يتحول بسرعة ثابتة بهيئة متوالية هندسية إلى كربون ١٢ غير المشع فتنخفض كميته في هذا النبات إلى النصف بعد فترة تقدر بنحو ٥٥٦٨ مع احتمال زيادتها أو نقصها عن ذلك بمقدار ٣٠ سنة ، وبعد فترة مماثلة يفقد النصف من النصف الباقي من كميته أي يصبح كربون ١٤ في النبات ربع كميته الأصلية

---

(١) w . F . Libby , Radiocarbon Dating : (Chicago 1952)

وبعد نحو ٣٣٤٠٨ سنه يصبح $\frac{١}{٦٤}$ من كميته الأصليه وهكذا ، وبذلك يمكن تأريخ الآثار التي تدخل في صناعتها مواد عضوية على أساس قياس كمية كربون ١٤ المتخلفة فيها وبالتالي يمكن تأريخ الحضارات التي انتجتها .

وقد أدخلت تحسينات متوالية على التأريخ بهذه الطريقة منذ اكتشافها وأصبح في الإمكان تقدير عمر البقايا التي تعامل بهذه الطريقة حتى ٤٤٫٠٠٠ سنة مع احتمال زيادة أو نقص يقدر بنحو ٣٧ سنة فقط .

الفصل الثاني

نشأة الحضارة وتطورها

أشرنا إلى أن أقدم السلالات البشرية ظهرت بقاياها في جهات متفرقة من العالم [1] وكانت هذه الجهات لا تكاد تختلف في ظروفها الطبيعية أو المناخية بعضها عن البعض الآخر ولذا لم تختلف المراحل الأولى لحياة الإنسان في أي جهة عنها في الجهات الأخرى – ثم أخذت الظروف الجغرافية في التغير كما اختلفت السلالات البشرية عن سابقاتها وأخذت الجماعات البشرية تتفاعل وبيئاتها التي عاشت فيها وظلت تعمل من أجل بقائها ورفاهيتها وتطورت أساليب حياتها ومظاهر حضارتها إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في وقتنا هذا وقد سبق أن أوضحنا ما درج عليه الباحثون من تقسيم تاريخ البشر [2] حتى أصبح في الإمكان تتبع المراحل الحضارية والتاريخية التي مر بها الإنسان .

ولا شك في أن دراستنا لعصور قبل التاريخية (قبل ظهور الكتابة)تعتمد على دراسة الآثار التي خلفها الإنسان وما توحي به من مظاهر حضارية وعلى

---

(١) أنظر أعلاه صفحة ٢١

(٢) أنظر أعلاه صفحة ٢٦

ما يتضح فيها من تطور يدل على أن الانسان مر بأدوار حضارية مختلفة قبل دخوله في عصره التاريخي ويعني هذا بالطبع أن دراسة العصر قبل التاريخي تعد دراسة حضارية في صميمها .

ومن اليسير أن نتصور بأن الانسان بدأ حياته إما هارباً من وجه عدو من الانسان والحيوان أو مطارداً لفريسة منهما وقد استمر كذلك فترة طويلة لم يتوصل فيها إلى شيء من الأسس الحضارية ، وكان الكل سواء في أنهم كرسوا حياتهم لجمع القوت الضروري لطعامهم وأخذوا ببعض قطع ملائمة من الأحجار أو فروع الأشجار يلتقطونها من الطبيعة ويستخدمونها كما هي دون تهذيب في أغراضهم المحدودة لجمع القوت والدفاع عن النفس والصيد، ويميل بعض الباحثين إلى جعل هذه المرحلة من حياة الانسان مرحلة حضارية قائمة بذاتها ويطلقون عليها اسم « فجر الدور الحجري » أو « العصر الأيوليثي » ولكن غالبية العلماء لا يرون مبرراً لذلك بل يدمجون هذه المرحلة من حياة الانسان في أولى مراحل العصر الحجري – ومن مخطط تقسيم البشر (ص٢٦أعلاه) يتبين لنا أن عصر استعمال الحجر ينقسم إلى دورين رئيسيين : «الدور الحجريالقديم » و « الدور الحجري الحديث » ، وقد يكون بينهما « دور حجري متوسط » ، ولكن كثيراً ما لا يعثر على آثار لهذا الدور في جهات مختلفة من العالم – وينقسم « الدور الحجري القديم » بدوره إلى ثلاثة أقسام حسب الترتيب الطبيعي للطبقات التي عثر على آثاره المتباينة فيها ، وهذه الأقسام هي : الدور الحجري القديم الأسفل والدور الحجري القديم الأوسط والدور الحجري القديم الأعلى .

وقد ظل الانسان ينعم بمناخ ملائم تتشابه ظروفه في أنحاء العالم التي عاش فيها أثناء الدور الحجري القديم الأسفل حيث يرجح أنه يتفق وفترة تراجع الجليد الثانية التي حدثت بين عصر تقدم الجليد الثاني (مندل Mindel)وعصر الجليد الثالث (رس Riss) ولذا تشابهت الحضارات خلاله ، وفيالدورالحجري القديم الأوسط انقسم العالم القديم إلى قسمين كبيرين : أوراسي وأفريقي

إذ أخذت الظروف المناخية تتغير لتقدم الجليد خلال عصر الجليد الثالث إلى العروض الوسطى واختلفت تبعاً لذلك مظاهر الحضارة في كل منهما واستمر الحال كذلك طول عصر الجليد الثالث وفترة الانحسار التي تلته وعصر الجليد الرابع (فرم Wurm) – وازدادت الاختلافات المناخية بعد هذا العصر الأخير حيث تراجع الجليد فكانت لكل إقليم ظروفه الخاصة وتباينت تبعاً لذلك الحضارات التي سادت خلال الدور الحجري القديم الأعلى – ثم أخذ الجفاف يتزايد في العروض الوسطى والمدارية فاشتد تباين الظروف الطبيعية حتى تميزت البيئات المحلية بعضها عن البعض وأصبحت لكل منها ظروفها الخاصة في العصور التالية ، ولذا فإن ما يشاهد من مظاهر حضارية في بيئة ما لا يمكن العثور على نظائر لها في بيئات أخرى إلا إذا تشابهت الظروف أو عند انتقال هذه المظاهر من بيئاتها الأصلية إلى تلك البيئات ، وعلى ذلك فمن المستحسن أن تدرس الحضارات البشرية ابتداء من ذلك الدور في كل بيئة على حدة .

ولما كانت المراحل الأولى لحياة البشر لا تكاد تختلف في جهة من العالم عنها في الجهات الاخرى كما أشرنا [1] فقد اشتركت أقدم الحضارات الإنسانية في مظاهرها الرئيسية في الجزء الأكبر من العصر الحجري القديم أي أن العالم القديم سادته في أنحائه المعمورة مظاهر حضارية متشابهة خلال الدورين الحجري القديم الأسفل والحجري القديم الأوسط ، ولم يبدأ الاختلاف الحضاري إلا في دور الحجري القديم الأعلى تقريباً .

ويمكن تلخيص المظاهر الحضارية التي سادت خلال الدورين الحجري القديم الأسفل والحجري القديم الأوسط على النحو التالي :

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣١

أولاً : في الدور الحجري القديم الأسفل

سادت خلال هذا الدور حضارتان هما الأبفيلية والأشولية على التوالي :

أ ـ الحضارة الأبفيلية : [1]

هي على العموم أقدم الحضارات الانسانيه، وكانت تسمى قبل ذلك بالحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة Chelles على نهر المـارن ولكن نظراً لأن الموقع الشيلي وجدت به آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والأشولية فقد تركت هذه التسمية واستعيض عنها باسم الأبفيلية حيث تمثل حضارة الموقع « أبفيل » الذي وجدت به أقدم حضارة قبل الأشولية ، وفي أثنائها أخذ الانسان يحاول الافادة بـما يلتقطه من قطع حجرية وفروع أشجار في الدفاع عن نفسه وفي الصيـد وجمع القوت ، وقد أخذ يهذب القطع الحجرية كي تصبح مناسبة لقبضة اليد ولتصبح ذات حافة حادة في نفس الوقت ، فكان يتخذ كتـلة كريه من الحجر الصلب بمثابة مطرقة يهذب بها قطعة صوانية يريد تهذيبها ويبـدأ بطرق حافات هذه القطعة الصوانية من أحد وجهيها بعناية ثم يقلبها على الوجه الآخر ويطرقها على النحو السابق بحيث تصبح كمثرية الشكل ويكون حوالي ثلثا محيط القطعة حاداً كالمبراة بينما يبقى الثلث الباقي بقشرته الأصلية دون تهذيب وذو شكل مستدير في الغالب لكي تتمكن اليد من القبض عليه ، وقد عرفت هذه الآلة باسم الفأس اليدوية (Conp de poing (Hand Axe (شكل ٢) ومن هذا يتضح أن الآلة كانت تتخذ من النواة نفسها .

---

(١) اسم يطلق على أقدم حضارة قبل الأشولية في أوروبا نسبة إلى موقع في مدرج لنهر السوم على ارتفاع ٤٣ متراً ويحتمل أنه من عصر مندل الجليدي .

ومن المحتمل أن المكاشط Scrapers وجدت في هذه الحضارة إلى جانب الفؤس اليدوية وهذه كانت عبارة عن قطع من الصوان تمتاز بحافة حادة مستقيمة وكانت تستخدم في قطع اللحم وكشط الجلد ، وربما وجد الإنسان نفسه في أواخر هذه الفترة في حاجة إلى ثقب الجلد فجعل بعض فؤوسه اليدوية تدق وتستطيل بحيث أصبحت مثقاباً borer .

وعلى العموم لا نجد تنوعاً كبيراً في شكل الآلات إذ كانت مطالب الإنسان



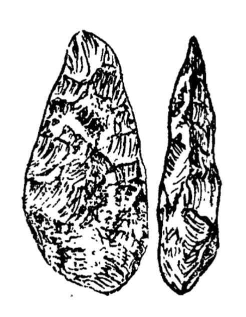
شكل (٢) فأس يدوية أبفيلية (شيلية)

قليلة وكان يستعمل الآلة الواحدة في عدد من أغراضه إلا أنه كان لا بد من أن يستعمل عدداً كبيراً من هذه الآلات لأنه كثيراً ما كان يضطر إلى إلقائها على عدوه أو على فريسته .

وقد عاش الإنسان في هذه الفترة في العراء صياداً متجولاً ينتقل من مكان لآخر إذ كان المناخ دافئاً فلم يلجأ إلى الكهوف إلا حيث يشتد البرد ، وكانت قدرته على التفكير محدودة لأنه كان من تلك الأجناس قريبة الشبه بالقردة العليا ولم يعثر على آثار له إلا في أماكن قليلة من العالم وربما كان ذلك لقلة أعداده نسبياً ، ومن المرجح أنه وصل في هذا الدور إلى أوروبا قادماً من شمال أفريقية عن طريق جبل طارق ويستدل على ذلك من أن آثاره لم تكتشف في وسط أوروبا وشرقها ولم توجد إلا محطة شيلية واحدة في شمال إيطاليا أمامعظم آثاره فقد وجدت في غرب أوروبا وأسبانيا .

ب - الحضارة الأشولية :

لا نكاد نجد فارقاً كبيراً بين هذه الحضارة وسابقاتها ، فقد ظل الإنسان يستعمل الفأس اليدوية ولكنها كانت أكثر إتقاناً من الفأس الشيلية وأصغر منها حجماً إذ أن الإنسان الأشولي لم يكتف بتهذيب حافة الآلة بل كان يهذب سطحها كله تاركاً أقل مساحة ممكنة من القشرة الأصلية في أسفل الأداة لكي يجعل شكلها متناسقاً (شكل٣) ولم يكتف باستعمال الفأس اليدوية المأخوذة من النواة وحدها بل بدأ يستغل كذلك بعض الشظايا فاتخذ منها بعض أدواته ، كما استعمل بعض الآلات الخشبية والعظمية وكثر عدد المكاشط والمثاقيب التي استخدمها .



شكل ٣ - فئوس يدوية أشولية

ويبدو أن المناخ ظل على حالته السابقة من الدفء وكثرة التساقط ولكنه أخذ بعد ذلك في البرودة والجفاف ولذا نجد أن آلات الإنسان التي عثر عليها من ذلك العصر كانت مختلطة احياناً ببقايا حيوانات من التي تعيش في أجواء دفيئة وفي أحيان أخرى كانت مختلطة ببقايا حيوانات من ذات الفراء، ولكن مع ذلك لم يكن المناخ عموماً من القسوة بحيث يضطر الانسان الالتجاء إلى الكهوف ولذا ظل يعيش في العراء صياداً وكان يفضل القرب من مجاري المياه بدليل وجود معظم آثاره عندها – وربما كان اشتداد البرودة أحياناً هو الذي أدى به إلى اختراع النار واستعمالها فقد وجدت بين أدواته مخلفات المواقد ولكنها كانت قليلة .

ويرى البعض تسمية صناعات هذه الحضارة بأسماء مختلفة على حسب الأماكن التي عثر فيها على مخلفاتها في بعض جهات أوروبا نظراً لوجود اختلافات طفيفة فيها [1] ولكنها على العموم لا تخرج عن كونها صناعات أشولية .

وقد ظلت السلالات البشرية البدائية تعيش خلال هذه الفترة ويمثلها في أوروبا إنسان هيدلبرج وفي أفريقيا إنسان روديسيا ، أما في الشرق فلم يوجد من البقايا العظمية ما يبين نوع إنسان هذا العصر بصفة مؤكدة وإن كان من المرجح أنه من السلالات التي تعد سلفاً للإنسان الحديث وإليها تنسب بقايا عظمية وجدت في فلسطين (في جبل الكرمل) [2] وفي بلاد النهرين (في كهف

---

(١) مثل الصناعة الكلاكتونية في انجلترا والصناعة السفينية في بلجيكا والليفالوازية في فرنسا.

(٢) Dorothy A. F. Garrod, The Stone Age of Mount Carmel (Oxford 1937)

شاندر) [١] وفي السودان (في سد نجا) [٢] ولكن هذه كلها ما زالت في حاجة إلى المزيد من الدراسة .

ثانياً : في الدور الحجرى القديم الأوسط

الحضارة الموستيرية

تتميز هذه الحضارة عن سابقاتها بأن معظم أدواتها من الشظايا وهذه كانت تشكل على كتلة من الصخر ثم تنفصل عنها بطرقة واحدة وبعد ذلك تهذب حافتها كي تكون أداة فعالة ، ولا يوجد في هذه الحضارة إلا أدوات قليلة من النواة (شكل ٤) — وقد تعددت أشكال الشظايا الموستيرية وبدأت تظهر فيها المكاشط الجانبية التي شظيت من أحد جانبيها فقط ورؤوس الحراب مما أدى إلى تضاؤل شأن الفأس اليدوية ، ونظراً لاشتداد البرودة فإن الانسان لجأ إلى الكهوف في أوروبا ، وربما اضطرته هذه الظروف إلى التكدس فيها فأتاحت له هذه الحياة الجماعية فرصة لرقيه الاجتماعي وتقدمه في التفكير وفرضت عليه قسوة المناخ مطالب جديدة كصنع الملابس من الجلود اتقاء البرد .




شكل (٤) - آلة موستيرية

---

(١) مجلة سومر سنة ١٩٥١ .

(٢) A. J. Arkell, Bate, Wells, & Lacailles, « The Fossil Mammal of Africa II. The PleistoceneFauna of two Blue Nile Sites» (London 1951)

ويستدل من البقايا البشرية التي عثر عليها في جهات كثيرة من غرب أوروبا على أن إنسان هـــذا العصر كان ما زال من السلالات التي تنتمي إلى إنسان نياندرثال ، ويعتقد البعض أن أعداداً كبيرة منه هاجرت إلى أفريقيا –لاشتداد البرد– عن طريق جبل طارق ومالطة وصقلية وانتشر هذا الانسان إلى وادي النيل أيضاً [1] – ولكن مع هذا يبدو أنه قد انقرض تماماً بعد هذا العصر وظهر الانسان الحديث (أي الانسان العاقل Homo sapiens) في العصر التالي أي في العصر الحجري القديم الأعلى ، ومنذ ذلك الحين أخذت الحضارة الانسانية في التطور والتشعب إلى وقتنا هذا .

بدء الاختلاف الحضاري

أخذت ملكات الانسان العقلية والفنية تنمو ابتداء من أواخر الدور الحجري القديم ولكنه ظل كغيره من الكائنات التي عاشت معه يعتمد كليــة على ما تجود به الطبيعة من مأوى ولباس وطعام ، ونظراً لأنه كان لا يضمن الحصول عليهـا بصفة دائمة فقد ظل في حركة دائبة وكان كل ما يقتنيه وما يمتلكه عائقاً له ولا يستثنى من ذلك أبناؤه إذ لا شك في أنه كان يحدد من يتبعه منهم – ولذا فإن أهم تغيير طرأ على الانسانية بدأ عندما أخذ الانسان يتحكم في بيئته الطبيعية وبعد أن تمكن من الاستقرار فيها حيث أصبح في الامكان اقتناء الكثير من الأشيـاء والمنشئات وأصبحت الآثار الثابتة تستحق التجديد في البناء وأمكن للأطفال أن يعيشوا في الأماكن التي يعيش فيهـــا آباؤهم ويرثونهم ولا يحول حائـــل دون زيادة عددهم .

ومن العلامات المميزة لأولى مراحل الاقتصاد الزراعي إقامة القرى المستقرة

---

(١) د . ابراهيم رزقانه « الحضارة المصرية في فجر التاريخ » (القاهرة سنة ١٩٤٨) ص ٤١

كما أن فكرتي بذر البذور بقصد إنتاج المحاصيل وتربية صغار الحيوانات التي من أصل بري لا بد وأنهما تحققتا في أوقات مختلفة في الأماكن المختلفة خلال التاريخ ، ويرجح كثير من الباحثين أن المشاريع والاكتشافات التي أدت إلى جعل الزراعة مورداً لمعيشة جماعة قروية مستقرة تعتمد عليها اعتماداً كلياً قد نشأت في منطقة معينة من العالم القديم ومن ثم انتقلت هذه الأفكار الجديدة وهي بذر البذور الصالحة للزراعة والحيوانات الداجنة إلى مناطق أخرى [1] عن طريق الاقتباس وانتقال الثقافة وعن طريق التحركات البشرية – وما زال الباحثون يحاولون التعرف على هذه المنطقة ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى رأي قاطع فيما يختص بذلك وربما كانت هذه الاكتشافات قد أخذت في الظهور في جهات مختلفة وفي وقت واحد أو في أوقات متقاربة .

ويبدو أن هذه الثورة الجديدة التي تعرف باسم ثورة الدور الحجري الحديث قد استمرت فترة طويلة ، كما أنها لم تصل من موطنها أو مواطنها إلى الأماكن البعيدة في غرب أوروبا وفي شرق آسيا إلا بعد فترة تقرب من ثلاثة أو أربعة آلاف سنة – والواقع أن غرب أوروبا شهد عصر البرونز ونشأة المدن الصغيرة قبل أن تصل اليه هذه الأفكار الجديدة ، ولا يقصد بهذا الدور فترة زمنية محددة تقع بين تواريخ ثابته وإنما يقصد به الفترة التي تقع بين الوقت الذي كان الأفراد فيه يعتمدون على حياة الصيد والوقت الذي بدأ فيه اقتصاد يقوم على استخدام كامل للمعادن أي أنه يدل على الفترة التي نشأت فيها الزراعة وانتشرت ببطء في كثير من جهات أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا .

واقتصاد الدور الحجري الحديث يعتمد بصفة عامة على زراعة مختلطة بالرعي ، فأقدم المواقع الأثرية التي عثر عليها من هذا العصر كانت تعتمد على كل من استئناس من الحيوان وزراعة الحبوب ولم يعثر على موقع يستدل منه على

---

(١) أنظر ص ٣٨ .

وجود أيها مستقلاً عن الآخر أو أن أهل هذا الموقع اعتمدوا في حياتهم على أحدهما فقط – ومع أن الجماعات التي تعتمد على الرعي وحده تنتشر في العالم الآن إلا أنه لا شك في أن حياة الرعي لم تستقر كنظام يتبع إلا في فترة متأخرة نسبياً ، أي بعد مرور بضعة آلاف من السنين على وجود أول مجتمع اعتمد في حياته على الزراعة المختلطة بالرعي .

ومع أن ممارسة الزراعة والمعيشة في قرى مستقرة تعد أول علامات ثورة الدور الحجري الحديث إلا أن مظاهر حضارية أخرى غالباً ما تشترك معها ولابد من الإشارة اليها كمميزات عامة لحضارة الدور الحجري الحديث، ومن هذه: الفؤوس المصقولة المصنوعة من الصخور النارية أو الصوان والمنجل المستقيم أحياناً ، على أن صناعة الفخار والنسيج سرعان ما برزت أهميتها وأصبحت أهم ما أوجدته حضارة الدور الحجري الحديث ولكنهما مع ذلك من المميزات الثانوية التي تعد من مقتضيات حياة الزراعة بما فيها من جديد .

وكان لا بد لإنسان الدور الحجري الحديث بعد أن يبذر بذوره من أن تتعلق آماله بما تجود به الطبيعة ولذا كان من السهل أن يعتقد بأن الأرض ما هي إلا إلهة للخصب والنماء ، وتطلع إلى ما حوله من كائنات بحثاً عن من يحاكي هذه الأرض الطيبة فلم يجد خيراً من الام الرؤوم تحنو على أبنائها ، وهكذا شبه الارض بالأم وتعبد إليها حيث رمز إليها بتماثيل في هيئة آدمية على شكل امرأة في غالب الأحيان أو في هيئة الحمام أحياناً [1] .

وبالطبع لم يقف التطور الحضاري عند دور الحجري الجديث بل أخذ الانسان إبتداء من هذا الدور يسرع الخطى نسبياً في تطوره الحضاري ، لأن حياة الزراعة هيأت للانسان الطمأنينة والأمن أكثر من ذي قبل إذ كفلت له الرزق

---

(١) كما حدث في سورية في دور بداية استخدام المعادن .

بصورة أكثر دواماً وانتظاماً فأتاح له ذلك فرصة التـــأمل والتفكير والترقي وهكذا انتقل الانسان إلى دور بدء استخدام المعـادن ثم إلى الدور الكتــابي أو العصر التاريخي .

التطور الحضاري والشرق الأدنى

من العسير تحديد مكان وزمان نشأة القرى المستقرة التي اعتمدت في حياتها على الزراعة واستئناس الحيوان (أي ثورة الدور الحجري الحديث) التي تعد الجذور الأولى التي اعتمدت عليها الحضارات الانسانية في تطورها إلى وقتنـا الحاضر وذلك لأن هذه النشأة كانت حقيرة غير واضحة المعالم ، كما يتعذر تحديد موطنها الأصلي بدقة تامة لأن أفكاراً مثل بذر البذور وتربيـــة الحيوان يمكن انتشارها بسهولة ويسر إلى درجة يصعب معها تحديد مصدرها إذ أنها في الواقع أيسر انتشاراً من انتشار المظاهر الحضارية الاخرى وخاصة المادية منهـا مثـل الأخذ باستخدام نوع من الآلات أو تغيير الأدوات المألوفة فسرعان ما تتقبل الشعوب – وإن اختلفت تقـاليدها – ثورة مثـل هذه (ثورة الدور الحجري الحديث) إذ ما كانت البيئة التي تعيش فيها ملائمة والمناخ مناسباً ، ويصبح من اليسير عليها أن تكيف حضارتها تبعاً لذلك .

وعلى هذا فقد اختلف الباحثون في أي الأماكن تعد أقدم مراكز الزراعة المصحوبة باستئناس الحيوان ، ومنهم من ذهب إلى أنها الحبشة ومنهم من رأى أنها جنوب غربي آسيا ، وتحمست غالبيتها لهذا الرأي الأخير حيث اكتشفت في هذه المنطقة آثار أنواع برية من النباتات والحيوانات التي تعد أسلافاً للحبوب والحيوانات التي تعيش فيها الآن بينما لم يعثر في أفريقيـا على ما ينـاظر هذه الأنواع البرية ، غير أن العثور على هذه الآثار في منطقة دون غيرها لا يكفي لحل المشكلة إذ أن الأبحاث الأثرية ما زالت غير كافية في كثير من بقـاع العالم بصفة عامة .

ومع هذا فإننا إذا ما تأملنا ظروف العالم القديم في الأزمان السحيقة لوجدنا أن العروض المدارية كانت أحسن جهاته ملاءمة في مناخها وبيئاتها لنمو هذه الحبوب والحيوانات وخاصة في الأدوار الحجرية حيث أنها لم تتعرض لذبذبات مناخية شديدة التطرف ، ولذا فإن أقدم مراكز ثورة الدور الحجري الحديث لا تخرج عن نطاق هذه العروض ولا تتمثل جنوب خط الاستواء في العالم القديم إلا في بعض جهات أفريقيا واستراليا ، لأن هذه الجهات بحكم تضاريسها وموقعها أبعد من أن تكون أقدم مراكز تلك الثورة ، كما أن توصل هذه الجهات إلى أي مظهر حضاري لا يحتم انتقاله منها إلى غيرها أو أن يؤثر فيها بالضرورة أما في شمال خط الاستواء فإن الجهات التي تقع في العروض المدارية أكثر احتمالا لأن تكون أقدم مراكز هذه الثورة ، وهذه الجهات تتمثل في النطاق الممتد عبر شمال أفريقيا وشبه جزيرة العرب وشمال الهند والهند الصينية أي بين المحيط الأطلنطي غرباً والمحيط الهادي شرقاً بما في ذلك من صحارى واسعة ووديان أنهار إذ أن هذا النطاق لم يكن على حالته الراهنة من الجفاف والجدب بل كان ينعم في العصور السحيقة بكمية من الرطوبة والتساقط هيأت للجماعات البشرية التي انتشرت فيه حياة نباتية وحيوانية ملائمة ، لأن عصور تقدم الجليد إلى العروض المعتدلة والفترات الدفيئة التي تخللتها كانت تقابلها أدوار مطيرة في العروض المدارية وأن فترات تراجع الجليد الباردة كانت تقابلها قلة في التساقط في هذه العروض كما سبق أن أشرنا [1] — ومع أن بوادر الجفاف أخذت تحل فيه ابتداء من نهاية الدور الحجري القديم إلا أن هذا الجفاف لم يصل إلى ذروته من الشدة إلا في العصر الروماني ، وعلى هذا يمكن القول بأن صحارى هذا النطاق ظلت تنعم بمناخ ملائم إلى أوائل العصر التاريخي على الأقل ، وبالرغم من انتشار الانسان في أرجاء هذا النطاق الواسعة إلا أنه كان يحرص على أن

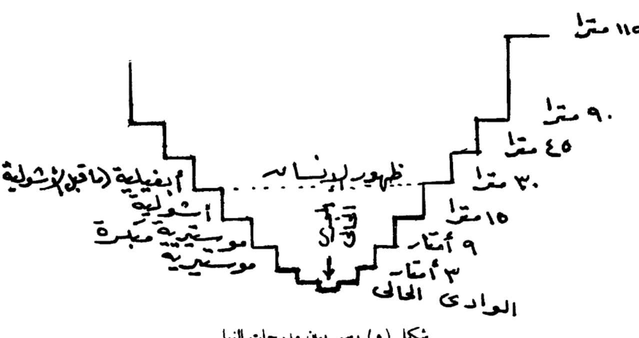
---

(١) أنظر أعلاه ص٢١ .

يظل قريباً من مجاري المياه التي كانت تتمثل في الأنهار العظيمة الحالية وكثير من أودية الصحراء التي أصبحت جافة الآن - وحينما أخذ التساقط في القلة وبدأ الانسان يشعر بوطأة الجفاف صار لا يبعد كثيراً في إقامته عن المجاري المائية الدائمة والأنهار العظيمة مثل نهر النيل ونهري دجلة والفرات وأنهار سوريا وآسيا الصغرى وغيرها ، ونظراً لأن تلك الانهار لم تعمق مجاريها إلا بعد وقت طويل ولأن كمية التساقط كانت أكبر منها الآن فإن السهول الفيضية لتلك الأنهار كانت أكثر ارتفاعاً وأكثر امتداداً على الجانبين ، وكلما عمق النهر مجراه وقل التساقط كلما أخذت سهوله الفيضية تنخفض ويقل امتدادها أي أن مياهه كانت تنحسر عن جانبيه تدريجياً - وكان الإنسان بالطبع يتبعها دائماً حيث يظل يهبط من الأماكن المرتفعة أو الهضاب التي عاش فيها ليقيم على جانبي النهر تاركاً وراءه مخلفاته وبعض آثاره - وهكذا نجد أن أقدم ما عثر عليه من الآثار في مثل هذه الحالةوجدت في مناطق أبعد في قلب الصحراء ومنسوب طبقاتها أكثر ارتفاعاً من تلك التيوجدت بها الآثارالأحدثمنها ، أي أن أقرب الآثار في تاريخها إلى عصرنا الحالي تكون في طبقات أقرب إلى الوادي وهي في منسوبها أقل ارتفاعاً من تلك التي ترجع إلى عهود أقدم ، وعلى ذلك تكون آثار الحضارات المختلفة فيمدرجاتعلىجانبي النهر ويكون ترتيبها عكسياً بالنسبة لترتيب الطبقاتالتي توجد بها آثار في أماكن بعيدة عن وديان الأنهار إذ أن أقدم الآثار في هذه الأماكن توجد في أسفل الطبقات وتعلوها الأحدث منها وهكذا وفق ترتيبها الزمني ، ومن خير الأمثلة للمدرجات النهرية التي توجدبها آثارالحضاراتالمختلفة في ترتيبها العكسي مدرجات النيل (شكل ٥) .

ومن البديهي أن مناطق العروض المدارية شمال خط الاستواء في العالم القديم لم تتطور في حضارتها بسرعة واحدة ولم تؤثر جميعها في حضارات غيرها أوتتأثر

بهم بدرجة واحدة بل كانت بعضها أسرع في تطورها وأكثر تأثيراً في غيرها وتأثراً بهم من البعض الآخر ، ولا شك في أن المناطق المتطرفة والبعيدة مثل



شكل (٥) رسم يبين مدرجات النيل

الهند الصينية والهند وشمال غرب أفريقيا كانت أقل شأناً من بقية المناطق في هذه الميادين .

ولو نظرنا إلى إقليم الشرق الأدنى بصفة عامة لوجدناه يتميز بعوامل هيأت له سرعة التطور وجعلته أسبق مناطق ذلك النطاق المداري وأبعدها أثراً في مضمار الحضارة والرقي وهذه العوامل تتلخص فيما يلي :

(١) وقوعه في مركز متوسط من العالم القديم مما سهل اتصاله بغيره من الأقاليم فأمكن انتقال المؤثرات الحضارية منه واليه بسهولة .

(٢) وجود أنهار عظيمة ومجاري مائية دائمة في مختلف أقطاره مما أدى إلى استقرار الجماعات البشرية التي سكنت قريباً منها وأتاح لها ذلك فرصة النهوض والرقي . (أنظر خريطة رقم ١) .

(٣) سهولة اتصال أجزاء هذا الإقليم فيما بينها لعدم وجود فواصل طبيعية مانعة تحول دون ذلك حيث أتيحت لها فرصة الاحتكاك بعضها بالبعض فانتشرت مظاهر حضارية مختلفة فيما بين دجلة والبحر المتوسط [١] ووصلت بعض العناصر الحضارية إلى وسط آسيا الصغرى من مواطن لا يقل بعدها عن ٣٠٠ ميل تقريبا [٢] كما جلب أهل حضارة سيالك في إيران أنواعاً من الأصداف من أماكن تبعد عنهم نحو ٦٠٠ ميل تقريباً إلى غير ذلك من المظاهر التي تدل على نشاط احتكاك أهل المناطق المختلفة في هذا الإقليم بعضهم بالبعض الآخر .

(٤) بالرغم من وجود التشابه بين البيئات في أحواض الأنهار التي تجرى في هذا الإقليم فإن كلا من أقطاره تميز بأنواع معينة من الموارد التي لا تتوافر في بقية أقطار هذا الإقليم مما أدى إلى تشابك مصالحها ودعم الإتصال فيما بينها، والواقع أن هذا الاقليم في مجموعة وجدت به كل الاحتياجات الضرورية لنشأة الحضارة وتطورها – وكانت كل دولة تحصل على ما تريد من موارد طبيعية لدى الدول الأخرى عن طريق التجارة أو عن طريق الحرب إن وجدت لديها القوة الكافية لذلك .

وكثيراً ما يذهب الباحثون إلى أن قطراً من بين أقطار إقليم الشرق الأدنى كان أسبق من غيره في الوصول إلى ثورة حضارية معينة وخاصة تلك التي حدثت ابتداء من عصره الحجري الحديث أو إلى مقدمات العصر التاريخي ويستندون في ذلك إلى احتمال انتقال بعض المظاهر الحضارية من هذا الجزء إلى غيره من أجزاء هذا الاقليم ، وكثر الجدل حول أسبقية كل من العراق ومصر في هذا المضمار إلا أن انتقال بعض المظاهر الحضارية – بفرض ثبوته – لا يكفي لتأكيد أسبقية القطر الذي انتقلت منه إلى القطر الآخر ما دامت هناك عناصر حضارية

---

(١) مثل فخار حضارة حسونة (بالعراق) الذي وجد ما يماثله في سوريا .

(٢) أنظر Seton Lloyd «Early Anatolia» (Pelican 1956) P. 53.

أخرى أصيلة قد تطورت داخلياً وتلقائياً في القطر الذي وجدت به المظاهر الحضارية التي يفترض أنها منقولة اليه [1] – وكل ما يمكن قوله بأنه لا يمكن تأكيد أسبقية أحد أقطار اقليم الشرق الأدنى إلى ثورة الحجري الحديث بصفة قاطعة فكلها تنعم بمناخ ملائم وكانت تسكنها شعوب من أصل واحد أو من أجناس متشابهة ومن المعروف جغرافياً أن البيئات المتشابهة التي تسكنها أجناس متشابهة تنتج حضارات متشابهة .

وكان من الطبيعي أن يتجه إنسان الدور الحجري الحديث إلى تحسين إنتاجه وأن يبحث عما يهيء له شيئاً من الرفاهية واقتصاد بعض الجهد في عمله ، وسواء كان توصله إلى استخدام المعادن قد حدث عن طريق الصدفة البحتة أو عن طريق التجربة فإنه أخذ يستغلها في أغراضه وانتقل إلى دور بدء استخدام المعادن – وكان استقراره في القرى لا شك داعياً إلى تشابك مصالحه مع غيره وتعقد علاقاته الانسانية فاضطرته الحاجة إلى إيجاد وسيلة يتذكر بها بعض ما يتعلق بشؤونه وبعلاقاته مع الآخرين خشية أن تخونه الذاكرة ، وعلى هذا حاول تدوين ذلك برسم أو نقش يصور به ما يريد أن يتذكره بقدر الامكان فابتدع الكتابة التصويرية التي يكاد يكون وقت التوصل إليها واحداً في كل من العراق ومصر مما دعا إلى الظن بأنهما من اختراع جنس جديد دخل إلى كل منهما في نفس الوقت ، إلا أنه لا شك في خطأ هذا الرأي نظراً لأن هذه الكتابة لم توجد في أي قطر آخر في تاريخ أسبق لحدوثها في هذين القطرين – وقد بدأ العصر التاريخي في كل منهما بعد فترة وجيزة من التوصل للكتابة – أو قبلها بقليل .

---

(١) كانت الدكتورة باو مجارتل على رأس المتشيعين إلى أن زراعة الحبوب واستئناس الحيوان في دور الحجري الحديث في مصر ترجع إلى تأثير حضاري من غرب آسيا أنظر
E. Baumgartel, (The Culturs of Prehistoric Egypt) I, P. 22 – 3
ولكنها عادت فأرجعت ذلك التأثير إلى أصل افريقي في الجزء الثاني من كتابها السابق . انظر
E. Baumgartel, op. cit., II (1960) P. 140



البحر الأسود
بحر قزوين
صحراء الملح
البحر المتوسط
الخليج العربي
أهم المواقع الأثرية في الشرق الأدنى القديم
مقياس الرسم
كيلومترا
بحيرة فان
بحيرة أورميا
توزجولو
قبرص
حلف
نينوى
الموصل
حسونة
آشور
سامراء
كريم شهر
كشمة على
طهران
جرمو
جيان
قاشان
سيالك
خفاجي
بغداد
سوسة
تل باكون
برسبوليس
جمدة نصر
الغسول
أريحو
تليلات الغسول
أم قطفة
جرزة
البداري
العمرة
قفط
الأقصر
جارى

خريطة رقم (١)

وبالرغم مما أشرنا اليه من جدل الباحثين حول أسبقية العراق ومصر في مضمار الحضارة ينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن بأن أقطار الشرق الأدنى القديم الأخرى كانت قليلة الأهميـة في المضمار الحضـاري أو لم تكن ذات أثر على التراث الانساني فربما كانت قلة المعلومات عنها نظراً لقلة الأبحاث الأثرية التي أجريت فيها نسبياً هي السبب الذي من أجله درج العلماء على تكريس القسط الاكبر من اهتمامهم نحو العراق ومصر نظراً لزيادة النشاط الأثري فيهما عنه في غيرهما من أقطار الشرق الادنى القديم فبرزت أهميتها ، ومع كل فإننا سنتتبع حضارات العصور قبل التاريخية والعصر التاريخي في هذا الاقلـيم حسب ما وصلت إليه معلوماتنا الحالية من الغرب إلى الشرق قدر الامكان وإن خرجنـا على ذلك أحياناً لتيسير ترابط الموضوع ودراسته على القارىء – على أنه يجب أن لا يفهم من تقديمنا دراسة قطر على آخر أنه يفوقه أهمية أو أنه أسبق منه في ميدان الحضارة .

الفصل الثالث

مصـــر

تحتل مصر الركن الشمالي الشرقي لأفريقيا وتشغل الحوض الأدنى لنهر النيل ، وهي عموماً عبارة عن وادي منبسط تحف به الصحـارى من الجـانبين الشرقي والغربي ولولا وجود النهر لأصبحت هي الأخرى جزءاً من الصحارى المحيطـة بها ولذا وصفها هيرودوت بعبارته الشهيرة « مصر هبة النيل » .

وقد هيأت ظروفها الطبيعية للجماعات التي استقرت بهـــا فرصة للنهوض والرقي ، ففي الشمال يوجد البحر المتوسط الذي لم يكن من اليسير عبوره إلا بعد أن تمكن الانسان من ركوب البحر إلى مسافات بعيـدة ، وفي الشرق والغرب صحارى واسعة يصعب اجتيازها ، وفي الجنوب توجد منطقة صحراوية صخرية تعد من أجدب بقاع العالم وتعترض النهر فيها جنادل وصخور تجعل الملاحة فيه متعذرة غير يسيرة — وهكذا كفلت البيئة المصرية الأمن والهدوء لأهلها ، وإذا ما حدث أن وصلت اليها جماعات جديدة فإن هؤلاء الوافدين الجدد لا يغامرون بالخروج منها مرة أخرى ويندمجون في محيط السكان الأصليين ويتأقلمون تأقلماً تاماً ، ومن جهة أخرى تتمتع البيئة المصرية بمناخ معتدل وسماء صحو دائمـــاً ونادراً ما تتعرض للأعاصير وتسودها الرياح الشمالية « التجـارية » بيـنما يجري

النهر المنتظم الفيضان كل عام من الجنوب إلى الشمال – وهـذه الظروف جميعها أتاحت للجماعات التي عاشت على جانبي النهر سهولة التجوال فيه، شمالاً بمساعدة تياره وجنوباً بمساعدة الرياح السائدة ، فاحتكت بعضها بالبعض ونشأت بينها مصالح مشتركة وخاصة لأن فيضان النهر السنوي المعتاد غالبـاً ما كان خيراً مشتركاً يتعـاون الجميع في الإفادة منـه ونادراً ما كان خطراً مشتركاً يعمل الجميع على مجابهته سواء في حالة انخفـاضه أو ارتفاعه عن المستوى الملائم لسد حاجياتهم ، وقد يحدث النزاع بين تلك الجماعات أحياناً فتعمل القوية منها على السيطرة على غيرها من الجماعات وهكذا إلى أن انتهى الأمر بتوحيدها في مملكتين إحداهما في الدلتا والأخرى في الوجه القبلي ما لبثتا في النهاية أن توحدتا في مملكة واحدة ، ومع أن كلا من قسمي مصر الجنوبي (الوجه القبلي) والشمالي (الدلتا) انفرد ببعض مظـاهر خاصة في حضارات ما قبـل العصر التاريخي إلا أن هذه الحضارات كانت تشترك في طابعها العام ومميزاتها الرئيسية .

ومن المرجح أن توحيد مصر في مملكة واحدة سبق أي قطر آخر من إقليم الشرق الأدنى وأنه لم يتم بمساعدة أية قوى خارجية وقد أدى ذلك لأن تصبح مصر في أقدم عصورها التاريخية أقوى أقطار الشرق الأدنى ومن أكثرها نهوضاً ورقياً وسنتناول فيما يلي تاريخها وحضارتها بصفة عامة .

أولا ــ العصور قبل التاريخية

أ ــ الدور الحجرى القديم

(١) الدور الحجري القديم الأسفل

أ ــ الحضارة الأبفيلية (الشيلية):

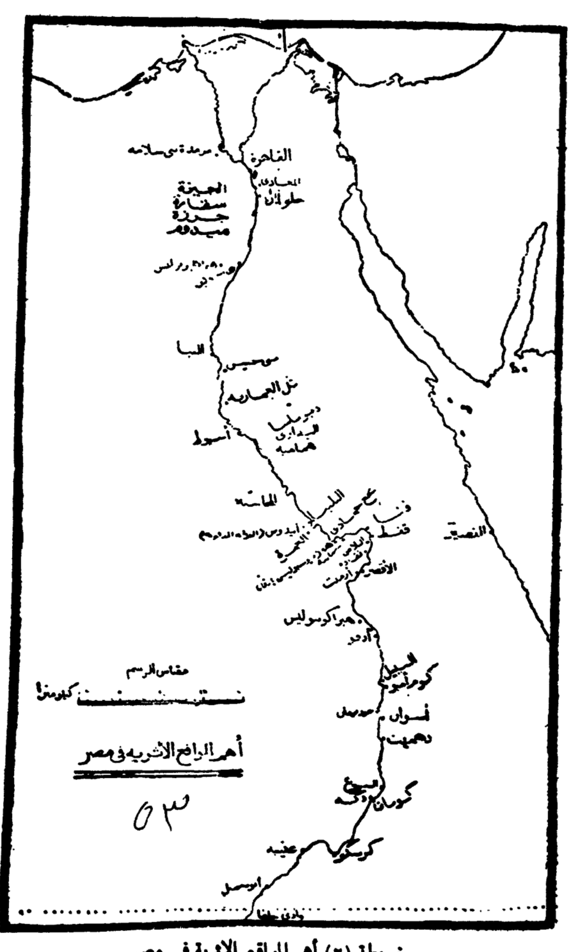
وجدت آثار هذه الحضارة في مناطق مختلفة من القطر المصري[١] ومعظمها مناطق بعيدة في الصحارى أو في التلال التي تحف بالوادي ، وهذه الآثار لاتخرج عن كونها آلات حجرية تشبه تلك التي عثر عليها في أوروبا أي فؤوس حجرية (شكل ٦) وإن كان بعضها يهذب بحيث تصبح الآلة ذات أوجه ثلاث (كمنشور ثلاثي في جزئها المشغول) بدلاً من أن تكون ذات وجهين كما في الفؤوس الشيلية الأخرى ، وربما كان اختيار النواة من الحصى المربع هو السبب في إنتاج هذا الشكل لأن الانسان كان يكتفي بتشظيتها من أعلاها بضربة واحدة أو ببعض الضربات فتصبح ذات شكل هرمي ، على أنه يجب أن لا يعتبر هذا النوع من الأدوات مميزاً للصناعة الشيلية في مصر إذ أن الفؤوس اليدوية الأخرى



شكل (٦) آلات أبفيلية (شيلية) من مصر

---

(١) عن مواقع معظم الآثار وأهم المناطق الأثرية في مصر انظر الخريطة رقم (٢) .



خريطة (٢) أهم المواقع الاثرية في مصر

لا تختلف عن زميلاتها في سائر أنحاء العالم القديم ، وقد وجدت فئوس أقل إتقاناً من تلك التي سادت في هذه الحضارة يود البعض إرجاعها إلى ما قبل الحضارة الشيلية ويطلقون عليها اسم الصناعة الشالوسية ولكنها لا تخرج عن كونها صناعة شيلية بدائية ولا داعي لاعتبارها صناعة مستقلة .

ب – الحضارة الاشولية :

ازدادت العناية بالفئوس الهرمية فشذبت حافتها وصغرت في الحجم واستطالت فأصبحت رفيعة خفيفة ولها حد مستقيم مشطوف كما وجدت فئوس أخرى من الشكل المعتاد في الصناعة الاشولية في أوروبا(شكل ٧)وظهرت بعض الادوات الاخرى مثل المخارز المدببة الاطراف والاسلحة الحجرية ذات الحدود المتعرجة أو المستقيمة وبعض مكاشط قليلة العدد – ولم يكتف بصناعة هذه الآلات من الصوان بل استعملت بعض أنواع أخرى من الاحجار في صناعتها كذلك .



شكل ٧ ـ آلات آشولية من مصر

هذا ولم يعثر على بقايا عظمية يستدل منها على السلالات التي عاشت

في وادي النيل خلال الدور الحجري القديم الاسفل ولكن وجدت بقايا حيوانية في بعض المناطق يستدل منها على أن المناخ كان يشبه ما كان سائداً في أوروبا وإن كان من المرجح أنه كان أكثر ميلاً إلى الدفء وكثرة الرطوبة بدليل العثور على بقايا تماسيح وفيلة وأفراس النهر .

(٢) الدور الحجري القديم الأوسط :

سبق أن بينا أن تغير الظروف المناخية قد أدى إلى تنوع الحضارات [١] فانقسم العالم خلال هذا الدور إلى قسمين كبيرين : أوراسي وأفريقي — وأن الانسان في أوراسيا آوى إلى الكهوف بينما ظل في أفريقيا يعيش في العراء ، ومع كل فإن الادوات التي اتخذها الانسان في مصر في أوائل هذا الدور لم تختلف عن مثيلاتها في أوروبا أي أنها كانت تمثل الصناعة الموستيرية ومعظمها من الشظايا وهي عبارة عن رقائق من الحجر تمثل نصالاً مدببة ومحتات Scrapers وغيرها (شكل ٨) .





شكل ٨ ـ اسلحة موستيرية مصرية (ما قبل السبيلية)

---

(١) انظر ص ٣٢ .

ومن المرجح أن هذه الصناعة استمرت في مصر فترة أطول من استمرارها في أوروبا ولكنها أخذت تتطور وتنوعت أدواتها لتفي بأغراض الإنسان المتزايدة وصغرت في حجمها واتخذت أشكالا هندسية أي أن الصناعة في مصر في أواخر هذا العهد تميزت بمميزات خاصة ولذا أطلق عليها اسم الصناعة الموستيرية المصرية أو « ما قبل السبيلية »[1] .

والواقع أن هذه الحضارة تمثل مرحلة مبكرة من حضـارة الدور الحجري القديم الأعلى في مصر – ويرى البعض أن الحضارة العـاطرية (التي ظهرت صناعاتها في الواحات الخارجية والفيوم خلال هذا الدور) ما هي إلا مظهر من مظاهر الحضارة الموستيرية المصرية بينما يرى فريق آخر من الباحثين أن الحضارة السبيلية هي التي تعد مظهراً من مظاهر الحضارة العاطرية وأنها ظهرت بعدها ولكن لا يمكن تأكيد أي الرأيين بصفة قاطعة .

ولم يعثر على بقايا يستدل منهـا على جنس الانسان الذي عاش في مصر خلال هذه الفترة وإن كان من المرجح أن الانسان الحديث كان قد أخذ يعيش في وادي النيل بالفعل كما يستدل على ذلك من أدواته المتقدمة التي تركها خلافاً لما عرف في أوروبا حيث ظل إنسان نياندرثال يعيش في كهوفها طوال هذا العصر ولكنه انقرض بعد ذلك وحل محله الانسان الحديث في العصر التالي أي الدور الحجري القديم الأعلى .

(٣) ـ الدور الحجري القديم الأعلى

ازداد التباين بين أوروبا وأفريقيا فبينما أخذت البرودة تشتد في أوروبا ظل المناخ في أفريقيا ملائماً لأن يعيش الانسان في الهواء الطلق ولكنه أصبح أقل

---

(١) الحضارة السبيلية نسبة إلى قرية السبيل قرب كوم أمبو وسنشير إلى هـذه الحضارة فيما بعد ـ أنظر ص ٥٧ ـ ٥٩ .

أمطاراً وأكثر جفافاً من فترة الحضارة الموستيرية فانخفض مستوى الماء في الأنهار والمجاري المائية وقلت الحياة النباتية وتبدلت أنواع الحيوانات في مساحات واسعة من العالم القديم وأخذ الانسان في هجرها إذ رأى أنها تتحول إلى صحارى مجدبة فحصر إقامته في الأماكن القريبة من مجاري المياه - ولم يترك إنسان أفريقيا في هذا الدور آثاراً تعادل في مستواها من الناحية الفنية تلك التي تركها زميله المعاصر له في أوروبا ولم تتعدد مظاهر حضاراته في المناطق المختلفة التي وجدت بها كما حدث في أوروبا بل سادت كل شمال أفريقيا حضارة واحدة هي الحضارة القفصية (نسبة إلى قفصه في شمال تونس) التي استمرت إلى ما بعد الدور الحجري القديم الأعلى أي إلى ما يقابل الدور الحجري المتوسط ، إلا أن مصر - نظراً لظروف بيئتها الخاصة - انفردت في حضارتها بمظاهر مميزة مما دعا إلى تسميتها باسم « الحضارة السبيلية » وإن كانت في واقع الأمر متفرعة عن الحضارة القفصية - ويرى البعض أن الحضارة القفصية قد مرت بأربعة مراحل تتفق الثلاثة الأولى منها وأقسام الدور الحجري القديم الأعلى أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد عبروا عنها باسم مرحلة الانتقال إلى الدور الحجري الحديث أي أنها تتفق والدور الحجري المتوسط - كما يرى البعض تقسيم الحضارة السبيلية في مصر إلى ثلاثة مراحل تقابل حضارات الدور الحجري القديم الأعلى والدور الحجري المتوسط في أوروبا أي أن المرحلة الأخيرة منها تمتد إلى ما يقابل الدور الحجري المتوسط ، ومهما كان الأمر فإن الآلات التي اتخذت في هذه الحضارة كانت صغيرة على العموم وتغلب فيها الأشكال الهندسية (شكل ٩) ، ولدقة هذه الآلات أطلق عليها اسم الآلات الميكروليثية Microlithie - وقد كشف عن عدة مواقع تنتمي إلى هذه الحضارة في مصر ومن أهمها قرية السبيل التي نسبت اليها هذه الحضارة كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١] .

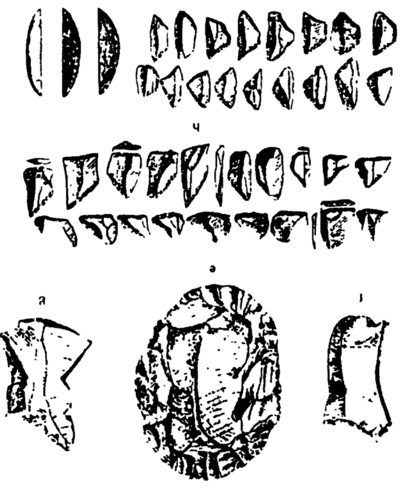
---

(١) أنظر أعلاه ص ٥٥ .

ب ــ الدور الحجرى المتوسط

يعد هذا الدور مرحلة الانتقال بين حضارات الدور الحجري القديم الأعلى والدور الحجري الحديث في أوروبا ولم تستغرق هـذه المرحلة زمنـاً طويـلاً بل وكثيراً ما نجدها تختفي في كثير من المناطق ولا نكاد نلمسها في شمال أفريقية ومصر فالقفصية في الأولى والسبيلية في الثانية تمتدان إلى ما يقابل هذه المرحلة ولذا لا يشار اليها في دراسة الأدوار الحجرية لتلك المناطق .

هذا وقد درجت غالبية العلماء على تقسيم الفترة التي تقع بين الحضارة السبيلية



(شكل ٩) أدوات سبيلية

وبداية العصر الفرعوني (عصر الأسرات) في مصر إلى: - دور حجري حديث وعصر ما قبل الأسرات - ولكن نظراً لأن الحضارات التي ترجع إلى ما بعد السبيلية لم تدرس بدقة تامة كما أنها جميعاً عرفت المعادن فإن فريقاً من العلماء يفضل إعادة النظر في دراستها حتى يمكن تأكيد ترتيبها الزمني ، وهم يرون كذلك بأنها جميعاً تدخل ضمن عصر ما قبل الأسرات لأن وجود المعادن فيها يجعل انتساب بعضها إلى الدور الحجري الحديث غير صحيح ، ومع هذا فسوف نتبع في دراستها التقسيم الذي ما زال مألوفاً لدى معظم الباحثين .

ج ــ العصر الحجرى الحديث

ازداد تغير المناخ في العالم القديم فأصبحت الاختلافات بين البيئات المحلية أكثر وضوحاً وازداد الجفاف في الشرق الادنى وبذلك اضطر الانسان أن يقترب من الوديان أكثر من ذي قبل ، ولم يغامر بالابتعاد عن الانهار فاستقر في جماعات بالقرب منها وألجأته الحاجة لضمان غذائه إلى استئناس الحيوان ومعرفة الزراعة ، وكان من الضروري - وقد عرف الزراعة - أن يختزن محصوله فعرف صناعة الاواني وبذلك أقام حياته على أسس اقتصادية ثابتة .

وانتقل أهل مصر من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار وأتاحت لهم ظروف بيئتهم الطبيعية فرصة الاتحاد في مملكتين إحداهما في الوجه القبلي والأخرى في الوجه البحري كما أشرنا [1] - ويختلف الوجه القبلي والوجه البحري كل عن الآخر : فالأول (الوجه القبلي) عبارة عن شريط ضيق من الأراضي الزراعية على جانبي النهر تحف به هضبتان صخريتان من الشرق والغرب ، أما الثاني (الوجه البحري) فتتسع أراضيه الزراعية إلى درجة كبيرة

(١) انظر ص ٥١ .

وتكثر بها المستنقعات وتتخللها البحيرات والقنوات ، وهذه المساحات الواسعة من الأراضي الزراعية بعيدة في معظمها عن الصحارى - وكذلك يتميز الوجه البحري عن الوجه القبلي بأنه أقرب منه نسبياً إلى آسيا وأوربا ولذا كانت الحضارات التي نشأت في كل من هذين الإقليمين تتسم بظاهر خاصة تجعلنا نميز فيما بينها - وتعد الفيوم أشبه بواحة في الصحراء بين هذين القسمين من مصر ولكن نظراً لأنها أقرب إلى الوجه البحري فقد اشتركت حضارتها (في صفاتها) مع حضاراته أكثر من اشتراكها مع حضارات الوجه القبلي ولذا ألحقناها به وإن كنا نميل إلى جعلها حضارة قائمة بذاتها .

وتمثل هذا الدور (العصر الحجري الحديث) في الوجه القبلي حضارتي ديرتاسا (التاسية) والبداري ، وفي الوجه البحري حضارات حلوان الأولى (العمري) ومرمدة بني سلامة ومع أن كلا منها تنفرد بمميزات خاصة إلا أنها جميعاً تشترك في تقدم صناعة الفخار وصقل الآلات الحجرية ، ومن المخلفات التي عثر عليها أمكن التوصل إلى أن المستنقعات كانت تسود الدلتا والأحراش كانت منتشرة في الوجه القبلي وأن الحيوانات الكبيرة الحجم كالزراف والضباع وأفراس النهر كانت مألوفة لدى المصريين وسنتكلم بإيجاز عن كل حضارة على حدة .

حضارات الوجه القبلي

(١) الحضارة التاسية [١] :

هي أقدم حضارات العصر الحجري الحديث في الصعيد ، وتنسب إلى

---

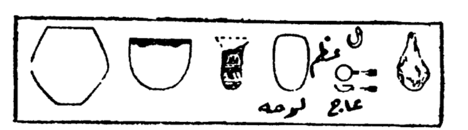
(١) يرى أولئك الذين يحملون الحضارات التالية السبيلية وتسبق عصر الأسرات جميعها تدخل في عصر واحد هو ما قبل الأسرات بأن الحضارة التاسية تعد من صميم حضارة البداري أنظر :
E. Baumgartel, op, cit, 20 ff

ديرتاسا التي تقع إلى شمال البداري ، ويستدل من آثارها على أن أهـل هذه الحضارة عرفوا زراعة الحبوب ولكنهم لم يعيشوا معيشة استقرار تامة فكانوا يمارسون الصيد إلى جانب الزراعة البدائية وعرفوا النسيج واتخذوا الحلي من أصداف البحر المثقوبة والخرز الأسطواني المصنوع من العظم أو العـاج تحليـة خطوط متقاطعة واستعملوا الأساور ، وفي مخلفاتهم عثر على صلايات من المرمر والحجر الجيري والأردواز لصحن الدهنج والمغرة وعلى مراخي وبعض الحبوب وعدد من السنانير (الشصوص) وطبق من الخوص ودبابيس وإبر من العظام ، ومن المرجح أنهم استعملوا الوسائد إذ وجد تحت رؤوس عدد من الموتى بعض التبن أو القش الذي كان لا ريب داخل كيس « جلد أو كتان » ولكنه فني مع الزمن ، كما يرجح أن الأشجار الكبيرة والمستنقعات كانت منتشرة في ذلك العهد إذ وجدت فؤوس من أحجار مختلفة لا بد وأنها استخدمت من أجلهـا ، أما فخار ديرتاسا فيمكن تقسيمه إلى نوعين :

أولا : بني ذو سطح خشن عـــادة وهو خال من التموجات إلا في بعض القدور النادرة التي نجد بها تموجات مائلة أو عمودية .

ثانياً : أسود رمادي أملس عادة ذو تموجات عمودية والبعض القليـــل مصقول ، ومن أواني هذا النوع أقداح ذات شفة مقلوبة على شكل البوق . وهي سوداء مصقولة تحلى سطحها الخارجي وشفـــاهها من الداخل خطوط محفورة مليئة بعجينة بيضاء تمثل خطوطاً أفقية بينها مثلثـات مخططة لتثبيت المادة البيضاء فيها .

وفخار هذه الحضارة خلو من علامة الصانع أو صاحب الإناء ، ومن بـين هذا الفخار بعض المغارف غير العميقة ذوات لسان مسطح بارز من الحافة بمثابة مقبض (شكل ١٠) .



شكل ١٠ - أدوات وأواني فخارية من تاسا

وكانت مقابر القوم عبارة عن حفر كبيرة بيضاوية في الغالب والقليل منها ذو جوانب مستقيمة بزوايا مستديرة وفي جانبها الغربي دخلة (طاقة) تتسع لآنية ، وكان الميت يدفن في وضع مقرفص أشبه بالجنين ورأسه إلى الجنوب ووجهه إلى الغرب ويوضع معه بعض الفخار إلى جانب يديه أو ركبتيه وجثته تغطى بجلد حيوان بحيث يكون الشعر او الصوف إلى الداخل ، ويلف بعد ذلك في حصير وتوضع الرأس فوق ما يشبه الوسادة من القش ثم يحاط الميت بتقفيصة من الأغصان .

وهذه المقابر كانت بعيدة عن المساكن وقد وجد بعضها مختلطاً بمقابر البداريين ، ولذا يمكن القول بأن التاسيين كانوا أقرباء أو أسلاف البداريين وهذا هو ما دعا بعض الأثريين إلى أن يلحقوا هذه الحضارة بحضارة البداريين ويعتبرونها جزءاً منها . [١]

(٢) — البداري :

كان البداريون أرقى من أي جماعة عاشت في الدور الحجري الحديث إذ استقروا في قرى منتظمة يزرعون الحبوب ويستأنسون الماشية وأنواعاً من الأغنام والماعز فضلاً عن صيد البر والبحر وكانوا مهرة في كل صناعات هذا

---

(١) أنظر هامش ص ٦٠ .

الدور ، ومع أن بعض حيواناتهم يظن أنها تنتمي إلى غربي آسيا إلا أن من المرجح أنهم وفدوا إلى مصر من منطقة تبعد عن البداري كثيراً إلى الجنوب .

واستعمل البداريون طريقة التشظية بالضغط في صناعة آلاتهم الحجرية ، وقد امتازوا عن أسلافهم بمعرفة النحاس فاستعاضوا بالفأس النحاسية عن الفأس الحجرية التي سادت في الحضارات السابقة كذلك يتمثل رقيهم عن من سبقهم في أنهم استخدموا السهام والقسي وعصي الرماية Boomerang (شكل ١١) ودبابيس القتال ذات الرؤوس التي على شكل القرص وعرفوا السنانير وتفوقوا في صناعة اللوحات الاردوازية وبعض لوحات من المرمر ، وقد عثر بين آثارهم على ثلاثة تماثيل صغيرة لسيدات أحدها من الطين والآخر من الطين المحروق والثالث من العاج وليست هذه التماثيل دقيقة الصنع وبعض أجزائها مفقود .

واتخذوا حلياً من أحجار مختلفة ومن الأصداف والنحاس كان أهمها الخرز والأساور والأحزمة والأمشاط الطويلة الأسنان من العاج ، ومن المرجح أنهم عرفوا صناعة السلال والحصر حيث عثر على أجزاء منها في مقابرهم كما يبدو أنهم كانوا على دراية بنسيج الكتان لأن بعضاً من الإبر المصنوعة من العظام وجدت بين آثارهم ومن بينها مجموعة وجدت في جعبة صغيرة صنعت من ساق فرس النهر – ولم يقتصر البداريون في صناعة أوانيهم على الفخار بل كانت لديهم أواني عاجية منها إناء على شكل فرس النهر وأواني حجرية من البازلت أيضاً .

وفخار البداري أرقى من فخار الحضارات السابقة إن لم يكن أرقى أنواع الفخار في مصر القديمة على الاطلاق ، وهو يمتاز بما يحلي جدرانه من تموجات تشغل السطح الخارجي بأكمله أو نصفه الأعلى أو تكون شريطاً يحيط بحافة الاناء ، كذلك قد توجد هذه التموجات بالسطوح الداخلية لبعض الأواني الواسعة ومع أنه مصنوع باليد – إذ لم تكن عجلة الفخار قد عرفت بعد –

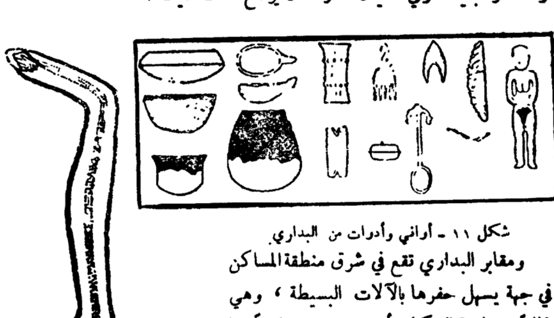
إلا أنه يمتاز برقة الجدران وهو على سبعة أنواع يمكن حصرها بصفة عامة فيما يـــلي :

١ – أواني ذات لون بني أو أحمر مصقول ولها حافة سوداء غالباً .

٢ – أواني ذات سطح أملس مصقول لونها بني أو أسود .

٣ – أواني ذات سَطح خشن لونها بني أو أسود كذلك .

وأشكال هذا الفخار متشابهة ومحدودة وذلك باستثناء عددقليل من الأواني ذات الأشكال العجيبة كانت تغطى أحياناً بقطع من الخوص المضفور ، وقد عثر على قدح ملفوف بقماش الكتان – وفخـار البـداري على العموم خلو من علامة الصانع أو المالك وكان يوضع غالباً عند رأس الميت أو قرب يديه أو مرفقيـه أو عند ركبتيه ، وفي أحيان نادرة كان يوضع خلف الميت .



شكل ١١ ـ أواني وأدوات من البداري

ومقابر البداري تقع في شرق منطقة المساكن في جهة يسهل حفرها بالآلات البسيطة ، وهي غالباً بيضاوية الشكل أو مستديرة ونادراً ما تكون جوانبها مستقيمة وأركانها مستديرة وكانت تغطى بالحصير كما استعملت العصي في تسقيفهـا

عصي رماية من البداري

أحياناً ، وكان الميت يوضع على ما يشبه الأريكة أو (تقفيصة) ويحيط بالجثة حصير يعتمد على عصى على شكل خيمة تحمي الميت من انهيار الرمال عليه ، وكان يدفن عادة على جانبه الأيسر ورأسه إلى الجنوب وهو متجه إلى الغرب ويديه بالقرب من رأسه وتوضع إلى جانبه الادوات التي كان يستعملها في حياته الدنيا وأدوات زينته وبعض التمائم – وقد عني بدفن الثور والكلب والشاة وغيرها مما يدل على تقديس تلك الحيوانات والاعتقاد بوجود حياة أخرى وبالبعث .

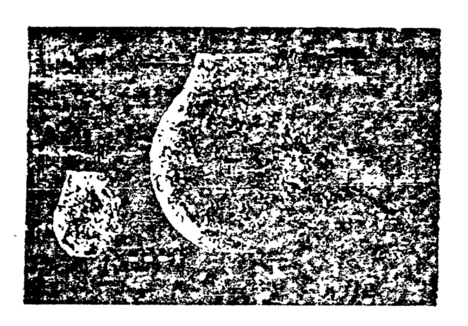
حضارات الوجه البحري

١ – العمري « حلوان أ » :

عثر على آثار هذه الحضارة في منطقة تقع في شمال حلوان وقد سميت كذلك لأن شخصاً يدعى أمين العمري هو الذي أرشد إلى موقعها الأثري، وفيها تم الكشف عن آثار مساكن مستديرة في وسط كل منها موقد ووجدت بها مقابر مستقلة عن المساكن فهي في هذا تشبه حضارة ديرتاسا ولكنها تتميز بما وضع فوقها من أحجار وهي ظاهرة لم تتمثل فيالحضارات الأخرى التي ترجع إلى هذا الدور – وكان الميت يوضع في وضع الجنين وإلى جانبه توضع قرابين قليلة لا تعدو إناء من الفخار عبارة عن قدر أو طاجن – وفخار العمري على العموم يشبه فخار مرمدة في أنه من لون واحد أسود (شكل ١٢)، وقد عثر على ما يشبهه في طرة وقرب الاهرام مما يوحي بأنه انتشر فيالدلتا إلاأن مدى انتشاره ليس واضحاً .

٢ – مرمدة بني سلامة :

تقع مرمدة بني سلامة على بعد نحو ٥٠ كم إلى شمال غربي القاهرة ، وقد عثر فيها على آثار ترجع إلى أواخر الدور الحجري الحديث وجدت نظائر لها عند



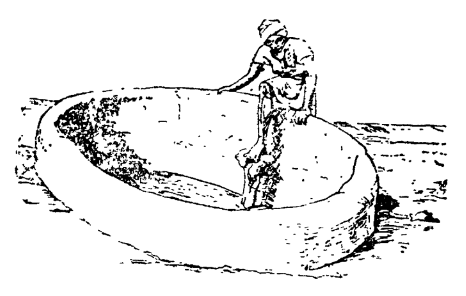
(شكل ١٢) أواني من العمري

الحافة الشمالية للفيوم وخاصة في منطقة قصر الصاغة ، وهي التي عرفت باسم حضارة الفيوم ب – وكان المعتقد بأنها ترجع إلى أواخر الحجري الحديث وأوائل ما قبل الاسرات ، ولكن يبدو أنها ترجع إلى عهد أحدث من ذلك كثيراً [١] .

وفي مرمدة بني سلامة وجدت آثار ثقوب محفورة في الارض في مجموعات غير منتظمة يستدل منها على أنها كانت موضع أعمدة لاشجار تقام عليها أكواخ من البوص أو ستائر من الحصير تحمي من الرياح الشديدة ، كما عثر على آثار مساكن بيضاوية يعلو نصفها سطح الارض ولكل منها مدخل خاص به وهو عبارة عن قطعة من ساق فرس النهر مثبتة داخل الجدار لتساعد على الهبوط إلى داخل المسكن (شكل ١٣) الذي تنحدر أرضيته إلى مكان منخفض ثبت فيه إناء ليتسرب فيه ما يدخله من ماء ، وبأسفل الإناء ثقب لتصريفه في باطن الارض

(١) E. Baumgartel, op., cit, pp, 17f and 43

ـأما الجدران فكانت تبنى من كتل من الطين يوضع بعضها فوق بعض، كما كشف عن أهراء للحبوب في هيئة حفر قليلة الغور مسورة بسور من الطين تختزن الحبوب فيها بوضعها في سلال تطمر في داخلها .



شكل ١٣ ـ منظر لما كان عليه مسكن بيضاوي من مرمدة وطريقة الهبوط اليه

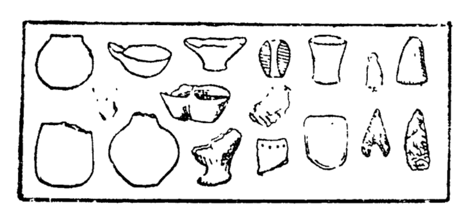
ومن الآثار التي عثر عليها يمكن استنتاج أن أهل مرمدة كانوا يربون الماشية والخنازير ويطحنون الغلال على الرحى وفخارهم كان أسود غالباً والقليل منه بني أحمر ، وهو أما مصقول أو ناعم أو خشن – وأوانيهم منها القدور الكبيرة التي يحتمل أنها كانت للطبخ ولبعضها بروزات لامساكها بها أو تعليقها ولبعضها ثقوب ولبعضها قواعد تستقر عليها ، ومنها ما يشبه القارب ومنها المغارف ذات المقابض العريضة أو السميكة المستديرة – وهذا الفخار خلو من النقوش والرسوم على العموم ولو أن بعض الاواني تحليها خطوط بارزة أو عدد من البروزات عند الحافة ، وإلى جانب الاواني الفخارية صنع أهل مرمدة أواني حجرية من البازلت .

وقد اتخذوا رؤوساً للسهام مثلثة الشكل أو مقوسة القاعدة بعضها له سنخ ودبابيس قتال كمثرية الشكل (طراز البحر الابيض) أو شبه كرية ، واستعملوا

في الصيد نوعاً من الشص المصنوع من قرن الحيوان وهو أكثر استواء من خطاطيف الفيوم – ويبدو أنهم اتخذوا الملابس إذ وجدت لديهم فلكات مغازل ومسلات وإبر ، وكانوا يتزينون بحلي في هيئة أساور من العـــاج وخواتم وخرز حلقي أو أسطواني من الأصداف وبلط صغيرة تعلق على شكل تمائم واستعملوا صلايات من المرمر والبازلت لصحن المساحيق (أنظر شكل ١٤) .

وكان الميت يدفن على جنبه بين المساكن ، مقرفصاً في وضع يشبه الجنـين ووجهه إلى الشرق ومعظم الهياكل العظمية التي عثر عليها كانت لنساء وكن أطول قامة من نساء الوجه القبلي – ولم توضع مع الموتى قرابين في العادة وربما كان ذلك لاعتقادهم أنه كان يشارك أهله طعامهم إلا أن بعض الحبوب وجدت في أحوال قليلة ملقاة أمام فم الميت ولكن ربما كان ذلك شيئاً رمزياً فقط .

ومع أن مظاهر قليلة من حضارة مرمدة كانت تشبه بعض نواحي حضارتي



شكل ١٤ – أدوات وأواني من مرمدة

الفيوم والبداري إلا أن من المرجح أن مرمدة قد ورثت هذه المظاهر لأنها في أغلب الظن متأخرة عنهما في الزمن .

الفيـــوم

يستدل من الآثار التي اكتشفت فيها على وجود مرحلتين حضاريتـــين . الفيوم «أ» والفيوم «ب» ويؤرخها غالبية الأثريين « بالدور الحجري الحديث » وعصر ما قبل الأسرات على التوالي ولكن الفروق بينهما ليست من الضخـامة بحيث توحي بأن الفارق الزمني بينهما كان كبيراً ، وبإعادة النظر في آثار الفيوم ودراسة الصناعات التي سادت فيها أصبح الاعتقاد سائداً بأنها لا تسبق حضارة نقادة الثانية (التي ترجع إلى ما قبل الأسرات) كثيراً في الزمن [1]، وعلى ذلك يمكن ان ندخل حضارتي الفيوم ضمن عصر ما قبل الأسرات وأن ندرسهـــما كوحدة قائمة بذاتها وخاصة لأنهـــا تأثرت بكل من حضارات الوجه القبلي والوجه البحري وإن كان تأثرها بحضـــارات الأخير اكثر منه بحضارات الوجه القبلي .

ولم يكشف في منطقة الفيوم إلا عن منطقة السكن إذ لم يعثر على قبر واحد فيها وتدل الآثار المكتشفة على أن أهلهـــا عرفوا الزراعة غير أن جل اعتمادهم كان على الصيد أي أنهم كانوا في ظروف تشبه ظروف الزراع البدائيين ـــ وكانت لديهم مجموعتان من المطامير لخزن الحبوب بالقرب من المساكن ، وهذه كانت عبارة عن حفر قطر معظمها من قدم إلى أربعة أقدام وعمقها من قدم إلى ثلاثة ومعظمها مكسو من الداخل بغشاء من قش القمح المضفور يكسو جوانبها وقاعها ـــ واستخدموا مناجل من الصوان ورحى لطحن الحبوب من أحجار مختلفة ولكن يبدو أن تربية الحيوان لم تلعب دوراً كبيراً في حياتهم .

وفي هذه المنطقة عثر على رؤوس سهام مثلثة ذات قاعدة مستقيمة او مستديرة

---

(١) Baumgartel, op. eit. 20 ff.

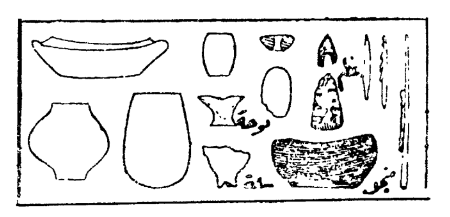
أو ذات سنخ (مثل سهام مرمدة) ، كما وجدت سكاكين من الصوان وهي طويلة مقوسة من طرفها الأعلى وبعضها محزز عند القاعدة – أما رؤوس دبابيس القتال فمنها المخروطي ومنها القرصي والبعض الآخر كري الشكل تقريباً غير أن هذه الأخيرة صغيرة الحجم إلى درجة تدعو إلى الظن بأنها كانت فلكات مغازل – ولم يعثر على شص من النوع الذي عرف في مرمدة ولذا يحتمل أن الاسماك كانت تصاد بخطاف من العظام .

وفخار الفيوم كان يصنع باليد ، من صلصال خشن مخلوط بنسبة كبيرة من التبن ولذا كان من النادر إخراجه في شكل متناسق وهو إما احمر مصقول أو أسود مصقول أو بني أملس أو خشن وهذا الاخير هو الشائع – ولا يخرج فخار الفيوم عن كونه طواجن وقدور كبيرة للطبخ أو طواجن وأقداح صغيرة ذات قاعدة بارزة للخارج قليلا أو مفصصة ، ومنه كذلك ما هو في هيئة صحاف مستطيلة حوافها مرتفعة عند الاركان ، وبعض أواني الفخار مثقوبة عند الحافة وجميعه خال من الرسوم او النقش أي أنه يخلو من علامة الصانع او المالك – وقد تميزت آنية واحدة ببروزات قرب حافتها .

ولا شك في ان اهل الفيوم عرفوا صناعة السلال والنسيج حيث عثر في آثارهم على بعض سلال (على شكل قارب أو على شكل برميل) وعلى بعض أطباق مسطحة من الحشائش المضفورة ، كما وجدت قطعة من قماش الكتان داخل قدر من الفخار وعثر على دبابيس ومخارز من العظام .

أما فيما يختص بأدوات الزينة فقد تحلى القوم بدلايات من الخرز الذي كان على شكل القرص أو على شكل برميل أو من الاصداف التي تعلق مفردة أو تنظم في عقود ، كذلك عثر على سوار صغير وتميمه على شكل بلطة صغيرة من الصدف – وكانت لديهم صلايات بسيطة بيضاوية الشكل لصحن المغرة (شكل ١٥)

هذا وقد عثر على آلات صوانية تشبه آلات الفيوم والبداري في الواحات



شكل ١٥ - أدوات وأواني من الفيوم

وفي غرب وادي النيل وخاصة بالواحة الخارجة وجنوب تونس مما يوحي بأن الفيوم والمناطق الجنوبية من مصر كانت منبعاً استمد منه شمال غربي افريقيا بعض مظاهر حضارته وإن كانت هناك بعض الآراء التي تناقض ذلك .

د ــ عصر ما قبل الاسرات

يطلق اسم « عصر الاسرات » أو « عصر السلالات » على العصر التاريخي لكل من مصر والعراق ابتداء من الزمن الذي نشأت فيه أول سلالة حاكمة في كل منهما إلى وقت انهيار الإمبراطورية الفارسية على يد الاسكندر الاكبر تقريباً، وذلك لأن كلا منهما حكمتها أسرات أو سلالات حاكمة خلال هذه الفترة وقد اصطلح الباحثون على تسمية الفترة التي سبقت قيام الأسرات الحاكمة في مصر – وتقابل عصر بداية استخدام المعادن في الأقطار الاخرى – باسم عصر ماقبل الاسرات نظراً لما تميزت به من مظاهر حضارية مهدت لقيام الحضارات العظيمة التي شهدتها مصر في عصورها الفرعونية ، ففي هذه الفترة ترقى صناعة الفخار وتتأصل المعتقدات الدينية ويكثر استعمال المعادن نسبياً ويأخذ فن الرسم والنقش طابعه الذي تميز به طوال العصور الفرعونية ومنه نشأت الكتابة ،

وفي هذه الفترة ايضاً نشأت وحدة سياسية في كل من الوجه القبلي والدلتا مهدت لاتحادهما الطويل الذي بدأه مينا مؤسس الاسرة الاولى .

وتمثل حضارات هذا العصر في الوجه القبلي العمرة ، جرزة ، سماينة .أما في الوجه البحري فتمثلها حلوان «ب» والمعادى .

وقد وجدت آثار هذا العصر في نقادة وهي تمثل حضارات الوجه القبلي في مراتبها المختلفة – ونظراً لأنها خلت من الكتابة (إذ أن هذه لم تكن قد عرفت بعد) فقد اتبع في ترتيب آثار هذه الحضارات طريقة المقارنة والنسبية أي أنها أرخت بالنسبة إلى بعضها البعض ، وقد عرفت هذه الطريقة باسم « التوقيت المتتابع » أو « التأريخ التتابعي » .

التوقيت المتتابع أو التاريخ التتابعي :

كان الأثري الانجليزي السير فلندرز بتري Sir Flindrs Petrie يشترك في التنقيب عن الآثار فيما بين بلاص ونقادة حيث وجدت منطقة غنية بالآثار التي تنتمي إلى عصر ما قبل الاسرات فأطلق على الحضارة التي تمثلها هذه الآثار اسم حضارة نقادة ، ولما شاهد أن هذه الآثار تختلف فيما بينها بحيث يبدو أنها لا تنتمي إلى فترة قصيرة محدودة رتب الاواني الفخارية والآثار التي كانت موجودة معها حسب تدرج التطور في صناعة هذه الاواني الفخارية فتمكن بذلك من ترتيب الآثار حسب ترتيب ظهورها محاولاً إيجاد علاقة تاريخية بينها – وقد لجأ أولا إلى تقسيم الاواني الفخارية إلى أنواع يمثل كل منها مرحلة حضارية خاصة عاشت في مرحلة زمنية من عصر ما قبل الأسرات الذي رمز لمدته بأرقام تشمل الاعداد من ١ إلى ١٠٠ وبدأ أقدم أنواع الفخار والآثار التي اكتشفها معه بالرقم ٣٠ تاركاً الارقام من ١ إلى ٢٩ خالياً عساه يجد من الاكتشافات ، كما ترك أيضاً الارقام من ٨٠ إلى ١٠٠ لنفس الغرض – وقد أعد بتري بطاقة

خاصة لكل مقبرة وقسم كل بطاقة إلى تسعة أنهر أو أقسام خصص كلا منها لنوع معين من الفخار .

وحينما أدرج الآثار التي اكتشفها مع الفخار المصاحب لها في الاقسام الخاصة به أمكنه أن يقسم تلك الآثار في أول الامر إلى قسمين يمثل كل منهما مرحلة حضارية هما نقادة «١» ونقادة «٢» على الترتيب ، ثم وجد أن حضارة نقادة «٢» بدورها تمثل حضارتين هما نقادة ٢ أ ، نقادة ٢ ب أي أنه انتهى إلى تقسيم الحضارات التي تمثلها هذه الآثار إلى ثلاثة مراحل هي نقادة «١» ونقادة «٢ أ» ونقادة «٢ ب» على التوالي .

وقد كشف الأثريون عن ثلاثة حضارات بالصعيد تماثل آثارها تلك التي وجدها بترى أي أنها تتفق والاقسام التي توصل اليها فالاولى وهي حضارة العمرة تمثل المرحلة من ٣٠ إلى ٣٧ والثانية وهي جرزة تمثل المرحلة من ٣٨ إلى ٦٠ أما الثالثة وهي سماينة – فتمثل المرحلة من ٦١ إلى ٧٥ + .

ويجب أن لا يفهم من هذا التوقيت المتتابع أن الارقام أو الفترات التي اتبعها بترى تدل على تاريخ محدد أو أن المدة بين فترة وأخرى تعادل في الزمن المدة بين فترتين أخرتين حيث لا يدل الرقم الواحد على قدر ثابت من السنين وكل مافي الامر أن هذا التقسيم يسمح بترتيب كل من هذه الحضارات بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر .

حضارات ما قبل الأسرات في الوجه القبلي

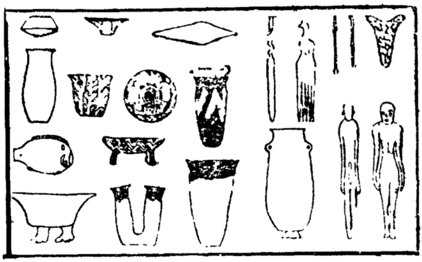
(١) حضارة العمرة ٣٠ – ٣٧ (نقادة «١»)

تقع العمرة جنوب شرقي أبيدوس وقد عثر فيها على آثار تشبه أقدم ما وجد في نقادة إلا أن هذه الحضارة تمثل عهدين مختلفين : أوائل العمرة وأواخر العمرة

– وفي الفترة الأولى ظهر الفخار الأحمر المصقول المحلى برسوم باللون الأبيض أو الأصفر ، وهذه الرسوم عبارة عن أشكال تحددها خطوط مستقيمة وتملوها خطوط متقاطعة تمثل في مجموعها أشكالا هندسية مختلفة كالمثلث والمعين والنجوم أو تمثل أشكالا مختلفة من النبات والحيوان ومناظر الصيد والقتال رسمت باختصار وفي أسلوب بسيط وإلى جانب هذا النوع من الفخار عثر على فخار أحمر مصقول أو أحمر مصقول ذو شفة سوداء خلت سطوحه الخارجية من التموجات التي تميز فخار البداري – كذلك بدأت علامة الصانع أو علامة الملكية تميز أواني هذه الفترة في هيئة صور حيوانات أو نباتات أو خطوط – وقد وجدت بعض الأواني الحجرية من البازلت والحجر الجيري ، وكانت الصلايات من الأردواز على شكل معين أو في أشكال حيوانات مختلفة كفرس النهر والسلحفاة ، أما رؤوس الدبابيس فكانت مخروطية الشكل مقوسة قليلا إلى الداخل .

وفي الفترة الثانية من هذه الحضارة اختفى الفخار المحلى برسوم باللون الأبيض واستمر الأحمر المصقول ذو الشفة السوداء كما عثر على أواني محلاة برسوم باللون الأحمر تشبه فخار جرزة ، ومن بين العلامات المميزة لفخار تلك الفترة علامة تمثل تاج الوجه البحري وعلامة تمثل صورة صقر – وهو الطائر الذي اعتبره المصري رمزاً للإله حورس – على واجهة قصر وهذه العلامة كانت تتخذ كخانة يكتب فيها اسم الملك في زمن الفراعنة ، ومن هذا يتضح أن علامات الملك أخذت تستقر – وقد تطورت صناعة الأواني الحجرية التي من البازلت كثيراً وأصبحت أشكال الصلايات أقل تعدداً إذ انحصرت تلك الأشكال في الشكل المعين الذي ينتهي عند أحد طرفيه بما يشبه الهلال أو شكل السمكة ، ومن الصلايات أيضاً ما كانت تنتهي في أعلاها بشكل يمثل رأسي طائرين – أما دبابيس القتال فكانت تشبه نظائرها في الفترة الأولى لهذه الحضارة – وقد أتقنت

صناعة الفخار، ومن الأدوات المصنوعة منه وجدت سكاكين طويلة ذات حدين وسهام ذات شوكتين (شكل ١٦) . وقد اعتقد أهل هذه الحضارة في الحياة بعد الموت بدليل ما عثر عليه من أدوات وضعت إلى جوار الموتى – ولم يكشف حتى الآن عن حضارة من هذا العهد في الدلتا .



شكل ١٦ – أدوات وأواني من العمرة

(٢) حضارة جرزة ٣٨ – ٦٠ (نقادة ٢ «أ»)

تقع جرزة شمال ميدوم التي تبعد نحواً من ٤٠ ميلاً إلى جنوب سقارة وتمثل آثارها حضارة مستقلة تماماً عن حضارة العمرة إذ وجدت في همامية قرب البداري آثار تمثل حضارة جرزة في طبقات منفصلة تماماً عن الطبقات التي وجدت بها آثار حضارة العمرة ، وآثار هذه الحضارة أوسع انتشاراً من آثار سابقتها في مصر الوسطى .

وتتميز هذه الحضارة بفخار ذو لون أصفر برتقالي وعليه رسوم وأشكال باللون الأحمر ، وهذه الرسوم عبارة عن خطوط منحنية غالباً ماتكون حلزونية وصور مثلثات متتالية وبعض المراكب والحيوانات التي تظهر بصورة منفردة وهذه الصور لا تملؤها خطوط متقاطعة كما تتميز بالفخار ذي الأيدي المتموجة ،

وكل من هذين النوعين من الفخار على صلة بالآخر إذ قد يحلى ذو الأيدي المتموجة برسوم حمراء .

هذا وقد استمر الفخار الاحمر المصقول وذو الشفة السوداء (وهما من فخار العمرة) في هذه الحضارة أيضاً ، وفي بدء هذه الحضارة بدأ ظهور الفخار المتأخر ويمتاز بصلابته وملاسته وهو رمادي فاتح أو بني أحمر أو أصفر يخلو من أية حلية إلا أنه لم ينتشر إلا في أواخر عهد ما قبل الاسرات وفي الاسرتين الأولى والثانية .

وتكثر في هذه الحضارة الأواني الحجرية المختلفة ذات الالوان الجميلة التي كانت بعض أواني الفخار تصنع على غرارها ، وقد أخذ دبوس القتال الذي كان شائعاً في العمرة (ذو الرأس المخروطي المضغوط الجوانب) يقل تدريجياً ابتداء



شكل ١٧ - أواني وأدوات من جرزة

من عهد جرزة حيث أخذ الدبوس ذو الرأس الكمثري يحل محله ، ومع هذا فقد بطل استعمال هذين النوعين من الدبابيس في القتال منذ الاسرة الاولى ولكنهما ظلا يستعملان في العصور التاريخية لاغراض دينية وجنائزية .

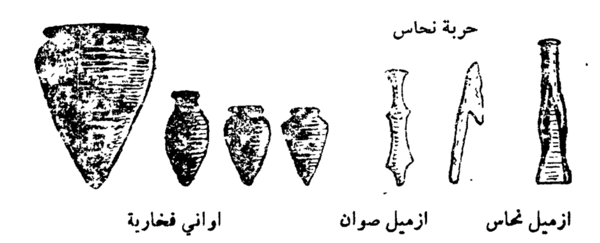
وأخذت الصلايات التي على شكل معين في الاختفاء لتحل مكانهـا صلايات ذات أشكال هندسية أخرى كالمستطيل والبيضـاوي والمربع واستمرت بعض الصلايات في شكل بعض الحيوانات كالفيل والسمك والطيور وبعض الصلايات البيضاوية كانت تعلوها صورة طائرين أيضاً ، وقد أخذت هذه الصلايات تدق في سمكها وكسيت سطوحها بالنقوش وصنع بعضها من مواد لا تصلح للصحن منذ أواخر ما قبل الاسرات ، ولذا يمكن القول بأنها أصبحت شيئاً رمزياً يوضع في المقبرة لتذكر بتقليد قديم متوارث – هذا وقد ظهرت في عهد جرزة بعض التمائم على شكل حورس وبعضها على شكل ثور وهي رموز تدل على مقاطعات بالوجه البحري (شكل ١٧) مما دعا إلى الظن بأن حضارة جرزة ترجع أصلاً إلى الوجه البحري وإن لم يعثر على حضارة تماثلها فيه ، كما يستـدل من ذلك أيضاً على حدوث توحيد لشطري الوادي قبل عهد مينا مؤسس الاسرة الاولى .

(٣) حضارة سمانية ٦٠ – ٧٥ + : (نقادة ٢ «ب») .

تمثل آخر الحضارات المصرية في عهد ما قبل الاسرات وأهم الآثار التي تمثلها وجدت في سماينة وهي إحدى القرى القريبة من نجع حمادى .

وتتميز هذه الحضارة بزيادة استخدام النحاس وقلة الفخار ذو الشفة السوداء والفخار الاحمر المصقول تدريجياً إلى أن اختفيا ، أما الفخار ذو الرسوم الحمراء فقد اختفت منه الاشكال التي كانت سائدة في عهد جرزة وحلت محلها أشكال جديدة عليها رسوم مختلفة ، ومن هذه الاشكال اواني على شكل البرميل لها حافة داخلية يستقر عليها الغطاء وقدور عالية رسمت عليهـا خطوط قصيرة

في أشكال ومجموعات مختلفة – أما الأواني المتموجة الايدي فقد اخذت تضيق في السعة ويتلاشى مقبضها حتى أصبح كشريط على حافة الإناء بالقرب من الشفة ، واكثر فخار هذه الحضارة من النوع المتأخر وقد ظهر فيه المصب (البزبوز) وله أحياناً رقبة واضحة ، وأهم ما صنعت منه أواني التخزين (قدور عالية ذات فوهات واسعة) (شكل ١٨) ، ومع كل فإن الفخار في عهد سماينة على اختلاف انواعه كان أقل إتقاناً وجودة منه في العصور السابقة ، وربما كان سبب ذلك ان الأغنياء أقبلوا على صناعة الأواني من النحاس والاحجار كما أن زيادة الإقبال على حياة المدن التي اتسعت وانتشرت هي التي جعلت صانع الفخار يتوخى سرعة الانتاج وكثرته فبعد عن الإتقان – وقد استمرت صناعة الأواني من الأحجار وكثيراً ما استخدم المرمر Alabaster في صنعها وينتشر استخدامه بعد ذلك في العصور التاريخية . أما الصلايات فمنها ما كان على شكل الحيوان ومنها ما كان يحلي جزءه العلوي رأسا طائرين ومنها ما كان بيضي الشكل تحلي حافته خطوط متقاطعة ومنها ما كان على شكل مستطيل تحلي حوافيه خطوط مستقيمة أو متقاطعة وبعض هذه الصلايات كان فاخراً تحليه نقوش مختلفة .



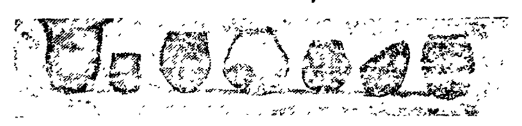
شكل (١٨) أدوات وأواني من سماينة

حضارات ما قبل الأسرات في الوجه البحري

(١) حضاره حلوان « ب »

تضم منطقة العمري [1] مجموعتين من المقابر ومجموعة من المساكن وهي على بعد ٣ كم شرق حلوان — ومن التنقيب في منطقة المساكن تبين أن مساحة القرية كانت كبيرة مثل مدن الدلتا التي عثر عليها في مرمدة والمعادى بعكس مدن الوجه القبلي المحدودة المساحة ، وكانت مساكنها إما أن تبنى بحيث يكون جزء منها تحت مستوى سطح الارض وهي بيضية الشكل تحيطها جدران من الحصير المغطى بالطين . أو أن تقوم بأكملها فوق سطح الأرض ، كما يستدل على ذلك من وجود بقايا أعمدة خشبية مغروسة في الأرض — وربما كان النوع الاول من المساكن يستخدم كمخازن أما النوع الثاني فكان للسكنى ، وقد حفرت بعض مساكن النوع الاول في الارض الصخرية مما دعا إلى الظن بأن أهل حلوان عرفوا استغلال المحاجر في ذلك الوقت إلا ان هذا بعيد الاحتمال .

والأواني الفخارية في هذه الحضارة إما رقيقة الجدران مصقولة حمراء وسوداء وسمراء أو خشنة ذات جدران سميكة ، وكان لبعضها مقابض — ومنها ما يشبه أواني مرمدة ومنها ما يشبه أواني المعادى كما وجدت أشكال جديدة اختصت بها هذه الحضارة (شكل ١٩) .



شكل ١٩ ـ اواني من حلوان ب

---

(١) أنظر ص ٦٥ .

أما السهام التي عثر عليها في حلوان فإنها كانت إما مقعرة القاعدة كسهام الفيوم أو على شكل مثلث متساوي الضلعين ، وقد عثر على بعض السكاكين والمناجل والمناشير من الصوان وأحجار للرحى وأوعية من قشر بيض النعام وآلات من العظام من بينها شص من قرن حيوان ، كما عثر على جلود وحصير وحبال وسلال تدل على معرفة النساجة — واستخدم أهل حلوان أصداف البحر وعظام السمك وأنواع من الأحجار البراقة في الحلي وعرفوا صناعة العقود والدلايات وزراعة الحبوب كالقمح والشعير ، وكانوا على علاقات مع الخارج حيث وجدت في آثارهم أصداف من البحر وبعض المواد الأخرى التي لا توجد في وادي النيل .

وقد دفنوا موتاهم في أماكن السكنى في وضع مقرفص ومعظم رؤوسهم إلى الجنوب والوجه متجه إلى الغرب ، وفي أغلب الأحيان كانت توضع آنية فخارية بجانب الميت وكانت الجثة تكفن بجلد حيوان أو حصير أو قماش ، وعثر مع إحدى الجثث على صولجان من الخشب .

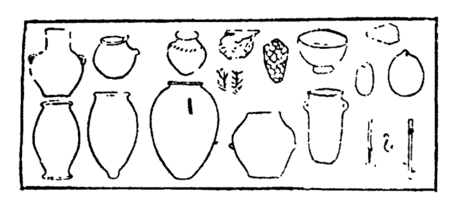
وربما كانت هذه الحضارة تتوسط في الزمن بين حضارتي مرمدة والمعادى إذ أنها تشبه حضارة مرمدة في طقوسها الجنزية وفي بعض صناعاتها الحجرية وبعض أوانيها الفخارية كما تشبه حضارة المعادى في نصالها الحجرية وبعض أوانيها الفخارية أيضاً .

(٢) حضارة المعادى :

عثر على آثار هذه الحضارة في شرق المعادى الحالية وهي ذات موقع فريد إذ أنها تتوسط بين الصعيد والدلتا وتربطهما بشبه جزيرة سينا وغرب آسيا مما أثر في حضارتها وجعلها ذات صفات خاصة تميزها عن الحضارات السابقة —

وكان يظن أنها أقدم من حضارة نقادة الثانية ولكنها ما زالت تحتاج إلى كثير من الدراسة وخاصة لأن الشك بـــدأ يساورنا في أنها ترجع إلى عصر بداية الأسرات [١] .

وفخار المعادى (شكل ٢٠) متعدد الأشكال والألوان إلا أن أهمه نوعان: أحمر اللون غير مصقول لكنه أملس وقاعدته حلقية وجسمه بيضاوي مستطيل،



شكل ٢٠ ـ ادوات واواني من المعادى

وأسود مصقول ذو جسم كري – ومن بين الأواني التي عثر عليها آنية كبيرة اسطوانية وبحافتها العليا مقابض عدة كما وجدت بعض الأواني التي يميل لونها إلى البياض وبسطحها بروزات كالحبوب أو مزودة بمقابض تشبـــه الأواني السورية ، كذلك وجدت أيضاً بعض أواني تشبه أواني العمرة (ذات حافة سوداء) وأواني تشبه أواني مرمدة (توأمية) ، أمَا الأواني المزدانة بالرسوم فقد أصبحت قليلة – ومن هذا نتبين صلة المعادى بحضارات كـــل من الوجه البحري (مرمدة) وسوريا والوجه القبلي (العمرة) ويرجع هذا إلى مركزها الجغرافي حيث يسهل الاتصال بينها وبين تلك الجهات .

---

(١) Cambridge, Ancient History, (2nd ed,) Vo I, I Chapt. x (MSS) .

وقد عثر في المادى على عدة أواني حجرية كبيرة متقنة الصنع ولوحات من الأردواز والحجر الجيري وفلكات مغازل ودبابيس ومصاحن ، وعلى الكثير من المكاشط ورؤوس السهام والحراب والمناشير الصوانيـة وبعض الآلات من الصخر البلوري والكوارتز والجرانيت كما وجدت فيها مجموعـة من الأدوات الخشبية مثل عصى الرماية Boomerangs وعصا قصيرة وبعض المثاقيب والأطباق والجفنات والملاعق يندر وجود مثلها في الحضارات المصرية المعاصرة إلى جانب آلات كثيرة من العظام وخاصة المثاقيب ، أما فيما يختص بأدوات الزينـة فإن أهل المعادى عرفوا صناعة الخرز من الأحجار المختلفة وقد عثر على عقد كامل من ٥٤ حبة من الخرز كلها بيضاء ما عدا ٨ منها سوداء كما وجدت أصداف مثقوبة وأمشاط من عظـــام الحيوان ومواد التلوين من المغرة والملاخيت والمنجنيز الأسود .

وعرف أهل المعادى استغلال المعـــادن حيث عثر على عدد من الأدوات المعدنية كالسنانير والمثاقيب والازاميل ورأسي فأس وكلها من النحاس الذي عثر على سبائك منه أيضاً كما وجدت بعض مقادير من المنجنيز ومن القـــار الذي كان يجلب من منطقة البحر الميت .

وأخذت النزعة الفنية ترقى كما يستدل على ذلك من وجود قطعة من الصلصال المحروق يظن أنها تمثل رأس جمل [1] . وقطعة أخرى تمثل رأس

---

(١) يظن أن الجمل وجد في مصر لفترة وجيزة قبل عصر الأسرات أو في بدايته ثم انقرض منها ولم يصبح استخدامه شائعاً إلا لأسباب اقتصادية في العهد اليوناني - أنظر .

J. Capart, « Primitive Art in Egypt », 1905, pp. 189, 202; H. Kees, « Ancient Egypt », Translated by Morrow (London 1961), p. 53 .

حيوان غير واضح وعثر على بيضة نعام ازدان سطحها بأشكال هندسية محفورة باتقان وملونة باللون الأسود ، كذلك عثر على هيكل قارب من الفخار ورأس تمثال صغيرة من الفخار الأحمر يمثل شخصاً من غرب آسيا ويتضح ذلك من شكل رأسه وذقنه .

أما مساكن المعادى فإنها تركزت حول وسط القريةوكانت متعدده الأشكال فمنها ما كان يبني من قوائم من جذوع أشجار تلف حولها أغصان رفيعة ثم تطلى بالطين وأبوابها نحو الجنوب للحماية من الرياح الشمالية السائدةومنهاما كان على شكل كلمة pr الهيروغليفية التي تعنى « منزل » مما يدل على أن رسم هذه الكلمة منقول عن الشكل الغالب في مساكن عصر ما قبل الأسرات،وقدوجدت عدة كهوف عثر فيها على آثار تدل على أنها كانت للسكنى .

وكانت المواقد إما صغيرة تقام داخل المنازل أو كبيرة تقام أمام المنازل ، وكان الموقد عبارة عن أحجار متراصة تحصر بينها الوقود . أما المخازن فكانت على شكل حفر يتراوح عمقها بين متر أو مترين وكان بعضها يزود بسياج يحيط بالحفرة وله سقف يقوم على قوائم من الخشب ، وإلى جانب هذه المخازن كان القوم يخزنون المؤن أحياناً في قدور كبيرة أو سلال .

وكان البالغون من أهل المعادى يدفنون في جبانة تقع في بقعة منخفضة إلى جنوب القرية أما الأجنة فكانت تدفن في قدور كبيرة أو حفر غير عميقة في المساكن نفسها ، وكان الميت يوضع مقرفصاً إلا في حالات قليلة وجدت فيها الهياكل ممددة ، ولم يكن الرأس أو الوجه اتجاه ثابت – كما لم يعثر على شيء سوى بقايا حصير أو جلد أو قماش مما كانت تغطى به ، وفي بعض المقابر عثر بجوار المتوفى على إناء واحد من الفخار – وكان لكل عائلة قسم خاص من الجبانة ، كما عثر على حيوان يشبه ابن آوى مدفون بعناية مما يوحي بعبادة هذا الحيوان

الذي عبده فراعنة العصور التاريخية كإله حارس للجبانة — ويدل وجود آنية الفخار على اعتقادهم بالحياة الثانية كما يدل وجود الجبانة بعيـــدة عن المساكن على أنهم كانوا في مرتبة حضارية أرقى من مرتبة أهل مرمدة وحلوان الثانية .

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن أهل هذه الحضارة عرفوا الزراعـة والرعي والنسيج وكانوا على علاقات تجارية وثقافية مع الحضارات الشرقية والجنوبية ولا شك في أنهم وصلوا إلى مرتبة حضارية لا بأس بها .

ثانياً — العصر التاريخي

كانت معلومات العالم المتحضر عن تاريخ مصر الفرعونيـــة ضئيلة مشوهة تعتمد في أساسها على ما دونه كتاب اليونان وغيرهم من الرحالة والمغامرين الذين اعتمدوا في كتاباتهم على ما قصه عليهم الرواة من أنباء تبدو فيها الطرافـــة ولا تخلو من الخطأ والخرافة أحياناً .

وقد حاول كثير من العلماء التعرف على تاريخ مصر الفرعونية من مصادره الأصلية أي من الكتابات والنقوش التي تركها الفراعنة ، وذلك عن طريق حل رموز اللغة المصرية التي شاهدوها على الآثار ولكنهم ذهبوا في ذلك مذاهب خيالية ولم تسفر جهودهم عن نجاح يستحق الذكر .

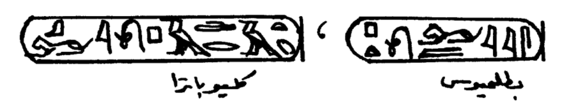
وكان مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١ م) بقيادة نابليون بونابرت فاتحة عهد جديد إذ عثر أحد ضباط الحملة على حجر بالقرب من رشيد نقشت عليه نقوش ثلاثة : أحدها باليونانية والآخرين باللغة المصرية كتبت بخطين مختلفين — الهيروغليفي والديموطيقي — وقد انكب العـالم الفرنسي شامبليون على محاولة حل رموز الخط الهيروغليفي وكللت جهوده بالنجاح بعد عمل مضني ومقارنة كثير من النقوش المختلفة ، ومما يسر له السبيل أن الفراعنة اعتادوا كتابة

أسماء الملوك والملكات داخل إهليج « إطار » بيضي مستطيـل الشكل يعرف بالخرطوش – وقد بدأ شامبليون بقراءة أسماء الملوك في النقش اليوناني بحجر رشيد وعرف أنها لبطليموس وكليوباترا واتضح له اشتراك الإسمـين في بعض الحروف كما هي مدونة بالهجائية اليونانية في خراطيشهما بالنص اليوناني فطبق ذلك على ما شاهده من تشابه في الرموز الدالة عليهـما في الخراطيش الموجودة في النص الهيروغليفي وأمكنه التوصل إلى معرفـة بعض الحروف والعلامات الهيروغليفية [١] ، وبمحاولة كل خرطوش ملكي يقع تحت بصره عـلى أساس ما يعرفه من أسماء الملوك التي وردت في كتابات اليونان وغيرهم استطاع معرفة حروف ورموز أخرى وتوصل إلى الأصوات والمعاني التي تدل عليها وهكذا – ثم توالت بعدئذ جهود العلماء إلى أن أصبح في الإمكان قراءة اللغـة المصرية ووضع معاجم وقواعد لها .

اللغة المصرية :

ما زال الإختلاف قائماً بين العلماء حول أصل اللغة المصرية إذ أن صلتها باللغات الحامية واضحة كما أن علاقاتها باللغات السامية لا يمكن إنكارها أو تجاهلها – وإذا ما تتبعنا كتابتها نجد أن أقدم المحاولات في كتابتها تتمثـل في زخارف الأواني والأدوات المستعملة حيث صورت فيها أشكال أشخـاص وحيوانات وسفن وما أشبه ، فالكتابة بدأت حينما بدأت الرغبة في التعبـير بالرسم عن أشياء يمكن للرائي معرفة ما تدل عليه ، وهذه الأشكال كان لا بـد للرائي

(١) أنظر الرموز المتشابهة في خرطوشي بطليموس وكليوباترا على التوالي وهي كما يلي :



من ترجمتها إلى أصوات معبرة في اللغة – وقد حدث ذلك في مصر حينما تمكن المصري من رسم صور مصغرة ومختصرة للأشيـاء الماديـة والكائنـات يمكن أن تعبر عن الصور الكاملة التي تدل على نفس هذه الأشياء والكائنات المعروفة مثل الأسلحة والنباتات والحيوانات والبشر بل والآلهة كذلك ، ويمكن القول أيضاً بأن الظروف اقتضت ظهور الكتابة وتطورها حينما وجدت الرغبة لدى الناس للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه بكيانه مثل الأعداد وأسماء الأشخـاص والكائنات وغير ذلك وأخذت في النمو كلما وجد أن الرسوم والمناظر في حاجة للتفسير ، وقد ظل هذا الإتجاه طول العصور الفرعونية حيث ظـل الفراعنـة يدونون على المناظر التي يمثلونها ما يوضحها بعبارات مكتوبة – وهكذا حتى أصبح في الامكان التعبير بالكتابة عن كل ما يرغب الانسان التعبير عنه .

واللغة المصرية كانت تكتب في أول الأمر برموز تمثل كائنات أو أجزاء من كائنات في صورة قريبة من الواقع وقد أطلق عليها اليونانيون اسم الهيروغليفية أي الكتابة المقدسة وذلك لأنهم شاهدوها مدونة على جدران المعابد والنصب التذكارية المختلفة ، فهي في الواقع كتابة إعلام أو كتابة زخرفية ، وقد ظلت مستعملة في النصب المختلفة حتى نهاية العصور الفرعونية وإن كانت رموزها قد اختلفت في مدلولاتها أحياناً – ولم تستعمل هذه الكتابة وحدها بل صاحبتها منذ نشأتها تقريباً كتابة أخرى مختصرة عنها عرفها اليونانيون باسم الهيراطيقية أي الكتابة الكهنوتية نظراً لأنهم اعتقدوا بأن الكهنة وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها ، وربما كان سبب ذلك أن المدارس في مصر القديمة كانت عادة تلحق بالمعابد ، ويرجع أقدم ما عثر عليه من نصوص كتبت بالهيراطيقية إلى عهد الأسرة الثانية تقريباً – ولما تعددت مطالب الحياة وازداد نشاط التعامل بين الأفراد ظهرت كتابة ثالثة – أشد اختصاراً هي الكتابة الديموطيقية « أي الكتابة الشعبية » .

ويمكننا أن نشبه – مع الفارق – هذه الكتابة بخطوط اللغة العربية فالهيروغليفية تقابل الخط الثلث وغيره من خطوط الزخرفة والاعلام والهيراطيقية تقابل الخط النسخ والديموطيقية تقابل الخط الرقعة .

وحوالي الوقت الذي طغت فيه المسيحية على الديانة المصرية الوثنية في مصر استعملت الحروف الهجائية اليونانية في كتابة اللغة المصرية ، ولكن نظراً لأن هذه تميزت بأصوات ليس لها مقابل أو شبيه في اللغة اليونانية – وخاصة الأصوات الحلقية (مثل الحاء والعين وغيرها) – فقد أضيفت إلى هذه الهجائية سبعة أحرف من أصل مصري لاستكمال هذه الكتابة الجديدة التي عرفت خطأ باسم اللغة القبطية والأحرى أن يطلق عليها الكتابة المسيحية للغة المصرية لأنها وإن استعملت فيها بعض ألفاظ غير مصرية إلا أنها في مجموعها لا تخرج عن كونها اللغة المصرية كتبت في هيئة جديدة .

ومما سبق يتضح لنا أن الكتابة المصرية في نشأتها تشبه نشأة الكتابة في بلاد النهرين ولا يستبعد وجود علاقة فعلية بينهما ، وربما يؤيد ذلك اشتراكهما في بعض مدلولات الصور التي تعبر عن كائنات واحدة في كل من الكتابتين إلا أن الفرق شاسع بينهما في مراحل تطورهما ، فالكتابة في بلاد النهرين – نظراً لاستخدام قلم مدبب في كتابتها – أخذت تبتعد سريعاً عن أن تبين صوراً يمكن التعرف عليها ، بينما ظلت الكتابة المصرية في هيئة صور لكائنات معروفة ولم تفقد هذه الخاصية إلا جزئياً في الخطين الهيراطيقي والديموطيقي ، ولهذا ظلت رموز كثيرة تستخدم في الدلالة على ما تمثله ، أي أن بعض الرموز ظلت مستعملة للدلالة على معاني قائمة بذاتها .

المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون :

كانت عقيدة المصري في البعث والتمتع في العالم الآخر بحياة مماثلة للحياة

الدنيا خير معين للمؤرخين ، لأن هؤلاء أفادوا من النقوش التي تركها المصريون في مقابرهم وعلى نصبهم وآثارهم المختلفة حرصاً منهم على تسجيل أعمالهم الجيدة ومظاهر نشاطهم في حياتهم العادية أملاً في أن يقوموا في آخرتهم بنفس الأدوار التي قاموا بها في حياتهم الدنيا فجاءت هذه تراجم لأصحابها ، وقد استقى منها المؤرخون معظم معلوماتهم التي ألقت كثيراً من الضوء على مختلف نواحي الحياة المصرية من حربية واقتصادية واجتماعية ودينية وسياسية وأوضحت صلات القربى بين بعض الأفراد ممن كانت لهم أهمية تاريخية خاصة وغير ذلك من المعلومات التي لا غنى عنها لكل مؤرخ – ومن المصادر الهامة التي استقى منها المؤرخون بعض معلوماتهم التاريخية أيضاً ما سجله بعض الموظفين في نقوش على صخور المناطق التي ارتادوها في بعثات للتعدين أو في حملات عسكرية أو جولات تفتيشية وغيرها مما يعد سجلاً حافلاً يفيد منه كل باحث – هذا فضلاً عما عثر عليه من وثائق ومحفوظات مختلفة كالبرديات التي دون عليها ما يشير إلى بعض الأحداث التاريخية أو بعض القضايا والمنازعات أو فصول في الأدب والعلوم والفنون المختلفة مما أفاد في التعرف على نواحي أخرى من نواحي الحياة المصرية، أضف إلى ذلك ما عثر عليه من محفوظات كتبت بلغات أجنبية مثل الألواح التي عثر عليها في تل العمارنة والتي كتبت بالخط المسماري وكان لها أكبر الفضل في إماطة اللثام عن كثير من الشؤون الخارجية والعلاقات الدولية في عهد الدولة الحديثة .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ما كتبه اليونان عن مصر كان يعتمد على ما ذكره الرواة لهؤلاء فجاءت كتاباتهم مليئة بالأخطاء ، ومع ذلك فقد أفاد منها الباحثون قدر الإمكان وخاصة فيما يتعلق بالشطر الأخير من تاريخ الفراعنة إذ أنه كان أقرب العهود لهؤلاء الكتاب ولم تكن روايات الرواة قد تناولته بكثير

من التشويه – وفي عهد بطليموس الثاني دون كاهن مصري يدعى مانيثون تاريخاً لمصر قسم فيه الملوك الفراعنة إلى ٣١ أسرة حاكمة إلا أن ما وصلنا من هذا التاريخ لا يزيد على بعض الفقرات التي نقلها عنه بعض مؤرخي اليونان .

ولا شك في أن تسلسل الملوك وتتابعهم كان من أكبر العقبات التي صادفت الباحثين وذلك نظراً لأن المصري كان يؤرخ الأحداث الهامة على حسب السنين التي حكمها الملك المعاصر ولا يشير إلى من سبقه أو لحقه من الملوك إلا في أحوال نادرة ، ولم يشذ عن ذلك إلا ملوك الأسرة الثانية عشرة والملوك القلائل الذين أشركوا معهم أولياء عهودهم في الحكم ولكن لحسن الحظ ترك لنا المصري بعض الآثار الهامة التي بينت لنا ترتيب حكم الملوك في كثير من العهود – وهذه الآثار عبارة عن قوائم كتبت في عهد بعض الملوك وهي تروي أسماء الملوك الذين سبقوهم على عرش مصر على حسب ترتيبهم المعروف وقتئذ وبعض الأحداث الهامة التي حدثت في عهودهم وهذه القوائم هي : –

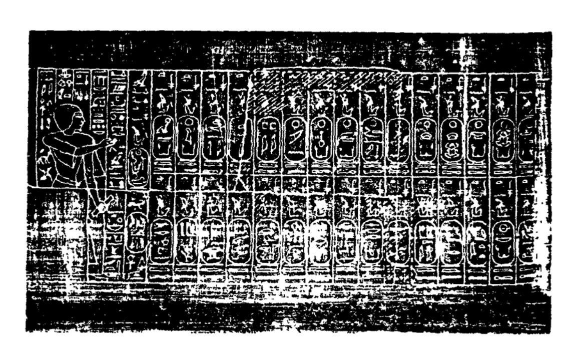
١ – حجر بلرمو : عرف بهذا الإسم نسبة إلى متحف بلرمو المحفوظ فيه ، وهو عبارة عن جزء من قطعة الديوريت دونت عليها حوليات الملوك من أقدم العصور حتى منتصف الأسرة الخامسة تقريباً – ويشير هذا الأثر كذلك إلى بعض ملوك سبقوا مينا ممن كانوا يحكمون في الدلتا وأطلق عليهم إسم أتباع الإله حور – وقد وجدت بعض القطع المماثلة لهذا الأثر ولكن ليس من المؤكد أنها تنتمي لنفس الأثر الأصلي الذي منه القطعة السابقة – ومن بين هذه القطع الأخيرة قطعة دونت عليها أسماء خمسة ملوك من أتباع حور (السابقين للملك مينا) حكموا في جنوب مصر .

ويذكر حجر بلرمو والقطع المماثلة اسم كل ملك والحوادث الهامة في كل سنة من سنوات حكمه وارتفاع الفيضان فيها .

٢ – قائمة الكرنك : وترجع إلى عهد تحتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) وكانت في حجرة من معبد أقامه في منطقة الكرنك ، وهي تذكر أسماء بعض الملوك الذين لم يذكروا في قوائم أخرى وقد نقلت هذه القائمة إلى متحف اللوفر

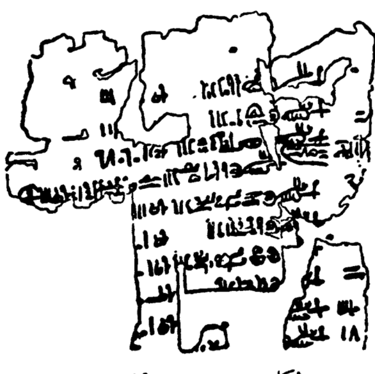
٣ – قائمة أبيدوس : وهي عبارة عن نقش يشكل معظم جدار إحدى حجرات معبد سيتي الأول في أبيدوس (العرابة المدفونة) ، وتعرف باسم لوحة الأجداد لأنها تمثل سيتي الأول يقدم ولده رعمسيس الثاني (الأسرة ١٩) إلى أسماء أجداده ملوك مصر وهي تشمل ستة وسبعين اسماً تبدأ بالملك مينا فهي تغفل ذكر أسماء بعض الملوك وربما كان ذلك لعدم الإعتراف بشرعية حكمهم لمصر .

٤ – قائمة سقارة : وجدت في إحدى مقابر عهد رعمسيس الثاني (شكل ٢١) وتختلف فيها الأسماء في بعض المواضع عن الأسماء التي وردت في لوحة أبيدوس ولكنها تتفق كثيراً مع الأسماء التي وردت في بردية تورين الآتي ذكرها :



شكل ٢١ – جزء من قائمة سقارة

٥ – **بردية تورين** : يحتمل أنها من عهد رعمسيس الثاني أيضاً وهي محفوظة الآن في متحف تورين وتذكر أسماء حكام مصر في العصور السحيقة التي سبقت قيام الأسرة الأولى وقد نسبتهم إلى السماء ، أي اعتبرتهم من الآلهة ثم ذكرت أسماء الملوك الآدميين (عهد الأسرات) – وهي تذكر مدة حكم هؤلاء الملوك بالسنين والشهور والأيام وقد وجدت هذه مطابقة تقريباً لما ورد في الآثار في بعض الحالات ومن أمثلة ذلك أنها ذكرت أن الأسرة الثانية عشرة ظلت تحكم مصر ٣١٥ سنة ولا تختلف آثار هذه الأسرة كثيراً عن ذلك حيث تدل على أنها حكمت نحو ٢١٣ سنة ، ومع هذا فإن هذه البردية لا تخلو أيضاً من بعض أخطاء طفيفة (شكل ٢٢) .



شكل ٢٢ - جزء من بردية تورين

التاريخ والتقويم :

كان المصري في بداية الأمر – كغيره من الشعوب البدائية – يؤرخ الأحداث حسب وقوعها بالنسبة لحدث هام ، ثم ميز كل سنة من سنوات حكم أي ملك

بحادث هام – ونظراً لأن تعداد الماشية الذي كان يتم كل عامين كان من الأمور الهامة في حياة المصري فقد أرخ الأحداث ابتداء من منتصف الأسرة الثانية بالنسبة لرقم التعداد في حياة الملك الحاكم – ومن الأسرة الحادية عشرة استعاض عن ذلك بذكر رقم سنة الحكم في عهد الملك الجالس على العرش وإن كان قد التزم باحتساب سنوات عهد كل ملك ابتداء من بداية السنة المتفق عليها (أي ابتداء من اليوم الأول من الشهر الأول من فصل الفيضان) ولذا كان يضيف السنة التي يتوفى فيها الملك إلى عهد الملك الجديد – وأخيراً أصبحت العادة أن تحتسب سنوات حكم الملك منذ توليه العرش بغض النظر عن وقت السنة الذي يعتلي فيه العرش وتؤرخ الحوادث تبعاً لذلك على حسب الزمن الذي وقعت فيه بالنسبة لحكم الملك المعاصر أي أن مدة حكم كل ملك اعتبرت تقويماً قائماً بذاته فمثلاً يخبرنا سنوهي في قصته بأن الملك أمنمحات الأول توفي في السنة الثلاثين من حكمه في عبارة ترجمتها كما يلي :

« السنة الثلاثون فصل الفيضان الشهر الثالث اليوم التاسع دخل الإله (أي الملك) أفقه (أي توفي) وطار أمنمحات إلى السماء واتحد مع الشمس .الخ ».

وقد استطاع المصري أن يتوصل إلى حساب الزمن حساباً لا يكاد يختلف عن حسابنا له إلا بقدر طفيف ، فقد لاحظ منذ أقدم العصور أن الفيضان يأتيه منتظماً في كل عام وفي موعد معين – وحدث أن صادف أول يوم في الفيضان ظهور نجم الشعرى اليمانية في المجال الشمسي وقت الشروق مع الشمس في الأفق الشرقي تجاه منفيس ، وربط المصري بين هذه الظاهرة وظاهرة الفيضان واعتبرها بداية السنة ، وراقب ظهور نجم الشعري اليمانية وجعل دورته السنوية وحدته الزمنية ثم قسمها على أساس الظواهر المتعلقة بنهر النيل وفيضانه إلى ثلاثة فصول: فصل الفيضان ، فصل الزرع ، فصل الحصاد – وكل من هذه الفصول قسمه إلى أربعة شهور متساوية كل منها ثلاثين يوماً ، ولما كان نجم الشعري اليمانية يظهر في الأفق الشرقي كل ٣٦٥ يوماً فإن المصري أضاف خمسة أيام في نهاية

فصوله الثلاثة وسماها الشهر الصغير احتفل فيها بأعياد مختلفة أي انه اعتبر السنة ٣٦٥ يوماً – وحيث أن الشمس لا تظهر في نفس موضعها السابق إلا كل ٣٦٥ $\frac{١}{٤}$ يوماً وربع يوم تقريباً ، أي أن السنة الشمسية تزيـــد على دورة نجم الشعري اليمانية بمقدار $\frac{١}{٤}$ يوم فإن ذلك قد أدى إلى اختلاط الأمر على المصري وأحس به لأن السنة التي يعرفها كانت تنقص يوماً عن السنة الشمسية في كل أربعة سنوات ومعنى هذا أن النجم الشعرى اليمانية لا يعاود الظهور مع الشمس في الأفق الشرقي في نفس اللحظة إلا كل (٤ × ٣٦٥ =) ١٤٦٠ سنة ، وقد ورد في كراسة تلميذ من عهد الأسرة التاسعـة عشرة ما يـدل على الحيرة من التباين بين التقويمين الشمسي والمصرى المبني على دورة الشعرى اليمانية حيث جاء فيها « خلصني (يا إلهي) من السنة المضطربة . إن الشمس لم تعد تشرق فالشتاء يحل محل الصيف وتسير الشهور القهقرى .

وقد لاحظ المؤرخون أن المؤرخ سانسريون Çenserion سجل ظاهرة اجتماع الشعرى اليمانية والشمس وقت الشروق سنة ١٤٠ م ومعنى هذا أن تلك الظاهرة حدثت قبل ذلك سنة ١٣٢٠ ق.م ، سنة ٢٢٨٠ ق.م وهكذا – وقد قدر هؤلاء المؤرخون أن المصريين توصلوا إلى معرفة السنه على أساس ٣٦٥ يوماً (دورة الشعرى اليمانيه) منذ أن اجتمع هذا النجم مع الشمس في الأفق الشرقي في المرة السابقه لبدء العصر التاريخي على الأقل (حوالي سنه ٤٢٤٠ ق. م)، أى أن المصرى بدأ تقويمه منذ المرة التي حدثت فيها هذه الظاهرة قبل معرفة الكتابة وقبل العصر التاريخي ولكن ليس لدينا ما يؤكد هذه الفكرة وإنما هي مرجحة على أى حال .

ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين اصطلحوا على أن الأسرة الأولى بدأت حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م وظلوا متفقين على هذا التأريخ كبداية للعصر التاريخي في مصر مدة طويلة ولكن هذا الرأي تعرض للتعديل أكثر من مرة ، وآخر الاراء وأحدثها تميل إلى جعل بداية هذه الأسرة ترجع إلى عام ٣١٠٠ تزيد أو تنقص ١٥٠ ق . م تقريباً على أساس مقارنة بعض تواريخ ملوك بلاد النهرين بالنسبة لتواريخ معاصريهم من ملوك مصر ، ومع ذلك فما زال هذا التاريخ موضعاً للبحث وخاصة بعد الاستعانة ببعض التجارب العلمية المبنية على الإشعاع الذري وأثره في المواد العضوية واستخدام ذلك في تقدير عمر الآثار من مختلف البقاع ومن مختلف العصور وعلى هذا يعاد النظر في بداية عهد الاسرات المصرية ولم يستقر الأمر بعد بصفة قاطعة .

تقسيم العصر التاريخي إلى الادوار التي مرت بها مصر الفرعونية :

سبق أن أشرنا إلى أن مانيثون *Manethon* قسم تاريخ الفراعنة حسب حكم الملوك إلى إحدى وثلاثين أسرة وقد تبعه معظم المؤرخين في هذا التقسيم – ولكن تيسيراً لدراسة هذا التاريخ يمكننا أن نقسمه حسب ما أصاب البلاد من قوة وضعف إلى أربعة أدوار رئيسية من النهوض أعقب كلا منها دور من أدوار الفوضى أو الاضمحلال كما يلي :

١ – عهد الدولة القديمة وهو حكم الأسرات ابتداء من الأسرة الأولى حتى الأسرة السادسة (٣١٠٠ – ٢١٨١ ق . م) .

٢ – عهد الإضمحلال الأول وهو يشمل حكم الأسرات السابعة إلى الحادية عشرة (٢١٨١ – ٢١٣٤ ق . م) .

٣ – عهد الدولة الوسطى وهو يشمل حكم الأسرات من الحادية عشرة

إلى الثالثة عشرة (٢١٣٤ – ١٧٨٦ ق . م) .

٤ – عهد الاضمحلال الثاني وهـو يشمل الاسرات الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة وفي خلاله حكم الهكسوس في مصر (١٧٨٦ – ١٥٨٠ ق . م) .

٥ – عهد الدولةالحديثة أو عصر الإمبراطورية وهو يشمل الأسرات الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٨٠ – ١٠٨٧ ق . م) .

٦ – عصر الاضمحلال الثالث وحكم الكهنة والليبيين والنبتاويين وهو يشمل حكم الاسرات الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين (١٠٨٠ – ٦٦٤ ق.م).

٧ – عهد النهضة وهو يشمل حـــكم الأسرة السادسه والعشرين (٦٦٤ – ٥٢٥ ق . م) .

٨ – عهد الفوضى الأخير وهو يشمل حـــكم الأسرات السابعة العشرين إلى الحادية والثلاثين حيث بسط الفرس سلطانهم على مصر في معظم هـذه الفـترة (٥٢٥ – ٣٣٢ ق . م) .

ومما تجدر ملاحظته أن وجهات نظر المؤرخـــين تختلف في تحديد بداية ونهاية بعض هذه الأدوار ، كما أن بدء الأدوار لا يتطلب – بالضرورة وفي كل حالة – انتهاء حكم الأسرة التي كانت قائمة في الدور السابق ، وفي تتبعنا لهذه الأدوار إنما نأخذ برأي غالبية العلماء ، على أنه من الممكن أن نقسم التاريـخ المصري – قبل مجيء الاسكندر إلى مصر – بأكمله إلى قسمين كبيرين : الأول قامت فيه مصر بدور إيجابي وهو يبدأ من أقدم العصور وينتهي بنهاية الدولة الحـديثة والثاني قامت فيه بـدور سلبي عـلى العموم وهـــو يبـدأ مـــن نهاية الدولة الحـديثة حتى وصول الاسكندر ، فتاريخ الفراعنة

علىهذا الأساس يشمل القسم الأول الذى قامت فيه مصر بدورها الايجابي في معظمه ثم عاشت في معظم القسم الثاني من تاريخها في دورها السلبي وهـذا التاريخ هو الذي سنقوم بدراسته وفق أدوار القوة والضعف التي سبقت الإشارة اليها .

١ ــ عهد الدولة القديمة

في عصر ما قبل الاسرات اتحدت أقاليم مصر المختلفة في إقليمين كبيرين أحدهما في الوجه القبلي والآخر في الوجه البحري – وتشير بعض المصادر التي تحدثنا عنها فيما سبق[1] إلى حكم ملوك من الآلهة وأنصاف الآلهة لهاتين المملكتين – وقد اختلفت الآراء بشأن التوحيد الذي قامت على أساسه الاسرة الاولى ولكن ما زلنا نأخذ بالرأي القائل بأن مملكة الوجه البحري – قبل بداية العصر التاريخي – استطاعت أن تخضع مملكة الوجه القبلي ثم انفصلت هذه عنها ، إلا أن مملكة الوجه البحري عادت إلى القوة من جديد ووحدت البلاد للمرة الثانية ولكن الوجه القبلي انفصل مرة أخرى ثم استطاع أن يظفر بالقوة وأن يقوم هو بإخضاع الوجه البحري وأن يوحد البلاد التوحيد الثالث والاخير الذي قامت على أثره الاسرة الاولى .

ويبدو أن ملكاً قبل مينا أو نعرمر (الذي اصطلح المؤرخون على جعله مؤسس الاسرة الاولى وتضعه بعض القوائم على رأس الاسرات الفرعونية)حاول توحيد المملكتين وربما نجح في ذلك بعض النجاح ويعرف هذا الملك باسم الملك العقرب إذ كتب إسمه برمز يبين صورة هذا الحيوان إلا أن مينا أو نعرمر

---

(١) انظر اعلاه ص ٨٩ - ٩١ .

كان صاحب الفضل في أول توحيد قام على دعائم ثابتة ظهرت آثارها في عهد الأسرتين الأولى والثانية .

فالآثار التي اكتشفت من ذلك العهد تدل على أن المصري ظل يستعمل كل ما صادفه من أحجار مناسبة في صنع الأدوات والأواني اللازمة له وطور فيها كما استعمل النحاس وإن كان ذلك بدرجة محدودة، واستخدم العاج والاصداف في تطعيم مصنوعاته الخشبية وارتقى بفن النسيج فتوصل إلى صناعة منسوجات دقيقة راقية وتدل آثارهم كذلك على أنهم تأنقوا في زينتهم وفي طعامهم إلى درجة الترف .

ومع أن مصر ظلت طوال عهودها الفرعونية تنقسم من الناحية الإدارية إلى شطريها القبلي والبحري (إشارة إلى المملكتين اللتين تكونتا في عصر ما قبل الأسرات) فإن الملك خلال عهد هاتين الاسرتين صار مطلق السلطة وله صفة الألوهية إذ كان يعتبر صورة الإله الحية على الارض وعليه يقع عبء الدفاع عن مصر ورفاهية شعبها فيأمر بحفر الترع وإقامة الجسور وينشر العدالة بين الناس – يعاونه في ذلك عدد كبير من الموظفين على رأسهم وزير ربما كان أصل اختصاصه ان يكون حلقة الاتصال بين الملك وبين موظفيه الذين كانوا ينقسمون من حيث الاختصاص إلى موظفين مختصين بمملكة الجنوب وآخرين مختصين بمملكة الشمال فمثلا كان هناك حامل أختام ملك الجنوب وآخر يحمل لقب حامل أختام ملك الشمال وكانا يرأسان بيت المال المزدوج أي بيت مال الجنوب وبيت مال الشمال – وفضلا عن ذلك كانت مصر تنقسم إلى مقاطعات يرأسها حكام أو أمراء ، يعاونهم على تصريف الامور فيها عدد من الموظفين الذين كانوا يعنون بتدوين إرتفاع الفيضان لتقدير الضرائب على الزراعة المحتملة ويقومون بعمل التعداد الذي كان يعمل كل سنتين – وكانت بكل مقاطعة هيئة تشرف على القضاء وعلى سائر الأعمال الإدارية وتشرف على عملية الإحصاء وتراقب

الفيضان فكانت علي الارجح تجمع بين اختصاص المحلفين واختصاص أعضاء مجالس المدن أو المحافظات .

ولا شك أن المصري عرف طريقه إلى بعض البلدان المجاورة منذ أقدم العصور وتبادل معها التجارة وقد زاد نشاطه في هذا المضمار خلال عصر هاتين الأسرتين ولم يكن هذا التبادل ليتم طوعاً في كل الأحيان بل ربما كان الحصول على سلع الجيران يتم أحياناً عن طريق الإغارة عليهم أيضاً .

ويصف بعض المؤرخين الأسرتين الأولى والثانية بأنها ثينيتان ويضمها في عهد قائم بذاته أطلقوا عليه اسم «العصر الثيني أو الطيني» نسبة إلى طينه *Thinis* القريبة من أبيدوس وذلك لانهم شاهدوا إختلافاً واضحاً بين حضارة هاتين الأسرتين وحضارة الاسرة الثالثة ، ولان الاعتقاد كان سائداً بأن ملوك هاتين الأسرتين قد دفنوا في أبيدوس واحتمال أن عاصمتهم كانت طينة - ولكن نظراً لأن التطور الذي حدث في الأسرة الثالثة وإن كان عظيما بحيث يبدو الفرق واضحاً بين حضارتها وحضارة الاسرتين السابقتين فإن هذا التطور يعد نتيجة حتمية لحياة الاستقرار التي سادت عصر هاتين الاسرتين ولا لداعي لتمييزهما عن العهد التالي الذي يرتبط بهما ارتباطاً وثيقاً - كذلك أصبح من المشكوك فيه الآن أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد دفنوا في أبيدوس ، وعلى هذا فإن وصفهما بالأسرتين الثينيتين أصبح لا مبرر له - أما إذا دعت الحاجة إلى تمييز عهد هاتين الأسرتين عن العهد التالي له لما شهده هذا الأخير من تطور ضخم في ميدان الحضارة فلا بأس من أن نطلق عليه الاسم الذي اختاره نفر قليل من المؤرخين وهو اسم « عصر الأسرات الباكر » أو « باكورة عصر الأسرات » ، ومهما يكن من أمر فإننا سنعتبر عهد الدولة القديمة يبدأ من عهد الأسرة الأولى وينتهي بعهد الاسرة السادسة وسنتناوله بالدراسة على حسب الأسرات كما يلي :

الأسرة الأولى –

مينا :

اختلف المؤرخون كثيراً حول شخصية هذا الملك – ومهما كان أمر هـذا الاختلاف فإن غالبية الباحثين تنسب اليه توحيد مصر وأنه حول مجرى النيل وأنشأ في المكان المتخلف عن مجراه الاصلي عاصمة جديدة عرفت باسم منف اى الحائط الابيض – ومن المرجح أنه قـام بحروب ضد الليبيين والنوبيين واحتفل ببعض الاحتفالات الدينية وخاصة تلــك التي تتعلق بمراسيم التتويج ، وينسب إليه كذلك تشييد بعض المعابد ومن المحتمل أنه تزوج أميرة من الوجه البحري تدعى « نيت حتب » .

وربما كانت الاشارة إلى بناء العاصمة الجديدة منف ممـا يؤيد أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد حكموا في هذه العاصمة وليس في طينه كما كان الاعتقاد سائداً من قبل وبالتالي يؤيد ما ذهبنا إليه من عدم وجود ما يبرر تسمية عهد هاتين الاسرتين باسم العهد الطيني [1] .

جر :

لم يكن هذا الملك أقل نشاطاً من سلفه فقد عثر على اسمه منقوشاً على صخور جبل الشيخ سليمان [2] بالقرب من وادي حلفا ويبدو أنه انتصر على أهـل النوبة مما يوحى بأن ملوك الأسرة الأولى بدأوا فعلاً في الاحتكاك ببلاد النوبة بقصد تأمين حدودهم الجنوبية. أو رغبة في الاستيلاء على بعض حاصلات الجنوب .

---

(١) انظر اعلاه ص ٩٨

(٢) *Arkell, JEA 36, pp. 28 - 9*

جيت (وادجيت)

وصلت مصر في عهد هذا الملك إلى درجة لا بأس بها من الرقي فقد عثر على آثار من عهده يتجلى فيها الإتقان والروح الفنية العالية كما وجد اسمه مكتوباً على صخور أحد الوديان التي تربط بين أدفو وساحل البحر الاحمر مما يدل على النشاط في إرسال البعثات التجارية او بعثات استغلال المحاجر والمناجم من منطقة الصحراء الشرقية .

دن :

ظل هذا الملك يعرف باسم « دن » او « اودمو » ولكن النطق الاول لاسمه يفضل على النطق الثاني [١] وقد استدل من الآثار التي ترجع إلى عهد هذا الملك على انه كان عظيم النشاط إذ حارب البدو الذين في شرق مصر واحتفل بعيد جلوسه على العرش ، وقد اتخذ لقباً يرمز إلى اتحاد الوجهين برمزين جديدين هما نبات البوص (الغاب) للدلالة على الصعيد والنحلة (اليعسوب) للدلالة على الدلتا – وربما كان في ذلك ما يدل على حدوث اضطرابات تهدف إلى انفصال المملكتين فاستطاع ان يقضي عليها واتخذ هذا اللقب الجديد لتأكيد تمكنه من حكم البلاد بأجمعها وإعادة الوحدة إليها .

عدج ايب :

يبدو أنه حارب البدو كما يشير إلى ذلك حجر بلرمو – وقد قام برحلة إلى مكان لم يتمكن المؤرخون من تحديده بعد . وانتصر عن سكان هذا المكان ، كذلك احتفل بعيد جلوسه علي العرش وامر بعمل بعمل اول إحصاء معروف

---

(١) *Sir A . Gardiner , Egypt of the Pharaoahs (oxford* 1961) , *pp* . 401 - 2

في التاريخ كما قام ببعض الاحتفالات الدينية وتأسيس بعض المدن .

وقد تبع هذا الملك ملكان لا تشير آثارهما إلى ما يستحق الذكر وإن كانت الدلائل تشير إلى حدوث نزاع بين أفراد الأسرة المالكة انتهى بالاطاحة بها .

الأسرة الثانية :

لا ندري هل كانت هذه الأسرة تمت بصلة القرابة إلى الأسرة السابقة أولا ؟ والمهم أن مانيثون بدأ أسرة جديدة يحتمل أنها نشأت على إثر حدوث نزاع عائلي في الأسرة الأولى أدى إلى زوال حكمها - وما زال تاريخ الأسرة الثانية يشوبه بعض الغموض فجداول الملوك تشير إلى ثمانية ملوك على الأقل حكموا في هذه الأسرة .

ومما تجدر ملاحظته أن ملوك هذه الأسرة لم ينتسبوا جميعا إلى إله رئيسي واحد فبعض الملوك لم ينتسب للاله حور الذي اعتاد الملوك أن ينسبوا إليه مما يوحى بحدوث بعض المتاعب أو الثورة على المعبود الرسمي أثناء حكم هذه الأسرة - فمن المعروف أن الإله حور كان صاحب النفوذ في المملكة الموحدة وأن الإله ست كان صاحب النفوذ الأول في الصعيد ، وقد درج الملوك على عادة انتمائهم للاله حور إذ كانوا ينقشون رمز هذا الإله قبل أسمائهم للدلالة على أنهم ينتسبون إليه وبدأوا يهتمون بالعاصمة الشمالية منف ويستقرون فيها ، وربما كان ذلك سبباً في إثارة كهنة الإله ست الذين شعروا بتضاؤل نفوذهم القديم فبذروا بذور الفتنة وأشعلوا نيران الثورة ضد هذه الإتجاهات الجديدة مما جعل أحد ملوكها وهو «برإيب سن» يحذف رمز الإله حور قبل اسمه ويضع رمز الإله ست في مكانه أي أنه أعلنها صريحة بأنه ينتمي إلى الإله ست وليس للإله حور ، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله حذف اسم هذا الملك من بعض قوائم الملوك

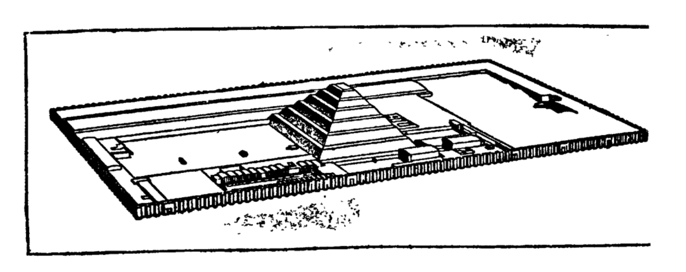
باعتباره خارجاً على عبادة حور وهو المعبود التقليدي الذي ظـل الفراعنة في غالبية العهود يدينون له بالولاء .

ومع أن عهد الأسرة الثانية قد حفل بالإختلافات السياسية وربما بحـدوث منافسات على العرش أيضاً إلا أن التقدم في مرافق الدولة لم يقف عند حد فقد استقرت جذور الحضارة المصرية منذ عصر ما قبل الأسرات وأخذ الصناع والفنانون ينهضون بما تخصصوا فيه وبلغوا في ذلك درجة كبيرة من الإتقان والرقى ، وقد بدأت صناعة التماثيل الملكية في عهد أحد ملوكها ويدعى خع سخم .

الأسرة الثالثة :

يعد عصر الأسرة الثالثة بداية عصر بناة الأهـرام ومن المحتمل أن زوسر وضع على رأس هذه الأسرة الجديدة (مع أنه كان ابناً لآخر ملوك الأسرة الثانية) نظر لما اشتهر به من همة ونشاط ومن جهة ، ولأن عصره يعد بـداية تطور حضاري ضخم وخاصة في فن المعمار الذي تمثل في بناء أول هرم مدرج في التاريخ من جهة أخرى – وكان الفضل في هذا البناء لوزيره إيمحتب الذي يحتمل أنه بدأ تقلده الوظائف منذ أواخر الأسرة الثانية ، وقـد خلد اسمه في التاريخ إلى درجة أنه ألـه ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد على الاقل إلى نهاية عهد البطالمة ، فقـد كان إلى جانب شهرته في ميدان الهندسة كبيراً لكهنة الشمس ورئيساً للمثالين ومشرفاً على القصر ونابغة في الطب حتى أن اليونان وحـدوه مع إله الطب عندهم (اسكاليبوس) ، وتتجلى عبقرية إيمحتب في إشرافه عـلى بناء هرم سقارة المدرج الذي شيده لمليكه زوسر وهو يعد عملاً فريداً من حيث أنه أول بناء ضخم من الحجر ، ويكفي للتدليل على عظمة مهندسه وعلو كعبه في فنه أن نتصور الوسائل البدائية الـتي كانت تستخدم في البناء وقطع الاحجار ونقلها في هذا العهد السحيق ، فلا شك أن قدرة إيمحتب على حشد العدد الهائل

من العمال اللازمين للعمل وتنظيمهم قد بلغت أقصى حد – والهرم عبارة عن ستة مصاطب بعضها فوق بعض وارتفاعه ستون متراً تقريباً والسور المحيط بـه وبالمباني الملحقة به يبلغ طوله ٥٤٤ متراً وعرضه ٢٧٠ متراً . وقد عثر في دهاليزه على أوان من الأحجار مختلفة معظمها مهشم عن قصد وقد قـدر عددها بنحو ٣٠,٠٠٠ آنية .



شكل ٢٣ منظر تخيلي لما كان عليه هرم زوسر المدرج بسقارة وملحقاته

ولا يقتصر نشاط زوسر المعماري على سقاره بـل وجدت له آثار في جهات أخرى ، كما يبدو أنه عمل على تأمين البلاد من إغارات البـدو وأرسل حملة لتأديب بدو سينا ومما ينسب إلى عهده أن مجاعة حدثت في البلاد بسبب توقف الفيضان عن الوصول إلى منسوبه المعتاد ، وبعد استشارة حاكم الإقليم الجنوبي من مصر أمر زوسر بأن توقف الاراضى الواقعة على جانبي النيـل من جزيرة سهيل إلى قرب الدكة في بلاد النوبة للإله خنوم وبذلك عاد الفيضان – كما تشير القصة التي تحدثنا عن هذه المجاعة – إلى سابق عهده ولكننا لا نستطيع أن نؤكد ما جاء في هذه القصة التي نقشت على صخور جزيرة سهيل لأن كهنة

خنوم هم الذين دونوها في عهد البطالمة [١] وربما كان ذلك للاشادة بفضل إلهم والدعاية له ٠

سخم خت (زوسر الثاني):

وجدت لهذا الملك ثلاثة نقوش في وادي مغارة بسينا ظل الاثريون إلى عهد قريب ينسبونها خطأ إلى ملك من الاسرة الاولى هو « سمرخت » كما أن اسم سخم خت كان ينطق سانخت ولكن بعد اكتشاف الهرم المدرج لهذا الاخير في سقارة (بالقرب من هرم زوسر) سنة ١٩٥٤ تمكن الباحثون من قراءة اسمه على سدادت أواني فخارية عثر عليها بالهرم وعرف أن صحة قراءة اسمه هي « سخم خت » [٢] ٠

وتاريخ هذه الاسرة يشوبه بعض الغموض وما زال عـــدد ملوكها موضع خلاف ، وقد قام حوني وهو آخر ملوك الاسرة بتحصين إليفانتين إذ يبدو أن الحالة على الحدود الجنوبية لم تكن مطمئنة في عهده ، ومن الشخصيات الهامة التي عاشت في أيام الاسرة الثالثة أحد كبار الموظفين ويدعى « مـتن » ، تدرج في عدد كبير من الوظائف وكان من المعمرين حيث بـدأ حياته الوظيفية في عهد زوسر وامتد به العمر إلى أوائل الاسرة الرابعة ، وقد نقلت مقبرته بأكملها إلى متحف برلين ومن نقوشها عرف الشيء الكثير عن التنظيم الإداري للبلاد في ذلك العهد ٠

---

(١) كان النص الذي يشير إلى قصة هذه المجاعة والذي نقش على صخور جزيرة سهيل ينسب إلى عهد بطليموس العاشر ولكن أحدث الآراء تنسبه إلى عهد بطليموس الخامس (ابفان)
انظر *Baraguet* , « *La Stéle du Famine a Sehel* » (*Bibl . d' Etudes* , *T 24*) *Le Caire* 1953 . *p* , 33 *n*. 1 .

(2) *Edwards* , « *The Pyramids of Egypt* » (*Pelican A* . 168 ,) *p* . 80

الاسرة الرابعة :

تكاد المصادر التاريخية تتفق جميعها على عدد ملوك هذه الاسره ويبدو أن العرش انتقل اليها من الاسرة الثالثة عن طريق المصاهرة فمؤسسها « سنفرو » تزوج علي الارجح من ابنة حوني وبذلك أصبح صاحب حـــق شرعي في اعتلاء العرش .

سنفرو :

امتاز هذا الملك بالنشاط إذ أنه قام بحملة إلى النوبة وأخرى إلى ليبيا جلب منها عدداً كبيراً من الاسرى والماشية كما قام بحملة أو بضعة حملات على سينا إذ تمثله النقوش الصخرية في وادي مغارة وهو يقضي على أحد البدو – وربما كان الغرض من الاغارة على سينا هو استغلال مناجم النحاس فيها – ويشير حجر بلرمو إلى أنه أرسل كذلك أربعين سفينة لإحضار كل مـن خشب الأرز من لبنان، ومما يؤيد ذلك أن كثيراً من تلك الاخشاب قد عثر عليها في هرمه القبلي في دهشور – ومن المرجح أن أعماله الحربية وإرساله السفن إلى لبنان قد جعله حاكماً مرهوب الجانب ، ومع هـذا فقد كان ملكا عطوفاً رحيما كما يستدل على ذلك من كثير من النصوص التي أشارت إليه ولذلـــك أله بعد موته بنحو ستمائة عام .

وقد جرت العادة على أن ينسب إلى هذا الملك هرمان في دهشور أحدهما الهرم المنحنى الذي يعرف لدى العامة باسم الهرم الكاذب (شكل ٢٤) ، كما ينسب اليه هرم ثالث هو الهرم الناقص في ميدوم (شكل ٢٥) الذى كان



شكل ٢٤ - الهرم الكاذب أو المنحنى) في دهشور

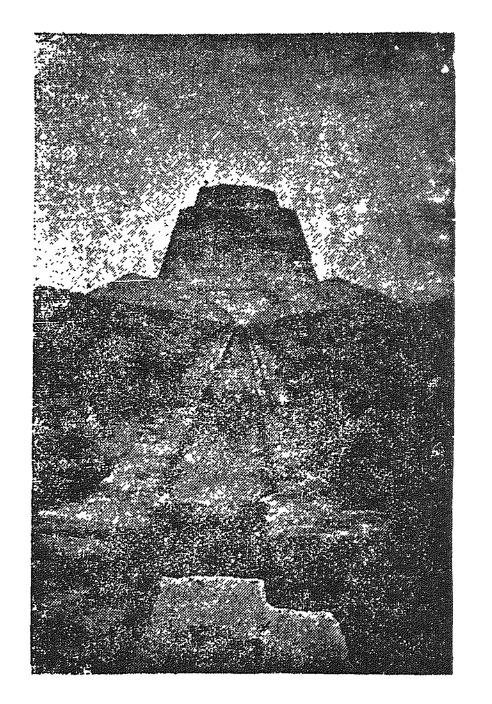
ينسب أصلاً إلى حوني آخر ملوك الاسرة الثالثة [١] .

وقد اشتهر عهد الاسرة الرابعة عامـــة وعهد سنفرو بصوره خاصة بتقدم الفن ، ومن بين القطع الرائعة المجردة في المتحف المصري وتنتمي إلى هذا العهد تمثال « رع نفرت » وزوجها « رع حتب » الذي يرجح أنه أحد أبناء سنفرو — كما تدل رسوم مقبرة الاميرة «نفر معات»وخاصة رسم مجموعة الأوز المعروفة باسم أوزميدوم على مبلغ ما وصل اليه الفن من رقى ، كذلك كان الأثاث الجنزى للملكة حتب حرس (زوجة سنفرو) الذي وجد مكدساً في بئر قريبة من هرم ولدها خوفو من أروع ما عثر عليه من آثار الفراعنه — ومن المحتمل أن هذه الملكه كانت قد دفنت أولا في دهشور بالقرب مـــن زوجها سنفرو ولكن لصوصاً سطوا على مقبرتها واكتشف أمر هذه السرقه فنقلت المحتويات الباقيه في المقبرة إلى تلك البئر المشار إليها بما في ذلك تابوتها الذي عثر عليه الأثريون خالياً رغم أن غطاءه كان محكماً فوقة ولذا يرجح أن أمر سرقة جثة الملكة قد أخفى عن ولدها خوفو .

---

(١) تارن أحمد فخري « مصر الفرعونية » (القاهرة ١٩٥٧ ص ٦٧ - ٦٩)،

Sir , A , Gardiner , op . cit. ,p . 78 ; Edwards . op . cit . , pp . 114 - 115 .



شکل ۲۵ ـ هرم میدوم

وحكم سنفرو نحو أربعة وعشرين عاماً سادت البلاد فيهـــا مظاهر الغنى والرفاهية وأصبحت مملكة وطيدة الأركان يديرها موظفون مدربون، ومن بين هؤلاء « متن » الموظف الذي سبقت الإشارة إلى أنه تدرج في وظائف الدولة في عهد الأسرة الثالثة ، فقد عاصر هذا الموظف ملوكها ابتداء من عهـــد زوسر ولم يمت إلا في عهد سنفرو.

خوفو :

تلا والده سنفرو على العرش وأفاد من الاستقرار والنظام اللذين وضع أسسه والده فنعم بحكم وطيد هيأ له الفرصة للقيام بأعمال ضخمة حيث عثر على اسمه في كثير من الجهات بسينا .

ويبدو أن التجارة بين مصر وفينيقيا كانت مزدهرة منذ عهد الأسرة الثانية ولكنها نشطت في عهد الأسرة الرابعة حيث وجدت أحجار من معبـد أقيم في ببلوس (جبيل) تحمل اسم خوفو ، مما يوحي بوجود جاليـة مصرية أقامت في هذه المدينة للتجارة .

ويشتهر خوفو ببناء هرم الجيزة الأكبر الذي خلد اسمه في التاريخ إذ أنـــه كان أحد عجائب الدنيا [١] ، وقد فاق هذه العجائب جميعاً في أنه الوحيد الذي ظل قائماً حتى الآن – ومن ضخامة هذا الهرم يتضح لنا أن تشييده تطلب عدداً هائلاً من العمال والمهندسين وأنه استغرق عدة سنين ، ويذكر هيرودوت أنه سمع من الكهنة أن العمال الذين استخدموا في البناء كانوا مائة الف عامل يعملون ثلاثة

---

(١) عجائب الدنيا السبع التي اشتهرت في العالم القديم هي : أهرام مصر ، حدائق بابــل المعلقة ، معبد أرتيميس (إلهة الصيد لدى اليونان) في إفيسوس ، تمثـــال زيوس الذي اقامه فيدياس ، الوزيليوم (مقبرة موزولوس ملك الكاريين في هاليكارناسوس ، وتمثـــال هليوس إله الشمس في رودس ، منارة الاسكندرية على جزيرة فاروس .

أشهر في العام وأن عملية البناء استغرقت نحو ثلاثين عاماً ، وهو يصف خوفو بالقسوة ونسب اليه أنه سخر شعبه في بناء مقبرته ، وقد وجدت هذه الفكرة صداها لدى الكثيرين من المحدثين ولكننا لو تأملنا ظروف مصر في ذلك العهد لوجدنا أن بناء الهرم بهذا الوصف كان – على النقيض مما ذكره هؤلاء – عملاً إنسانياً حيث أن الزراعة في مصر كانت تتعطل مدة الفيضان ، وفي هذه الفترة من كل عام كان الفلاح يعيش في شظف من العيش ويتعذر عليه الحصول على القوت فكان قيامه بالعمل في بناء مقبرة الفرعون لقاء غذائه وكسائه مما يساعده على تحمل أعباء الحياة في تلك الفترة من السنة ، كما أنه لا شك كان يرحب باشتراكه في عمل من أجل مليكه الذي يعتبره إلهاً ويغتبط لذلك مهما كلفه من جهد ووقت وما زلنا نري حتى الآن أن المصرى المعاصر يتحمس لدينه ويتفانى في العمل من أجل رفعته .

والهرم الأكبر وقت بنائه كان يرتفع ١٤٦ متراً ولكن جزءاً منه تهدم فأصبح ارتفاعه الآن حوالي ١٣٧ متراً وهو يشغل مساحة قدرها ١٢ فداناً تقريباً واستعملت في بنائه نحو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ كتلة من الحجر متفاوتة الوزن – ولقد قدر بعض الرياضيين أن هذه الأحجار لو قطعت إلى قطع صغيرة حجم كل منها قدم مكعب ووضعت متلاصقة لأمكن أن تغطي خطاً يبلغ طوله نحو ثلثي محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء ، هذا ولم يتم بناء الهرم على أساس تصميم واحد بل غير التصميم الأصلي أثناء العمل – ولفرط ضخامته ودقة بنائه والإحساس بإعجازه كثيراً ما يربط بعض الناس بين الأحداث العالمية التي حدثت فيما سبق والتي يتكهنون بأنها ستحل بالعالم وبين أطوال الهرم وزواياه ويؤكدون وجود علاقة وثيقة فيما بينها وأن هذا الهرم مستودع عجيب للأسرار ، ولكن كل ما يذكر في هذا الصدد عبارة عن وهم خاطىء مبني على الخرافة وليس له أي أساس علمي صحيح .

ولا شك أن خوفو قد وفق إلى أبعد حد في المحافظة على هيبة الملكيـــة ومراعاة النظام إذ لم يعثر من عهده على تماثيل للأفراد بل ولم يعثر له هوشخصياً إلا على تمثال صغير لا يتجاوز ارتفاعه عشرة سنتيمترات تقريباً ، وربمـا كانت إقامة التماثيل في نظره قاصرة على الآلهة فقط وعلى الملوك باعتبارهم ممثلين لهم في الأرض أو أكبر كهنتهم – وتتجلى مراعاة النظام والدقة في عهده فيما نراه من انتظام مقابر المقربين من أهله ورجال بلاطه وكبار الموظفـــين حول هرمه في صفوف متراصة تفصلها طرقات مستقيمة وكلما كان صاحب المقبرة أقرب إلى الملك كلما كانت هذه المقبرة أقرب إلى الهرم وهكذا – وقد عثر على مقابر كثيرة لم يتم بناؤها ولم تنقش جدرانها كما أن بعضها محيت من نقوشها أسماء أصحابها مما يوحي بأن خوفو تزوج بأكثر من زوجة وأن الأبناء اختلفوا فيما بينهم وحدثت مؤامرات حول العرش .

ولا بد أن عنصراً من دم شمالي أوليبي وفد إلى مصر في ذلك الحين أو أن البيت المالك المصري تصاهر مع أفراد من هذا العنصر على الأقل لأننا نجد مقبرة من مقابر جبانة الجيزة في عهد خوفو حوت رسوماً وتماثيل لصاحبتها «مرسعنخ» ووالدتها وهما تلبسان ملابس تختلف عن ملابس المصريات ولون شعرهمـا أشقر مشوب بالحمرة كما أن عيونهما زرقاء .

كذلك لا بد وأن نفوذ كهنة رع أخذ يزداد ابتداء من عهد خوفو على الأقل ، كما يستدل على ذلك من دخول اسم رع في تركيب أسماء أبناء خوفو ومن الاشارة في القصة المعروفة في الأدب المصري باسم قصـة خوفو والساحر « ددي » إلى زيادة نفوذ هؤلاء الكهنة حيث تذكر القصة أن الساحر أخبره بأن أبنـاء أحد كهنة رع سيتولون العرش بعد أن يحكم ابنه ثم حفيده من بعـــده وهذه القصة وردت في بردية تعرف باسم بردية وستكار .

ددف رع :

يبدو أن ولي العهد الشرعي مات في عهد والده خوفو فتولى ددف رع الذي يحتمل أنه كان ضحية لمؤامرة من المؤامرات إذ أنه لم يستمر في الحكم أكثر من ثمانية أعوام ويبدو أنه خرج على بعض التقاليد المألوفة لأنه لم يشيد هرمه بالقرب من هرم والده وخلفائه بل بناه في أبو رواش .

خفرع :

تولى العرش بعد أخيه ددف رع وبنى هرمه خلف هرم أبيه في الجيزة وهو يبدو أعلى من الهرم الأكبر ولكنه في الواقع مشيد على ربوة أكثر ارتفاعاً من تلك التي بنى عليها هرم خوفو ، ويعد هذا الهرم ومجموعة المباني الجنزية المحيطة به أكمل ما عثر عليه من مجموعات جنزية كما أن التماثيل التي عثر عليها وخاصة تمثاله المصنوع من حجر الديوريت تعد آية من آيات الفن المصري التي وصل فيها فن النحت إلى القمة .

وينسب تمثال أبو الهول إلى خفرع ويرجح أنه كان عبارة عن صخرة كبيرة كانت تعترض الطريق الموصل بين المعبد الجنزي القائم في شرق الهرم وبين معبد الوادي المقام على حافة الهضبة فاستغلت هذه الصخرة في تجميل المنطقة ونحتت في شكل تمثال هائل على هيئة أسد رابض رأسه في صورة رأس خفرع — وقد عبد هذا التمثال فيما بعد على اعتبار أنه رمز لمعبود آسيوي كان يدعى «حورون» وعرف المكان الذي أقيم فيه باسم « بوحول » وهو الذي حرف إلى الاسم الحالي « أبو الهول » ومن بين الأسماء التي عرف بها « شسب عنخ » أي «الصورة الحية» أو « التمثال الحي » وهذا الاسم هو الذي حرفه اليونان إلى كلمة اسفنكس « Sphinix» التي ما زالت تستعمل في اللغات الأجنبية إلى الآن .

منقرع (منكاورع) :

ما زال الاختلاف قائماً بين المؤرخين حول تتابع ملوك الأسرة الرابعة فمنهم من يرى وضع « ددف رع » سالف الذكر في نهاية الأسرة بدلاً من أن يكون تالياً لخوفو ، وبالمثل يظن فريق من المؤرخين أن منـــكاورع لم يخلف والده خفرع في اعتلاء العرش مباشرة وإنما سبقته مدة لم يستقر فيها الحكم تمكن فيها واحد أو اثنين من إخوة خفرع من تولى العرش فيها .

ومهما كان الأمر فإن منـــكاورع حكم نحو ٢١ عاماً أو أكثر ومع هذا لم يتمكن من إتمام هرمه الصغير ومجموعته الجنزية فأتمها ابنه شبسكاف — ويبدو أن مباني أسلافه كانت عبئاً كبيراً على الخزانة وكذلـــك كانت المنازعات الداخلية ولذا تأثرت حالة البلاد الاقتصادية في عهده .

وحينما فتح هرمه سنة ١٨٣٩ عثر فيه على تابوت الملك ومنه نقل إلى سفينة تسمى أوريجون لتحمله إلى انجلترا ولكن هذه السفينة غرقت بما فيهـــا أمام شواطىء أسبانيا .

شبسكاف :

تولى بعد والده منكاورع ولكنه لم يعش بعد ذلك أكثر من أربعة سنوات ، ويظهر أنه واجه خلال حكمه القصير نفوذ كهنة رع الذي أخذ يشتد منذ عهد خوفو على الأرجح [١] — وربمـــا أراد شبسكاف أن يتخلص من نفوذ هؤلاء الكهنة بدليل عدم تشييده لمقبرته (التي بناها في سقارة) على هيئـة هرم لأنه الشكل الذى يرتبط بعبادة الشمس (رع) بل جعل مقبرته في هيئة تابوت كبير

---

(١) أنظر اعلاه ص ١١٠ .

وهي تعرف حالياً باسم مصطبة فرعون – ومن المرجح أن محاولته هذه لم يكن لها من نتيجة سوى التعجيل بنهاية الأسرة .

خنت كاو إس :

يحتمل أنها كانت زوجة شبسكاف وشهدت محاولته في الحد من نفوذالكهنة ولكن من المرجح أنها كانت ذات أثر كبير في نهاية حكم الأسرة الرابعة لأنها بعد وفاة شبسكاف لم تستطيع القبض على زمام الأمور حيث يبدو أن نزاعاً حدث حول العرش ، وتمكن أحد أفراد الأسرة المالكة ويدعى « بتاح ددف » من الاستيلاء على الحكم ولكنه لم يستمر سوى عامين تمكن بعدها « وسر كاف »من اعتلاء العرش مؤسساً الأسره الخامسة – وهذا الأخير يرجح أنه لم يكن من البيت المالك ، وتشير قصة«خوفو» والساحر«ددي» إلى أنه كان رئيساً لكهنة رع (إله الشمس) قبل أن يعتلي العرش ، وقد تزوج«خنت كاو إس»التي أنجبت منه « ساحورع » ، « نفر إير كارع » اللذان خلفاه على العرش ولو أن القصة المشار اليها تذكر بأنهما أخواه وليس ولديه .

الأسرة الخامسة :

تمتاز هذه الأسرة بأن ملوكها كانوا من أتباع (رع) وقد نشروا نفوذ هذا الإله إلى درجة جعلت ديانته ذات أهمية كبرى طوال العصور الفرعونية التالية بعد أن كانت عبادته قاصرةعلى منطقةهليوبوليس فقط– وقد سبقت الإشارة [١] إلى بردية وستكار التي كتبت في عهد الدولة الوسطى والتي تذكر قصة الملك خوفو والساحر ددي وهي تشير إلى أن هذا الساحر أخبر الملك بأن كاهناً لإله الشمس في هليوبوليس واسمه « وسررع » سينجب ثلاثة أبناء سيكون أكبرهم

---

(١) انظر اعلاه ص ١١٠ .

رئيساً لكهنة الشمس ثم يعتلي العرش ويتلوه بعد ذلك أخواه وأن الملـــك قد انزعج لذلك ولكن الساحر طمأنه بأنه سيستمر على عرشه وسيتلوه ابنه في الحكم ثم ابن ابنه كذلك « وبعدئذ يأتي هؤلاء الذين أشار اليهم الساحر من قبل (أي أبناء كاهن إله الشمس الثلاثة) – ومن المرجح أن هذه القصة من قبيل الدعاية لكهنة الشمس لأننا لا نجد أي دليل على أن أوسر كاف كان قبل اعتلائه العرش يشغل وظيفة كبير كهنة عين شمس .

وسر كاف :

كان لورع هذا الملك أثره في نشاطه الديني فقد قام بتشييد المعابد في مختلف أنحاء مصر وبنى هرماً في سقارة عثر في معبده على تمثال ضخم من الجرانيت لهذا الملك ، ومن المرجح أنه أول من بنى معبداً للشمس في أبو صير – وقد حكم نحو سبعة أعوام ثم تلاه على العرش أخوه ساحورع .

ساحورع :

هو أول ملوك الأسرة الخامسة الذين بنوا أهرامهم في أبو صير وكان هرمه صغير الحجم غير متقن البناء نسبياً بينما كان معبده فخماً زينه بأعمدة من الجرانيت تاج كل منها يمثل حزمة من سعف النخيل ، وقد صور على جدران هـــذا المعبد لوحات بها مناظر تمثل انتصاره على الليبيين وعلى الآسيويين ومن بينها ما يشير إلى رحلة بحرية إلى فينيقيا ، ومناظر سفر الأسطول وعودته لا تدل على أن هذه الرحلة كانت حملة حربية ولذا لا نستطيع أن نتبين الغرض الذي من أجله أرسل الأسطول في هذه المهمة .

ويشير حجر بلرمو إلى أن هذا الملك أرسل حملة إلى بونت وأن هذه الحملة عادت ومعها مقادير كبيرة من البخور والـذهب « وأعواد الخشب » التي ربمـا

كانت عبارة عن قطع من الأبنوس – ومن نقش صخري قرب بـــلدة توماس (ببلاد النوبة) يمكن أن نستنتج أنه أرسل كذلك حملة إلى الجنوب .

وهكذا نجد أن عهد هذا الملك امتاز بنشاط خارجي عظيم خرجت فيـه مصر عن عزلتها واحتكت بجيرانها ، ومن الأدلة على ذلك ما نشاهده في مقبرة أحد أشراف عهده في دشاشه من مناظر حربية منها ما يمثل كيفية استيـــلاء المصريين على أحد الحصون في آسيا .

نفر اير كارع :

بدأ هذا الملك بتشييد هرم له أكبر من هرم أخيه ولكنه مات قبل أن يتم جميع أجزاء المجموعة الجنزية المحيطة به – ويعرف عن هذا الملك أنه كان متديناً طيب القلب إذ يسجل حجر بلرمو الأوقاف التي منحها الآلهة في السنـة الأولى من حكمه ، كذلك نعلم أنه أصدر مرسوماً يحمي حقوق المعابد ويرعى مصالح رجال الدين مما يوحي بأن سلطان الكهنة أخذ في الازدياد وربمـا كان هؤلاء قد استغلوا طيبته وتدينه فعملوا على زيادة نفوذهم وسلطانهم .

ومما يدل على شدة عطفه على موظفيه ورجال حاشيته أن وزيره «واش بتاح» كان يشرف على بناء إحدى المنشآت الملكية وسقط مغشياً عليه أثناء زيارة الملك المكان فأمر بنقله حالاً إلى القصر وحاول أن يجد له علاجاً ولكنـه مات فأمر بأن يصنع له تابوت من خشب الأبنوس المطعم كما أمر بأن يحنـط أمامه – ولم يقتصر على ذلك بل عين ولده الأكبر في بعض الوظائف الكبرى .

كذلك نتبين دماثة خلق هذا الملك وشدة عطفه مما أظهره نحو أحد رجال حاشيته ويدعى « رع ور » – ففي أحد الاحتفالات كان « رع ور » هذا يقف إلى جوار الفرعون وحدث أن لطمت عصا الفرعون ساق « رع ور » دون قصد فذعر الملك لذلك واعتذر عما بدر منه وأمر بتدوين الحادث ليكون ذلـــك

« شهيداً على مكانة هذا الشريف عنده » – وقد تولى بعـد هذا الملك ملكان لم يتركا آثاراً هامة ومن بعدهما تولى الملك التالي :

ني او سررع :

حكم هذا الملك أكثر من ثلاثين عاماً وبنى هرماً ومعبداً للشمس في أبو صير تدل نقوشه على أنه قام بحروب في سوريا وضد الليبيين وإن كان بعض الأثريين يميل إلى أن هذه المناظر مستوحاة من مناظر معبد ساحورع سالف الذكر .

وقد عثر في سقارة على مقابر هامة كثيرة من عهد هذا الملك تعطي نقوشها فكرة واضحة عن الحياة الإجتماعية في ذلك العهد .

من كاو حور :

اعتلى العرش بعد « ني أو سررع » وقد حكم نحو ثمانية أعوام وتشير بعض النقوش في وادي مغارة إلى أنه أرسل حملة إلى سينا – وقد شيـد هرماً لنفسه ولكن لم يعثر عليه حتى الآن [1] .

اسيسي (زدكارع) :

لا يقل حكم هذا الملك عن ثمانية وعشرين عاماً ويبدو أنه كان نشطاً قوياً أمن حدود بلاده إذ أن نقوشاً تحمل اسمه وجدت في توماس بالنوبة وفي وادي مغارة بسيناء وفي وادي الحمامات – وتدل نصوص الرحالة حرخوف الذي عاش في عهد الأسرة السادسة على أن أحد رجال هذا الملك ويـــدعى « باأوردد » استطاع أن يجلب له قزماً من بلاد بونت فكافأه من أجل إحضاره ، وهذا مما يؤيد وجود نشاط مصري تجاري على الأقل مع الأقطار الجنوبية – وقد كشف

---

(١) احمد فخري « المرجع السابق » ص ١٠٥ هامش .

عن هرم هذا الملك ومعبده وأهرام بعض أفراد أسرته ومما عثر عليه في هذا المعبد تماثيل لبعض الحيوانات ولبعض الأسرى الأجانب ، ويبدو أن الدولة في عهده حفلت بالكثيرين من مشاهير الرجال ومن بين هؤلاء الحكيم «بتاح‌حتب» الذي أشرف على تربية هذا الملك وكان من بين كبار الموظفين في عهده ـ وحين تقدمت به السن استأذن الملك في اعتزال الخدمة ، فلما أجيب إلى طلبه كتب تعاليمه لولده الذي خلفه في وظيفته ، وقدأصبحت‌هذه‌التعاليم‌فيمابعد ثروة أدبية عظيمة القيمة وخاصة لما تحويه من مثل أخلاقية عليا .

اوناس :

آخر ملوك الأسرة الخامسة وإن كان بعض المؤرخين يرى اعتبـــاره أول ملوك الأسرة السادسة لأن بعض التغيرات الجوهرية قد حدثت في عهده وكان « تيتي » الذي خلفه على العرش وفياً له فأتم ما لم يستطع إتمامه من مبـانيه مما يوحي بوجود صلة قوية بينهما .

ومن أهم ما حدث في عهد أوناس ذلك التجديـــد الذي حدث في نقوش الأهرامات ، فبعد أن كانت النصوص الدينية لا تكتب على جدران الحجرات الداخلية بدأت هذه النصوص منذ عهد أوناس تكتب على جـدران الحجرات الداخلية وحجرة الدفن وأصبحت هذه النصوص تعرف لدى الأثريـــين باسم نصوص الأهرام .

وقد كشف عن جزء كبير من الطريق الذي كان يصل بين المعبـد الجنزي ومعبد الوادي لهرم أوناس ومنه أمكن أن نستنتج أن هذا الطريق كان‌مسقوفاً بالأحجار وينفذ اليه الضوء خلال كوات بالسقف الذي زين بحيث كان يبدو في هيئة السماء المرصعة بالنجوم ، أي أنه طلي بلون أزرق ومثلث فيه‌أشكال‌النجوم بلون أبيض ــ أما الجدران فقد نقشت بمناظر دينية ومدنية مختلفـــة ،

فمن النقوش الدينية مناظر تمثل الملك وهو يؤدي بعض الطقوس وبعض المناظر الأخرى التي تمثل الزراعة والحصاد والصيد في البر وفي الماء ، والبعض يبين بعض خطوات العمل في بناء المعبد ونقل الجرانيت اليه في سفن تسير في النيل ، كذلك نجد بعض المناظر التي تشير إلى حدوث مجاعة وإلى وفود بعض الاجانب إلى مصر .

وقد حكم أوناس ما يقرب من ثلاثين عاماً مما يوحي باستقرار الامور ، ولكن يبدو أن نفوذ ملوك الاسرة الخامسة كان قد أخذ في الاضمحلال وأدى ذلك إلى انتقال الحكم إلى أسرة جديدة — فمن المعروف أن الاسرة الخامسة جاءت من نسل كهنة هليوبوليس أو بإيحائهم ولذا كان من الطبيعي أن يغدقوا الهبات وأن يكثروا من الاوقاف على المعابد ، وازداد ثراء الكهنة وسلطانهم وبالتالي أخذت سلطة الملوك المطلقه تقل وبدأت قبضتهم تتراخى عن الشؤون الإدارية وخاصة في الاقاليم حيث تمكن أمراؤها من الحصول على كثير من الإمتيازات وتطورت أفكار الشعب عامة مما كان له أكبر الأثر في عصر الاسرة السادسة التي لا ندري كيف انتقل الملك اليها ولا الاسباب التي أدت إلى ذلك .

الاسرة السادسة

سبق أن أشرنا إلى غموض بداية هذه الأسرة — ولا نعرف صلة « تيتي » الذي يعده غالبية المؤرخين مؤسس الأسرة السادسة بملوك الأسرة الخامسة وإن كان من المرجح أنه كان يمت لبعض أفرادها بصلة القرابة أو على الأقل تزوج بأميرة تنتمي إلى هذه الأسرة — ويبدو أن ملوك الأسرة الجديدة أرادوا التخلص من نفوذ الإله رع فانصرفوا إلى « بتاح » إله منف .

تيتي

يظهر أن هذا الملك أسرف في عدائه للإله رع أو أنــه كان مغتصبا للعرش حيث يذكر مانيثون أنه لم يمت ميتة طبيعية بل قتله حراسه بعد حكم دام نحو ستة أعوام على الأرجح وقد دفن في هرمه الذي شيده في سقاره .

وسر كارع :

تولي بعد تيتي ولكنه لم يستمر في الحكم إلا مدة قليلة ، ويبدو أنه كان مغتصبا للعرش كذلك لأنه لم يذكر في قائمة سقارة ولم يعترف به مانيثون ومع أنه (كما يتضح من اسمه) كان في الغالب من أتباع « رع » إلا أنه مالأ كهنة بتاح إذ بني هرمه في منف مركز عبادة هذا الإله– ولا بد أن كهنة بتاح استطاعوا ان يثبتوا في الميدان أمام كهنة رع وأخذ نفوذهم يزداد إلى درجة كبيرة فانتشرت الأسطورة التي تنسب إلى بتاح خلق الكون .

بيبي الاول :

يبدو أن المتاعب التي تعرض لها البيت المالك منذ نهـــاية عهد الأسرة الخامسة ظلت مستمرة في عهد هذا الملك أيضاً فمع أنه حكم نحو خمسة وعشرين عاما نعمت فيها مصر بشيء من الرخاء والازدهار وارتفعت فيها الفنون – فإن حياته العائلية تعرضت لبعض المؤامرات حيث يشير « أوني » الذي كان من أكبر موظفي الدولة في عهد الأسرة السادسة إلى أن الملك عينه بين المحققين الذين أسند اليهم التحقيق مع زوجة الملك فيما نسب اليها [1] .

وقد سبقت الإشارة إلى ان سلطان الملوك المطلق أخذ يتزعزع وربما شعر

(1) Sethe, Urkurden I, pp. 100 - 101

بذلك بيبي الأول وأراد أن يعمل على توطيد مركزه إذ رأى زيادة نفوذ أمراء الأقاليم وحكام المقاطعات فصاهر إحدى عائلات الصعيد القوية حيث تزوج من ابنة أمير منطقة أبيدوس التي انجب منها ولده وخليفته على العرش « مري إن رع » — ومن المحتمل أن والدة هذا الامير توفيت وهو صغير فتزوج والده من شقيقتها وهذه أنجبت ولداً آخر تولى العرش بعد أخيه .

ويبدو أن عهد بيبي الاول شهد نشاطا من بعض العناصر المجاورة لمصر وخاصة في الشمال وربما كانت هذه العناصر من بدو سيناء وجنوب فلسطين قد استطاعت أن تهدد الحدود المصرية [1] واستطاع بيبي الاول أن يتخلص من تهديد هذه العناصر حيث تمكن قائده « اوني » من جمع جيش كبير من الوجه القبلي ومن النوبة قضي به على المتاعب التي تهددت مصر في الشمال.

ولا بد أنه أكثر من تشييد العمائر ونشط في إرسال البعثات لاستغلال المحاجر والمناجم حيث عثر على كثير من نقوشها في مختلف الجهات . ولما مات بيبي الأول كان ولده « مري إن رع » في السابعة من عمره تقريباً وولده الآخر « بيبي الثاني » في الثانية من عمره تقريباً .

مري ان رع :

اعتلى العرش وهو صغير إذ كان في نحو الثامنة عند وفاة والده — ومات بعد أن حكم فترة وجيزة تكاد لا تزيد على أربعة سنوات ، وأهم ما نعلمه من عهده جاءنا عن طريق نصوص الوزير أوني ، ومنها نتبين أن هذا الملك أمره بحفر خمسة قنوات في منطقة الشلال الأول لتسهيل مرور السفن ، كذلك يشير أوني إلى أنه استغل أخشاب الاشجار في النوبة لعمل سفن كبيرة استغلها

---

(1) Sir A. Gardiner, op. cit., pp. 95 - 98

في شحن أحجار الجرانيت اللازمة لبناء هرم الملك، وإلى أنه أحضر تابوت الملك غطاءه من محاجر حاتنوب ، وتوحي هذه النصوص بأن الملك أو بالأحرى ديوانه شعر بخطر حكام الاقاليم فعين هذا الموظف النشيط حاكما عامـــا على الوجه القبلي –ولم يكن لهذه الوظيفة مثل هذا الدور العملي في مراقبة حكام الأقاليم إلا في عهد هذا الملك لأن لقب حاكم الجنوب أصبح بعد ذلك لقباشرفيا ولم تكن له قيمه عملية .

ويدل نصان في منطقة الشلال الأول على أن الملك ذهب إلى هناك بنفسه حيث تقبل خضوع زعماء بعض القبائل النوبية .

ولا بد ان الإهتمام بالاتجار مع النوبة قد ازداد في عهـد الأسرة السادسة إذ لا شك في أن مصر كانت تحصل على منتجات النوبة في أول الأمر عن طريق الرحالة والمغامرين ثم بدأت هذه التجارة تنتظم وأخذ ملوك الأسرة السادسة يعهدون بها إلى بعثات تجارية يرأسها أحد كبار الموظفين أو يكلف بها أمير الأقليم الجنوبي من مصر [1] وهؤلاء كان الواحد منهم يلقب عادة بلقب يدل على رئاسة فرق من المرتزقة [2] حيث يبدو أن عدداً من هؤلاء و من الجنود النظاميين كانوا يرافقون تلك البعثات لحمايتها . ومـن أشهر رؤساء البعثـات في ذلك العهد «حرخوف» الذي يعد أعظم رحالة الدولة القديمة حيث وصل في أسفاره إلى منطقة بعيدة تدعى يام [3]، وقد بدأ أولى رحلاته في عهد هذا الملك وكان فيها يصاحب والده « اري » .

---

(١) أنظر كتاب المؤلف « علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم » الاسكندرية ١٩٦٢) ص ٢٩ - ٣٢ .

(2) H. Goedicke, J E A 46 pp. 50 - 54

(٣) ما زال موقع هذه البلاد موضع بحث وإن كان من المتفق عليه انهـا تبعد جنوباً من الشلال الثالث أنظر D.M.Dixon, JEA 44,pp 40 ff

بيبي الثاني

تولى العرش وهو في السادسة مـــن عمره وكانت والدته أشبه بوصية على العرش في أثناء السنوات الأولى من حكمه ، ومن المرجح أن قوة الامير « جعو » (خال الملك) وعظم مركزه هي السبب في رعاية مصالحه كذلك طفل ومصالح أمه الملكة الوالدة – وقد عاش هذا الملك إلى ان بلـغ من العمر أرذله ويكاد يجمع المؤرخون على انه ظل يحكم نحو أربعة وتسعين عاماً .

وأهم ما حدث في عهده توالى الرحلات التي كان يقوم بهـا امراء الاقليم الجنوبي إلى النوبة ووصلوا فيها إلى مناطق لم يسبق للمصريين أن وصلوها من قبل ورغم النجاح الباهر الذي صادفوه في أول الامر فإن بعض الرحالة قـد لقوا حتفهم في تلك البلاد فيما بعد مما يدل على ان هيبة مصر في أواخر عهد هذا الملك تعرضت إلى الاستهانة بها لأن ما أصاب البلاد من ضعف كان النوبيون يشعرون به دون ريب فبعض النصوص المتـأخرة من عهـده تشير إلى ذلك ؛ إذ يفهم منها أن النوبيين بدأوا يظهرون روح العداء نحو مصر ولذا اخذ قواد القوافل يستميلونهم بالهدايا [1] .

وربما كان وصول هـــذا الملك إلى سن الشيخوخة واستمراره مدة طويلة كحاكم ضعيف واهن مما أدى إلى ضعف سلطان الملك وانهيار الإدارة المركزية، ولم يقدر لمصر أن يجلس على عرشها ملك قوي إلا بعد نحو مائتي عـــام حينما تأسست الدولة الوسطى إذ لم يتبع هذا الملك في الحكم من ملوك الاسرة السادسة إلا « مري ان رع الثاني » الذي لم يحكم إلا سنة واحـــدة ثم تبعته على العرش « نيت إقرت » التي ذكرها مانيثون باسم « نيتوكريس » ولم تبق هي الأخرى

---

(١) يمكن تتبع ضعف مصر في هذه الفترة من نصوص الرحالة الذين ذهبوا الى النوبة في عهد بيبي الثاني انظر كتاب المؤلف السابق ذكره ص ٣١ .

إلا نحو عامين ثم اندلعت نيران الثورة في البلاد وانتهت بذلك الدولة القديمة .

ولم يكن النوبيون وحدهم هم الذين يشعرون بما ينتاب مصر من ضعف بل إن بعض العناصر الآسيوية المجاورة كانت هي الاخرى تشعر بالحالة الداخلية في مصر، ومن المرجح أنها كانت ترقبها دائما وتتحين الفرص للإغارة على الدلتا أو على الاقل تحاول الهبوط إلى أراضي الوادي الغنية للاستقرار فيها .

٢ ـــ عصر الاضمحلال الأول

ما أن دبت عوامل الضعف في كيان الدولة المصرية في عهد الأسرة السادسة حتى أخذت بعض العناصر الآسيوية المجاورة تنشر نفوذها في بعض أجزاء الدلتا، وما ان وافى عصر سيادة هيراكليوبوليس (الأسرتين التاسعة والعاشرة) إلا وأصبحت الدلتا خارج نطاق النفوذ المصري وخاضعة للآسيويين .

وقد سبق أن أشرنا إلى الثورة التي نشبت في نهاية عهد الأسرة السادسة ، فما أن انتهت هذه الأسرة حتى عمت الفوضى وبدأ العصر الذي يعرف باسم « عصر الإضمحلال الأول » أو « عهد الفوضى الأول » وذلك لما أصاب مصر أثناء ذلك العهد من فوضى واضطراب حيث يبدو ذلك واضحا في نصوص بعض البرديات التي تصف ذلك العصر ، ومن هذه بردية ترجع إلى بداية هذه الفترة عرفت لدى الأثريين باسم « تحذيرات حكيم [1] » وهي على لسان شخص يدعى « إيبوور » وفيها يصف ما آلت إليه حالة البلاد من قلب في الاوضاع الاجتماعية ومما ورد فيها : إن أغنيات العازفين تحولت إلى أناشيد حزن وقتل الرجل أخاه وسلب اللصوص المارة وصار الفقراء يروحون ويغدون في القصور دون

---

(1) Sir A. GardIner, « The Admonitions of an Eqyptian Sage » (Leipzig 1909) .

استيحاء أو خجل بعــد أن ذبحوا الموظفين . وهكذا تشرد الاغنياء وساد الفقراء وأصبح الناس في ذعر ولم يعــد هناك راع مسئول ... الخ » ، وتشير بردية أخرى – من عهد الأسرة العاشرة وتعرف باسم قصة الفلاح الفصيح [١] – إلى ظلم صغار الموظفين للناس ولكنها من جهة أخرى تدل على تطور اجتماعي كبير إذ نجد فيها أن الفلاح في شكواه لرئيس الديوان يحذره من عدم المدالة مذكرا إياه بأنه سيحاسب على ذلك في آخرته ، ولم يعثر في وثائق الدولة القديمة على ما يدل على أن أحدا من العامة كان يجرؤ على مخاطبة نبيل أو عظيم بمثل هذا الأسلوب والوعي ، ولا بد أن ذلك قد نتج عن الثورة التي حدثت في أعقاب الأسرة السادسة .

ولا شك أن أثر هذه الثورة كان عميقا من النـاحية الفكرية فقد حفـل الادب بموضوعات شتى تبدو فيهــا النزعة الفلسفية من جهـة وروح القلق التي سادت في أعقابها من جهة أخرى ونتبين من هذه الموضوعات أن المجتمع نفسه لم يكن غافلا عما كان يسوده من مساوىء بل كان هناك شعور عـام بها ، ومن المرجح أن أهل هذا العصر أو عقلاءهم على الاقل كانوا يحـاولون التخلص من تلك المساوىء ويعملون على إصلاح ما فسد من الامور إذ تصور لنا إحدى البرديات [٢] حوارا شيقا دار بين شخص كان يرغب في الانتحار وبين روحه التي كانت تحاول إقناعه بالتخلي عن هذه الفكرة بينما يرد عليها بمـا يفيد أنه ضاق بحياته وبرم بها ، ويمكن أن نستشف من هذا الحوار صورة ما أحـاط

---

(1) Vogelsang, Kommentar zu den Klagen des Bauern,(Leipzig 19 13)

(2) Berliner Papyrus der Mittleren Reiches 1879.;

Erman « Die Literatur des Aegypter » (Leipzig 1923),

pp. 122 f f ;J E A 42, pp 2 1 f f

هذا الشخص من ظروف فاسدة جعلته لا يقبل على الحياة بالرضى والتفاؤل - كذلك نجد في مقبرة أحد ملوك الاسرة الحادية عشرة منظراً [١] لحفل يغني فيه ضارب العود للمدعوين أغنية تحض على الاستمتاع بالحياة قدر الإمكان ، ولا بد أن هذه الاغنية ترجع إلى عصر سابق الأسرة الحادية عشرة أي أنها من صميم الفـــترة التي نحن بصددهـــا وخاصة لأنها تشترك مع البردية التي تصور حوار الشخص (الذي سئم الحياة) مع روحه في التعريض بما وراء الموت كما أنهما يثيران الشك فيما سيلقاه الموتى من مصير .

ولم يقتصر التطور الفكري على الناحية الادبية وإنمـا نلاحظ أثر ذلك في المعتقدات الدينية أيضاً فقد كان الملك المتوفى يمثل الإله أوزير الذي جعلت منـه الاساطير حاكماً على عالم الموتى ، وكانت النصوص الدينية والتعاويذ التي تيسر للمتوفى مصاحبة إله الشمس في رحلته في العالم السفلي وتهيء له حياة خالدة مع الآلهة في العالم الآخر قاصرة على الملوك وحدهم وقـد أخذوا يدونونها في أهرامهم ابتداء من نهاية الاسرة الخامسة ، ولكن هذا الحق انتقل بعد ذلك إلى النبلاء والاشراف ، ثم أصبح كل ميت في عهد الدولة الوسطى يوحد مع الإله أوزير وأصبحت التعاويذ الدينية تنقش على توابيت الافراد وعرفت هذه باسم نصوص التوابيت - ولا بد أن هذا التطور قد حدث نتيجة للثورة الاجتماعية حيث أخذت الفوارق الاجتماعية بين الطبقات تخف حدتها ، وكل طائفة كانت تحاول الحصول على المزيد من الحقوق التي اكتسبتها . ولذلك لا يدهشنـا أن نجد مقابر أفراد الطبقة الوسطى بل ومقابر الفقراء أيضاً تفوق مثيلاتها في عهد الدولة القديمة من حيث الفخامة والتجهيز إذ أنها حوت من الاشياء الثمينة وخاصة من المصنوعات الذهبية نسبة أعلى بكثير مما كان مألوفا قبـــل ذلك ، أي أن توزيع الثروة أصبح يختلف عن ذي قبل ولم تعد الحياة كلها تتركز حول البيت المالك كما كان الشأن قديماً .

(1) Pap. Harris 500, Erman, op. cit. ,pp. 177 f

ومن نصوص الأسرة العاشرة تطالعنا نصائح الملك «خيتي» لولده «مري كارع»[1] بما يشعرنا بأن الظلم والمحاباة كانا متفشيين وأن المجتمع كان سقيما فاسداً - وتذكر بردية تعرف ببردية « نفرتي »[2] . بأن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة طلب إلى أحد الكهنة أن يخبره عما سيحدث في المستقبل فعرفه بسوء حالة ما تصير إليه مصر وأن الذى سينقذها من هذه الحالة بعدئذ ملك يأتي من الجنوب أمه نوبية وهو يدعى « إميني » ، ولكن من المرجح أن هذه البردية كتبت في أوائل عهد الأسرة الثانية عشرة وأنها كانت من قبيل الدعاية السياسية إذ أن اختصار اسم « امنمحات الأول » مؤسس هذه الأسرة هو « إميني » .

ولا شك في أن أمراء الأقاليم أخذوا في زيادة نفوذهم منذ عهد الأسرة الخامسة . وقد أحس ملوك الأسرة السادسة بهذا الخطر وحاول بعضهم العمل على تلافيه ولكن دون جدوى - وقد تغالى حكام الاقاليم في إظهار سلطانهم ونزعتهم الانفصالية عن البيت المالك حتى أصبح حاكم كل إقليم يؤرخ الحوادث بالنسبة لتاريخ تولية زمام السلطة في إقليمه أو مقاطعته ، ويبدو أن البيت المالك نفسه أصبح عاجزاً إزاء هؤلاء الحكام إلى درجة أنه لم يستطع عزلهم أو نقلهم كما أن معظم هؤلاء كانوا يتولون حكم أقاليمهم عن طريق الوراثة مما زاد من تمكنهم من السلطة ، وفي أغلب الاحيان كان الملوك يعملون على مرضاتهم بإغداق الهبات عليهم كما كانوا يضطرون إلى معاملة كبار الموظفين بالمثل حتى يضمنوا ولاءهم جميعاً - وقد أدى ذلك بالطبع إلى زيادة ضعف الملوك وأصبح

---

(١) A . Volten , « Zwei altàgyptische politsche Schriften » (analecta aegyptiaca IV) (Copenhagen 1943) .

(٢) Erman , op . cit . , pp . 151 ff .

حاكم كل إقليم هو صاحب السلطان المطلق فيه وله جيشه الخاص وكذلـــك أسطوله أحياناً ، وكثيراً ما كانوا يستعينون بالمرتزقة وخاصة من النوبيين وتتمثل في نقوش مقابرهم مظاهر الترف والبذخ التي كانوا ينعمون بها — ورغم أن كلا منهم كان يدعى بأنه أقام العدل وأصلح مـن شأن إقليمه بحيث كفل لمواطنيه السعادة والرفاهية وينفي وجود شيء من سوء النظام أو الاضطراب إلا أن شواهد الاحوال لا توحى باستتباب الامور حيث أنه لا شك في أن هؤلاء الحكام ــ وقد بهرهم السلطان تنافسوا فيما بينهم وأصبح كل منهم يحاول أن يوسع من رقعة اقليمه على حساب الآخرين وأخذ هذا التنافس يشتد وتحالف بعضهم ضد البعض الآخر وقد رأى البعض أن أسرة شبه ملكية في قفط عاصرت الاسرة الثامنة المنفية [1] ولكن أصبح هذا الرأي لا يؤخـذ به الى أن انحصر النزاع بين بيتين كبيرين « بيت إهناسيا » ، « بيت طيبة » وقد انتهى النزاع آخر الأمر بتفوق بيت طيبة وبدأ عصر جديد من النهوض هو عصر الدولة الوسطى كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

الاسرة السابعة :

يغلب على الظن أن هـذه الأسرة أسطورية أي لم تكن هناك أسرة حاكمة على الإطلاق فقد ذكر مانيثون أن عدد ملوكها سبعين ملكا حكموا سبعين يوماً يوماً فقط وربما كان يقصد أن سبعين حاكماً من الحكام في الأقاليم المختلفة كانوا يتقاسمون السلطة وكونوا ما يشبه هيئة حاكمة ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فزال

---

1) jEA 32 , 19 - 23 , 34 , 115 - 6 ; Stock, «Die Erste Zwisehenzeit Aegypt. » 32 - 50

وهو يرفض كذلـــك فكرة الاسرة القفطية ويخترع بدلا منها أسرة أبيدوس وهي نظرية يصعب إثباتها .

سلطانهم وانفضت هيئتهم الحاكمة سريعاً ، وقد يرجع زوال سلطانهم إلى عدم تقبل المصريين هذا النظام من الحكم فقاوموه بشدة إلى أن قضي عليه .

الأسرة الثامنة :

معلوماتنا عن هذه الاسرة ضئيلة وتختلف المصادر القديمة في عدد ملوكها ، وعلى أي حال فإن أرجح الآراء تدل على أن الاسرة الثامنة لم تحكم أكثر من ثمانية وثلاثين عاماً وكان مقرها منف ولا نعرف عن حكمها إلا أسماء بعض ملوكها وبعض الإشارات العابرة عن إرسال بعثات لاستغلال المحاجر أو إلى شمال بلاد النوبة .

وبداية الاسرة الثامنة ونهايتها غير معروفتين ومن المرجح أن ملوكها أخذوا في الضعف إلى درجة أن سلطانهم لم يكن ليتجاوز حدود إقليم عاصمتهم إلا إسمياً – وقد نازعتهم في نهاية الامر أسرة قوية في اهناسيا وأسرة أخرى في طيبة ، وقدر لامراء اهناسيا أن يدعوا الملكية واعتبرهم المؤرخون مكونين للأسرة التاسعة ثم للأسرة العاشرة وكان يعاصرهم حكام طيبة الذين أسسوا الاسرة الحادية عشرة فيما بعد .

ملوك اهناسيا (الأسرتان التاسعة والعاشرة)

أ – الأسرة التاسعة

من المرجح أن أمراء اهناسيا كانوا على صلة بالبيت المالك في منف أي بملوك الاسرة الثامنة ، فلما وجدوا أن ملوك هذه الاسرة قد ازدادوا ضعفاً في حين أنهم أصبحوا من القوة بحيث يمكنهم الوقوف أمامهم نازعهم هؤلاء سلطانهم ولما استفحل الامر بين هذين البيتين الكبيرين انتهز الفرصة « خيتي الاول » وأعلن نفسه ملكاً في إهناسيا مؤسساً بذلك الاسرة التاسعة – ويروي مانيثون عن هذا

الملك أنه كان ظالماً طاغية أصيب في أواخر أيامه بالجنون وانتهت حياته بأن فتك به أحد التماسيح .

ولا نعرف شيئاً عن ملوك الاسرة التاسعة ولا كيف بدأ النزاع بينها وبين الاسرة الثامنة في منف – وكل ما يمكن أن نذكره هو أن عدد ملوك الاسرة التاسعة كما ورد في بردية تورين هو ثلاثة عشر ملكاً حكموا ما يقرب من ١٠٩ سنة .

والظاهر أن هؤلاء الملوك استعانوا بحكام بعض الأقاليم لمؤازرتهم ولا شك في أنهم كانوا يخطبون ودهم ويزيدون في امتيازاتهم ولذلك نجد أن الحالة تظل كما كانت في عهد الأسرة الثامنة ، أي أن حكام الأقاليم كانوا شبه مستقلين يعتمدون على أنفسهم في حماية أقاليمهم وظلت الدلتا خارج النفوذ المصري ولم يتمتع الملوك في واقع الأمر بسلطان خارج عاصمتهم إهناسيا اللهم إلا مجرد نفوذ اسمي فقط ، وظل الملوك على هذا الضعف إلى أن زال حكم هذه الأسرة وتلتها الأسرة العاشرة .

ب – الأسرة العاشرة

من المرجح أن ملوك هذه الأسرة كانوا خمسة فقط حكموا ما يقرب من ٨١ سنة وأنها وجدت – منذ ظهورها – منافسة قوية من أمراء طيبة ودارت بينهم وبين هؤلاء الأمراء حروب طاحنة أطاحت بسلطانهم وانفرد أمراء طيبة بالملك .

ومما تجدر الإشارة اليه أن المؤرخين ما زالوا يختلفون في عدد وترتيب الملوك الذين كانوا يحملون اسم خيتي بل ولم يجمعوا على ترتيب الملك « خيتي » الذي أسدى نصائحه المعروفة (باسم تعليمات الملك خيتي) لولده

« مري كارع » ـ [١] ولكن يبدو أنه كان مؤسس الأسرة العاشرة وكان ملكاً نشيطاً أخذ يطهر الدلتا من عصابات البدو ومن النفوذ الآسيوي إلى أن استتب له الأمر ثم أراد أن يتخلص من أمراء طيبة في الجنوب ونشبت الحرب بين الفريقين ، وكان أمراء أسيوط يعاونونه فانتصر على الطيبيين في موقعة بالقرب من أبيدوس إلا أن هؤلاء تمكنوا من أن يسترجعوا ما فقدوه وتقدموا شمالاً حتى بلغوا حدود أسيوط .

وفي عهد « مري كارع » خليفة « خيتي » كان يحكم في طيبة حاكم قوي هو « منتوحتب الأول » ، استأنف الحرب وقضى على أمراء أسيوط ثم تقدم شمالاً واستولى على الأشمونين .

وفي عهد آخر ملوك الأسرة ، وكان يدعى خيتي أيضاً ، عاودت طيبة هجومها على مملكة اهناسيا إلى أن قضت عليها وأخضعت مصر كلها لسلطانها فعادت الوحدة القديمة إلى البلاد ، وقد تم ذلك في عهد منتوحتب الأول ملك طيبة ولذا يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للدولة الوسطى .

ومن الملاحظ أنه لم يعثر على مقابر الملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة في إهناسيا ومن المرجح أن منف ظلت العاصمة الإدارية للبلاد بينما كانت إهناسيا تمثل مقر الملك فقط ولذلك دفن كثير من الملوك ورجال البلاط في جبانة منف ـ أما أمراء الأقاليم فقد ظلوا يدفنون بالقرب من عواصم أقاليمهم في مقابر منحوتة في الصخر .

الأسرة الحادية عشرة :

ذكرنا أن حكام الأقاليم ازداد نفوذهم منذ نهاية عهد الدولة القديمة وأصبحت

---

(١) انظر اعلاه ص ١٢٦

وظائفهم تورث لأبنائهم . وقد اشتهرت من بيوت هؤلاء الحكام أسر في مناطق مختلفة منها أسرة نشأت في طيبة كان مؤسسها يدعى أنتف .

أنتف الأول [1] :

لا يعرف الكثير عن هذا الملك قبل أن يعلن نفسه ملكاً ويتخذ الألقاب الملكية ، ولكن من المرجح أنه حينما كان مجرد حاكم لإقليم طيبة على صلات طيبة مع ملوك الشمال ، وكان إلى جانب إمارته للاقليم كبيراً للكهنة كما كان مسؤولاً عن حماية الحدود الجنوبية لمصر لأنه كان يلقب « حارس الحدود الجنوبية » حيث يبدو أن الأقاليم الجنوبية من مصر كانت تكون اتحاداً فيما بينهما بزعامة طيبه ، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله منح هذا اللقب – ولا شك في أن انتقال الملك من الأسرة التاسعة إلى الاسرة العاشرة وضعف هذه الاخيرة جعلا أنتف يرى أنه لا يقل قوة وأحقية في الملك عن ملوك الشمال فادعى الملك ووضع اسمه في خانة ملكية وأحاط نفسه بحاشية ملكية ودفن في مقبرة كبيرة نحتت في الصخر بجهة الطارف في البر الغربي للأقصر ، ولا بد أنه حظي بمكانة عظيمة بين معاصريه مما كان له أثر كبير في تبجيله وتقديس ذكراه فيما بعد حتى أن سنوسرت الاول [2] أقام تمثالاً لتخليده في معبد الكرنك ونسب نفسه اليه على اعتبار أنه سلفه العظيم – ومع أنه أصبح يعرف في التاريخ باسم « أنتف الاول » فإن اسمه ورد في قائمة الكرنك دون أن يوضع في خانة ملكية ولكن أشير إلى أنه « الحاكم والامير الوراثي أنتف المبجل » أي أنه في هذه الحالة ذكر على اعتبار أنه مؤسس الاسرة الحادية عشرة فحسب .

---

(١) في الاتجاه الجديد في نطق الأسماء اصبح هذا الأسم يقرؤ Iniotef .
(٢) ثاني ملوك الأسرة الثانية عشر .

انتف الثاني :

تولى الحكم بعـــد والده وكانت الأقاليم الخمسة الجنوبية من مصر خاضعة لسلطانه ، وظل في الحكم نحو خمسين عاماً حاول خلالها أن يتوسع شمالا ولكن بيت إهناسيا استطاع أن يحد من جهوده وخاصة لأن امراء أسيوط كانوا حلفاء لهذا البيت ولا شك أنهم اشتركوا فيما نشب من حروب بين الفريقين كما نستدل على ذلك من نقوش أمير أسيوط « خيتي » الذي افتخر في مقبرته بأنه جمـــع الجنود وأعد فرق الرماة وأشاد بالأسطول ومع هذا لا نجد في العبارات المنقوشة بالمقبرة مـــا يدل على حرب صريحة أو وقائع معينة بين صاحبها « خيتي » والطيبيين .

ويمكن تلخيص الحالة في مصر في تلك الأثنـــاء بأن السيادة فيها كانت تتنازعها مملكتان : شمالية يحكمها بيت إهناسيا وجنوبية يحكمها بيت طيبة بينما كان بعض الأمراء الذين يحكمون أقاليم داخل نطاق المملكة (وقد أحسوا بضعف ملوك إهناسيا) يؤرخون الحوادث بتاريخ حكمهم لأقاليمهم أي أنهم كانوا يعتـــبرون أنفسهم مستقلين في أقاليمهم ومن هؤلاء أمراء بني حسن وأمراء البرشه .

ويبدو أن أطماع بيت طيبة في التوسع شمالا ظلت قائمة وتوالت محاولاتها في هذا السبيل حيث نجد أن « تف إيب » الذي أعقب والده «خيتي» في إمارة أسيوط قد نقش في مقبرته ما يدل على حروبه مع الطيبين أعداء الملك بالقرب من أبيدوس وادعى بأن زعيم الطيبين وقع في الماء وتفرقت سفنه إلا ان معلوماتنا من مصادر اخرى كثيرة تدل على أن طيبة قد انتصرت في هـــذه الحرب واستولت على الإقليم السادس [1] وبذلك وسعت رقعتها شمالا .

---

(١) الاقليم السادس في الوجه القبلي كانت عاصمته دندره غربي النيل أمام قنا .

ومن المرجح أن أنتف الثاني كان من الحكام الذين امتازوا بالدراية وحسن الإدارة نشيطاً إذ أقام بعض المباني ورمم بعض الهياكل المتداعية وبنى لنفسه قبرا كان يعلوه هرم من الطوب وأقام أمامه لوحة نقش عليها منظر يمثله وأمامه خمسة من كلابه وهي الآن بالمتحف المصري .

انتف الثالث .

طال حكم أنتف الثاني إلى خمسين عاماً كما ذكرنا فيما سبق [١] فلما تبعه ابنه « انتف الثالث » كان هذا قد تقدم في السن فلم يبق إلا زمنا قصيراً ولا نعلم عن عهده شيئاً يذكر وربما كان تقدمه في السن سببا في عدم إقباله على الكفاح فلم تتجدد المناوشات بين بيتي إهناسيا وطيبة في عهده

٣ ـ الدولة الوسطى

منتوحتب الاول :

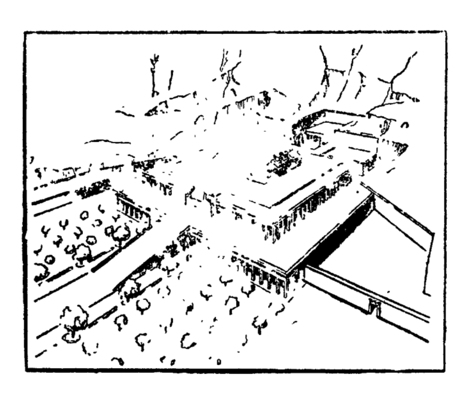
اختلف المؤرخون كثيراً في شأن هذا الملك ولكن لا شك في أنه كان صاحب النصر النهائي على بيت إهناسيا وتوحيد البلاد وبدء عهد الدولة الوسطى .

فمن المرجح أن بيت إهناسيا أراد الاستيلاء على إقليم أبيدوس وإعادة تبعيته لمملكتهم وكان ذلك في عهد مليكهم «خيتي الرابع» ولكن الموقعة التي نشبت بين هذا الأخير وبين «منتوحتب الأول» بالقرب من أبيدوس لم تكن في صالح بيت إهناسيا إذ قتل « هرونفر » أحد ابناء «خيتي الرابع» وانتصر منتوحتب ، وربما كان في انتصاره هذا إغراء كاف للتقدم شمالا ومواصلة

(١) انظر اعلاه ص ١٣٢

الكفاح حتى تمكن في النهاية من القضاء على بيت إهناسيا وتوحيد البلاد تحت سلطانه ولا بد أنه قد بذل مجهوداً ضخما لإخضاع سائر أنحاء مصر ، كما يرجح أنه حارب في الدلتا وفي الصحارى المتاخمه لمصر شرقاً وغربا ضد البدو المقيمين فيهـا وارسل بعض البعثات أو الحملات إلى النوبة وبعثات أخرى إلى وادي حمامات لاستغلال المحاجر أو للقيام منه إلى بونت .

وبعد أن استقرت الأمور واستتب الامن في البلاد تفرغ« منتوحتب الاول» للأعمال العمرانية فبنى معبده الجنزي ومقبرته التي نحتها من تحته في الصخر بمنطقة الدير البحري في البر الغربي للأقصر (شكل ٢٦) وهـذه المجموعة الجنزية تعد فريدة في تصميمها وقد اقتبست عنها حتشبسوت (في الأسرة الثامنة عشرة) فيما بعد حيث شيدت معبدها المعروف باسم « معبد الدير البحري » بجوار هذه المجموعة وهو يشبه في كثير من الوجوه معبد منتوحتب الجنزي -



شكل (٢٦) منظر تخيلي لما كانت عليه مجموعة منتوحتب الاول الجنزية

كذلك اصلح هذا الملك بعض الهياكل القديمة وأقام أخرى جديدة في جهات مختلفة من القطر .

ويستدل من الآثار التي اكتشفت من هذا العصر وخاصة مقابر الأشراف وكبار الموظفين وزوجات الملك ومحظياته أن مصر قد تمتعت في عهده بالأمن والرخاء والرفاهية وارتقت فيها الفنون والآداب ومن أهم ما اكتشف من هذا العهد رسائل كان قد كتبها أحد الأفراد ويدعي « حقانخت » لولده الأكبر واسمه « مرسو » يفهم منها أن الأب كان كاهنا لمقبرة الوزير « ابي » وكان من طبيعة عمله أن يدير الاوقاف التي أوقفها الوزير للانفاق على مقبرته ومن بينها ضيعتان بالقرب من منف ولذا كان يضطر للسفر إلى هاتين الضيعتين تاركا لولده مهمة الإشراف على بيته وأملاكه وكان يرسل اليه تعلياته عن كل مايتعلق بهذه الشئون [1] – وقد ألقت رسائله هذه كثيراً من الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في هذا العهد .

ومن المرجح أن ولي عهد منتوحتب الاول الذي كان يدعي « أنتف » قد وفى في حياة والده فتولى من بعده ولده الثاني « منتوحتب الثاني » .

منتوحتب الثاني :

اتبع سياسة والده في التعمير فنشطت حركة البناء في الدلتا والصعيد وتقدمت الفنون في عهده – وقد أرسل بعثة إلى وادي جامات برئاسة مدير البيت الملكي (رئيس الديوان ؟) وكان تعدادها ثلاثة آلاف شخص فلما وصلوا إلى شاطيء البحر الأحمر صنعوا سفنا ذهبوا بها إلى بونت ، وعند عودتهم

(1) Winlock, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art (1921 - 2), pp 38 f f

أحضروا معهم بعض الاحجار الممتازة في صناعة التماثيل اللازمة للمعابد [1].

ويبدو أنه لم يعمر طويلا إذ أنه حينما أراد ان يبني مقبرته ومعبده على غرار ما شيده سلفه لنفسه لم يتمكن إلا من إعداد الارض للبناء وتمهيد الطريق إليها، والظاهر أن المنية وافته حينما بدأ حفر القبر وبعد ان وضعت بعض الودائع في الأساس ، وعلى ذلك دفن في مقبرة بسيطة أعدت على عجل .

وقد عثر على مقابر بعض العظماء من عهده وهي تلقى – بما حوت – كثيراً من الضوء على نواحي الحيـــاة المختلفة في هذا العصر ومن أهمها مقـــبرة « مكتي رع » التي حوت نماذج لسفن ومنازل ومصانع وفرق من الجيش وغير ذلك .

منتوحتب الثالث :

يبدو أن فترة من عدم الاستقرار حدثت بعد منتوحتب الثاني حيث تمكن بعض الحكام من اغتصاب العرش لمدة سبعة سنوات تقريباً ، ثم تولى بعد ذلك منتوحتب الثالث الذي يحتمل أنه كان هو الآخر مغتصباً للعرش – ولم يعش هذا الاخير طويلاً بعد اعتلائه العرش بل ويحتمل أن حكمه لم يزد كثيراً على عامين ، ومع ذلك فقد أرسل خلاله بعثتين إحداهما إلى وادي حمامات بقيادة وزيره « امنمحات » (وهو الذى تولى العرش من بعده وعرف في التاريخ باسم « امنمحات الأول » مؤسس الاسرة الثانية عشرة) ، وكان تعداد رجال هذه البعثة يفوق ثلاثة أمثال عدد أفراد البعثة التي أرسلت إلى تلك الجهـــة في عهد منتوحتب الثاني ، وقد عادت هذه البعثة بعد أن أحضرت الأحجار اللازمة في تشييد بعض المعابد ولصنع تابوت للملك – أما البعثة الثانية فقد أرسلهـــا

---

(1) J. Couyant &. Montet, Les Inscrtiptions hieroglyphiques et hieratiques du Ouadi Hmmamat (Mem . Inst. Fr, 34 - Le Caire 1912 - 3), No. 114 .

منتوحتب الثالث إلى وادى الهودي (جنوب شرقي أسوان) لجلب كتل من الأماتيست (وهو حجر نصف كريم) [1] .

الاسرة الثانية عشر :

أشرنا إلى عدم الاستقرار الذي حدث قبل اعتلاء « منتوحتب الثالث » على العرش ولكن يظهر أن هذا الاخير تمكن من إعادة الأمن والهدوء إلى البلاد خلال حكمه القصير ، فلما انتهت الاسرة الحادية عشرة بموت هذا الملك لم تتأثر وحدة البلاد التي وضع أسسها «منتوحتب الاول » وعلى هذا أتيحت الفرصة لمصر كي تقوم بنهضة شاملة جنت ثمارها في عهد الأسرة الثانية عشرة — وربما كانت تلك القلاقل التي ظهرت في أواخر عهد الاسرة السابقة من الاسباب التي أدت إلى ظهور طائفة من الرجال الاقوياء الذين تفانوا في العمل على استتباب الأمن وتهيئة الظروف المواتية للرقى والنهوض وكان على رأس هؤلاء « امنمحات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة الذي كان وزيراً في عهد الأسرة السابقة .

امنمحات الأول

سبق أن أشرنا إلى نبوءة « نفرتي » (أنظر ص ١٢٦) ، وهي لا شك تدل على سوء الحالة في أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة ، وربما بلغت الحالة من السوء حداً جعل بعض العناصر الآسيوية تهدد شرق الدلتا — وكان تنظيم الأمور الداخلية في البلاد هو أول ما وجه امنمحات عنايته إليه فقام بتحديد الحدود بين الأقاليم المختلفة وأبقى كل أمير موال له في منصبه ، أما من حاول الوقوف

---

(1) Dr. Ahmed Fakhry, « The Inscriptions of the Amethyst Quarries at wadi - el - Hudi » ,Nos 1 ff, pp, 19-25

في سبيله من أمراء الأقاليم فكان ينحيه عن منصبه ويولى بدلا منه أميراً آخر ممن يثق بهم ، ويبدو أن أمراء الأقاليم قد ارتضوا الوضع الجديد وقبلوا مافرضه عليهم امنمحات الأول من شروط فأتيحت الفرصة للحكومة المركزية لأن تشرف على الشئون الداخليه في الأقاليم المختلفة .

وما أن استقر الأمر لأمنمحات الأول حتى قام بتحصين شرق الدلتا وغربها بعد أن حارب جماعات البدو التي كانت تغير عليها . ونقل العاصمة من طيبة إلى عـــاصمة أخرى في مركز متوسط وأطلق عليها إسم « إيثت تاوي » (أو القابضة على الأرضين أي المهيمنة عليها) وهي قرب اللشت الحالية في شمال الفيوم ، ومع ذلك فقد ظل يهتم بطيبة وأقام بها المعابد تمجيداً للإله آمون إلهها المحلي وهو الذي أصبح الإله الرسمي للامبراطورية المصرية في عهد الدولة الحديثة ، ولم يقتصر نشاطه المعماري على العاصمة وعلى طيبة بل انتشرت آثاره في كثير من جهات مصر وخاصة في الفيوم وشرق الدلتا وسينا ، وقـد بنى لنفسه هرما ومجموعة جنزية في اللشت ولكنه مع الأسف استعمل في بناء هرمه كثيراً من الأحجار التي جاء بها من معابد ومقابر قديمة ومن بينها أحجـــار منقوشة لمعابد بعض ملوك الأسرتين الرابعة والخـامسة [١] رغم أنه نشط في استغلال المحاجر وأرسل البعوث لجلب الأحجار من وادي حمامات [٢] .

هذا وقد أرسل بعض الحملات إلى النوبة واستطاع أن يخضع جزءها الشمالي لسلطانه [٣] — أما سياسته تجاه أمراء الأقاليم فكانت تختلف باختلاف الأحوال

---

(١) احمد فخري « مصر الفرعونية » القاهرة ١٩٥٧ ص ١٧٢

(2) Couyant & Montet, op. cit ., No . 199

(3) Breasted, AR. I, 472 - 3 .

لأننا نجد أنه من جهـــة كان يخطب ود الكثيرين من الأمراء (الذين كانوا على الأرجح من الأقوياء) حتى لا يثيروا المتاعب إذا ما غفلت الحكومة المركزية عن نشاطهم بعض الوقت فأبقى على ثرواتهم ونفوذهم بل وربمـــا منحهم بعض الهبات أو المزيد من الامتيازات حيث يبدو أثر هذا واضحاً في المقـابر العظيمة التي بنوها لأنفسهم في أقاليمهم ويتمثل ذلك بصفة خاصة في إقليم بنى حسن ، ومن جهة أخرى كان لا يتوانى عن استعمال الشدة مع بعض الأمراء الآخرين - والظاهر أن عهده كان لا يخلو من المتاعب وخاصة في الجزء الأخير منه وربما كان ذلك هو الذي دعا إلى إشراكه ولده «سنوسرت الاول» معه في الحكم ابتداء من السنة العشرين من عهده بعد أن تقدمت به السن وعجز عن مواصلة نشاطه في الخارج والداخل ، ولذلك كان ولده هو الذي يتولى أمر الحملات الحربية بينما ظل معظم النفوذ في يد هذا الملك الشيخ - وكان البيت المـالك نفسه لا يخلو من وجود بعض الحاقدين على الملك أو الحاسدين لولي العهد كما يستدل على ذلك من النصوص المعروفة باسم « نصائح امنمحات إلى ولده » إذ أنه يوصيه فيها بما يجب عليه اتباعه في إدارة شؤون المملكة ويحذره ممن حوله وألا يثق في أخ ولا يعتمد على صديق ويذكره بما تعرض له هو شخصياً ، ويوضح له كيف أنه على الرغم من عطفه على المحتاجين واليتامى والمساكين لم يسلم من أذى أولئك الذين أحسن اليهم إذ يقول في هذا الصدد : « الذي أكل طعامي بيده هو نفسه الذي استطاع أن يحدث بواسطتها الفزع » - وتسترسل هذه النصائح في بيان كيفيـة تدبير مؤامرة اغتياله وهو مستلق على فراشه بعد أن تناول طعام العشاء وكيف تمكن من الدفاع عن نفسه - ولكن يشتم مما ورد في هذه النصوص أن المتآمرين نجحوا في إصابته إصابة قاتلة وإن كان من المرجح أنه لم يمت إلا بعد أن أملى هذه النصائح لكي تبلغ إلى ولده ، وفيها نتبين ما كان يساوره من الأسى والألم لعدم تمكنه من القضاء على المتآمرين وهو يعدد ما قام به من جلائل الاعمال التي تتصف

بالشجاعة والإقدام ثم يختتمها بتحية ولده وتمنياته له بالتوفيق ويناشده عمل الخير والنشاط في إقامة المعابد الفخمة .

ومما يؤكد ما ورد في هذه النصائح تلك النصوص المعروفة باسم «قصة سنوهي» [١] ، لأنها تروي أن سنوهي كان مع ولي العهد «سنوسرت»(الملك سنوسرت الاول فيما بعد) في حملة على ليبيا حينما وصل رسول من القصر وأبلغ الامير برسالة سرية عاجلة بأن الملك امنمحات الاول قد مات ، وقد أتيحت الفرصة لسنوهي كي ينصت إلى الرسالة (ومن المحتمل أنه كان على علاقة بالمتآمرين) فخشي على حياته وفر هارباً إلى فلسطين حيث أقام هناك وتزعم إحدى القبائل إلى أن وصل إلى سن الشيخوخة وحينئذ صدر أمر من السراي بالعفو عنه فعاد إلى وطنه – ويغلب على الظن أنه كان يمت بصلة القرابة لزوجة الملك أو ينتمي إلى أحد أفراد البيت المالك ولذا صدر أمر العفو عنه بعد أن زال أثر المؤامرة من النفوس وخاصة لأنها لم تنجح تماماً، حيث يبدو أن المتآمرين كانوا يهدفون إلى القضاء على «أمنمحات الاول» وإجلاس شخص آخر غير ولده سنوسرت على العرش أثناء قيام هذا الاخير بحملة ليبيا ولكن امنمحات رغم إصابته البالغة ظل فترة على قيد الحياة تمكن فيها أعوانه من أن يمهدوا السبيل لعودة ابنه سنوسرت وجلوسه على العرش .

سنوسرت الأول :

تابع «سنوسرت الأول» سياسة والده وتمكن من أن يحكم البلاد بخبرة ودراية

---

(١) تناول كثير من الباحثين هذه القصة بالترجمة والتعليق ويمكن الرجوع في ذلك إلى :
Wilson ed. by Pritchard, «Ancient Near Eastern Texts» (Princeton 1950) pp. 18 - 23 .

إذ لم يكن حديث عهد بإدارة شؤون البلاد حيث أن والده أشركه معه في الحكم في العشرة أعوام الاخيرة من عهده .

وكان سنوسرت نشيطاً طوال مدة حكمه التي بلغت نحو ٤٥ عاماً فقد أرسل عدداً من البعثات إلى المحاجر والمناجم في الصحارى المصرية والنوبة جلبت الفيروز والنحاس من سيناء والمرمر من حاتنوب والاحجار الصلبة والجرانيت من وادي حمامات وأسوان والذهب من وادي علاقي (في صحراء النوبة السفلى الشرقية) [١] والديوريت من محاجر صحراء النوبة الغربية على بعد نحو ٥٠ ميلا إلى الشمال الغربي من توشكي [٢] والاماتيست (الجمشت) من وادي هودي [٣] كما أنه شيد كثيراً من المباني في جهات مختلفة من الدلتا والصعيد وفي الفيوم والنوبة التي كان جزء كبير منها قد خضع للنفوذ المصري حينئذ لأن الدولة الوسطى اتبعت تجاه النوبة سياسة تختلف عن تلك التي اتبعتها الدولة القديمة بشأنها ، فبينما كانت هذه تكتفي بإرسال بعثات تجارية للاتجار مع النوبيين وتعمل على حماية بعثاتها بإرسال بعض القوات العسكرية معها نجد أن الدولة الوسطى بدأت سياسة احتلال فعلي للنوبة حتى تتمكن من استغلال مواردها وفق مشيئتها من جهة ولكي تؤمن حدودها الجنوبية تأميناً مؤكداً من جهة أخرى وذلك لأن مجموعة من العناصر قوية الشكيمة الخليطة بالدماء الزنجية أخذت تتوغل في النوبة شمالاً وأصبح يخشى من تقدمها نحو مصر نفسها .

---

(١) ربما كان هذا هو أول ذهب يأتي من النوبة إلى مصر حيث لم تشر النصوص إلى وروده منها في عهود سابقة .

(٢) عثر في هذه المحاجر على أسماء الملوك خوفو وددف رع وساحورع وإسيسي من عهد الدولة القديمة ـ أنظر كذلك ASA 33, pp. 65 ff

(٣) A.Fakhry, op. cit., 20 ff Nos. 6 ff

ويعد «سنوسرت الأول» بحق أول من اتبع سياسة حاسمة مع النوبة لأنه مد الحدود المصرية إلى وادي حلفا على الأقل وإليه ينسب تشييد ما لا يقل عن ثلاثة قلاع في هذه الجهات .

وفي آخر حكمه أشرك معه ولده « أمنمحات الثاني » لمدة ثلاثة أعوام انفرد بعدها هذا الاخير بالحكم .

امنمحات الثاني

كان للنشاط الذي بذله «سنوسرت الاول» أثره في استتاب الامور وأصبحت الحالة الداخلية في البلاد تمتاز بالامن والهدوء ، كما أن جهوده في بلاد النوبة قد أوقفت المتاعب علي الحدود المصرية فأفاد من كل ذلك « امنمحات » ووطد صلاته بجيران مصر حيث أرسل الهدايا إلى أمراء سوريا وتلقى بعض الهدايا في مقابل ذلك – ورغم أنه لم يكن في نشاط والده أو جده فقد أرسل البعثات إلى جهات مختلفة لاستغلال المناجم والمحاجر أو لجلب بعض الحاصلات التي تحتاجها مصر وفي هذا السبيل وصل رجاله إلى سينا والنوبة وبلاد بونت .

واتبع نفس السياسة التي نهج عليها والده وجده فيما يختص بإشراك ولي العهد في الحكم فأشرك معه ولده سنوسرت (الثاني) في نهاية حكمه ، ومن المرجح أن مدة هذا الحكم المشترك قد طالت إلى نحو ستة أعوام .

سنوسرت الثاني

أفاد «سنوسرت الثاني» كما أفاد والده من قبل من الهدوء والسكينة التي نعمت بها البلاد واتبع نفس السياسة الداخلية التي اتبعها والده ولكنه بدء في قيامه بمشروعات ري كبيرة في الفيوم – والظاهر أنه اهتم بهذه المنطقة اهتماماً بالغاً فبنى هرمه قرب مدخلها ، وعثر في جوار هذا الهرم على مجموعة من مقابر

الأميرات من أهم ما عثر عليه في إحداها مجموعة كاملة من الحلي داخل صندوق موضوع في فجوة بأحد جدران المقبرة وبذلك غاب عن أعين اللصوص [1] .

ومن الكشوف الهامة التي عثر عليها في عهده تلك القرية التي أقيمت للعمال والموظفين الذين كانوا مكلفين ببناء هرمه حيث أنها تعطينا فكرة واضحة عن تخطيط القرى في عهد الدولة الوسطى وعن عمارة المباني المعدة للسكن .

ومما تميز به هذا العهد كذلك وفود بعض الساميين إلى مصر فمن نقوش مقبرة «خنوم حتب» في إقليم «بني حسن» نتبين أن جماعة من الرجال والنساء والأطفال الساميين قدموا إلى مصر بزعامة شخص يدعى إبشا (ي) للاستقرار في شرق الدلتا أو بقصد الإتجار مع المصريين – وربما كان وفود هؤلاء الساميين مقدمة لتغلغل النفوذ السامي في مصر الذي بدا بوضوح في عهد الهكسوس .

هذا ولم يستمر سنوسرت الثاني طويلاً في الحكم وتبعه « سنوسرت الثالث»

سنوسرت الثالث

ظفر هذا الفرعون بشهرة كبيرة في التاريخ لأن نشاطه الكبير من جهة وطول مدة حكمه من جهة أخرى أتاح له فرصة تشييد كثير من الآثار التي خلدت ذكراه ، وكان اهتمامه البالغ ببلاد النوبة سبباً في تشييده لعدد كبير من العمائر بها فإليه تنسب أهم المعابد والحصون الحربية التي ترجع إلى عهد الدولة الوسطى ببلاد النوبة .

---

(١) احمد فخري « مصر الفرعونية » (القاهرة ١٩٥٧) ١٧٧ - ٨

والظاهر أن بعض العناصر المناوئة كانت قد أخذت تثير المتاعب في تلك الجهات فما كان منه إلا أن كال لها ضربات متتالية حتى أخضعها خضوعاً تاماً وشيد سلسلة من الحصون في مناطقها المختلفة ليضمن استمرارها في قبضته .

ولم تقتصر جهوده الحربية على النوبة وحدها بل نجده كذلك يوجه حملة إلى فلسطين ، وربما كانت هذه الحملة بسبب إغارة بعض القبائل الآسيوية أو بدو الصحراء المتاخمين لفلسطين إغارة مفاجئة على مصر فوجه إليهم هذه الحملة التي كسرت شوكتهم – ويحتمل أنه وجه كذلك حملة إلى ليبيا ، وأصبح سنوسرت بعد هذه الحملات بطلاً أسطورياً في نظر الأجيال التالية .

أما في داخلية البلاد فيبدو أنه لم يرض بالوضع القائم بالنسبة لامتيازات أمراء الأقاليم ولذلك جردهم من الألقاب التقليدية التي كانوا يورثونها لأبنائهم كما جردهم من الكثير من امتيازاتهم وأصبحوا في عهده كموظفين عاديين – ومع أنه اهتم بالفيوم كأسلافه إلا أنه لم يشيد هرمه هناك بل شيده في منطقة دهشور ، وقد عثر على بعض مقابر لأميرات بيته بالقرب من هذا الهرم عثر فيها على مجموعات عظيمة من الحلى .

وقد أشرك معه ابنه امنمحات الثالث فترة قصيرة توفي بعدها فانفرد هذا الأخير وحده بالحكم .

امنمحات الثالث

كان عهده أطول من عهد أي ملك آخر في هذه الأسرة حيث ظل جالساً على العرش نحو ثمانية وأربعين عاماً ومع هذا كان عهده عهد رخاء وطمأنينة لأن حروب والده وإصلاحاته قد هيأت له تلك الظروف الملائمة فانصرف إلى الأعمال الداخلية ونهض بالكثير من المشروعات العمرانية حيث شيد كثيراً من المباني في مختلف البلاد ونظم شؤون الري ولذا وجه عنايته إلى منطقة الفيوم ،

وأرسل بعثات متتالية إلى مناطق المناجم في سيناء وإلى المحاجر في وادي حمامات وطره كما كان يستحضر الذهب من بلاد النوبة .

وبلغ من اهتمامه بشؤون الزراعة أن سجل ارتفاع الفيضان في معظم سنوات حكمه في قلعتي سمنة وقمة بقصد التصرف في مياه النهر حسب ظروف الفيضان ووفقاً لما تقتضيه مشروعاته في إصلاح بعض الأراضي وخاصة في منطقة الفيوم .

وقد أقام هرمة بالقرب من هوارة وشيد إلى الشرق منه معبده الشهير الذي عرف فيما بعد باسم اللابيرانث [1] – وقد عثر في سنة ١٩٥٦ على مقبرة لإحدى بناته وتدعى « نفروبتاح » ، وجدت فيها ثلاثة أواني كبيرة من الفضة نقش عليها اسمها واسم والدها كما وجد تابوتها سليماً ولكن المومياء تحللت بفعل مياه الرشح وكانت الحلي التي عثر عليها معها قليلة ، ويبدو أنها دفنت على عجل والظاهر أن الأحوال الداخلية أخذت في الاضطراب والتدهور .

امنمحات الرابع

اشترك مع والده في العام الأخير من حكمه ثم انفرد بعد ذلك بالعرش ولكنه لم يستمر إلا بنحو تسعة أعوام ، والظاهر أنه لم يكن في نشاط أسلافه أو في مهارتهم السياسية والإدارية – ومعلوماتنا عن عهده قليلة وإن كانت آثاره تدل على أنه أرسل بعثات إلى المحاجر والمناجم في وادي الهودى وسينا وأنه شيد بعض العمائر في الفيوم وطيبة وغيرها .

ويبدو أن نجم الأسرة الثانية عشرة قد أخذ في الأفول ، ومع هذا ظلت

---

(١) سمي كذلك لأنه كان يشبه قصر الملك مينوس في كريت (الذي بناه دبدالوس) من حيث انه كان في تعدد حجراته يشبه التيه يضل الإنسان طريقه فيه

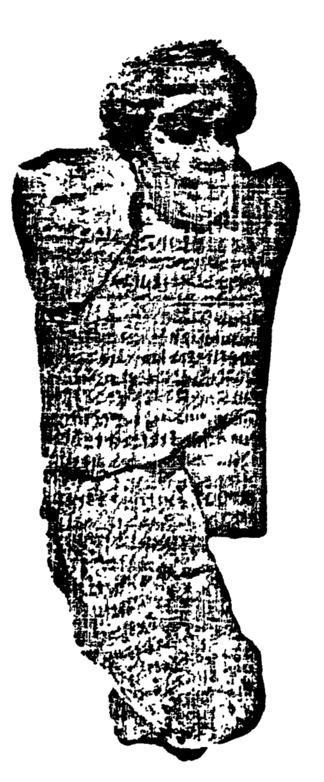
بلاد النوبة في قبضة مصر كما يتضح ذلك من وجود نقوش في قلعة قمة تسجل ارتفاع الفيضان في عهده ، والظاهر أنه لم يترك وريثاً حيث خلفته ملكه تدعى « سبك نفروع » .

سبك نفروع :

لا ندري هل كانت هذه الملكة شقيقة لامنمحات الثالث وزوجة له في نفس الوقت أو أنها كانت أخته فقط ؟ وكل ما نعلمه عن هذه الملكة أن حكمها كان قصيراً لم يزد عن ثلاثة أعوام إلا قليلاً وأنها شيدت هرمها بالقرب من هرم امنمحات الثالث في هوارة ، وقد عثر على بعض آثار أخرى لها بالقرب منه أيضاً .

وبانتهاء عهد هذه الملكة انتقل الملك إلى الأسرة الثالثة عشرة ولا ندري شيئاً عن الأسباب التي أدت إلى ذلك ، وربما كان هذا الإنتقال نتيجة لحدوث اضطرابات داخلية أو المنازعات بين أفراد البيت المالك أو أن آخر ملك في الأسرة الثانية عشرة لم يترك وريثاً للعرش كما لم تترك « سبك نفروع » التي تلته في حكم البلاد وريثاً هي الأخرى .

وكانت الفترة التي أعقبت عهد الأسرة الثانية عشرة فترة ضعف حكمت فيها الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة وبعدئذ تولى حكم مصر ملوك أجانب يعرفون باسم الهكسوس تعاقبوا في أسرات ثلاث هي الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة ، وهذه الأخيرة كانت تعاصرها أسرة سابعة عشرة أخرى مصرية مقرها في طيبة — ومع كل فقد ظلت أصول الحضارة التي تميزت بها الدولة الوسطى ثابتة خلال تلك الفترة ولم يتناولها تغيير يذكر مما مكن الدولة الحديثة أن تبلغ القمة في مضمار المدنية والرقي .



شكل ٢٧ - دمية فخارية دونت عليها نصوص سحرية معينة
واسم أحد أعداء الملك حطمت بقصد القضاء عليه

٤ ـ عصر الاضمحلال الثاني

سبق أن أشرنا إلى احتمال حدوث بعض الإضطرابات الداخلية أو المنازعات بين أفراد البيت المالك في نهاية عهد الأسرة الثانية عشرة ويبدو أن هذه الحالة ظلت سيئة بعد ذلك ولم يكن الملوك من القوة بحيث يستطيعون القضاء على أعدائهم والتفرغ للنهوض بالبلاد إذ عثر على كثير من الدمى والأواني كتبت عليها أسماء بعض الذين يريد الملك أن يقضي عليهم بواسطة السحر – (شكل ٢٧) – ومما تجدر ملاحظته أن هذه الأسماء تضمنت أسماء لأمراء ساميين ونوبيين إلى جانب أسماء الأمراء المصريين ، مما يدل على أن أعداء الملك الذين لم يكن ليستطيع القضاء عليهم بالقوه كانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة ، ومما لا شك فيه أن الحالة كانت سيئة بالنسبة لهؤلاء الملوك في داخل وخارج البلاد على السواء [١] .

الأسرة الثالثة عشرة

ربما كانت هذه الأسرة تمت إلى الأسرة الثانية عشرة بصلة ، وقد حكمت فترة لا تزيد كثيراً على خمسة وخمسين سنة – ولم نعثر على آثار لبعض ملوكها ولكننا عرفنا أسماء الكثيرين من هؤلاء من بردية تورين ومما ذكره مانيثون إلا أن هذين المصدرين فيما يبدو لم تكن لهما دراية كافية عن هذا العصر .

ومن المحتمل أن ملوك هذه الأسرة كانوا يحكمون في منف وقد ترك بعضهم آثاراً في مناطق أخرى بل وامتد نفوذهم إلى بلاد النوبة ووجدت آثار لهم في خارج حدود المملكة منها بعض جهات لبنان إلا أن غالبية ملوك هذه الأسرة كانوا ضعافاً ، ومما يؤيد ذلك أن بردية من هذا العهد تبين

---

(١) Posener. « Princes et Pays d' Asie et de Nubie » , (Bruxelles 1940)

أن حاكم إقليم الكاب تنازل عن منصبه إلى أحد أقاربه في نظير مبلغ معين [١] ويدلنا هذا بالطبع على أن الأحوال كانت سيئة بصفة عامة وعلى أن الملوك لم يكن في مقدورهم الإحتفاظ بسلطانهم على أمراء الأقاليم حتى أصبح في إمكان هؤلاء أن يبيعوا مناصبهم – كذلك ينسب إلى الأسرة الثالثة عشرة ملك يدعى نحسى وصف في بعض النصوص بأنه « حبيب الإله ست معبود أواريس»، ولما كان ست هو المعبود الرسمي للهكسوس وأواريس عاصمة ملكهم فإنه لاشك في أن نفوذ هؤلاء قد أخذ في الظهور منذ عهد هذا الملك على الأقل ، كما يوحي اسم هذا الملك أيضاً بأنه كان في نفس الوقت يمت بصلة إلى النوبة وربما كانت أمه نوبية [٢] .

ومن المرجح أن أسرة قوية في غرب الدلتا ادعت الملك أثناء حكم الأسرة الثالثة عشر – وهذه الأسرة القوية هي الأسرة الرابعة عشر التي كانت عاصمتها سخا .

ومما تجدر ملاحظته أن بعضاً من الأسماء الغريبة غير المصرية وردت بين الأسماء الكثيرة التي ذكرت كملوك حكموا في هذه الفترة ، ومن هذه ما هو ذو طابع سامي مما يؤيد فكرة أن حكم الهكسوس جاء نتيجة لغلبة هذه العناصر في مصر وتغلغل نفوذها أي أنه كان على الأرجح نتيجة لتغير الحكام أو القادة وليس نتيجة لغزوة ساحقة [٣] .

هذا وما زال ترتيب ملوك الأسرة الثالثة عشر ومدى نفوذهم موضع خلاف حتى الآن .

---

(١) لوحة رقم ٥٢٤٥٣ بمتحف القاهرة .

(٢) Rec, de Trav. 15, pp. 97 — 101

(٣) JEA 37, pp. 56—61

الأسرة الرابعة عشرة .

تعطينا بردية تورين قائمة طويلة بأسماء ملوك هذه الأسرة كما يـذكر مانيثون عدداً ضخماً لهؤلاء الملوك ويذكر مدة حكم لهم عدداً كبيراً من السنين ولكن يبدو أن هذه الأعداد جميعها مبالغ فيها كثيراً ، بل ومن المرجح كذلك أن هؤلاء الملوك لم يتمتعوا بنفوذ يذكر خارج حدود إقليمهم الذي كانت عاصمته سخا – وكانت الأسرة الثالثة عشرة تتـدهور هي الأخرى إلى أن اضمحلت قوتها مما أدى في النهاية إلى خضوع مصر للحـكام الأجانب المعروفين باسم الهكسوس .

الهكسوس

بالرغم من أن حدود الدلتا الشرقية كانت محصنة في عهد الدولة الوسطى فإن بعض العناصر السامية كانت تدخل إلى مصر من حين إلى حين إما للتجارة وإماللاستقرار، ويبدو أن الأمر لم يكن ليثير ريبة المصريين مادام هؤلاء القادمين مسالمين – وقد سبق أن أشرنا إلى الجماعة الآسيوية التي قدمت إلى مصر في عهد سنوسرت الثاني ومثلت على جدران مقبرة « خنوم حتب » [١] ، والجدير بالذكر أن إبشا (ى) زعيم هذه الجماعة كان يلقب بلقب « حقا خاسوت » أي « حاكم البلاد الأجنبية » ، وهذا اللقب هو الذي أصبـح بعد تحريفه إسماً يدل على الهكسوس .

وتدل ظواهر الأحوال على أن منطقة الشرق الأدنى القديم تعرضت لأحداث كثيرة متتالية في الوقت الذي أشرفت فيه الدولة الوسطى على النهاية ، فقد قضت بابل على الممالك المجاورة لها كما أن المملكة « الكاشية » قد أخـذت هي الأخرى

---

(١) أنظر ص ١٤٣ .

تتطلع إلى غزو الأقطار المجاورة لها بينما أخذ « الحوريون » أو « الميتانيون » يستولون على بعض البلاد السورية — ولا شك في أن هذه التحركات كانت ذات أثر في هجرة وتسلل الكثير من العناصر الآسيوية إلى مصر التي استقرت جموعها في المنطقة الأقرب إلى مواطنها الأصلية ، أي في شرق الدلتا على الأرجح — ولم يمض على استقرارهم وقت طويل إلا وأصبحوا قوة يخشاها المصريون واستفحل خطرهم وزاد إلى أن تمكنوا من فرض سلطانهم على مصر وجعلوا عاصمتهم أواريس .

ومع أن عهدهم كان موضع أبحاث كثيرة إلا أن الغموض ما زال يكتنفه وما زلنا لا نستطيع أن نجزم بأصلهم أو أن نؤكد كيفية إخضاعهم مصر لسلطانهم وخاصة لأن النصوص المصرية تحاشت ذكرهم إلا في أحوال نادرة كانت تنعتهم فيها بصفات تدل على كراهية المصريين لهم ولعهدهم ، ومن ذلك مثلاً ما تذكره حتشبسوت عنهم في نقوش معبدها المنحوت في الصخر بالقرب من بني حسن وهو المعروف باسم « اسطبل عنتر Speos Artemidos حيث تقول إن « الآسيويين كانوا يحكمون في أواريس في الشمال وكانوا يحافلهم المتجولة يعيشون بين الناس فساداً محطمين ما كان قائماً ، إنهم كانوا يحكمون دون (اعتراف بسلطان) رع بل ولم تكن إرادته الإلهية تنفذ إلى أن جاء عهدي المظم »[1] أما مانيثون فيقول في هذا الصدد « في عهد الملك توتيمايوس أصابتنا ضربة من الإله — ولا أدري سبب ذلك — دون أن نتوقع ذلك حيث جاءنا غزاة من الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم الثقة في النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة وبعد أن تغلبوا على البلاد حرقوا مدننا دون رأفة وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالي بعداء قاس فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر

---

(١) JEA 32, pp. 45 ff

ليكونوا إماءاً وعبيداً لهم ، وأخيراً عينوا واحداً منهم يدعى ساليتيس Salitis ملكاً عليهم فأقام في منف وفرض الضرائب شمال مصر وجنوبها وكان يترك حاميات في المواقع المناسبة وبنى حصناً في أواريس في شرق الدلتا ترك فيه حامية من ٢٤٠,٠٠٠ رجل مزودين بالأسلحة وكان يذهب لزيارة هذا الحصن ويتفقد رجاله في شهور الصيف من كل عام »[1] .

ومن هذه النصوص نتبين أن هؤلاء جاءوا من آسيا وأنهم كانوا يسيئون إلى المصريين فكرههم هؤلاء وعملوا على التخلص منهم ، ومن المرجح أن جاليات كبيرة من الهكسوس كانت تستقر في أماكن مختلفة من سوريا وفلسطين وربما كانت أقرب مراكز استقرارهم هذه هي بلدة « شاروهن » حيث أننا نعلم بأنهم حينما طردوا من مصر لجأوا إلى هذه البلدة وتحصنوا فيها ثلاث سنوات[2].

ويقسم حكام الهكسوس عادة إلى ثلاثة مجموعات على النحو الآتي : —

الأولى وتشمل ستة ملوك ويعتبرهم المؤرخون الأسرة الخامسة عشرة وقد حكموا نحو ١٠٨ سنوات .

والثانية وهي أقل أهمية وتكون الأسرة السادسة عشرة .

أما الثالثة فهي الأسرة السابعة عشرة وكانت معاصرة للأسرة السابعة عشرة المصرية في طيبة .

ويبدو أن الثلاثة ملوك الأخيرين في المجموعة الأولى وهم أبو فيس، خيان، شيشي أو إسيسي قد حكموا مصر كلها والنوبة السفلى لأن آثارهم وجدت

---

(١) W, G, Waddel « Manlto » (1940) pp, 79 ff

(٢) أنظر بعد مطاردة أحمس للهكسوس ص ١٠٨

موزعة فيها إلا أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذهم طويلا في الجنوب وإن كان من المرجح أنهم ظلوا على صلة بأمراء النوبة كما يستدل على ذلك من لوحة عثر عليها بالكرنك سنة ١٩٥٤ [١] تصف كفاح كاموزا [٢] ضد الهكسوس في أواخر عهدهم إذ نتبين منها أن ملك الهكسوس كان على صلة بأمير النوبة — والظاهر أن تجارة الهكسوس ظلت رائجة في النوبة ونفوذهم ظل قائماً في الصعيد إلى أن بدأ الأمراء المحليون في الصعيد يعارضون هذا النفوذ وازدادت مقاومتهم له في عهد الأسرة السابعة عشرة .

ولا شك أن بعض ملوك الهكسوس وصلوا إلى درجة عظيمة من القوة والسلطان وخاصة ملوك المجموعة الأولى ومن أشهرهم « خيان » سالف الذكر حيث عثر له على آثار في كثير من جهات مصر وسوريا وفلسطين بل ووجد جزء من تمثال في هيئة الأسد يحمل اسمه عند أحد التجار في بغداد ، وفي حفائر أجريت في كريت عثر على غطاء إناء من المرمر نقش عليه اسمه كذلك — ولا بد أن النشاط التجاري في عهده كان عظيماً وأن مصر كانت على صلة بمختلف تلك الجهات التي عثر على آثاره فيها .

ولا نعرف إلا القليل عن حكم الملوك الذين تلوا ملوك المجموعة الأولى (الأسرة الخامسة عشرة) كذلك لا نعرف كيف انكمش ملكهم وأصبح المصريون يتطلعون إلى طردهم — ومن المؤكد على أي حال أن المصريين برموا بهم وضاقوا بوجودهم بينهم حيث يبدو أن ظهورهم كان يصحبه اضطراب في أحوال الشرق الأدنى بصفة عامة وأدى إلى مرور مصر بفترة عصيبة فنزح بعض المصريين عنها إلى النوبة حيث عملوا في خدمة بعض أمرائها

---

(١) Chr, d'Eg. 30, pp, 198 ff

(٢) آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة المصرية ـ أنظر ص ١٥٥ ـ ١٥٩

المحليين [١] إذ أن النوبة حينئذ كانت قد تخلصت من النفوذ المصري وأخذ يحكمها بعض أمرائها الذين استقلوا بأقاليمهم بينما أخذ الأمراء المصريون الذين أجبرتهم الظروف على مجابهة بعض الأخطار في أقاليمهم يستعينون بالكثيرين من أبناء النوبة الذين قدموا إلى مصر كجنود مرتزقة واستقرت غالبيتهم فيها في جاليات كبيرة إذ عثر على جباناتهم ومقابرهم منتشرة في مصر العليا ووصل انتشارها شمالاً إلى مصر الوسطى ، وتتميز هذه المقابر بأنها على هيئة الجرس وقد عرفت لدى الأثريين باسم Pan Greves – وقد ظل هؤلاء المرتزقة النوبيون يؤدون خدماتهم في مصر واستمر المصريون يستعينون بهم حتى في حرب الاستقلال التي طردوا فيها الهكسوس بل وبعد ذلك أيضاً .

ولا بد أن مصر والنوبة في نهاية عهد الهكسوس كانتا تنقسمان إلى الأقسام الآتية [٢] : –

(١) مملكة طيبة (الأسرة السابعة عشرة المصرية) التي كانت تمتد من اليفانتين (إقليم الشلال الأول) جنوباً إلى القوصية شمالاً .

(٢) مملكة الهكسوس وكانت تحكم الدلتا ومصر الوسطى .

(٣) مملكة النوبة التي يحكمها أمير نوبي وكانت تمتد شمالا إلى اليفانتين .

ومع أن الهكسوس تأثروا بالحضارة المصرية واندمجوا في الحياة المصرية على العموم حيث اتخذوا الألقاب الفرعونية وعبدوا الالهة المصرية وتركوا آثاراً مصرية الطابع إلا أن حكمهم لم يكن مقبولا – ولا ندري كيف بدأ كفاح المصريين ضدهم لأن معلوماتنا مستقاة من مصادر متأخرة ولا تمدنا بتفاصيل

---

(١) JEA 35,pp, 50 ff

(٢) PSBA 35,p, 117; JEA3, pp, 99 - 110

كافية عن هذا الكفاح ، ففي بردية ترجع إلى عصر الرعامسة تعرف باسم بردية سالييه رقم (١) Sallier(1) [١] قصة بها الشيء الكثير من الخيال عن بدء حدوث المناوشات بين المصريين والهكسوس ، ومما جاء فيها « أن الطاعون قد اجتاح البلاد (كناية عن استيلاء الهكسوس على الحكم فيها) وأن البلاد قد خضعت لهم ، وقد جعل ملكهم أبو فيس من الإله سوتخ (ست) معبوداً لمصر ولم يقدم قرباناً لإله غيره ... وكان سقنن رع في ذلك الوقت حاكماً على طيبة ولم يقبل أن يعبد إلهاً غير الإله « آمون رع » – ثم تشير البردية بعد ذلك إلى أن رسولا من الملك أبو فيس جاء من أواريس إلى طيبة ليبلغ سقنن رع أن « أفراس النهر في مياه طيبة تقلق نوم أبو فيس وهو في قصره في الدلتا » وهو يطلب إسكاتها أو أن تهجر ذلك المكان كما أبلغه كذلك بأن أبو فيس يحتم أن يعبد الإله سوتخ – ومن الواضح أن هذه الرسالة الملتوية تدل على ما كان يشعر به ملك الهكسوس من تفشي روح التمرد والثورة ضده في جنوب مصر وأنه أراد أن يجبر أمير طيبة على إعلان خضوعه له – وقد فقدنا بقية هذه القصة عن كفاح مصر ضد الهكسوس لأن البردية تهشمت ولم يسلم منها سوى الجزء المدونة فيه هذه الرسالة ولكن مما لا شك فيه أن هذه البردية إنما كتبت لتبين أن « سقنن رع » بدأ الكفاح فعلاً ضد الهكسوس ولتبين الدور المجيد الذي قام به خلال هذا الكفاح ، ويؤيد ذلك أن مومياءه تدل على أنه مات متأثراً بجراح أصيب بها في رأسه وصدره مما يرجح أنه قتل أثناء حربه مع الهكسوس .

ولا بد أن ملوك طيبة السابقين كانوا أشبه بولاة من قبل الهكسوس وقد وردت أسماء ثمانية ملوك قبل « سقنن رع » ويظهر أن آخرهم بدأ بإعلان عصيانه عليهم وربما امتنع عن دفع الضرائب المطلوبة لهم وبدأ يستنهض الهمم للوقوف في وجههم ولكن أجله لم يمهله حتى يبدأ النضال وقدر لخلفه « سقنن رع »

---

(١) Gardiner, Late Egyptian Stories, pp. 87 ff.

أن يقوم بذلك ثم تبعه في تحمل أعباء هذه المهمة كل من ولديه (كاموزا) و (أحمس) على التوالي .

طرد الهكسوس

يبدأ طرد الهكسوس في الوصول إلى مرحلة حاسمة في عهد كاموزا خليفة (سقنن رع) كما يتبين ذلك من لوحة خشبية مؤرخة بالسنة الثالثة من عهده[1] وهي وإن كانت غير كاملة إلا أن ما دون عليها يدل على مواصلة كاموزا الكفاح ضد الهكسوس – وقد عثر على جزء من لوحة من الحجر الجيري بالكرنك[2] لا شك في أنها كانت الأصل الذي نقلت عنه اللوحة السابقة وهي تذكر أن كاموزا جمع رجاله لاستشارتهم في الكفاح ضد الهكسوس ، محاولا أن يستنهض هممهم إذ يذكر لهم أنه يجد نفسه محصوراً بين عدوين (الهكسوس في الشمال والنوبيين في الجنوب) ولكن هؤلاء المستشارين كانوا متقاعسين راغبين عن القتال في بداية الأمر إذ أنهم أجابوه بما يفيد أنهم لا يرون مبرراً للقتال ضدهم ما دامت حدود المملكة (المصرية من اليفانتين إلى القوصية) لم تمس وما دامت أراضيهم وأملاكهم سليمة لم يغتصب أحد منها شيئاً أو تنقطع عنهم إيراداتها ولم يعتدى على جزء من المملكة ، إلا أن كاموزا لم يقتنع بإجاباتهم وصمم على طرد هؤلاء الذين يشاركونه في حكم مصر في الشمال (أي الهكسوس) .

ولا شك في أن ما ورد في لوحة الكرنك التي كشف عنها سنة ١٩٥٤ [3]

---

(١) تعرف باسم لوح « كارنارفون – انظر
Carnarvon & Carter, « Five Years' Exploration at Thebes», p. 3; JEA 3, pp. 95 - 110, pls. XII, XIII 7, pp. 36 - 56

(٢) ASA 5, p. III & 39 pp. 145 ff.

(٣) انظر اعلاه ص ١٠٣

يعد مكملاً لما جاء في اللوحة التي أسلفت الإشارة إلى أنها الأصل الذي نسخت منه لوحة كارنارفون ، فمن نصوص هذه اللوحة الأخيرة يتبين لنا أن كاموزا انتصر انتصاراً حاسماً على الهكسوس في معركة نيلية كما تشير أيضاً إلى حملة على النوبة سبق أن قام بها كاموزا – كذلك توضح لنا كيف أن ملك الهكسوس أراد الإتصال بملك النوبة ليفاجىء هذا الأخير الملك كاموزا من الخلف أثناء انشغاله في حربه ضد الهكسوس إلا أن رسول ملك الهكسوس إلى النوبة قبض عليه وهو في طريقه لليها فلم تنجح المؤامرة التي أريد تدبيرها ضد المصريين .

ولا ندري إلى أي مدى وصل كاموزا في كفاحه ولكن لا شك في أنه نجح في كسر شوكة الهكسوس وأنه مهد السبيل للانتصار الأخير الذي انتهى بطردهم من مصر على يد خلفه وأخيه أحمس الأول .

٥ – عهد الدولة الحديثة

إجلاء الأجانب وتكوين الامبراطورية :

سبق أن أشرنا إلى أن كاموزا نجح في كسر شوكة الهكسوس ومع ذلك فقد ظلت الأوضاع في وادي النيل على ما هي عليه إلا فيما يختص بإقدام المصريين على مناوأة النفوذ الأجنبي وإعلاء شأن مملكتهم في الجنوب حتى أصبحت المملكة الطيبية دولة ذات سيادة بعد أن كانت تعترف بنفوذ الهكسوس ، ي أنه من الممكن القول بأن عهد (كاموزا) وسلفه (سقنن رع) كان تمهيداً للنهضة التي بدأت بعدئذ والتي يوضع على رأسها (أحمس الأول) خليفة (كاموزا) ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، وقد تمكنت مصر في نهضتها هذه من أن تكون إمبراطورية مترامية الأطراف بعد أن تمكنت من إجلاء الأجانب عن أراضيها وأصبحت أقوى أمم الشرق الأدنى القديم نفوذاً وسلطاناً .

الأسرة الثامنة عشرة

أحمس الأول :

لا ندري كيف انتهت حياة « كاموزا » وهل لقى مصرعه أثناء كفاحه ضد الهكسوس كما حدث لسلفه من قبل أو أنه مات ميتة طبيعية قبل أن يتمكن من إخراج الهكوس من مصر ؟ ومهما يكن من أمر فقد برز اسم أحمس الأول فجأة في النصوص المصرية على أنه هو الذي طرد الهكوس نهائياً من مصر .

وأحمس وإن كان من نسل ملوك الأسرة السابعة عشرة إلا أنه يعتبر مؤسساً للأسرة الثامنة عشرة – وقد استأنف الجهاد بعد سلفه « كاموزا » ومضى في حربه ضد الهكسوس إلى أن سقطت عاصمتهم « أواريس » في يده ، ثم طاردهم إلى فلسطين حيث تحصنوا في « شاروهن » ولكن حاصرهم فيها ثلاثة أعوام إلى أن سقطت هي الأخرى في يده وبهذا تم انتصاره عليهم وقضى على قواتهم نهائياً .

ومن المصادر الهامة عن الأسرة الثامنة عشرة في شطرها الأول بصفة عامة وعن عهد أحمس بصفة خاصة نصوص مقبرتين لضابطين معمرين اشتركا مع أحمس في حروبه ضد الهكسوس واستمرا في الخدمة العسكرية في عهد خلفائه وكان كل منهما يدعى أحمس كذلك ، ولكن أحدهما كان يعرف باسم « أحمس بن نخب » أما الآخر فكان اسمه « أحمس بن أبانا » [1] – وهذه النصوص تصف لنا بعض تفصيلات المعارك التي خاضها الملك أحمس في كفاحه ضد الهكسوس كما تشير إلى حروبه في النوبة – وقد وجدت آثار أخرى

---

(1) Urk.IV, pp. I f f &36 ff

من عهده تثبت أنه أخضع شمال النوبة وشيد هناك إحدى القلاع وبدأ وضع سياسة لإدارة هذه البلاد بتعيين حاكم عسكري عليها وإسناد شئونها المالية والإدارية إلى أمير نخن (إقليم الكاب) .

ويبدو من نصوص خلفها أحمس أن ثلاثة سيدات كان لهن أكبر الأثر في حياته بصفة خاصة وفي تاريخ مصر في تلك الآونة بصفة عامة . وأولى هذه السيدات هي « تتي شري » جدة أحمس التي ظل وفيا لذكراها وبني لها قبراً رمزيا في أبيدوس وضع به لوحة تذكارية ، وثانيتهن هي والدته « إعح حتب » التي لعبت دوراً خطيراً في الكفاح ضد الهكوس يشير إليه ولدها أحمس في لوحة أقامها بالكرنك بقوله « امدحوا سيدة البلاد وسيدة جزر البحر المتوسط فاسمها مبجل في جميع البلاد الأجنبية وهي التي تضع الخطط للناس ، زوجة ملك وأخت ملك وأم ملك وهي العظيمة القديرة ، وهي التي تهتم بشئون مصر ... جمعت جيشها وهيأت الحماية للناس وأعادت الهاربين وجمعت شتات المهاجرين وهدأت ما حل بالصعيد من خوف وأخضعت من كان فيه من العصاة .. الخ »[1] - ونظرا لما يبدو من تأثر بعض حلى هذه الملكة وخنجرها ببعض المظاهر الفنية التي سادت جزر بحر إيجة فإن نفرا من المؤرخين يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الملكة تنتمي أصلا إلى جزيرة كريت ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك وإنما يحتمل أن تلك المؤثرات كانت ترجع إلى وجود علاقات بين مصر وكريت في ذلك الوقت بل ولا يستبعد أنهما كانا متحالفين ، وبمقتضى هذا التحالف قدم أهل كريت بعض المعاونة للمصريين في كفاحهم ضد الهكسوس وأن « إعح حتب » لعبت دوراً هاماً في هذه التحالف .

أما السيدة الثالثة فهي « أحمس نفرتاري » التي كانت زوجة لكل من أخويها « كاموزا » « وأحمس » على التوالي وقد عبدت منذ أواخر الأسرة

---

(1) Breasted,AR II, - 29 ; Urk. IV 14 - 24

الحادية والعشرين حيث أقيم لها معبد في طيبة واعتبرت هي وولدهـا « أمنحتب الأول » الإلهين الحارسين للجبانة .

امنحتب الأول :

تولى العرش وهو صغير ولكنه كان خبيراً بالملك ومقـدما كأسلافه فنصوص الضابطين المشار إليهما فيما سبق (أحمس بن أبانا وأحمس بن نخب [1]) تشير إلى أنه ذهب في حملة إلى النوبه وتوغل فيها إلى سمنه (جنوب الشلال الثاني) على الأقل حيث ترك « ثوري » الحاكم المصري على النوبة في عهده نصين أحدهما في سمنة والثاني في أورونارتي (جزيرة الملك) ، وهما مؤرخين بالسنة السابعة والسنة الثامنة من عهد أمنحتب على التوالي – ومن المرجح أنه السبب في قيام الملك بهذه الحملة يرجع إلى حدوث ثورة في النوبة . ويبدو أنه تعقب زعيم الثورة إلى الصحراء أو أن الثائرين كانوا من القبائل التي تعيش على حافتها الآن « أحمس بن أبانا » يشير في نصوص مقبرته إلى أنه قاد الملك في عودته إلى مصر من منطقة « البئر العلوي » في يومين فقط ، فالإشارة إلى « البئر العلوي » تجعل من المحتمل وصول هذا الملك إلى منطقة صحراوية حينما قام بحملته هذه– ويذكر أحد كهنة آمون أن نفوذ هذا الملك وصل إلى منطقـة « كاروي » أي إلى قرب «نبته » عند الشلال الرابع ولكن لا يوجد لدينا من الادلة ما يؤيد وصول نفوذه إلى مثل هذا المكان البعيد– ولا تقتصر جهوده الحربية على النوبة وحدها فقد أشارت نصوص « أحمس بن نخب » إلى قيامه بغزوة ليبية ولكنه لم يذكر سبب هذه الحملة أو المكان التي وصلت إليه .

والظاهر أن الأمن كان مستتباً فى داخلية البلاد كما أن الحالة هدأت فيها فلم يعد الملك فى حاجة إلى مزاولة النشاط العسكري وتفرغ للأعمال

---

(١) انظر هامش ص ١٥٨ .

السلمية حيث قام بتشيد بعض المباني وعم الرخاء في عهده، ويعد معبده الجنزي من أشهر مبانيه وقد شيده على الضفة الغربية للنيل أمام الأقصر – كذلك ترك هيكلا من المرمر عثر على أحجاره ملقاة في أنقاض مباني الكرنك فجمعت وأعيد تركيبها ، وهو يعد من أجمل ما عثر عليه من هياكل الدولة الحديثة .

وقد مات دون أن يترك من يخلفه على العرش فخلفه « تحتمس الأول » الذي يرجح أنه كان من الأمراء وأنه اكتسب حق ولاية العرش عن طريق زواجه بإبنة « امنحتب الأول » وكان اسمها « أحمس » .

تحتمس الأول :

بدأ حكمه بإصدار مرسوم ينبيء عن اعتلائه للعرش وقد أرسل هـذا المرسوم إلى « توري » حاكم النوبة ليعلنه على الملأ – ونكاد تلمس في هـذا المرسوم ما يشير إلى حـدوث بعض النزاع على العرش قبل أن تستقر الأمور لتحتمس الأول الذي ما كاد ينتهي من ذلك قام في السنة الثانية من حكمه بحملة إلى شمال السودان مد حدوده فيها إلى « كورجوس » Kurugus [1] (جنوب أبو أحمد) أو إلى « مروي » أي أنه توغل إلى أبعد من الأماكن التي وصل اليها أسلافه – ولا بد أنه كان يهدف إلى ضمان بقـاء النوبـة تحت سيطرة مصر وخضوعها تمـاماً لسيادتها وأراد أن يتصل اتصالا مبـاشراً بالمنـاطق الغنيـة التي كانت تمد مصر بكثير من الحاصلات وأن يضمن بقاء الطريق التجاري إليها في يده سواء كان ذلك عن طريق النيل أو بالطريق البري ، ولهذا استولى على تلك الأمـاكن التي إلى جنوب الشلال الثالث وأمر بتطهير مجرى النيـل عند الشلال الأول .

وقد اهتم تحتمس الأول كذلك بالجهـات الواقعة في شمال مصر وتوغل

---

(1) JE A 36, pp. 36 - 8

في فتوحاته كثيراً حيث يرجح أنه وصل إلى منحنى الفرات الذي عرفه المصريون بأنه النهر ذو المياه المعكوسة (أي الذي يجري في عكس الاتجاه الذي يسير فيه نهر النيل) ، وفي هذه البقعة التي وصل إليها انصرف إلى الصيد بعض الوقت وترك هناك لوحة لبيان حدود مملكته ، ومن ذلك يتضح أنه كان يحكم إمبراطورية تمتد من منطقة الشلال الرابع إلى شمال سوريا عند منحنى نهر الفرات – وقد درج بعض فراعنة الدولة الحديثة فيما بعد على الذهاب لصيد الفيلة في منطقة منحنى الفرات مما يدل على أن هذه المنطقة كانت حافلة بالأحراش في تلك العصور .

ويحدثنا المهندس إنيني الذي عاش ابتداء من عهد امنحتب الأول بأن سيده تحتمس الأول كلفه ببناء مقبرته وأن هذه المقبرة نحتت في الصخر في بقعة لا يعلمها غيره [١] ، والظاهر أن تحتمس الأول كان أول فرعون يقرر عدم وجود بناء هرمي أو غير هرمي يعلو سطح الأض فوق مقبرته حتى يخفي مكانها فلاتمتد إليها أيدي اللصوص – وهذه البقعة التي نحتت فيها مقبره تحتمس الأول أصبحت جبانة لملوك الدولة الحديثة وهي المعروفة حالياً باسم « وادي الملوك » وتقع على الضفة الغربية للنيل أمام مدينة الاقصر – ومن المباني التي شيدها تحتمس كذلك معبده الجنزي الذي بناه على حافة الوادي بالقرب من مقبرته كما شيد معبداً كبيرا في منطقة الكرنك أقام أمامه مسلتين كبيرتين وبنى بهو عظيما به أعمدة مربعة على واجهاتها تماثيل أوزيرية [٢] .

وقد حكم هذا الملك نحوا من ثلاثين عاما كانت البلاد فيها قوية يمتد نفوذها

---

(1) Breasted, A R II, 90 -98

(٢) أي تماثيل بهيئة الإله أوزير الذي اعتقد الفراعنة بأنه إله الموتى الحاكم في العالم الآخر وكانوا يمثلونه بهيئة إنسان ملتف بالاكفان ويمسك صولجاناً في إحدى يديه وسوطا في يده الأخرى وقد يقبض على عصى الراعي بالاضافة إلى ذلك .

في الجنوب والشمال ولكن أحوال القصر الداخلية كان يسودها الغموض مما دعا إلى الظن بأن أفراد البيت المالك قد انقسموا بعضهم على البعض الآخر – وربما كان سبب ذلك أن الملكة « أحمس » التي تزوجها تحتمس الأول – واكتسب بذلك حق إعتلاء العرش – لم تنجب ولدا بل أنجبت ابنتين كبراهما حتشبسوت أي أنها لم تنجب وليا للعهد ، في حين أن زوجات أخريات قد أنجبن له أبناء من الذكور كان أكبرهم « تحتمس الثاني » الذي يرجح أنه كان ضعيفا إزاء أخته حتشبسوت إبنة الزوجة الشرعية لتحتمس الأول ، ولذا بدأت سلسلة من المؤامرات فانقسم موظفو القصر وكبار موظفي الدولة ورجالاتها إلى طوائف تؤيد كل منها أحد الطرفين ثم انتقل هذا النزاع بعد ذلك بين حتشبسوت وبين تحتمس الثالث مما أدى إلى اختلاف المؤرخين في شأنهم وخرجوا بعدة آراء ونظريات عن صلة القرابة بين هؤلاء الملوك وترتيب حكمهم وخلقوا من ذلك مشكلة تعرضوا لها بالبحث بعض الوقت نظراً لأن اسم حتشبسوت أزيل من على بعض الآثار وكتب بدلا منه اسم تحتمس الأول أو الثاني أو الثالث ، ومهما كان الأمر فقد أصبح من المتفق عليه أن تحتمس الأول كان والد كل من حتشبسوت وهي من الزوجة الشرعية وتحتمس الثاني وهو من زوجة غير شرعية ، وأن تحتمس الثالث كان بالمثل إبنا لتحتمس الثاني من زوجة غير شرعية أيضا [1] وأنه تزوج من أميرة من البيت المالك كانت تدعى حتشبسوت (مريت رع) هي الأخرى – وقد بدأ حكمه تحت وصاية عمته (حتشبسوت الكبرى) ثم انفرد بالحكم بعد ذلك .

تحتمس الثاني :

تزوج من أخته حتشبسوت واعتلى العرش ولكن سرعان مادب الخلاف

---

(١) والدة تحتمس الثاني كانت ملكة أقل أهمية من الملكة الشرعية وكانت تدعي موت نفرت ، أما والدة تحتمس الثالث فكانت محظية لتحتمس الثاني وتدعي إيزيس - أنظر
Sir A. Gardiner, «Egypt of the Pharaoahs », pp, 180 - 181

بينهما واضطربت الأمور ، وربما كان لذلك أثره الملموس في مستعمرات مصر الجنوبية فأراد الأمراء المحليون أن ينفضوا عنهم سلطان مصر وقامت الثورة في السودان إلا أن تحتمس الثاني أرسل حملة إلى هناك قامت باخضاع الثورة واحضرت بعض الرهائن ومن بينهم ابن أحد الزعماء — وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن جيوش تحتمس الثاني وصلت إلى جبل البرقل عند الشلال الرابع ولكن من العسير تأكيد ذلك ، كذلك يحتمل أن ثورة أخرى قامت أثناء حكمه في شرق مصر فأدبها الجيش المصري .

ورغم قصر المدة التي حكمها فإننا نجد اسمه منقوشاً على كثير من الآثار مما يدل على أنه كان شديد الاهتمام بالمباني ، وقد نعمت البلاد بشيء من الاستقرار في جزء من عهده على الأقل .

حتشبسوت :

بموت تحتمس الثاني بدأت فترة صراع بين حتشبسوت وأنصارها من جهة وبين تحتمس الثالث وأنصاره من جهة أخرى إذ ترك المهندس « إنيني » [1] المشار إليه نقوشاً يفهم منها أن تحتمس الثالث تولى الملك بعد والده تحتمس الثاني ولكن حتشبسوت هي التي تدير شئون البلاد وصاحبة الأمر « لأنها البذرة الممتازة التي خرجت من الإله » — ويبدو أن تحتمس الثالث الذي يرجح أنه كان ابنا لتحتمس الثاني من زوجة أخرى غير حتشبسوت كان صبيا يشغل وظيفة كهنوتية صغيرة في معبد الكرنك حينما توفى والده ، واشتد النزاع بين أنصاره وبين أنصار حتشبسوت فاستمال أنصاره بكبار كهنة آمون الذين أعلنوا أن الإله آمون (المعبود الرسمي للامبراطورية) قد اختاره ليجلس

---

(١) انظر ص ١٦٢ .

على العرش ، وتم اختياره فعلا ولكنه كان طوال حياة عمته حتشبسوت (وزوجة أبيه) مجرد شريك لا نفوذ له في الحكم بينها وضعت حتشبسوت كل مقاليد الأمور في يدها ثم أصبحت هي كل شيء ولم يرد له ذكر إلى أن ماتت وانفرد هو بالحكم .

والظاهر أن الحرب كانت عنيفة بين حتشبسوت وزوجها تحتمس الثاني ثم بينها وبين ابن زوجها تحتمس الثالث حتى أنها لجأت إلى اختراع القصص التي تشير إلى حقها المقدس في الملك مع أن حكم الملكات في مصر والشرق القديم لم يكن مستساغا بصفة عامة ، ووصلت في ذلك إلى أبعد مدى فنقشت مناظر تفصيلية على جدران معبد الدير البحري الذي شيدته في البر الغربي لطيبة (الأقصر) تمثل فيها قصة مولدها التي أدعت فيها بأنها ليست ابنة تحتمس الأول بل إبنة الإله آمون نفسه الذي تشكل في صورة أبيها وأنجبها من صلبه ، كما بينت في بعض هذه المناظر أن أباها تحتمس الأول بايعها بالملك في حياته وأن كبار الكهنة وكبار رجال الدولة قد وافقوه على ذلك ، أي أن كلا من تحتمس الثاني وتحتمس الثالث كانا طبقاً لتلك النقوش مغتصبين لحقها المشروع أو على الأقل لم يكن حكمهما شرعياً كحكمها.

ومن المرجح أن هذه الفكرة كانت بإيحاء من أنصارها حيث يبدو أنها تمكنت من أن تحيط نفسها بحاشية من الرجال الأقوياء الذين تمكنت بفضلهم من الاستمرار صاحبة للسلطة في البلاد ، ومن أهم هؤلاء المهندس « سنموت » الذي أشرف على تربية ابنتها (نفرورع) التي كانت تعدها لأن تخلفها على العرش ولكنها ماتت وهي صغيرة.

ومهما كان الأمر فإن عهدها كان عهد رخاء وطمأنينة ، ولا جدال في أنها كانت قديرة في الحكم استطاعت أن توجه نشاط الدولة إلى التجارة والأعمال الإنشائية إذ أرسلت حملة إلى بلاد بونت جلبت البخور وأشجار المر

وبعض حاصلات المناطق الاستوائية وكميات كبيرة من الذهب من أجل معابد الإله آمون ، وقد صورت مناظر هذه البعثة على جدران معبدها في الدير البحري المشار إليه - كذلك شيدت كثيراً من المباني أهمها معبد من الجرانيت في الكرنك وصالة كبيرة أمامها مسلتان عظيمتان في نفس المنطقة كما أنها أصلحت كثيراً من المباني المتهدمة .

ويبدو أنها كانت من قوة العزيمة والنفوذ طوال مدة حكمها التي بلغت نحو ثمانية عشرة عاما بحيث أصبح تحتمس الثالث في عهدها منزويا ويكاد يكون منسيا، ولذا ينسب إليه أنه بعد وفاتها صب جام غضبه على ذكراها فمحا اسمها من معظم آثارها وحطم الكثير من تلك الآثار ومن آثار أنصارها ومعاونيها .

تحتمس الثالث :

يبدو أن العهد السلمي الطويل الذي نعمت به مصر في ظل حكم حتشبسوت قد أطمع البلاد الأجنبية الخاضعة لمصر في أن تتخلص من سيادتها لأن عدم رؤية تلك البلاد للجيوش المصرية خلال هذه الفترة جعلها تتوهم أن مصر ضعيفة تعجز عن المحافظة على مستعمراتها ، ولذا أخذت تميل إلى الثورة بغية التحرر ولكن - لحسن حظ مصر - شاءت الأقدار أن يكون على عرشها تحتمس الثالث الذي لم يتوانى عن توطيد سلطانها ولم يدخر في سبيل ذلك جهدا على الأطلاق، فما أن أنفرد بالحكم حتى خرج في حملة إلى فلسطين حيث كانت جيوش بعض الإمارات بزعامة أمير « قادش » قد تجمعت عند مدينة « مجدو » - وبعد أن سار حوالى ١١ يوما وصل إلى بلدة « يحم Yehem » وهناك كانت أمامه ثلاثة طرق ليصل إلى مجدو حيث تجمع هؤلاء الأعداء : وأحد هذه الطرق قصير ضيق محصور بين سلسلة من التلال ولا يتسع لأكثر من عربة حربية واحدة أما الطريقان الآخران فطويلان يدوران حول سفح جبال الكرمل ، عندئذ

جمع تحتمس الثالث مجلسا حربياً مع قواده الذين نصحوه بعدم تعريض الجيش للخطر باتخاذ الطريق القصير ولكنه أصر على أن يفاجيء عدوه بالمسير في ذلك الطريق حيث لا يتوقع العدو إقدامه على مثل هذه المخاطرة – وفي فجر اليوم التالي كان على رأس جيشه مسرعا باختراق هذا الممر ثم انتظر إلى أن تم تجمع الجيش وهناك عسكر بجيشه عند مدخل وادي قينا ، وفي فجر اليوم التالي هجم المصريون على مجدو حيث انتصروا على المدافعين عنها ولكنهم شغلوا بنهب معسكر الأعداء فأتاحوا لهؤلاء فرصة الهرب إلى داخل المدينة والتحصن وراء أسوارها وظل المصريون يحاصرون المدينة سبعة أشهر إلى أن استسلمت لهم ، ولكن زعيم قـــادش تمكن من الفرار ، أما بقية الزعماء فقد قدموا ولاءهم لتحتمس الثالث الذي تقدم بعد ذلك شمالا واستولى على كل ما صادفه من بلاد دون عناء إلا ثلاثة مدن يبدو أنها قاومته بعض المقاومة – ومن الغنائم التي وقعت في أيدي المصريين يمكن أن نتصور مقدار الثراء الفاحش الذي كان يسود تلك البلاد حيث نجد أن من بين هذه الغنائم عربات حربية مصفحة بالذهب والفضة وأواني ذهبية وخشب ثمين مصفح بالفضة .

وكانت هذه الحملة بداية طيبة إذ أن نجاحه الساحق فيها جعله يوالي نشاطه العسكري في تلك البلاد فكان يخرج إليها كل عام تقريبا حيث كان يذهب إليها في أوائل الصيف ويعود منها عند إقبال الشتاء، وقد بلغ عدد هذه الحملات التي خرج فيها إلى آسيا ستة عشرة حملة كان ينظم خلالها شئون البلاد ويشرف على تنفيذ ما كان يأمر به من معابد ومباني .

ومن خلال حملاته الخمسة الأولى كان يستولى على بعض البقاع الجديدة وأعد بعض الموانيء السورية لكي تكون قواعد لأسطوله ولضمان عدم الانقضاض على قواته من الخلف عند توغلها في الأراضي السورية نحو الفرات إذ أنه كان يهدف إلى الوصول إلى ذلك النهر ولكن عدم إستيلائه على قادش كان يحول

دون ذلك — وما أن وافت السنة الحادية والثلاثين من حكمه حتى قام في حملته السادسة وفيها تعاون الأسطول مع جيشه البري إذ قام الأسطول بتموين الجيش ونقل المدد إليه وبذلك تمكن من الاستيلاء على قادش وأصبح من اليسير أن يصل إلى الفرات بعد ذلك ، وفي حملته الثامنة تمكن من الاستيلاء على مدينة قرقميش وأقام لوحة إلى جوار لوحة جدّه تحتمس الأول .

ومن المرجح أن هذه الحملة الأخيرة كانت ذات أثر كبير في الممالك القوية المجاورة حيث بدأت تخطب وده ، فقدمت مملكة ميتاني ولاءها وهداياها إلى العاهل المصري كما قدمت مملكة الحيثيين الهدايا الثمينة إليه طلباً لصداقته وكذلك فعلت ممالك آشور وبابل فأصبحت مصر الدولة الأولى وصاحبة النفوذ الأعلى في غرب آسيا ، وكان أسطولها القوى يهيمن على ثغور فلسطين وسوريا ويجعلها تحت رحمته .

وكانت آخر حملات تحتمس الثالث في آسيا في السنة الثانية والأربعين من حكمه [١] لأن مدينة قادش أعلنت العصيان من جديد ، وفي هذه المرة كان يعاونها ملك ميتاني وأمير تونيب إلا أن تحتمس الثالث أستطاع أن يحطمها للمرة الثانية وبذلك قضى على كل معارضة للنفوذ المصري في تلك الجهات حيث أننا نعلم أنه عاش بعد ذلك نحو اثني عشر عاما لم يحدث خلالها أن اضطر للذهاب إلى هناك .

ويبدو أن الهدوء كان يسود أملاك مصر في جنوب الوادي حيث تشير حوليات تحتمس الثالث بالكرنك إلى ورود جزيتها بانتظام ابتداء من السنة الخامسة والعشرين من حكمه على الأقل إلى السنة التاسعة والثلاثين

---

(١) عن حملات تحتمس الثالث جميعها - أنظر :
Urk. IV, pp. 647 f f, Breasted, AR II, 408 f f

فلم يكن هناك ما يدعو لتوجيه حملات إليها خلال هذه الفترة غير أن لوحة عثر عليها في جبـــل البرقل تدل على أن مصر قـامت ببعض النشاط العسكري في السودان في السنة السابعة والأربعين من حكمه، ومن المرجح أنه لم يشترك شخصيا في هذا النشاط بل كلف بعض قواده بالقيام به ولكنه قام بنفسه على رأس حملة إلى السودان في السنة الخمسين من حكمه .

ولا شك في ان تحتمس الثالث كان قائدا ممتازا لشعبه لم تقتصر مـميزاته على كفاءته الحربية فحسب بل كانت له نواحي عظمته الأخرى التي مكنته من أن يحـكم امبراطورية واسعة (خريطـة رقم ٣) ويدبر شئونها ويشرف على كل ما يتعلق بتصريف الأمور فيها ويعرف ما يحدث في مختلف أنحائها ، وقد اتبع من الوسائل ما يمكن أن نعده آخر صيحة في الدبلوماسية الحـديثة إذ أنه كان يحضر أبناء أمراء البلاد التي أخضعها لكي ينشئهم في مصر مع أبناء كبار رجال الدولة حتى يشبوا على حب مصر وصداقتها (١) كما انه حاول الإصلاح في كافة النواحي وحاول الانتفاع بكل ما يمر به ومن ذلك مثلا أنه أدخل إلى مصر كل ما وجده صالحا من نباتات وحيوانات غريبة ، وربما كان يدخل كذلك إلى البلاد الأخرى ما كان يلائمها من نباتات وحيوانات مصرية – ومن المحتمل أنه كان يشجع بعض الأجانب على القدوم إلى مصر ولم يمانع في بقائهم بها لأن مظاهر الفن والحضارة التي كانت سائدة في سوريا وبلادالنهرين أخذت تظهر في مصر بصورة واضحة .

وكان تحتمس الثالث حاكماً منصفاً يكافىء الممتازين من رجاله ويقدر ذوي المواهب ويحسن اختيار الأكفاء فقد كافأ أحد ضباطه ويدعي

---

(1) Urk. IV, p. 690 : Breasted, AR. III 467 ; T. Sâve Soederbergh, Aegypten & Nubien, (Lund 1941) , pp. 185 , 228 - & 231



خريطة رقم ٣ ـ الامبراطورية المصرية في عهد تحتمس الثالث

« أمن ام حب » لأنه أنقذ حياته حينما كان يصطاد في سهل الفرات وهاجمه أحد الفيلة وكان ذلك في اثناء حملته الثامنة . كما أنه أنصف سلفه العظيم سنوسرت الثالث[1] بتخليد ذكراه وخاصة في بلاد السودان حيث اعتبرد إلها حاميا للنوبة – وكان حين يختار رجاله الاكفاء لشغل الوظائف الهامة يوجههم ويزودهم بنصائحه وتعليماته كما يتمثل ذلك عندما أسند منصب الوزارة إلى « رخ مي رع » ، وقد ظهر في عهد هذا الملك عدد من كبار الشخصيات ذوي الكفاءات الممتازة ، ومن المناظر التي نقشت على جدران مقابرهم يمكن أن نتبين مظاهر الرقي في الحياة الاجتماعية التي سادت عصره ومقدار الثراء الذي أخذ يتدفق على مصر فيه – ومما لا شك فيه أن قبرص وكريت وغيرها من أقطار ومنطقة حوض البحر المتوسط الشرقي التي لم تكن خاضعة له كانت تخطب ود مصر وتحرص على علاقات الصداقة معها .

ومع أن تحتمس الثالث بذل جهودا ضخمة في حروبه فإنه لم يهمل في المشروعات العمرانية وشيد كثيرا من المباني في مصر والنوبة من أهمها المعبد الكبير الذي بناه في الكرنك وكانت بإحدى حجراته قائمة الكرنك التي أشير إليها في المصادر التاريخية [2] ، كذلك كان من أهم مبانيه في تلك البقعة صالة كبيرة للاحتفالات وأحد الصروح الكبيرة يعرف في الكرنك بالصرح السابع – وقد أقام عددا كبيرا من المسلات في مختلف أنحاء القطر وخاصة في منطقة الكرنك وبعض هذه المسلات نقل إلى جهات مختلفة من العالم مثل القسطنطينية وروما ولندن ونيويورك .

أمنحتب الثاني :

نشأ هذا الملك في عهد وصلت مصر فيه غاية مجدها العسكري ، وقد عني

---

(١) خامس ملوك الأسرة الثانية عشر - أنظر أعلاه ص ١٤٣-١٤٤

(٢) أنظر أعلاه ص ٩٠

والده بتدريبه على الرماية منذ الحداثة كما عنى بتثقيفه فأنشأ مدرسة في القصر ليعلمه فيها مع أبناء كبار رجال الدولة وأمراء آسيا والنوبة وبذلك حقق والده هدفاً هاماً إذ ارتبط هؤلاء جميعاً برباط الصداقة والود ، وقـــد عثر على لوحة بالقرب من أبو الهول تصف فروسيـــة امنحتب الثـــاني وحبـه للرياضة ومهارته فيها .

ولما تولى العرش لم يكد يسمع برغبة بعض الولايات السورية الشمالية في الانفصال عن مصر حتى تقدم نحوها على رأس جيشه حيث هزم الثائرين ، وفي عودتـــه إلى طيبة أحضر سبعة من أمراء المدن السورية الثائرة ، قتل ستة منهم في طيبة وأرسل السابع إلى نباتا مقر الحكم المصري في السودان ليشنق هناك حتى يكون عبرة لمن تحدثه نفسه من أمراء السودان بالثورة على مصر – وبهذا احتفظ بهيبة مصر فتابعت البلاد الأجنبية إرسال هداياها وجزيتها . وفي السنة التـــاسعة من حكمه علم بفتنة صغيرة في فلسطين فانتهز الفرصة وقام بجولة تفتيشية بعد أن أخمد الثورة ، وقد دون أخبار هاتين الحملتين على لوحتين إحداهما بالكرنك والثانية عثر عليها في ميت رهينة قرب سقارة [1] كما وصف في هاتين اللوحتين بطولته وقوته البدنية .

ويغلب على الظن أنه استطاع أن يمد النفوذ المصري في جنوب الوادي إلى أبعد من الحدود التي وصل اليها أسلافه حيث عثر على آثار له في جهات كثيرة هناك وبعد أن حكم ستة وعشرين عاماً مات وخلفه تحتمس الرابع .

تحتمس الرابع

يحتمل أنه لم يكن ولي العهد الشرعي كما يمكن أن يستنتج ذلك من اللوحـة

---

(١) ASA. XLII (1943), pp, 1 - 13 ,

التي أقامها بين قدمي أبو الهول إذ يذكر فيها بأن الإله حور آختي (الذي يمثله أبو الهول) جاءه في المنام وبشره بأنه سيصبح ملكاً وطلب منه إذا تحقق ذلك أن يزيل الرمال التي تجمعت من حوله ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا يدل على أن تحتمس الرابع دبر مؤامرة مكنته من إبعاد أخيه ولي العهد عن العرش وأن هذه المؤامرة قد أغضبت عليه كهنة آمون وحدثت بينه وبينهم جفوة جعلته يتجه إلى كهنة الشمس ويحاول إحياء عبادة (رع) حور آختي كما شجع عبادة قرص الشمس (آتون) ، وهو أول من أمر برسم هذا الإله وهو يعطي الحياة وهذا الرمز الجديد هو الذي اتخذه فيما بعد حفيده اخناتون .

ومع كل فقد أثبت تحتمس الرابع أنه كان جديراً بالحكم حيث أنه أقام في بداية عهده بإخماد الثورة التي نشبت في بعض المدن السورية كما أنه ذهب بنفسه إلى السودان حيث قضى على ثورة نشبت هناك .

وفي عهده كانت ممالك ميتاني وبابل وآشور وخيتا (الحيثيون) تتنافس فيما بينها على السيادة ولما شعرت مملكة ميتاني بخطر الحيثيين ازدادت تقرباً لمصر – وقد شجع تحتمس الرابع هذا التقارب ودعمه بالزواج من ابنة ملك ميتاني ، ويرى بعض المؤرخين أن ازدياد الصلات بين مصر وآسيا واختلاط دم الفراعنة بالدماء الآسيوية كان من الأسباب التي أدت إلى إدخال الليونة أو النعومة وحب الملذات في دماء الملوك – هذا ولم يحكم تحتمس الرابع أكثر من تسع سنوات كان فيها نشطاً للغاية سواء من الناحية العسكرية أو من ناحية تنظيم شؤون البلاد الداخلية وترك آثاراً في كثير من الجهات .

امنحتب الثالث

الظاهر أن امنحتب الثالث لم يجد ما يعكر صفو مملكته إذ أنها عاشت طوال عهده تقريباً وهي تنعم بالسلم والرخاء ، ولا نكاد نجد ما يدل على خروجه في حملة

حربية إلا في السنة الخامسة من عهده حيث ذهب إلى النوبة وتوغل فيها كثيراً حتى ليظن بأنه وصل إلى العطيرة [1] . ولكن مما لا شك فيه أن ملكه قد امتد إلى « كاروى » عند الشلال الرابع تقريباً - ولم يجد بعد ذلك ما يضطره إلى الخروج في أية حملة حربية في عهده الطويل ، ومع أنه أغرم بالصيد وقتاً ما إلا أنه لم يكن محباً للحرب .

ولما كان الأمن قد استتب في أنحاء الدوله فإن الجزية والهدايا تدفقت إلى مصر بانتظام وأصبحت خزائن فرعون مليئة بالذهب والفضة - وكان الملك الشاب محباً لحياة الترف والبذخ فانغمس فيها وأدت هذه الحياة به طبعاً إلى الانصراف عن نشاطه العسكري والرياضي أيضاً - كذلك أقبل رجال الحاشية على نفس الاتجاهات التي أقبل عليها مليكهم فنعموا بحياة كلها ترف وبذخ مما أضعف شأن مصر وأثر في سمعتها في الخارج وكان لذلك أثره السيء فيما بعد .

ومع أن امنحتب الثالث كان ميالاً إلى الاستمتاع في حياته وتغالى في ذلك إلى أبعد حد إلا أنه كان على درجة كبيرة من الذكاء والمهارة السياسية - فحينما تولى الملك أراد أن يبرر جلوسه على العرش - لأن أمه كانت آسيوية وزوجته «تي» كانت من عامة الشعب - وهما أمران لم يعتدهما المصري في فراعنته - عمد إلى بناء معبد الأقصر وصور على جدرانه قصة تحاكي القصة التي سبق لحتشبسوت وأعوانها أن يخترعوها للتدليل على شرعية اعتلائها للعرش حيث أنه بالمثل ادعى بأن الإله آمون اتصل بوالدته وأنجبه ، فأصبح بذلك من سلالة آمون (الإله الرسمي للدولة) نفسه أي أنه لم يكتسب حقاً شرعياً في الملك فحسب بل ومقدساً أيضاً - هذا وقد أقبل على مصاهرة ملوك الممالك المجاورة وعمت صلاته بهم

---

(١) ما زال أمر وصول امنحتب الثالث إلى العطيرة مشكوك فيه - قارن
T, Save Soderbergh, op. cit., pp. 160 ff &'Breasted, ARII, 846

إلا أن ميله الغريزي نحو النساء لم يكن ليقف عند حد تزوج من أميرات من ميتاني وبابل وآشور فضلاً عما كان يرسله إليه حكام بعض المدن السورية من فتيات جميلات مع الجزية - ولا شك في أن علاقات الود التي أوجدها مع الملوك لم تكن خالصة لأن هؤلاء كانوا يأملون دائماً في الحصول على بعض الخيرات التي كانت تتدفق إلى مصر وخاصة من الذهب ، فمثلاً كان ملك ميتاني كثيراً ما أرسل إلى صهره (امنحتب الثالث) طالباً المزيد من هذا المعدن مشيراً في خطاباته إلى كثرته في مصر إلى درجة أنه كان « كالتراب في وفرته » .

ومن المعروف أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة كانوا ينسبون أنفسهم للإله آمون ، وقد اتبعوا سنة تقديم الهدايا لهذا المعبود عقب كل نصر يحرزونه وشيدوا له معابد هائلة أوقفوا عليها أوقافاً ضخمة فزاد ذلك من ثراء كهنته وعظم نفوذهم إلى درجة أن بعض الملوك كانوا يدينون لهم باكتسابهم حق اعتلاء العرش ، وبالطبع وجد هؤلاء أنفسهم مضطرين للإسراف في مكافأتهم حتى شعر فريق من الملوك بأن نفوذ كهنة آمون قد أصبح من الخطورة بحيث يهدد سلطان الملك - وقد رأى امنحتب الثالث بثاقب فكره أن هذا الأمر أصبح يتطلب علاجاً فعالاً وخاصة لأن سلفه تحتمس الرابع قد بدأ يشجع بعض العبادات القديمة ، وربما كان لتغلغل النفوذ الآسيوي في البلاط أثره في محاولة التخلص من سيطرة كهنة آمون والإقلال من شأن معبودهم ، كما أن اتساع رقعة الامبراطورية كان مما يدعو إلى التفكير في إيجاد معبود يقبله الجميع ويدينون له عن رضى وارتياح وهذا لا يتسنى في حالة الإله آمون إذ كانت عبادته يكتنفها الغموض والإبهام ، وعلى ذلك اتجهت الأنظار إلى تشجيع عبادة إله الشمس لأن نعمه وأفضاله كانت ظاهرة وواضحة لجميع الشعوب التي شملتها الإمبراطورية. وبالفعل بدأت هذه المحاولات منذ عهد تحتمس الرابع على الأقل إذ أنه أعاد الإهتمام بشأن الإله رع حور أختي وحاول أن يوحد بين عبادة آمون وعبادة قرص

الشمس حيث يشير في أحد النصوص إلى قرص الشمس على أنه هو الإله آمون ، وحينما تولى امنحتب الثالث كان كهنة الإله آمون ما زالوا يتمتعون بالنفوذ الأعلى ولذا أخذ يشجع الديانات الأخرى وخاصة عبادة الشمس التي كانت ذات مركز عظيم لا من عهد تحتمس الرابع فحسب بل من عهد الدولة القديمة أيضاً – ولم يكتف امنحتب الثالث بمجرد تشجيع المعبودات القديمة بل أخذ يعلي من شأنها وحاول إيجاد بعض العبادات الجديدة رغبة منه في الإقلال من شأن آمون ، فأطلق على زورق كان يتنزه فيه إسم « إشراق آتون » وعين أكبر أبنائه (وكان يدعى تحتمس) كبيراً لكهنة الإله بتاح في منف ، ومع كل فقد ظل نفوذ آمون وكهنته على شدته غير أن مقاومة هذا النفوذ لم تكن لتجد تشجيعاً أو قبولاً لدى عامة المصريين ، وعلى ذلك نجد أن امنحتب الثالث حينما استحدث عبادة شخصه الحي وعبادة زوجته « تي » لم يجرؤ على البدء بها علانية في مصر بل بدأها بعيداً في السودان وخاصة لأن عبادة الملك الحي لم يسبق لها وجود في مصر .

وكان امنحتب الثالث ميالاً إلى تشييد العمائر التذكارية والمعابد والمباني الفخمة ومن أهمها تلك المعابد التي شيدها في طيبة سواء في الشاطىء الشرقي أو الغربي للنيل والقصر الذي بناه لزوجته « تي » على الضفة الغربية للنيل قرب معبده الجنازي ، وقد ألحق بهذا القصر بحيرة كبيرة كان يخرج للتنزه فيها مع زوجته في قاربة الذي سماه « إشراق آتون » وهو الذي أشرنا اليه فيما سبق .

وفي أواخر عهده أشرك معه في الحكم ولده الثاني « امنحتب الرابع » الذي عرف فيما بعد باسم « اخناتون » لأن أكبر أبنائه الذي أشرنا إلى تعيينه كبيراً لكهنة بتاح توفي دون أن يعتلي العرش ، وفي تلك الأثناء كانت مملكة الحيثيين تقوى وتشتد وأخذت تستولي على بعض الإمارات التي كانت خاضعة

لمصر أو حليفة لها ، وكان الأمر يتطلب وجود ملك قوي من طراز تحتمس الثالث أو امنحتب الثاني لكي يحافظ على الإمبراطورية لكن امنحتب الثالث كان قد أصبح شيخاً محطماً ولم يلبث أن مات وترك ولده الضعيف يحكم البلاد .

امنحتب الرابع

تدل شواهد الأحوال على أن امنحتب الرابع حينما اشترك مع والده في الحكم كان متأثراً بفكرة إحياء عبادة الشمس في صورة « آتون » ولكنه كان يفهم هذا المعبود لا على أنه « قرص الشمس » بل على أنه القوة الكامنة فيه ، وقد أقام لهذه الديانة معبداً في طيبة التي كانت تعد مقر عبادة الإله آمون – ولا بد أن كهنة آمون لم يشعروا بالارتياح لهذا الاتجاه ونظروا إليه كخطر يتهدد نفوذهم فأخذوا يثيرون المتاعب في وجه الملك حتى لا يتمادى فيه ولكن الملك كان عنيداً فاشتط في مسلكه وبدأت الحرب العوان بين الفريقين .

والواقع أن امنحتب الرابع لم يكن في أول أمره متعصباً كل التعصب للإله « آتون » بل كان يحترم كافة المعبودات ولكنه كان يميل بصفة خاصة إلى تلك التي تتصل بعبادة الشمس مثل « رع » و « آتوم » و « حور آختي » . أي أنه لم يكن مخترعاً لهذه الديانة حيث أنها عرفت من قبل ولكنه رمز إلى معبودها بصورة جديدة جعلته في هيئة قرص الشمس الذي تتدلى منه أشعة تنتهي بأيدي تهب رمز الحياة وفي ذلك إشارة إلى أن القوة الكامنة في الشمس تعطي الحياة للكائنات جميعها .

وعبادة الشمس هذه كانت تختلف عن عبادة آمون من حيث أنها عبادة عامة يمكن أن يشترك فيها العالم لأنها تتعلق بظاهرة طبيعية يدركها البشر جميعاً ، وقد جعل اخناتون من نفسه كبيراً لكهنتها ولم يكن يدخل النساء في خدمتها – ولما بلغ النزاع أشده بين كهنة آمون وبين الملك اشتط هذا الأخير في محاربته

لدين « آمون » متجهاً بكلايته نحو « آتون » حتى أنه لم يكن يعترف بآلهة غيره ، ولكي يبتعد عن طيبة – مقر الإله آمون – أنشأ عاصمة جديدة توخى أن تكون في بقعة لم يعرف لها إله محلي من قبل وهذه العاصمة هي تل العمارنة الحالية وقد أطلق عليها اسم « اخيتاتون » كما غير اسمه إلى « اخناتون » .

وبلغ من حقده على آمون أن أمر عماله بإزالة اسمه من كل ما يقع تحت أيديهم من الآثار ، ولا شك في أن هؤلاء قد بذلوا قصارى جهدهم في تتبع اسم هذا الإله حتى أنهم محوه من اسماء الملوك إن كان يدخل في تركيبها .

وكانت الأناشيد التي وضعت لمدح الإله آتون تشبه بعض مزامير التوراة مما جعل بعض المؤرخين يقارنها بها ، ويرى البعض أن اخناتون كان أول مبشر بالتوحيد ولذا اعتبروه عبقرياً وأنه يمثل أعظم فلاسفة العالم القديم إلا أن هذا غير صحيح إذ أن « اخناتون » كان في أول عهده يحترم كل العبادات ، ومع أنه لم يعترف بغير آتون فيما بعد فإنه لم يحارب غير دين آمون وظل يسمح بمباشرة العبادات القديمة الأخرى – ولا شك في أنه أساء التصرف لأنه لم ينل من السياسة التي اتبعها سوى سخط الكهنة والعسكريين حتى أن أهل عصره لقبوه بعد وفاته بلقب « مجرم آتون » .

ومهما اختلفت الآراء بشأن هذه الثورة الدينية وفي الحكم على شخصية « اخناتون » فإن أحوال مصر الداخلية وظروفها الخارجية لم تكن لتتفق وقيام مثل هذه الثورة ، ولم يكن « اخناتون » بالشخصية المناسبة لتولي عرش البلاد في تلك الآونة على الإطلاق إذ أنه في أغلب الظن كان شخصية ضعيفة مهزوزة وألعوبة في يد أهل بيته ، نشأ محروماً من الصفات التي جعلت من أسلافه ملوكاً ممتازين فلم يؤت من الكفاءة الحربية أو المهارة السياسية ما يمكنه من مجابهة الأحداث والظروف التي تعرضت لها البلاد ولذا حاول أن يغطي ضعفه بالتفرغ

كلية الشؤون الدينية ولم يلتفت لأي أمر من أمور الدولة وأهمل الأعباء الملقاة على عاتقه كملك لمصر فأخـذت الأحوال في المستعمرات المصرية في جنوب غربي آسيا تزداد سوءاً وخاصة لأن الحيثيين كانوا قد كونوا مملكة قوية عملت على ضم الولايات السورية إلى ممتلكاتها ونجحت في إخضاعها لسلطانها الواحدة تلو الأخرى، كما أن مدناً كثيرة في فينيقيا وفلسطين أخذت تستقل عن مصر ونشبت الحروب والمنـازعات فيما بينهـا ولم يبق على الولاء لمصر إلا بعض الولايات الضعيفـة التي أخذت تستنجد بفرعون وأرسلت له عديداً من الرسائل ليعمل على حمايتها ولكنه أصم أذنيه ولم يحرك ساكناً .

ولا شك في أن طائفة من المخلصين وذوي المطـامع وجدوا أن الظروف السائدة كانت تدعو إلى التخلص من هذا الملك وسواء كان ذلك بغيـة إصلاح الأمور أو تحقيقاً لأهداف ومطامع خاصة فقد دبر هؤلاء مؤامرات لاغتيـاله ولكن حراسه كانوا دائمي اليقظة والحذر ، ومن المرجح أن اخناتون قد أغضب الكثيرين من المحيطين به ، بل ويحتمل أن زوجته نفرتيتي قد غضبت منـه هي الأخرى حتى أنه في نهاية عهده عزف عن الإتصال بالناس وانتحى بعيداً عنهم في قصره بينما أقامت نفرتيتي في طرف آخر من المدينة ، ولا يعرف حتى الآن كيف انتهت حياته ولكن مما لا شك فيه أنه لم يترك وريثاً للعرش إذ كانت كل ذريته من البنات — ويرى بعض المؤرخين أن الملكة « تي » والدة اخناتون قد ذهبت إليه في اخيتاتون وحاولت إقناعه بمهادنة كهنة آمون ولكن من المرجح أن جهودها في هذا السبيل لم تكن موفقة كل التوفيق ، وقبل وفاته بقليـل أشرك معه في الحكم زوج كبرى بناته المدعو « سمنخ كارع » .

ولئن كان عهد اخناتون يمثل فترة من فترات الضعف والفوضى إلا أنه كان من جهة أخرى يمثل عهداً من العهود التي تميزت بظهور نوع من الفن لم يعرف في مصر من قبل وهو الذي اصطلح على تسميتـه باسم فن مطابقـة الحقيقـة

Realism حيث أصبح الفنانون يمثلون الأشخاص على حقيقتهم فمثلوا اخناتون بعيوبه الجسمانية ولم يكن هذا متبعاً من قبل وخاصة في تماثيل ونقوش الملوك الذين كانوا يمثلون في صورة أقرب إلى الكمال الجسماني ، فمهما بلغوا من الكبر كانوا يمثلون في شرخ الشباب كما أقبل الفنانون على تزيـــين القصور والمباني بالرسوم والنقوش التي تمثل مناظر الطبيعة في أجمل صورها ، ولكن ما أن انتهى عهد العمارنة حتى رجع الفنانون إلى صرامة التقاليد القديمـة وانتهى عهد هذا الفن الجديد .

سمنخ كارع :

ما زلنا نجهل أحداث عهده ولكن من المتفق عليه أنه رجع إلى طيبـة [١] وأنه لم يعمر طويلاً وتبعه في الحكم « توت عنخ آمون » .

توت عنخ آمون :

كان اسمه « توت عنخ آتون » وهو الصهر الثاني لاخناتون حيث أنه كان متزوجاً من ابنته الثالثة ، ويبدو أنه عاش مع نفرتيتي أثناء انفصالها عن زوجها اخناتون — وقد أسرع هو وزوجته بالعودة إلى طيبة بعد وفاة اخناتون وغير اسمه إلى « توت عنخ آمون » واعتلى العرش وهو حديث السن ولكنه لم يعمر طويلاً إذ أنه مات بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام وكان حينئذ في الثامنة عشرة من عمره تقريباً ، ومع هذا فقد حظي بشهرة عظيمة وخلد اسمه في التـاريخ إذ كان لاكتشاف مقبرته [٢] دوي هائل في جميع أنحاء العالم نظراً لما حوته من أثاث وكنوز تعد أثمن عاديات المتحف المصري بالقاهرة .

---

(١) jEA XIV; pp. 3 - 9.

(٢) اكتشفت هذه المقبرة في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ ـ أنظر
H, Carter, « The Tomb of Tut - Ankh - Amen » (London 1923 - 33)

والظاهر أن ديانة آتون كانت في طريقهـــا إلى الزوال منذ أواخر عهد اخناتون وأصبحت أضعف من أن تقف على قدميها بعد وفاته لأن أحـــداً من خلفائه لم يحاول على الإطلاق أن يهتم لشأنها بل عادوا إلى ديانة آمون الذي أصبح نفوذه أقوى مما كان [1] ، ولا شك في أن ضعف اخناتور وخلفائه كان من أهم العوامل التي أدت إلى ضعف سلطان البيت المالك وإلى القضاء على ديانة آتون فاستطاع بعض رجال ذلك العهد الوصول إلى مركز الصدارة ، ومن أهم هؤلاء «آي» الذي تولى العرش بعد توت عنخآمون وخليفته «حورمحب» الذي يعد مؤسسا للأسرة التاسعة عشرة .

وكان « آي » في بداية الأمر من رجـــال الحرب ثم تحول إلى الكهنوت قبل أن يعتلي العرش امـــا حور محب فـكان قائداً ومشرفا على بيت الملك وشئون القصر .

ويبدو أن البلاد أخذت تحاول النهوض من جديد منذ أن عاد البيت المالك إلى طيبة وبدأ توت عنخ آمون بإصلاح بعض المعـــابد وإنشاء معابد أخرى في مصر والنوبة وإعادة اسم آمون على الآثار التي محي منها ، ومن المرجـــح أن قائد جيشه حور محب استطاع ان يقضى على بعض الثورات التي نشبت في فلسطين كما يحتمل أنه أعـــاد ضم بعض الولايات التي كانت مصر قد فقدتها .

(١) لا شك في أن الاساليب التي اتبعت في عبـــادة « آتون » كانت لا تصادف هوى في نفس المصري القـــديم الذي تعود أن يرى صورة مجسمة للأله في هيئة إنسانية أو حيوانية كذلك كانت معابد آتون مكشوفة وتقام الطقوس فيها أمام الملأ ولا يكتنفها الغموض ولا الإبهام الذي يحيط عبادة الآلهة الأخرى التي كانت معابدها في أجزاء منها على الأقل بعيدة عن رؤية العامة مما يبعث في نفوسهم الرهبة وينسبون إليها الأسرار العميقة ولذا كان من المتوقع أن تختفي ديانة آتون ويعود المصريون إلى الديانة التي ألفوها وهي ديانة آمون .

وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن أميرة مصرية أرسلت إلى ملك الحيثيين رسالة تذكر له فيها أنها ترملت ولم يترك زوجها وريثاً للعرش وأبدت رغبتها في أن يرسل إليها أحد أبنائه لكي تتزوجه ويعتلي معها العرش [1] ولكن حور محب استطاع مقابلة الأمير الذي أرسل إليها قبل وصوله إلى مصر وقتله .

آي :

كان كبيراً للكهنة ومن الألقاب التي أطلقت عليه لقب « الأب المقدس » ، وقد تبع توت عنخ آمون على العرش رغم ما يبدو من تفوق نفوذ حور محب عليه ، والظاهر أنه كان يمت بصلة للملكة « تي » [2] زوجة امنحتب الثالث « ونفرتيتي» زوجة اخناتون أي أنه كان أقرب الأشخاص لسلفه الملك الشاب.

ولم يحكم آي أكثر من ثلاث سنوات أقام فيها بعض المباني ، ولا نعرف كثيرا عن حكمه – ومن المرجح أنه تزوج إحدى أميرات البيت المالك التي يرى بعض المؤرخين أنها أرملة توت عنخ آمون ولكن هذا غير مؤكد ، ولعل زواجه بالملكة « تي » أكثر احتمالا – وربما كانت المقبرة التي هيئت على عجل لكي يدفن فيها « توت عنخ أمون » هي التي كانت أصلا معدة للملك « آي » الذي شيد لنفسه مقبرة أخرى .

---

(١) ظن بعض المؤرخين أن هذه الأميرة هي نفرتيتي زوجة أخناتون ولكن أصبح من المرجح الآن أنها زوجة توت عنخ آمون (عنخ - س - إن - آمون) أنظر -

O,R Gurney, « The Hittites », (Pelican A 259), pp, 31 - 2 .

(٢) يرى البعض أنه كان أخا غير شقيق للملكة تي - انظر JEA 43, p. 35

الأسرة التاسعة عشرة

حور محب :

سبق أن اشرنا إلى أنه كان قائد الجيش وأنه وصل إلى مكانت ممتازة، كانت تؤهله لأن يكون أنسب رجال عصره لاعتلاء العرش بعد « توت عنخ آمون » لولا أن « آي » كان فيما يبدو ممن يمتون بصلة القرابة للبيت المالك .

والظاهر أن حور محب قضى معظم حياته قبل اعتلاء العرش في مدينة منف وفي أثناء الفترة التي كان فيها قائدا للجيش بني لنفسه مقبرة فيها، ولم يعثر من هذه المقبرة إلا على بعض أحجار قليلة .

وقد شاهد الفوضى التي سادت عهد اخناتون .وظلت أثارهـا عقب وفاته ولكنه أظهر ولاءه وإخلاصه للعرش في أكثر من مناسبة وخاصة في عهـد « توت عنـخ آمون » ونال لديه خطوة كبيرة — وحينما مـات الملك « آي » لم يكن هناك من هو أكفأ منه ، وأراد أن يكتسب شرعية اعتلائه للعرش فتزوج من الأميرة « موت نزم » التي يظن أنها كانت أخت نفرتيتي .

ولما تولى الملك كانت الفوضى ما زالت ضاربة أطنابهـا والفساد منتشرا في كافة الشؤون ولذا حرص كل الحرص على إزالة أسبابها فسن القوانين ووضع من التشريعات ما ينص على محاربة الرشوة ومنع الظلم والقسوة وخاصة فيما يتعلق بمعاملة الرقيق وصغار المواطنين وحرم تعطيل أي أمر من الأمور التي تتعلق باقتصاديات الدولة كما حرم السرقة واستغلال العمال أو الفلاحين في العمل دون موافقة سادتهم ، وقد فرض أقسي أنواع العقوبات على كل من يرتكب إحدى الجرائم ، كذلك أصدر أمره بعمل كثير من الإصلاحات الإدارية وأصلح المحاكم وتشدد في عقوبة القضاة الذين يحيدون عن العدالة ونظم أمور الجيش ووضع نظاما دقيقا للبروتوكول .

وربما كان في استطاعته أن يوجه نشاطه نحو الشؤون العسكرية وأن يقوم ببعض الحملات الحربية ولكنه آثر أن يتفرغ للاصلاح الداخلي فعقد معاهدة بينه وبين ملك الحيثيين حتى يتجه بكليته إلى محاربة الفساد الداخلي الذي كان منتشرا في كافة الميادين حتى أن بعض السرقات حدثت في المقابر الملكية ولذا أمر بالتفتيش عليها ، وكان من نتيجة ذلك أن أعيدت محتويات مقبرة « توت عنخ آمون » بعد اكتشاف سرقتها وكدست محتويات المقبرة فيها على عجل ثم ختمت بختم الجبانة بعد إغلاقها للمرة الأخيرة إلى أن تم الكشف عنها – كذلك أمر حور محب بإصلاح المعابد وترميمها ، وبني لنفسه مقبرة في وادي الملوك تعد من أكبر مقابر طيبة .

ولا بد أنه نجح فيما كان يهدف إليه من استتباب الأمن والقضاء على الفساد لأن مصر تمكنت بعد ذلك من العودة إلى نشاطها الخارجي واستطاعت أن تحصل على انتصارات باهرة .

وقد حكم حور محب نحوا من ثلاثين عاما ولم يترك وريثا للعرش ، والظاهر أن رجال الجيش كانوا قد سيطروا على البلاد لأننا نجد أن الذي يخلفه على العرش وهو رعمسيس الأول كان هو الآخر من قواد الجيش قبل أن يتولى الملك .

رعمسيس الأول :

كان هذا الملك من مدينة صان الحجر التي كانت مقرا لعبادة الإله « ست » وكان قائدا من قواد الجيش كما سبق أن أشرنا ، وكذلك كان ولده الذي تلاه في الحكم من القواد أيضا وكان كل منهما يشغل مركز الوزير .

ومع أن حكم رعمسيس الأول لم يتجاوز العامين إلا أنه امتاز بالنشاط في تشييد المباني وبالحزم في إدارة البلاد – وقد بني معبدا في بوهن – ويحتمل

أن ذلك كان على إثر حملة قام بها إلى السودان في السنة الثانية من حكمه .

سيتي الأول :

كان سيتي عند موت أبيه قد تجاوز سن الشباب ، وقد تقلد عدة وظائف في عهد حور محب كما أصبح ساعد والده الأيمن في أثناء حكمه ولذا سار في سياسته على نهجه وأمر باتمام ما لم يتمه من المباني وبإصلاح الآثار المخربة التي لم يتم إصلاحها– وقد حدثت ثورة في بداية عهده على حدود مصر الشرقية استطاع أن يخمدها ونقش تفاصيل انتصاراته على جدران معبد الكرنك حيث بين فيها أنه هزم بدو سينا وجنوب فلسطين ، والظاهر أن بعض الولايات قد أصابتها عدوى الثورة بعد ذلك بتحريض من مملكة الحيثيين ، وتجمعت جموع الثائرين في مدن مختلفة تمهيداً للاجتماع في مكان سري يقومون منه بثورتهم الجماعية إلا أن سيتي أحبط محاولتهم إذ أرسل لكل مدينة فرقة من فرق الجيش وتم له النصر فخضعت له فلسطين وفينيقيا وجنوب سوريا ، ثم حدثت ثورة في ليبيا أسرع بتأديبها على حدود مصر الغربية – ومن المرجح أن ذلك كان في السنة الثانية من حكمه .

والظاهر أن سيتي تكهن بأن الحالة ستظل سيئة في آسيا طالما استمرت دولة الحيثيين في دسائسها ضد مصر ولذا سار للقاء الجيوش الحيثية ودارت بينه وبينهم معركة في شمال قادش عاد منها إلى مصر منتصرا ، ولكن يبدو أن هذا الإنتصار لم يكن حاسما ولم يقض على قوة الحيثيين وإن كان قد أوقف مؤامراتهم ضد مصر في الولايات السورية .

وتشير النقوش التي نقشت على بعض آثاره إلى أنه أخضع نارهارينا (أي أعالي الفرات) والمملكة الحيثية وألاسيا (قبرص)، ولكن يبدو أنه نقل هذه الأسماء من النقوش القديمة وخاصة تلك التي تبين انتصارات تحتمس الثالث وعلاقاته مع تلك الجهات - ويشير نص مؤرخ بالسنة الرابعة أو الثامنة إلى أنه قام بحملة إلى النوبة أخضع فيها بعض أجزائها ولكن يشك في ذلك أيضاً [1]، وحتى مع فرض قيامه بهذه الحملة إلى النوبة فإنها كانت قليلة الأهمية بالنسبة لحملاته الأولى في آسيا ولتلك التي وجهها ضد الليبيين.

ومن المحتمل أنه عقد معاهدة مع ملك الحيثيين احترم فيها كل فريق حدود الفريق الآخر وساد السلام بينهما وبذلك تمكن سيتي من التفرغ للإصلاحات الداخلية فشيد الكثير من المباني [2] التي امتازت بالروعة وجمال النقوش وبعضها يعد من أجمل ما تركه الفراعنة من آثار - وقد اهتم سيتي باستغلال المناجم والمحاجر وخاصة مناجم الذهب، وإلى عهده ترجع أقدم وثيقة جغرافية في التاريخ حيث توجد بردية في متحف تورين مبين عليها موقع منجم الذهب القريب من معبد الراديسية وقد بينت في هذه الخريطة الطرق المختلفة وبعض المعلومات التي تساعد على التعرف على الطريق المؤدية إلى تلك المناجم، كذلك أمر سيتي بحفر كثير من الآبار في الصحراء لمساعدة المسافرين إلى مناطق استغلال المعادن والمحاجر.

هذا وقد حكم سيتي الأول سبعة عشر عاماً مات في أثنائها ولي عهده ولذا اعتلى العرش من بعده ولده الثاني رعمسيس الثاني.

---

(١) J E A. 25, p. 142

(٢) من هذه مقبرته ومعبده في البر الغربي للاقصر ومعبد أبيدوس وغيرها.

رعمسيس الثاني :

حظى رعمسيس الثاني بشهرة لم يحظ بمثلها أي فرعون آخر نظراً لأن حكمه الطويل – الذي بلغ نحواً من ٦٧ عاماً – هيأ له الفرصة لتشييد عدد ضخم من المباني التي خلدت اسمه في التاريخ .

وفي أول عهده أمر بإتمام المباني التي كان والده قد بدأها ، ومن أهم هذه معبد أبيدوس الذي نقشت به لوحة الأجداد المشار اليها عند الكلام على المصادر التاريخية [١] ومعبد القرنة [٢] كذلك أقام بعض المباني المختلفة مثل الرامسيوم ومعبده في الأقصر فضلا عما شيده في الكرنك وفي جهات أخرى من مصر والنوبة كما نجح في حفر بئر في الطريق المؤدية إلى مناجم الذهب بالنوبة .

ومن المحتمل أن مملكة الحيثيين عملت على نقض المعاهدة التي سبق أن أبرمتها مع مصر في عهد والده حيث أخذت هذه المملكة في تشجيع أمراء سوريا على الثورة مما جعل رعمسيس الثاني يذهب إلى آسيا في السنة الرابعة[٣] من حكمه ويوطد مركزه هناك ويطمئن على خطوط موصلاته وعلى حاميات الموانىء ثم رجع إلى مصر حيث أخذ يعد العدة لمقابلة الجيوش الحيثية التي توقع الاصطدام بها في سورية – وبالمثل أخذ ماتيلا – ملك الحيثيين – يستعد لملاقاته فضم إلى قواته كثيراً من قوات أمراء وملوك المنطقة الذين أرادوا التخلص من سلطان

---

(١) انظر أعلاه ص ٩٠ .

(٢) هو المعبد الجنزي الذي بناه على الضفة الغربية للنيل امام الأقصر .

(٣) يشير رعمسيس الثاني في لوحة عثر عليها في أسوان إلى أنه في السنة الثانية من حكمه قضى على الآسيويين والحيثيين وبابل وأجانب الشمال التمحو والنوبيين ولكن يبدو أنه لم يقم في هذه السنة بأي حملة إلا إلى النوبة فقط انظر Breasted , AR III , 45 , 478 - 479

مصر كما استعان بكثير من الجنود المرتزقة وجمع كل هـذه القوات في قادش استعداداً للقاء رعمسيس الثاني الذي استعان هو الآخر بالجنود المرتزقة - وتقدم في السنة الخامسة من عهده نحو عدوه وكان يجهل الموقع الذي تجمعت فيه الجنود الآسيوية ، فلما وصل إلى وادي نهر العاصي قبض رجاله عـلى جاسوسين زعمـا أن ملك الحيثيين قـد تقهقر بجيوشه نحو حلب وكان جيش رعمسيس مقسما إلى أربعة فرق يقود إحداها بنفسه ،فلما علم رعمسيس بما زعمه الجاسوسان أسرع في تقدمه خلف عدوه إلى الموقع المزعوم دون أن ينتظر أن تلحق به بقية الفرق - فلما عبر نهر الأورنت (العاصي) عسكر بجيشه أمام قادش بينما كان ملـك الحيثيين وحلفاؤه يختفون وراء التلال المجاورة لها وسرعان ما علم هؤلاء بوصول رعمسيس الثاني فقاموا بحركة التفاف حول المدينة إلى الجهة الأخرى من النهر، وما أن أخذت الفرقة الثانية مـن فرق الجيش المصري في عبور النهر إلا وعبر من خلفها هؤلاء المتحالفون وهاجموها على غرة فأصاب الذعر رجالهـا وجعلوا يفرون إلى المعسكر المصري طلباً للنجاة وتتبعهم رجال الحيثيين حيث أذهلت المفاجأة رجال الفرقة المصرية المعسكرة التي كان يقودها رعمسيس بنفسه ، ولم يجد رعمسيس بدا من الاندفاع في الهجوم بفلول فرقتيه دفاعاً عن نفسه - ومع أن كثيراً من رجال الفرقتين تخلوا عن الدفاع عنه إلا أن البقية الباقية التفت حوله كحرس خاص حينما شاهدوا شجاعته الفائقة وثبتت قلوبهـم والتحموا مع العدو - وفي تلك الأثناء وصلت نجدة من شباب فلسطين المجندين تحت إمرة بعض الضباط المصريين وبذلك أنقذ الملك ورجاله من كارثة محققة وخاصة لأن جيوش المتحالفين كانت قد أخذت في الانشغال عن القتال الصحيح واتجهت للسلب والنهب في معسكر المصريين .

ومـع أن القتال انتهى في ذلك اليوم بنجاة الفرعون ورجاله إلا أن النصر

لم يكن حاسماً لأي من الفريقين وقد وصلت الفرقتان الأخيرتان من جيش رعمسيس بعدئذ إلى ميدان المعركة وتحفز الجميع لمعركة فاصلة في اليوم التالي ولكن ملك الحيثيين عرض الصلح واتفق الطرفان علـى عقد معاهدة يحترم فيها كل منهما حدود الآخر ولا يتدخل في شؤون رعاياه .

وقد عاد رعمسيس بجيوشه إلى مصر ولم يستولي على قادش كما كان يأمل ، أي أن الإمبراطورية المصرية أصبحت قاصرة على فلسطين ولبنان والجزء الجنوبي من سورية وبعض الموانيء ، ومع ذلـك فقد أذاع في طول البلاد وعرضها بأنه انتصر على أعدائه وأباد منهم عشرات الألوف ووضعت قصيدة نقشت على كثير من آثاره وهي تصف معركة قادش وشجاعة رعمسيس في قتـاله وحيداً ضد جيش المتحالفين وانتصاره عليهم بفضل مساعدة الإله آمـون له - ويجب أن لا يغيب عن الذهن أن ادعاء رعمسيس الثاني الانتصار يتنافى مع الواقع ، ومن المعقول أنه إذا كان هناك انتصار مصري على الاطلاق فإنما يتمثل ذلـك في نجاة الملك فحسب ومما يؤيد ذلك أن المصادر الحيثية تشير - على العكس من ذلك - إلى انتصار خاتوسيل (ملك الحيثيين) وإلى هزيمـة المصريين ولا شك في أن شواهد الاحوال تدل على أن المصادر الحيثية أصدق من المصادر المصرية فيما يختص بهذه الموقعة وخاصة لأن الحيثيين كانوا يحاولون السيطرة على مملكة الأموريين ولكن ملكها بنتشينا وقف إلى جانب مصر ولم يخضع لتهديد الحيثيين وحلفائهم فلما نشبت المعركة اختفى اسم بنتشينا كملك على الاموريين وحل محله سابيلي الذي اعترف بسيادة الحيثيين وهذا يؤكد أن النصر كان حليفهم .

ولا بد أن هذه المعركة كانت ذات أثر كبير لأنها هزت النفوذ المصري في آسيا هزا عنيفاً فلم يكد يمض عامان حتى كانت فلسطين قد ثارت على مصر وامتدت الثورة حتى وصلت الحدود المصرية نفسها فسارع رعمسيس إلى إخماد

الثورة وأخضع فلسطين كلها من جديد كما أخضع بلاد الأموريين لسلطانه واستولى على حصن دابور وعلى مدينة تونيب وامتد سلطان مصر إلى فينيقيا ، وربما فرض رعمسيس سيادته كذلك على جزر البحر المتوسط حيث أشار اليها على جدران معبد الرامسيوم ضمن البلاد التي أخضعها وإن كان يبدو أنه تغالى كثيراً إذ دون أسماء بعض الأقطار التي يحتمل أنها خطبت وده بالهدايا على أنها أصبحت خاضعة له .

وقد استقرت الأمور في آسيا بعض الوقت ولكن حدث أن نشب نزاع عائلي على العرش في البيت المالك الحيثي وكان هذا النزاع حافزاً لرعمسيس على التدخل لمصلحة أحد المتنازعين ولكن منافسه فاز بالعرش وفي نفس الوقت أخذت مملكة آشور تظهر على مسرح السياسة الدولية في هذا الجزء من آسيا وبدأت تبسط سلطانها على مسرح السياسة الدولية في هذا الجزء من آسيا وبدأت تبسط سلطانها على ما جاورها ، وعندئذ رأى خاتوسيل (الملك الحيثي الذي تمكن من الوصول إلى العرش) أن يكتسب صداقة مصر حتى يتفرغ للصراع ضد آشور فعقد معاهدة صلح مع رعمسيس الثاني في السنة الحادية والعشرين من حكم هذا الأخير – وقد كتبت هذه المعاهدة على لوح من الفضة بالخط المسماري وترجمت إلى اللغة المصرية في نسختين وجدت إحداهما بالكرنك والثانية بالرامسيوم كما عثر على الأصل الحيثي في بوغازكوى ، وهي تنص على تأكيد الصداقة بين مصر وخيتا وألا تعتدى إحداهما على الأخرى وأن تسلمها المجرمين الفارين من بلادها واستشهدت كل من المملكتين على التمسك بنصوص هذه المعاهدة بآلهة بلادها العظمى – وقد ظلت تلك المعاهدة قائمة يحترمها الجانبان وزاد من توثيقها فيما بعد أن رعمسيس تزوج في السنة الرابعة والثلاثين من حكمه بإبنة ملك الحيثيين التي جاءت إلى مصر في حاشية ضخمة من الوصيفات الآسيويات ، وانتهز والدها والكثيرين من رجاله فرصة هذه المناسبة وقدموا لزيارة مصر وبذلك حل السلام بين البلدين إلا أنهما تعرضتا لمتاعب أخرى فيما بعد

حيث نشب النزاع العائلي من جديد في البيت المالك الحيثي ثم انهارت دولتهم أمام ضغط عناصر هنـدو أوربية تدفقت من أواسط آسيا في عربات ضخمة تجرها الثيران – وقد توفي رعمسيس الثاني قبل أن تهدد هذه العناصر مصر تهديداً مباشراً فكان الدفاع عنها من نصيب ولي عهده مرنبتاح على أن خطرها على مصر لم ينته بعد ذلـك تماماً بل تجدد في عهد رعمسيس الثالث الذي تمكن كفاحهم ودحرهم .

ومما تجدر ملاحظته أن رعمسيس الثاني مات بعد أن بلغ من العمر أكثر من تسعين عاماً ، ولما كان مولعاً بتخليد أعماله فقد أتاح له حكمه الطويـل فرصة تشييد عدد من الآثار المعمارية يفوق ما شيده أي فرعون آخر وكان بعض المؤرخين يرى أنه لم يكن صاحب الفضل في إقامة كل هذه العمائر إلا أننا نلاحظ أنه رغم اغتصابه لآثار بعض من سبقه من الملوك – قد أقام من الآثار عدداً أكبر مما أقامه أي فرعون آخر وكان نشاطه في ذلك لا يقف عند حد فلا نكاد نجـد منطقة أثرية في مصر دون أن يرد فيها اسمه كما أنه أكـثر الملوك نشاطاً في إقامة المعابد في النوبة التي تميزت في معظمها بالموقع الفريد وروعة التصميم وتتجلى عظمتها بصفة خاصة في معبدي أبو سمبل .

والظاهر أن كثرة مشاغله في آسيا قد جعلته يؤمن بأن طيبة كعاصمة ذات موقع لا يتناسب مع الظروف الدولية القائمة فهي شاسعة البعد عـن مجريات الاحداث العالمية ، ولذا أنشأ عاصمة جديدة في شرق الدلتـا أطلق عليها اسم «بررعمسيس» وما زال المؤرخون مختلفين في تحديد موقعها على وجه الدقة ، كذلك نجد أنـه أنشأ مدينة عسكرية في هربيط ·أدخل فيها عبادة شخصه وهو حي .

وكان رعمسيس الثاني مزواجـاً تزوج بالكثيرات ومنـهن بعض بناتـه

وقد أنجب كثيراً من الذكور والإناث لم يجمع المؤرخون على عددهم، وقد مات كثير من أبنائه الذكور أثناء حياته ومنهم أكبر أبنائه فلم يخلفه على العرش إلا ولده الخامس عشر وهو مرنبتاح الذي كان – مع ذلك – يقرب من الستين من عمره حينما تولى العرش .

ولا شك في أن رعمسيس الثاني يعد مسئولاً إلى حد كبير عن كثير من عوامل الضعف التي انتابت البلاد وكانت لها آثارها فيما بعد ، فتورطه في الاستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب كان ذو أثر بعيد إذ أن خلفاءه تغالوا في استخدامهم فضعفت الروح العسكرية لدى المصريين حتى أن فرقة من الجيش المصري في نهاية الدولة الحديثة كانت لا تضم سوى خمسمائة من المصريين من مجموع أفرادها الذين يبلغون الألفين في حين أن بقية أفرادها كانوا من الليبيين والنوبين ومن شعوب البحر المتوسط وقد زاد زواجه بإبنة ملك الحيثيين التي جاءت إلى مصر في حاشية ضخمة من امتزاج الدماء المصرية بالدماء الآسيوية وخاصة في القصر الملكي بين كبار رجالات الدولة وأضعف الروح المصرية الخالصة ، كذلك كان لتشييده عاصمة جديدة في الدلتا – مع بقاء طيبة متمتعة بالسيادة الدينية كمقر للاله الرسمي في الامبراطورية – أثره في ابتعاد السلطة الدينية عن الإشراف الفعلي للسلطة الزمنية مما أتاح الفرصة للكهنة كي يستغلوا نفوذهم بعيدين عن الرقابة الإدارية ، كما كان في قرب « برعمسيس » – العاصمة السياسية – من مواطن الصراع في الشرق الأدنى (مع ظهور قوة فتية في غربي آسيا) تهديد دائم لأمن الدولة وسلامتها ، ومما زاد الحالة سوءاً شدة ولع رعمسيس الثاني بإقامة المباني الضخمة ومغالاته في الإكثار منها حيث أدى هذا إلى إنهاك موارد الدولة واستنفادها ، وفوق ذلك كله كان امتداد أجل رمسيس الثاني نفسه إلى أن أصبح شخصاً مسناً للغاية سبباً في عجزه عن القيام بأعباء دولته على الوجه الأكمل ولذا يمكن أن يقال بأن رعمسيس الثاني ترك لخلفائه امبراطورية قد أصابها الوهن وأصبحت في طريقها إلى الإنهيار .

مرنبتاح :

سبق أن ذكرنا أن مرنبتاح كان يقرب من الستين من عمره حينما اعتلى العرش ومع هذا فقد كان ملكاً عالي الهمة لم تحل شيخوخته دون قيامه بجهود مشكورة في سبل المحافظة على امبراطوريته ، فلما قامت ثورة في آسيا في السنة الثالثة من حكمه لم يتوان في إخمادها وسجل ذلك على لوحة ورد بها اسم اسرائيل لأول مرة مما دعا إلى الزعم بأنه هو الفرعون المقصود في قصة موسى الواردة في الكتب السماوية ولكن لا يمكن تأييد هذا الزعم لعدم وجود وثائق تاريخية كافية لتأكيده [1] وسواء قام بإخماد هذه الثورة بنفسه أو أرسل أحد قواده فإن اهتمامه بالقضاء عليها يدلنا على أنه لم يشأ التهاون في حق مصر أو التفريط فيه .

وقد أنقذ مرنبتاح مصر من الهجوم الشامل الذي شنه عليها الليبيون وحلفاؤهم في السنة الخامسة من حكمه ، وكان الهجوم على ما يبدو نتيجة لهجرات

---

(١) ما زالت الاختلافات كبيرة بين المؤرخين بشأن تاريخ خروج الاسرائيليين من مصر فبعضهم يرى أنه تم في عهد الهكسوس وبعضهم يرى أنه تم في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وحتى في هذا يختلفون فمنهم من يعتقد أنه حدث في عهد تحتمس الثالث، ومنهم من يظن أنهم أخرجوا من مصر في عهد امنحتب الثاني او الثالث ، ومنهم من يرى انهم خرجوا على إثر ثورة إخناتون الدينية ، كما أن منهم من يرى أنهم خرجوا في عهد مرنبتاح حيث يرجح أنهم اخذوا يتذمرون في أواخر عهد رعمسيس الثاني (فرعون في الكتاب المقدس) لأنهم كانوا طائفة لا تميل إلى الأعمال الشاقة التي تطلبتها مبانيه العديدة وسخر لها العديد من أفراد الشعب ولم يستثنهم من ذلك كما أنهم لم ينجحوا في الخروج من مصر إلا في عهد مرنبتاح كما اشرنا .

بعض الشعوت الهنـــدو أوربية التي تجمعت على ساحل أفريقيا الشمالي ثم اتجهت مع القبائل الليبية إلى أن وصلوا إلى منطقة في غرب الدلتـا وتوغلوا فيها حتى اقتربوا من كفرالزيات إلا أن مرنبتاح تمكن من هزيمتهم هزيمة ساحقة حتى فروا على أثرها ووقع منهم آلاف الأسرى في أيدي المصريين ، والظاهر أن فلول الليبيين اتجهت نحو الجنوب بغية الوصول إلى وادي النيل في منطقة النوبة ولكن المصريين استطاعوا أن يردوهم كذلك .

ولم يطل حكم مرنبتاح أكثر من ثمـــاني سنوات مات بعدها وترك العرش فريسة للاختلافات العائلية التي نشبت بسبب كثرة عدد الأمراء الذين أنجبهم رعمسيس الثاني – وقد أدى هذا إلى اغتصاب البعض للعرش ولم يحـــدث في عهدهم ما يستحق الذكر سوى أن أحـــدهم وهو مرنبتاح سابتاح ذهب في حملة إلى النوبة لتثبيت حاكمها في منصبه عندما قامت هناك ثورة ضده ، ومن هذا نستنتج أن النوبة ظلت على صلتها بمصر وأنها كانت من الأهمية بحيث انتقل اليها الفرعون بنفسه لكي يثبت حاكمها في منصبه ، كما يدل على ذلك من جهة أخرى على أن الحكم المصري لم يكن ليقابل فيها دائمـــاً بالرضى وإنما كان أحيانا يجد معارضة شديده إما من النوبيين أنفسهم أو من رجـــال الإدارة المصريين الذين كان يرأسهم ذلك الحاكم .

وأواخر عهد هذه الأسرة يمثل فترة غامضة لا نعـلم عنها إلا أسماء بعض الملوك ومدة حكم كل منهم ومنها نتبين أن غالبيتهم لم يحكموا سوى فترة قصيرة جدا وما زال ترتيب حكمهم مشكوكا فيه ، بل ولا نعرف كذلك كيف انتهت هذه الأسرة وإنما يبدو أن الفساد قد عم أنحاء البلاد وتفاقمت الحـــالة بسبب وجود عدد كبير من المرتزقة الذين كانوا يتقاضون أجورا باهظة ويتطلعون دائما إلى الاشتراك في الحروب جريا وراء الأسلاب والغنائم ، ولما فقدت مصر مستعمراتها في آسيا نقصت إيراداتها وعجزت عن إرضائهم وخاصة بعد أن زال

خطر غزو مصر وهدأت الحالة على الحدود فلم تجد الدولة بدا من أن تقطع بعض هؤلاء المرتزقة شيئا من الاقطاعيات وتركت الباقين وشأنهم حيث أخذوا يعيثون في الأرض فسادا باغتصاب ما وقع تحت أيديهم من أموال وممتلكات ونشروا الذعر بين الناس ، ولم تنته الأسرة التاسعة عشرة إلا وكانت الثورة قد نشبت في طول البلاد وعرضها وتمكن شخص من أصل سوري يدعي « إرسو » من أن يعتلي العرش [1] واستبد بالبلاد كما تشير إلى ذلك بردية « هاريس » التي تصف على لسان رعمسيس الثالث «ثاني ملوك الأسرة العشرين» سوء حالة البلاد وتبين أن والده « ست نخت » تمكن من اعتلاء العرش بعد أن طرد الغاصب السورى ونجح في إعادة الاستقرار وبدأ عهدا جديدا حيث أصلح الإدارة الحكومية وأعاد تنظيم الجيش [2] ولذا يعد « ست نخت » في نظر المحدثين من المؤرخين مؤسس الأسرة العشرين .

الأسرة العشرون

ست نخت :

أحدث سوء الحالة في نهاية عهد الأسرة السابقة واغتصاب « إرسو »السوري للعرش استياء عاماً وخاصة لانتشار المرتزقة من الأجانب والتدهور الاقتصادي الذي منيت به البلاد – ولا بد أن رجال الدين تعرضوا للمتاعب ولم يأمنوا على أملاكهم ونفوذهم فساهموا بنصيب وافر في تمكين « ست نخت » من اعتلاء

---

(١) يحتمل أنه كان رئيسا للديوان في أواخر عصر الأسرة ١٩ وكان اسمه « باي » ثم غير اسمه بعد اعتلائه للعرش إلى « إرسو » وقد أجبر الملكة « تاوسرت » على قبول اعتلاء ابنها الصغير « سبتاح » على العرش تحت وصايتها بدلا من انفرادها بالحكم ثم اغتصب العرش لنفسه بعد ذلك ـ انظر JEA 44, pp 12 ff

(2) Breasted, AR IV , 397 ff

العرش وطرد الغاصب ، كما يفهم ذلك من بردية هاريس المشار إليها فيما سبق وإن لم تذكر ذلك صراحة .

وبالرغم من أن « ست نخت » بدأ عهدا جـــديدا فان مانيثون لا يعتبره مؤسس الأسرة العشرين بل يعتبر أن ولده « رعمسيس الثـالث » هو المؤسس لها – ومهما كان الأمر فان « ست نخت » قد أعـاد الاستقرار للبلاد باصلاح الادارة الحكومية وتنظيم الجيش – وبذلك هيأ البلاد لأن تدافـع عن نفسها ضد أعدائها وجيرانها الأقوياء الذين كانوا يتربصون بها ويطمعون فيها ، وربمـا كان بعض الغزاة الآسيويين قد تمكنوا من الاستيلاء على الدلتا في عهد «إرسو» فتمكن « ست نخت » من إجلائهم عنها ، ومع أنه لم يحكم أكثر من عـامين إلا أن حكمه كان بعيد الأثر في الابقاء على كيان الدولة وتأجيل انهيارها – وقد أشرك معه في الحكم ولده وولى عهده رعمسيس الثالث الذي كان يـدبر وينفذ الاصلاحات المطلوبة وبذلك تعود إدارة شئون البلاد وتجلت كفاءته عند اعتلائه العرش .

رعمسيس الثالث :

ما أن تولى العرش بعد وفاة والده حتى وجد أن الأخطار تحيق بالبلاد من كل جانب فعمل على تقوية جيشه سريعا بإدخال فرق من المرتزقة من العناصر الليبية والسردينية إذ أن الآسيويين كانوا يهددون الحـدود الشمالية الشرقية والليبيين الذين سبق أن هزمهم مرنبتاح كانوا يتحينون الفرص الإغارة على مصر والاستيطان في وادي النيل .

وهكذا كان على رعمسيس الثالث أن يواجه أخطارا في الشرق والغرب ومع ذلك فقد استطاع في أوائل عهده أن يخمد ثورة في آمور ، وفي السنة الخامسة من حكمه استطاع أن يصد هجوما كبيرا شنه الليبيون على مصر

وكان يعاونهم فيه حلفاؤهم من شعوب البحر، وقد هزمهم رعمسيس الثالث على حدود الدلتا الغربية وأسر منهم عددا كبيرا من الأسرى .

وفي السنة الثامنة من عهده كانت الشعوب الهندو اوربية التي تمكنت من إسقاط دولة الحيثيين [1] واجتاحت آسيا الصغرى قد اصبحت عظيمة الخطر على مصر لأن موجة كبيرة من هجرتهم أخذت تتجه بطريق البر نحو منطقة شرق البحر المتوسط وتؤيدها في نفس الوقت سفنها الحربية ، فاستعد رعمسيس الثالث لدفع خطرهم وجمع أسطولا كبيرا ثم تقدم بجيشه في البر والبحر لملاقاتهم قبل أن يصلوا إلى مصر ، وحدثت بين الفريقين معركة فاصلة هزمهم فيها برا وبحرا ، ولا نعرف مكان حدوث هذه المعركة ولكن تفصيلاتها منقوشة على جدران معبد مدينة هابو الذي شيده في البر الغربي لطيبة .

والظاهر أن هذه المعركة قد قضت على قوة شعوب البحر في آسيا قضاء تاما وكانت سبباً في نجاة مصر وغربي آسيا من خطورهم ولكن خطرا جديدا تهدد مصر مرة أخرى من ناحية الغرب حيث أن الليبيين تحالفوا مع شعوب البحر وكرروا هجومهم عليها في السنة الحادية عشرة من عهد رعمسيس الثالث إلا أنه تمكن من هزيمتهم على حدود الدلتا ، وحينما ارتدوا إلى الصحراء تعقبهم مسافة قصيرة.وأفنى منهم عددا كبيرا وأسر الكثيرين من بينهم قائدهم نفسه ، وهكذا استطاع أن يتخلص من الخطر في الشرق والغرب على السواء.

ومن المرجح أنه لم يمانع بعد ذلك في هجرة الليبيين إلى مصر فدخلوها مسالمين حيث استقروا في بعض جهاتها وخاصة في الجهات القريبه من موطنهم الأصلي وانخرط الكثيرون منهم في سلك الجندية كجنود مرتزقة ،

---

(١) انظر ص ١٩١

وكان هؤلاء الليبيون يتحلون بريشة فوق الرأس وعرفوا باسم «الماشواش» وكان هذا الاسم يختصر أحيانا إلى كلمة « الما » فقط .

ولما اطمأن رعمسيس الثالث إلى زوال الخطر أراد أن يعيد إلى مصر ممتلكاتها في آسيا فاتجه إليها على رأس جيشه حيث قام بحملة موفقة يغلب على الظن أنه وصل فيها إلى أعالي الفرات – وقد دونت في نقوش هذه الحملة بعض التفصيلات ولكننا نشك كثيرا في قائمة البلاد التي ذكر بأنه أخضعها إذ يرجح أنه نقل معظمها عن مصادر قديمة ، ومع هذا فمما لا شك فيه أنه نجح في إعادة جزء كبير من أملاك مصر السابقة ، ويكفي أن الأمن قد استتب في عهده واستقر له الأمر إلى أن مات بعد أن قضى في الحكم أكثر من ثلاثين عاما لم يصادف خلالها ما يعكر الصفو بعد الحروب والحملات التي أشرنا إليها إلا ثورة صغيرة قام بها بدو منطقة صير ولكنها أخمدت بسهولة .

سقوط الامبراطورية

حاول رعمسيس الثالث أن يتشبه بسلفه العظيم رعمسيس الثاني في كل الأمور ولكنه ارتكب خطأ كبيراً إذ منح كهنة آمون ومعابده كثيرا من الثروات الضخمة حتى أصبح الإله آمون رع يملك مناجم الذهب في النوبة وتسعة من المدن في سوريا ونحو العشر من مجموع مساحة الاراضي المزروعة فضلا عن الارقاء والماشية والحدائق مما جعل كهنة هذه الإله هم أصحاب النفوذ الفعلي في البلاد– ولم يتوانى هؤلاء في استغلال الفرصة بل تغالوا في إظهار قوة آمون ونسبوا إليه القدرة على حل المعضلات حتى أصبح الملوك وكبار الشخصيات يستلهمون وحيه في معظم شؤون الدولة ويأخذون بما يشير به في تعيين الموظفين ومعاقبة المذنبين ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استلهموا وحيه كذلك في شئونهم الشخصية ولهذا أصبحت طوائف الكهنة تستغل سذاجة العامة

استغلالا فاحشا فتدهورت النواحي الأخلاقية والاجتماعية - هذا وقد جمع رعمسيس الثالث حوله عددا من الاجانب وخاصة من الفتيات الجميلات والمستشارين الذين تقلدوا أرقى المناصب وتحكموا في شئون القصر والبلاط فأخذوا ينافسون الكهنة في الاستشارة بالسلطة وأوحوا إلى الفرعون بالاكثار من الجنود المرتزقة مما أرهق الميزانيه حتى عجز القصر عن دفع مرتبات عمال المقابر في طيبة ، ولم يجد هؤلاء بدا من الاضراب عن العمل - وكان الكثيرون من الفقراء يتهالكون جوعا بينما كانت أكداس الحبوب والذهب تتجمع في مخازن آمون ولم يرحم رجال الدين هؤلاء الفقراء أو يمدوا لهم يد العون ومع ذلك فقد ظل رعمسيس الثالث لاهيا عن شئون الدولة منغمسا في ملذاته ولا يدري شيئا عما يجرى من حوله حتى قامت في الدلتا ثورة أخرى ضده كانت أتريب (قرب بنها الحالية) مركزها - ومع أن هذه الثورة لم تنجح إلا أن الأحوال الداخلية في القصر كانت توحى بضرورة التخلص من الملك ولذا نجد إحدى زوجاته تنجح في نهاية عهده في الحصول على تأييد بعض موظفي القصر لتدبير مؤامرة لقتل الملك كي تتاح لها الفرصة لإعلان ابنها ملكا على مصر [1] ولكن هذه المؤامرة لم تنته بالقضاء على الملك واكتشف أمر الجناة الذين أحيلوا إلى المحاكمة أمام هيئة مكونة من أربعة عشر عضو من بينهم أربعة من الأجانب ، ومما يدل على انتشار الفساد في البلاد وتفشى الانحلال أن بعض النساء وبعض الضباط استطاعوا إغراء ثلاثه من القضاء لكي يؤثروا في سير التحقيق ولكن هذا الأمر اكتشف كذلك وقدم هؤلاء الثلاثة إلى المحاكمة فبرىء أحدهم وانتحر الثاني أما الثالث فقد حكم عليه هو ورجال الشرطة بجدع الأنف وصلم الأذنين .

(1) Breasted, AR IV, 416 ff; JEA 33, pp. 152 ff & 24 qq. 8 - 9

ومع أن خاتمة رعمسيس الثالث لم تكن مشرفة إلا أنه لا شك في أنه أنقذ البلاد – بل وأنقذ بلاداً أخرى كذلك – من خطر العناصر الهندو أوروبية التي كانت تقضي على مدنيات البلاد التي تجتاحها ، وقد ظل نشيطاً عالي الهمة في الجزء الأكبر من حياته وأعاد لمصر شيئاً من مجدها السابق ولم يخلد إلى حياة اللهو والكسل إلا في أواخر عهده بل ويمكن القول بأن مجد الإمبراطورية المصرية انتهى بعد وفاته ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلا لفترة قصيرة في عهد الأسرة السادسة والعشرين .

وتوالى من بعده ملوك ضعاف لم يحكموا إلا نحو خمسة وسبعين عاماً انتهى بعدها حكم الأسرة العشرين ، وفي خلال تلك الفترة الأخيرة من حكم هذه الأسرة ظلت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ وأخذ سلطان الملوك يتضاءل (ابتداء من عهد رعمسيس الرابع إلى عهد رعمسيس الحادي عشر آخر ملوك الأسرة) حتى أصبحوا ألعوبة في يد كهنة آمون الذين استطاعوا أن يستأثروا بالسلطة - أما نفوذ مصر خارج حدودها فقد أخذ يزول تدريجياً إلى أن صار قاصراً على بلاد النوبة فقط ، ومع كل فإن هذه لم تستمر على اتصالها بمصر طويلاً بل انفصلت بعدئذ وتكونت فيها مملكة مستقلة .

وقد كثرت في عهد خلفاء رعمسيس الثالث حوادث السرقة والرشوة ولم يكن لأحد منهم نشاط يذكر ، وإن كنا نعرف أن رعمسيس السادس ترك نقوشاً على كثير من الآثار في مصر والسودان وأن كثيراً من مقابر الفراعنة قد سرقت واكتشف أمر سرقتها في عهد رعمسيس التاسع وبدأ التحقيق مع اللصوص ولكن يظهر أن تلك السرقات كانت مستمرة من عهود سابقة ، كما يبدو أن الجناة كانوا يطمئنون إلى الموظفين الذين يكشفون أمثال تلك السرقات على أساس إرضائهم بالرشوة مما يدل على تدهور الحياة الإجتماعية وانحلال الأخلاق عامة

لما لم يستطع ولاة الأمور القضاء على حوادث السرقة أمر الملوك بنقل مومبيات أسلافهم خفية من مكان إلى آخر خشية تكرار سرقتها ، ومن التحقيقات التي أجريت عن سرقة المقابر في عهد رعمسيس التاسع يتبين لنا أن العداء الشخصي بين رئيس البوليس في طيبة الشرقية وبين محافظ الجبانة (أي محافظ طيبة الغربية) كان سبباً في اتهام بعض الأبرياء وتبرئة المجرمين ومن هذا يبدو أن التأثير على المحققين كان أمراً شائعاً .

وما أن تراخت قبضة الملوك حتى استفحل شر أمراء الأقاليم وأصبح كهنة آمون أصحاب النفوذ الفعلي في مصر العليا – وما لبثت أسرة قوية في الدلتا أن زادت من نفوذها منذ عهد رعمسيس التاسع ثم حدثت ثورة لم يمكن إخمادها إلا بعد أن جاء « بانحسي » حاكم النوبة وقضى عليها ، إلا أن الثورة تجددت في عهد رعمسيس الحادي عشر [١] الذي لم يجد بداً من الفرار إلى طيبة حيث استقبله « حريحور » كبير كهنة آمون استقبالاً حسناً وبذلك خلا الجو في الدلتا أمام الأسرة القوية التي ظهرت فيها وتمتعت بسلطة فاقت سلطة الملك الشرعي حتى تمكن أحد أفرادها ويدعى « نسوبانبدد » أو « سمندس » من اغتصاب العرش وتكوين أسرة جديدة .

ومما سبق نستطيع أن نتبين سرعة تدهور الأحوال في مصر فبينما نجد أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر [٢] يذهب لتهدئة الأحوال في النوبة وتثبيت حاكمها في منصبه نجد أن حاكم النوبة « بانحسي » يأتي في الأسرة العشرين للقضاء على الثورة التي قامت ضد الملك رعمسيس التاسع ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد

---

(١) Gardiner, op. cit., p. 301

(٢) انظر ص ١٩٤

فقد اضطر آخر ملوك هذه الأسرة – رعمسيس الحادي عشر – إلى الفرار من مقر مملكته في الشمال والالتجاء إلى كبير الكهنة في طيبة كما سبق أن ذكرنا .

٦ – عصر الاضمحلال الثالث

الأسرة الحادية والعشرون ونفوذ الكهنة

سبقت الإشارة إلى أن رعمسيس الحادى عشر – آخر ملوك الأسرة العشرين اضطر إلى الفرار إلى طيبة لظهور أسرة قوية في الدلتا تمكن أحد أفرادها ويدعى « نسوبانبدد » (سمندس) من اغتصاب العرش – ومن المحتمل أن زوجة هذا الأخير كانت من أصل ملكي مما يسر له الاستيلاء على الملك بينما رحب حريحور كبير كهنة آمون في طيبة برعمسيس الحادي عشر وأبقاه إلى جانبه وبذلك أصبح مطلق النفوذ في مصر العليا لأنه كان – حتى قبل أن يلجأ إليه رعمسيس – يجمع السلطات الروحية والزمنية في يده حيث أنه كان يجمع بين وظائف رئيس الكهنة وقائد عام الجيش وحاكم النوبة ، أي أنه كان يتحكم في شؤون الدولة الروحية والزمنية ، فلما أصبح الملك الشرعي إلى جانبه لم ينازع سلطانه أحد في الجزء الجنوبي من مصر ، ومنذ ذلك الوقت أصبح رؤساء كهنة آمون في طيبة يهيمنون على السلطات الزمنية والروحية في جنوب مصر وخاصة لأنهم توارثوا في نفس الوقت قيادة الجيش وحكم النوبة ، ورغم هذا فإن حالة البلاد الداخلية كانت سيئة على العموم .

ولم يعمر (حريحور) طويلاً كما أن ولده (بي عنخ) لم يعمر طويلاً هو الآخر حيث عاصرهما (سمندس) – وحينما توفي هذا الأخير تبعه في الحكم (بسوسنس الأول) الذي لا نعلم عن حكمه شيئاً يذكر ، أما في طيبة

فإن (باي نجم) قد خلف والده (بي عنخ)في رئاسة الكهنوت وتزوج من ابنة (بسوسنس الأول) .

وقد سارت البلاد من سيء إلى أسوأ وتقلصت مملكة الشمال كما بدأ نفوذ الكهنة في الاضمحلال أيضاً ، وكانت مصر قد فقدت مستعمراتها في آسيا ولم يعد لها أي نفوذ فيها منذ زمن ،ولعل أصدق ما يصور لنا حالة التدهور التي وصلت إليها البلاد وزوال كل أثر للنفوذ المصري في الأقطار الآسيوية قصة المبعوث (وينامون) الذي أرسله (حريحور) إلى لبنان لإحضار خشب الأرز اللازم لصنع سفينة آمون المقدسة إذ يبين لنا هذا المبعوث كيف أنه ذهب إلى الملك في الشمال كي يساعده بالمال اللازم ولم يحظ منه إلا بقدر يسير كما يبين لنا مدى ما تعرض له من صعوبات و كيف نهبت أمواله وأمتعته وأنه لم يقابل من حكام سوريا ولبنان إلا بالازدراء والاحتقار مع أنه كان يذكرهم بأنه مبعوث من قبل فرعون مصر ورئيس كهنتها بعد أن كان مجرد ذكر اسم الفرعون فيما مضى كفيل بأن يبث الرعب في نفوس ملوك آسيا ويجعل أمراء سوريا ولبنان يسارعون بتقديم كل فروض الطاعة والولاء .

ومما زاد حالة البلاد المصرية سوءاً وخاصة في الجنوب أن رئيس الكهنة كان يحكم الناس باستلهام وحي آمون الذي كان يستشيره في كل أمر وتسلط السحر والشعوذة على أفهام الناس حتى توهم السذج والبسطاء أن الإرادة الإلهية التي يصدرها آمون كافية لتصريف الأمور كلها ، ولم يقم رؤساء الكهنة أو حكام طيبة بأي عمل جليل يذكر سوى مساهمتهم في نقل جثث الملوك السابقين من مخبأ إلى آخر خشية السرقة بعد أن عجزوا تماماً عن حفظ الأمن ، ومع هذا فقد تمتعوا بسلطة روحية كبيرة مكنتهم من التدخل في كثير

من الشؤون المدنية بل وأتاحت لهم سلطة زمنية كبيرة إذ كانوا يستطيعون أحياناً – عن طريق وحي آمون – أن يحدوا من سلطة الملك نفسه .

وحينما توفي الملك بسوسنس الأول أصبح « باي نجم » الحاكم الوحيد في مصر كلها وتولى العرش بإسم « باي نجم الأول » لأنه كان صاحب النفوذ المطلق في جنوب مصر كما أنه أكتسب حق اعتلاء العرش عن طريق زواجه بإبنة الملك الراحل ، أي أنه جمع بين شرعية ولايته للعرش وسلطة صاحب النفوذ الأقوى في البلاد وقد أنجب ولدين هما : « ماحسارتي » ، « من خبر رع » ، وقد عين أولهما رئيساً للكهنة ولكنه لم يعمر طويلاً إذ مات في حياة والده وتبعه شقيقه في رئاسة الكهنة حيث ظل يشغل هذه الوظيفة إلى أن توفي والده فتبعه على العرش .

وتدل شواهد الأحوال على أن ثورة نشبت في مصر العليا أثناء تولي « ماحسارتي » لرئاسة الكهنوت نفى على أثرها عدد من الثائرين إلى الواحات ولكن – حينما وصل « من خبر رع » إلى طيبة وتقلد منصب رئيس الكهنة على أثر وفاة أخيه – استصدر وحي الإله آمون بالعفو عن الثائرين مما يوحي بأن مركزه كان حرجاً وأن الحالة كانت سيئة رغم ما تذكره النصوص عن حفاوة استقباله والترحيب به فأغلب الظن أن ذلك لم يكن إلا ستاراً اختفت وراءه مظاهر مناوأة السلطة الحاكمة التي أخذت في الظهور في مختلف المناسبات ، ومع كل فقد ظل « من خبر رع » متمتعاً بالسلطان سواء كرئيس للكهنة أو كحاكم مطلق بعد اعتلائه للعرش فترة تقرب من نصف قرن – ثم ظهر بعدئذ حاكم يدعى « امن – ام – اوبت » لا نعرف صلته بالبيت المالك وربما كان مغتصباً اعتلى العرش في الشمال ثم بسط سلطانه بعد ذلك على الجنوب ، ومن المحتمل أن نوعاً من الصراع نشب بينه وبين «من خبر رع» انتهى بانتصار

هذا المنتصب الذي تلاه في الحكم بضعة ملوك ضعاف بينما ظلت عائلة « من خبر رع » تتولى رئاسة الكهنوت .

وفي غمرة هذا الضعف الظاهر فقدت مصر هيبتها نهائياً في سورياوفلسطين بينما ظلت النوبة على ولائها لها ولكنها أخذت في الانفصال عنها من الناحية الإدارية حتى استقلت عنها تماماً . وفي تلك الأثناء كانت مملكة العبرانيين قد ازدهرت وعظم شأنها وإن كنا لا ندري هل تكونت هذه الدولة نتيجة لظهور بعض الأسرات المحلية القوية التي استطاعت أن تستقل بالبلاد أو أنها بدأت أصلاً بمساعدة المصريين – عند ظهور خطر شعوب البحر المتوسط – لكي تساهم في محاربة هذه الشعوب ودرء خطرها .

ومع ذلك يبدو أن « بسوسنس الثاني » آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين وجد الفرصة للتدخل في شؤون فلسطين والاحتكاك بأمرائها إذ يحدثنا الكتاب المقدس بأن أميراً من إيدوم ويدعى حداد [١] فر خوفاً من بطش داود الذي كان قد أنشأ دولة قوية في فلسطين ، وقد وصل هذا الأمير هو وبعض أخصائه إلى مصر حيث أحسن ملكها استقباله وزوجه من أخت الملكة . وبعد مضي بعض الوقت قام الفرعون إلى كنعان في ظروف لا تعرف على وجه الدقة واستولى على جزر وخربها وقدمها كصداق لابنته التي زوجها من سليمان [٢] .

مصر تحت حكم الأجانب

الأسرة الثانية والعشرون

سبق أن أشرنا إلى أن الليبيين كانوا يهددون الحدود المصرية في عهد الدولة الحديثة

---

(١) سفر الملوك الاصحاح ١١ آية ١٤ وما بعدها .
(٢) سفر الملوك ١ الاصحاح ١٤ آية ٢٥ - ٢٦ ، الاصحاح ٩ آية ١٦

وأن آخر من انتصر عليهم كان رعمسيس الثالث الذي سمح لهم بعد ذلك بالهجرة إلى مصر مسالمين [١] — وقد وفد منهم عدد كبير ودخلوا في خدمة الجيش المصري كجنود مرتزقة ، ومن بين هؤلاء الوافدين أسرة قوية كان يتزعمها « بويوواوا » وقد استقرت هذه الأسرة في إهناسيا « هرقليوبوليس » ونعمت بشيء كبير من النفوذ والسلطان إذ تولى بعض أفرادها مناصب مختلفة ومنهم من تولى وظيفة كاهن معبد إهناسيا وقائد حرس المدينة في نفس الوقت ثم أصبحت هاتان الوظيفتان وراثيتان في أسرته من بعده .

وتطور أمر هذه الأسرة وأصبحت من القوة والنفوذ بحيث كانت تتصل بالملك رأساً [٢] ، وبينما كانت الأسرة الحادية والعشرين تتداعى وفي طريقها إلى الإنهيار أخذت هذه الأسرة الليبية تقوى وتشتد حتى تمكن أحدها ويدعى شيشنق من أن يستولي على العرش وجعل مقر ملكه في بوبسطه (تل بسطه الحالية قرب الزقازيق) ، ومن المرجح أنه لم يجد الفرصة المواتية لاتخاذ هذه الخطوة إلا بعد وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين وانقراض ذريته كما يحتمل أنه كان قد زوج ولده من ابنة هذا الملك فاكتسب بذلك شيئاً من الحق في اعتلاء العرش بعد وفاة صهره — ويبدو أن كهنة آمون في طيبة كانوا أقل قبولاً لحكمه من أهل الدلتا وإن لم يستطيعوا إنكار حقه في العرش إذ أنهم لم يعلنوا عن رضاهم ولم يعترفوا له بالملكية مباشرة ودارت بينه وبينهم مفاوضات

---

(١) انظر اعلاه ص ١٩٧

(٢) كان رئيس لأسرة الليبية القوية التي استقرت في اهناسيا يدعى شيشنق وقد توفي ولده نمرود فدفنه في ابيدوس ، وحينما اعتدي على قبر هذا الأخير لم يذهب الأب ليشكو لرئيس الكهنة في طيبة بل ذهب إلى الملك الذي صحبه رأساً إلى طيبة ليستفي وحي آمون ، ولما صدر حكم آمون على الجناة أرسل الملك تمثالا لنمرود ليوضع في أبيدوس على سبيل التمويض .

حول اعترافهم به ، ويخيل إلينا أن هذه المفاوضات تعثرت في أول الأمر لأنهم على الأرجح رغبوا في الحصول على المزيد من السلطة وتجريد الملك من بعض الحقوق التي كان يحتفظ بها ، ومما يؤكد هذا الرأي أن لوحة في الكرنك عليها نص مؤرخ في السنة الثانية من عهد رئيس الماشواش [١] الأكبر « شيشنق » بينما نجد على نفس اللوحة نصاً آخر مؤرخ بالسنة الثالثة عشرة من عهد الملك شيشنق - أي أنه في النص الأول كان يعتبر رئيساً لليبيين فحسب بينما اعترف به في النص الثاني كملك .

ومن المؤرخين من يرى أن طائفة من كهنة آمون لم تقبل الإعتراف بحكمه وفرت إلى بلاد النوبة حيث احتمت في منطقة نباتا وجعلت منها عاصمة للمملكة التي أقاموها هناك ولذا يرجح هؤلاء المؤرخون أن أصل الأسرة النباتية [٢] يرجع إلى هؤلاء الكهنة ويستندون في ذلك إلى شدة ورع ملوك نباتا وإخلاصهم وتفانيهم في عبادة آمون وإلى أن بعض هؤلاء الملوك كانوا يحملون أسماء مصرية ، كما يستنتجون عدم قبول حكم شيشنق أيضاً من قيام ثورة بالواحات الخارجية في السنة التاسعة عشرة من عهده ولكن لا يمكن الأخذ بهذه الآراء إذ ليس هناك ما يؤكد زيادة سلطان أولئك الكهنة في نباتا أو أنهم تمكنوا من الوصول إلى الحكم وتكوين أسرة مالكة فيها ، كما أن تشابه أسماء بعض الملوك في نباتا مع الأسماء المصرية قد يرجع إلى أن بلاد النوبة كانت قد تأثرت بالحضارة المصرية منذ وقت طويل واصطبغت بها ، كذلك يغلب على الظن أن ثورة الواحات الخارجية ترجع إلى كثرة وجود العناصر الثائرة بها لأنها كانت تعتبر منفى للمجرمين وهؤلاء كثيراً ما كانوا يرغبون في التخلص من منفاهم .

---

(١) الماشواش هم المرتزقة الليبيون انظر ص ١٩٨

(٢) نسبة إلى نبتة أو نباتاً بالقرب من جبل البرقل عند الشلال الرابع في إقليم مروى بالسودان الشمالي .

ورغم ما يبدو – لأول وهلة – من عدم تحسن الأمور في مصر فإن سياسة شيشنق الأول الخارجية تدل على أنه كان موفقاً إلى حد كبير فحينما تولى العرش كان سليمان ما زال يحكم في فلسطين وكان النبي أشعيا قد تنبأ ليربعام وهو أحد أمراء إسرائيل المناوئين لسليمان بأنه سيحكم إسرائيل ولما حاول سليمان القضاء على يربعام هرب هذا إلى مصر حيث لجأ إلى شيشنق [1] – وبالرغم من أن المصريين كانوا يحرصون على علاقات الود مع ملوك العبرانيين الأقوياء إلا أنهم لم يضيعوا أي فرصة تسنح لهم يتمكنون فيها من إضعافهم وأمعنوا في التدخل في شؤون فلسطين أملاً في إعادة نفوذهم إليها ، وعلى هذا نجد شيشنق يعمل بما نصح له به يربعام – الذي يرجح أنه تزوج بابنة شيشنق – من إعداد العدة لمهاجمة فلسطين ، وكان العبرانيون قد ضاقوا ذرعاً بحكم سليمان الذي طعن في السن وأثقل كاهلهم بالضرائب الفادحة ، فلما مات انقسموا على أنفسهم وانتهز شيشنق فرصة انقسامهم إلى مملكتين [2] متنافستين وتقدم بجيشه حوالي سنة ٩٢٠ ق.م إلى مملكة يهودا التي كان يحكمها رحبعام ابن سليمان واستولى على خزائن الرب في أورشليم ، وربما كان سبب عدم مقاومة رحبعام لشيشنق وحليفه يربعام (ملك اسرائيل) يرجع إلى أن النبي أشعيا كان قد تنبأ بتمزق مملكة العبرانيين وأن يربعام سيحكم على عشرة قبائل من قبائلها الإثنى عشر .

واستمر شيشنق في غزواته حيث امتلك بعض المدائن في فلسطين لمدة قصيرة ثم رجع إلى مصر ، وقد نقش شيشنق أخبار الجزية التي وصلته من فلسطين ومن النوبة على جدران معبد الكرنك – وربما كان الباعث الذي دفع شيشنق

---

(١) سفر الملوك ١ الاصحاح ١١ آية ٤٠

(٢) بعد موت سليمان لم يقبل ولده رحبعام تخفيف الضرائب على العبرانيين فلم تعترف عشرة قبائل من قبائلهم الاثنى عشر به ملكاً ونادت بيربعام الذي عاد من مصر ملكاً عليهـا مكونة مملكة إسرائيل أما القبيلتان الباقيتان فقد بقيتا تحت حكم رحبعام وكونتا مملكة يهودا .

إلى هذا النشاط هو رغبته في البحث عن مورد للثروة لأن البلاد كانت في حالة اقتصادية سيئة ووجد أنه من المتعذر فرض ضرائب جديدة لأن حكمه لم يكن مقبولاً تماماً ، وعلى ذلك اتبع سياسة ملوك مصر التقليدية في القيام بحملات خارجية لزيادة دخلهم ، ولا شك في أنه أفاد من ذلك أيضاً في شغل أذهان الناس عن ولايته للعرش والشؤون الداخلية ليتمكن من تثبيت أقدامه في الحكم .

وقد تفرغ شيشنق بعد عودته من حروبه في فلسطين للشؤون العمرانية في داخل البلاد حيث شيد وأصلح كثيراً من المباني – ولما مات خلفه ولده « أسركون الأول » الذي كان والده قد زوجه من ابنة بسوسنس الثاني في حين كان ابنه الثاني « يوبت » كاهناً في طيبة – ولم ينجب هذا الأخير أبناء فاتفق مع شقيقه « أسركون الأول » على أن يكون ابن هذا الأخير خليفة لعمه في رئاسة كهنوت طيبة ، إلا أن هذا الإبن مات وخلفه ابنه « حرسا إيسي » (حفيد أسركون) – وقد مات هذا الأخير أيضاً فتبعه ولدين من أبناء أسركون ثم تبعهما الإبن الرابع لأسركون ويدعى شيشنق ، وفي تلك الأثناء توفى أسركون وتبعه على العرش « تكلوت الأول » (ثكرتي) ، ومن ذلك نتبين أن أربعة من أبناء أسركون الأول تتابعوا في رئاسة كهنوت طيبة واعتلى ابنه الخامس العرش من بعده .

والظاهر أن طول مدة حكم أسركون الأول نسبياً وتتابع أفراد أسرته في رئاسة الكهنوت في طيبة مما زاد الحالة تعقيداً في البلاد إذ من المحتمل أن ما تمتع به هؤلاء من نفوذ وسلطان كان يدفعهم دائماً إلى إثارة المتاعب أو محاولة الاستحواذ على مزيد من السلطة ، وربما دأب أسركون على تغييرهم

من أجل ذلك لأننـــا لا ندري كيف انتهت خدمات بعض أبنائـــه في رئاسة الكهنة .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ الصراع واضحاً بين الشمال والجنوب في نهاية عصر أسركون الأول وبداية عصر « تكلوت الأول » ثم اشتد النزاع بين هذا الأخير وشقيقه الكاهن شيشنق لأن هذا الأخير حينما شعر بقوة نفوذه في طيبة انتحل الألقاب الملكية – وحينما تولى أسركون الثاني بعد والده تكلوت الأول وجد أن نفوذ عمه يهدد سلطانه وخاصة في أجزاء مصر الجنوبية ، ولذا عمد إلى الاحتفاظ بهيبة الملكية في تلك الجهات وقام بإصلاح بعض التلف الذي أصاب معابد طيبة بإسمه وخاصة في معبد الأقصر الذي أثر فيه الفيضان، ومع هذا يبدو أن الخطر ظل يتهدد نفوذ الملك من نواحي متعددة كما يتبين ذلك من تمثال الملك « أسركون الثاني » عثر عليه في تانيس إذ نقشت عليه دعوات يطلب فيها الملك من المعبود أن يخلد أبناءه في الحكم وأن يمنحهم السلطة على رؤوساء الكهنة وعلى رؤساء (ماشواش) العظام وعلى كهنة هرقليوبوليس – ومما جاء في هذه الدعوات أيضاً « اجعل أولادي في الوظائف التي عينتهم بها ولاتجعل قلب أحدهم يكبر أو يعظم على قلب أخيه » . [1]

فمن هذه الدعوات يمكن أن نتبين سوء الحالة في البلاد في عهد هذه الأسرة بصفة عامة إذ كانت هناك بضعة قوى متنافرة كل منها تعارض سلطان الملك وهذه القوى تتمثل في الكهنة ورؤساء الماشواش (المرتزقة الليبيين) الذين أصبحت لهم سطوة كبيرة باعتبارهم يمتون بصلة للبيت المالك ، وربما أصبح معظم أمراء الأقاليم من هؤلاء الليبيين – ولا شك في أن كل طائفة من هذه الطوائف

---

(١) jEA 46, pp. 12 ff (especially p. 17)

كانت تعمل لمصلحتها الخاصة مما أضعف سلطان الملوك وتراخت قبضتهم عن الأقاليم فحظي أمراؤها بشيء من الاستقلال والسيادة وإن لم يتعد نفوذهم عواصم أقاليمهم إلا قليلا.

والخلاصة التي يمكن أن نستنتجها هي أن البلاد كانت سائرة في طريقها إلى الانحلال وأن تنازع السلطات بلغ من الخطورة حداً جعل الملوك لا يأمنون على عروشهم فهناك ما يشير إلى أن « أسركون الثاني » قبل أن يعتلي العرش كان مشتركاً في الحكم مع والده الذي اتخذ هذه الخطوة لكي يضمن لولده ولاية العهد – وقد اتبع « أسركون الثاني » نفس هذه السياسة مع ولده « شيشنق الثاني » الذي مات في حياته فأشرك معه ابنه الآخر « تكلوت الثاني » الذي استمر معه في الحكم سبعة أعوام ثم انفرد بالعرش بعد وفاته .

وأخذت هذه بعد ذلك تنحدر نحو الاضمحلال حتى أن ابن تكلوت الثاني – وكان يدعى أسركون – قد جرؤ في السنة الحادية عشرة من حكم والده على تقديم بعض الهدايا إلى معبد آمون باسمه الخاص مع أنه لم يكن إلا رئيساً للكهنة ، وبالرغم من تقديمه لتلك الهدايا فإن رئاسته للكهنة كانت في أغلب الظن غير مقبولة إذ أن أهالي طيبة قاموا بثورة ضده فاضطر إلى الهرب – وبعد نحو عشرة أعوام عاد إلى طيبة بمعاونة بعض أعوان والده ، ويبدو أنه استلهم وحي الإله آمون حينئذ فأصدر هذا عفوه عن الثائرين ولكن ذلك العفو كان مؤقتاً في نظر أهل طيبة على الأقل لأنهم عادوا الثورة فاضطر أسركون للهرب ثانية بعد نحو ستة أعوام من عودته ، وظل مختفياً في هذه المرة نحو ثلاثة عشر عاماً – وفي كل مرة كان يختفي فيها تولي رئاسة الكهنوت في مكانه أحد أفراد الأسرة ويدعى « حرسا إيسي » .

ومن النقوش التي ترجع إلى أواخر عصر هــذه الأسرة يتبين لنا أن عهود آخر ثلاثة ملوك فيها كانت تسودها الاضطرابات وقــد تلفت فيها آثار كثيرة ولم تنجو عاصمتهم « بوبسطة » من التخريب كما أنها تعرضت بعد ذلك للنهب والتدمير ولذلك كانت معلوماتنا عن هذه الأسرة بصفة عامــة ضئيلة للغاية ، ولا نجد فيما لدينا من نصوص بعد عهد مؤسسها شيشنق مــا يشير إلى فلسطين مما يدل على أن نفوذ مصر قد انعدم فيها من بعده .

ويحتمل أن ظهور مملكة آشور في ذلك الحين جعل بعض الدويلات الآسيوية في شرق حوض البحر المتوسط تتجمع في شكل اتحاد ضدها ، ووجد « تكلوت الثاني » أن في ظهور هذه المملكة الفتية خطراً يهدد مصر فأرسل عــدداً من المقاتلين كمدد لذلك الاتحاد الذي هزمه شلمنصر الثالث ملك آشور حينئذ ، وأثار ذلك انتباه هــذه الدولة الفتية إلى الدور الذي تقوم بــه مصر فتحفزت للاصطدام معها .

وفي أواخر عهد « شيشنق الثالث » أي في أثناء تولي «حرسا إيسى» لرئاسة الكهنوت من جديد نشأت أسرة ملكية (بدأها « بادي باست ») في طيبة هي الأسرة الثالثة والعشرين ، أي أنها كانت تعاصر الأسرة الثانية والعشرين وخاصة في الفترة الأخيرة منها ، ولكننا لا نعرف كيف نشأت هذه الأسرة ؟ وما هي العلاقة بينها وبين الأسرة السابقة ؟ بل ولا نعرف شيئاً عن الدور الذي قام به « حرسا إيسي » عند تعاصر الأسرتين – وكل مــا يمكن أن نقوله هو أن الأحوال الخارجية والداخلية بصفة عامة لم تكن واضحة تماماً .

ومما تجدر ملاحظته أن الأسرة الثالثة والعشرين قد مرت في نهايتها بنفس التجربة إذ ظهرت في الشمال أسرة جديدة (وإن لم تعمر هذه الأسرة طويلا) كما شاهدت كذلك دخول النبتاويين إلى مصر حيث أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين .

الأسرة الثالثة والعشرين :

تمكن الثلاثة ملوك الأخـيرين في الأسرة الثانية والعشرين من الاحتفاظ بسلطتهم على قسمي المملكة الشمالي والجنوبي فيما عدا الفترة التي حـكم فيها « بادي باست » في طيبة (كما أشرنا) حيث انتزع السلطة من ملوك بوبسطة، ويرى مانيثون أنه مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين ولكن يبدو – حسب ما يفهم من بردية في فينا – أن بعض الاضطرابات حدثت في السنة الرابعة عشرة من حكمه وأنه اضطر إلى أن يقتسم السلطة مع أحد أمراء شرق الدلتا .

ولا ندري على وجه التحديد هل كان « بادي باست » مـن سلالة كهنة طيبة وتمكن من أن ينتزع السلطان مع أمراء بوبسطة ثم تمكن أحـد هؤلاء من أن يقتسم معه السلطة على أثر ثورة قام بها ، أو أن « بادي باست » كان مغتصباً لا علاقة له ببيت الكهنة ولا بالبيت المالك في الشمال ، وحينما سنحت الفرصة ثار عليه أحد أمراء الشمال واضطره إلى اقتسام السلطة معه .

وعندما اعتلى العرش شيشنق الرابع خليفة بادي باست نجح في توحيـد البلاد من جديد ، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن إلا ظاهرياً فقط لأن منافسات شديدة قامت بين أمراء الأقاليم الذين كانوا يشعرون بأنهم مـن القوة بحيث يستطيعون الخروج على سلطان الملك وعلى ذلـك حدثت اضطرابات مختلفة ، فمن ذلك مثلا ما حدث عند اشتداد المنافسات بين أمير تمي الأمديد وأمـير عين شمس إذ انضم إلى كل منهما فريق من الأمراء ونشبت بسبب ذلك حروب عجز فيها « بادي باست » وخليفته « شيشنق الرابع » عن حقن الدماء .

وما أن تولى « أسركون الثالث » بن « شيشنق الرابع » ؟ حتى كانت البلاد قد انقسمت إلى إمارات صغيرة تتشاحن فيما بينها ، وكانت الامارات

التي تمتدمن الوجه البحري إلى الأشمونين تتقاتل فيما بينها بصورة تشبه إلى حد كبير ما كان يحدث في عصور ما قبل الأسرات – وقد وصلنا نحو ثمانية عشر اسما لأمراء من هؤلاء المتنازعين ، وفي خضم هذه الاضطرابات التي كانت تعاني منها البلاد والتي جعلت من ملكها أشبه بحاكم على إقليم العاصمة « بوبسطة » ولا يتعدى نفوذه كثيرا حدود هذا الإقليم كانت اسرائيل في صراع مع دولة آشور فلم تتمكن مصر من تقديم المساعدة لها،بل وكانت مصر بالنسبة لظروفها الخاصة تعد فريسة سهلة لكل من يطمع فيها من جيرانها ولكن لم يغامر أحد بالإغارة عليها في ذلك الوقت – واستمر بعض خلفاء « أسركون الثالث » يحكمون فترة وجيزة إلى أن ظهر أمير قوى في « سايس » (في غرب الدلتا) هو « تفنخت » الذي حاول أن يخضع كل أمراء الدلتا لسلطانه . وفي نفس الوقت كانت أسرة حاكمة قد تكونت في نباتا واستطاعت أن تبسط سلطانها على كل السودان الشمالي وبلاد النوبة ومصر العليا حتى طيبة .

وأول من سمعنا عنه من ملوك هذه الأسرة النبتاوية في النصوص المصرية هو « كاشتا » ثم تلاه « بعنخى » الذي أخضع البلاد كلها لسلطانه ، ولذايعتبره بعض المؤرخين مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين كما يطلق فريق من المؤرخين على هؤلاء النبتاويين اسم «الأسرة الأثيوبية» لكن نظراً لاختلاف مدلولات أثيوبيا والنوبة باختلاف العصور، وعدم دلالة أيهما على كل الأجزاء التي ارتبطت بمصر أيام الفراعنة ، ولعدم تأكدنا من أصل هـــذه الأسرة حتى الآن فإننا نفضل الإشارة إلى هذه بالاسم المشتق من اسم عاصمتها نبته أو نباتا أي « الأسرة النبتاوية » .

الأسرتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون :

ما زال المؤرخون يختلفون في أصل الأسرة النباتية وما زلنا نجهل كيف استطاع أحد ملوك هذه الأسرة وهو« كاشتا»أن يفرض سلطانه على مصر العليا

حتى طيبة ، وبذلك أصبح يحكم مملكة تمتد – على الأقل – من الشلال الرابع جنوباً إلى طيبة شمالاً أي أنه يحكم في اقليم النوبة الغنية فضلا عما كانت مملكته تنعم به من وحدة متماسكة، على عكس الحال في مصر التي فقدت أملاكها في آسيا كما تنازع فيها الأمراء ورجال الدين على السلطة إذ وجدوا في ضعف الملوك خير مشجع لهم على التمادي في محاولة الاستئثار بها – وقد تطورت الأمور بعد ذلك سريعاً في مصر لأن « تفنخت » أخذ يمد نفوذه على بقية الأمراء في الدلتا محاولا أن يعيد الوحدة إلى البلاد ، فبعد أن قهر أمراء غرب الدلتا سار جنوباً حيث استولى على شمال الوجه القبلي ثم عاد فبسط نفوذه على شرق الدلتا ووسطها أي أنه أصبح ملكاً بالفعل على الوجه البحري وشمال الوجه القبلي إلى بني حسن ولم تقاومه إلا إهناسيا عاصمة إقليم الأشمونين – وفي تلك الأثناء كان « بعنخي » قد تولى الملك في النوبة (بعد كاشتا) ، ولم يهتم بادىء الأمر لنجاح تفنخت في بسط نفوذه على بقية أمراء الدلتا ولكنه شعر بالخطر الذي يهدد نفوذه عندما عاد تفنخت إلى التقدم في الصعيد وانزعج حينما علم بأن « نمرود » أمير الأشمونين استسلم له في النهاية بل وانضم إليه أيضاً ، وعلى ذلك أمر بعنخي قواته بالتقدم شمالاً نحو تفنخت لوقف تقدمه إلى الجنوب – ومن المحتمل أن القوات النبتاوية لم تصادف نجاحاً كبيراً في أول الأمر فاضطر بعنخي أن يتقدم بنفسه نحو الشمال ، وما أن وصل إلى طيبة حتى استراح بها وقدم الهدايا لآمون ثم واصل سيره شمالا مخضعاً كل الأقاليم التي كانت في طريقه إلى أن وصل إلى الأشمونين حيث دارت معركة بين أسطوله وبين الأسطول المصري هزم فيها هذا الأخير ، وفر تفنخت شمالاً ليعيد تنظيم قواته ويقوى من تحصيناته .

أما نمرود فقد تحصن في الأشمونين ودافع عنها ولكنه – إزاء حصار بعنخي – أجبر على التسليم وأرسل زوجته للتوسط له عند حريم بعنخي ،

جدول يبين معاصرة الأسرات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ بعضها البعض

الأسرة الثانية والعشرون شمالية – جنوبية	الأسرة الثالثة والعشرين شمالية	الأسرة الرابعة والعشرون شمالية	الاسرة الخامسة والعشرون بدأت في نباتا
شيشنق الأول ٩٥٠ – ٩٢٩ قم			
أسركون الأول ٩٢٩–٨٩٣ قم			
تكارت الأول ٨٩٣ – ٨٧٠ قم			
أسركون الثاني ٨٧٠–٨٥٤؟ قم			
شيشنق الثاني ٨٥٤ – ٧٤٧ قم			
تاكلوت الثاني ٨٤٧؟ –٨٢٣قم			
شيشنق الثالث ٨٢٣ – ٧٧٢قم			
بامي ٧٧٢ – ٧٦٧قم			
شيشنق الرابع ٤٦٧ – ٧٣٠قم			
	بادي باست ٨١٧ – ٧٦٣ ق م		
	شيشنق الرابع ٧٦٣ – ٧٥٧قم		كاشتا ٠٠ ؟ – ٧٥١ قم
	أسركون الثالث ٧٥٧–٧٤٨قم		(لم يتجاوز حكم مصر العليا

معاصرة الأسرات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ لبعضها البعض

	تكلوت الثالث امنرود أسركون الرابع } ٧٤٨ — ٧٣٠ قم	تفنخت ٧٣٠ — ٧٢٠ قم بوخورس ٧٢٠ — ٧١٥ قم	بعنخي ٧٥١ — ٧١٦ ق م أخضع مصر كلها لسلطانه (ولكنه رجع إلى نباتا بعد فتح مصر) شبكا يعود إلى مصر حوالي ٧٠٧ — ٦٩٦ ق م (تظل علاقة هذه الأسرة بمصر إلى حوالي سنة ٦٥٦ ق م) — رغم أنه من المحتمل أن بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين كان قد أعلن نفسه ملكاً على مصر حوالي ٦٦١ قم ولكن نفوذه كان قاصراً على الوجه البحري في أول الأمر [1]

(١) انظر ص ٢٢٤ وما بعدها

وقد استولى بعنخي على كثير من نفائس المدينة ثم تقدم شمالا نحو منف التي احتمى بها تفنخت – وفي أثناء حصار بعنخي لها فر تفنخت قبل أن تسقط في يده ، وما أن استولى عليها حتى ذهب إلى معبد عين شمس حيث اعترف به ملكاً على مصر – وهنا وفد عليه « أوسركون الثالث » الذي كان يحكم في بوبسطة وقدم له الخضوع والولاء ، وبعدئذ توجه بعنخي إلى « أتريب » حيث أقبل عليه أمراء الدلتا معلنين ولاءهم كذلك – وفي تلك الأثناء كان تفنخت قد وصل في فراره إلى بلدة صغيرة مجهولة تعرف باسم «مسد» فأرسل بعنخي قوة فتكت بحاميتها واضطر تفنخت أن يلجأ إلى جزيرة صغيرة في شمال الدلتا تحيط بها المستنقعات ومن هناك أرسل الهدايا إلى بعنخي راجياً منه أن يرسل من قبله رسولا إلى معبد مجاور كي يقسم أمامه يمين الطاعة والولاء له ، وقد تم ذلك فعلا ، وعندئذ قدم بقية الأمراء ولاءهم له أيضاً فأصبح بعنخي حاكم مصر المطلق ، أي أن ملكه امتد من نباتا (أو أبعد منها قليلا إلى الجنوب) إلى أقصى شمال الدلتا – ومعنى هذا أنه كان يحكم مملكة لا تقل عن الامبراطورية المصرية في أوج عظمتها باستثناء الأجزاء الشمالية الشرقية في سوريا وفلسطين .

ويدهشنا أن بعنخي لم يستمر طويلاً في مصر بل عاد مسرعاً إلى نباتا وما زلنا نجهل الأسباب التي دعته إلى ذلك إذ أن عودته السريعة جعلت بعض المؤرخين يشبهون حملته بمغامرة ليس لها غد إذ لم تكن ذات نتائج حاسمة ، ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن الفترة التي غزا فيها بعنخي مصر هي الفترة الوحيدة التي أمسك فيها تفنخت عن ادعاء حكم مصر حيث يبدو أنه ما أن رجع بعنخي إلى عاصمة ملكه في النوبة إلا وعاد تفنخت إلى ادعاء حكمه لمصر بأكملها ، وإن كنا نرجح أن ملكه لم يكن ليتجاوز منف جنوباً ، بل وكانت بقايا الأسرة الثالثة والعشرين تحكم في بوبسطة في نفس الوقت أيضاً – ويبين الجدول بالصفحة التالية كيف حكم مصر ملوك يمثلون أسرات مختلفة في نفس العصر .

فاذا اعتبرنا أن ملوك نباتا هم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في مصر فإننا في هذه الفترة نجد مثالاً آخر لمعاصرة بعض الأسرات المصرية [1] للبعض الآخر ، فبينما تحكم الأسرة الثالثة والعشرين في بوبسطة يسيطر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين على مصر بالفعل أو على الأقل يتحكمون في الصعيد ويسيطر تفنخت الذي يعتبر مؤسساً للأسرة الرابعة والعشرين على معظم الدلتا وكانت عاصمته سايس – هذا وقد ظلت نبته تسيطر على الصعيد حتى بعد أن عاد تفنخت إلى اتخاذ الألقاب الملكية وربما كان السبب في خروج أمراء الوجه البحري على نفوذ نبته يرجع إلى أنهم كانوا أقرب إلى الاتفاق مع تفنخت من أمراء الصعيد ، وفي نفس الوقت كان نفوذ « كبيرة محظيات آمون في طيبة » [2] عاملا أساسياً في نفوذ مملكة نباتا في الصعيد لأننا نعرف أن ابنة أسركون الثالث التي كانت كبيرة محظيات هذا الإله قد تبنت شقيقة بعنخي .

ولما توفي تفنخت تبعه ولده « بخورس » في الحكم في سايس ، وقد رأى

---

(١) انظر الأسرات ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٣ و ١٤ و ١٧ الهكسوسية و ١٧ المصرية ١٢٨ - ١٣٣ ، ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٥٤ - ١٥٦

(٢) يبدو أن الملوك حينما شعروا بضعفهم أسندوا وظيفة كبيرة محظيات آمون إلى سيدات من البيت المالك ولكن لا توجد إلا إشارات ضئيلة من هؤلاء في الأسرتين ٢١ و ٢٢ ولا تعرف سلسلة المحظيات إلا ابتداء من عهد أوسركون الثالث (ثالث ملوك الأسرة ٢٢) الذي عين ابنته في هذه الوظيفة ليحد من نفوذ كهنة آمون على الأرجح ، ولما وصل نفوذ كاشتا إلى مصر العليا أجبر شبن وبت الأولى ابنه أوسركون على أن تتبنى ابنته ، ومن ذلك الوقت ظهرت سلسلة من التبني حيث كانت كبيرة المحظيات تتبنى إبنه الملك الحاكم أو اخته ـ أنظر

Jean Leclant , Enquétes sur les Sacerdoces et les Sanctuaires Egyptiens , (Le Caire 198)

هذا الأخير أن نفوذ آشور قد ازداد إلى درجة كبيرة فلم يجد بدا من إرسال هدية إلى « سرجون الثاني » ملك آشور (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) وربما كان بخورس يرمي من وراء ذلك إلى توطيد علاقاته مع ملك آشور أو أنه كان يهدف إلى اكتساب عطفه إذا ما أراد أن يعارض نفوذ نباتا ، وقد اعتبر سرجون الثاني هذه الهدية بمثابة الجزية وادعى خضوع مصر لسلطانه .

الصراع الاشوري النبتاوي على مصر

كان لما وصلت إليه مصر من ضعف ولوجود قوتين عظيمتين في آشور ونبته واتساع ملكها وزيادة أطماعها أكبر الأثر على الحالة الدولية إذ كان لا بد لهاتين القوتين من أن تصطدم إحداهما بالأخرى ، وقد تعود ملوك مصر منذ بداية الأسرة الثالثة والعشرين على إرسال الهدايا لملوك آشور حتى يصرفوهم عن غزو مصر - ولا نكاد نعلم شيئاً عن الحالة في نبته بعد عودة بعنخي سوى أنه توفي بعد نحو عشر أعوام (حوالي سنة ٧٣٠ ق م) وتبعه « شبكا » على العرش .

وقد بسط شبكا سلطانه على مصر ونقل عاصمته إلى الدلتا ولكننا لا ندري هل تم له ذلك عن طريق الاستيلاء على مصر عنوة أو أنه وفق إلى فرض سلطانه عليها دون حاجة إلى جهد عسكري ؟ - وينسب مانيثون إلى هذا الملك أنه أحرق بخورس حيا كما يعتبره مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين ، كذلك يذكر بعض المؤرخين أنه لم يحكم في النوبة وإنما حكم في مصر فقط - وبما أن بعنخي أخضع البلاد كلها لسلطانه بل وكان كاشتا يحكم الصعيد من قبل فإنه لا يمكن اعتبار شبكا مؤسساً للأسرة الخامسة والعشرين وخاصة أنه ثبت بالدليل القاطع أن شبكا حكم مملكة مترامية الأطراف كانت تمتد جنوباً إلى ما وراء الشلال الرابع كما كانت الواحات تخضع له أيضاً [١] .

---

(١) BIFAO.51, p. 9 n .4

ولما وقفت القوتان (آشور ونباتا) وجهاً لوجـــه بدأ ملوك نبته سياسة جس النبض ، بل ومن المرجح أنهم أرادوا أن تكون علاقتهم بآشور وديةبدليل وجود أختام من الصلصال في أرشيف نينوى تحمل اسمي شبكا وسرجون الثاني جنبا إلى جنب ، كذلك وجد ختم لشبكا في كيونجك يحتمل أنه كان ختما لرسالة أرسلت منه إلى الملك الأشوري ، فلما أرسل الأخير رده إلى شبكا اعتبره هذا دليلا على خضوع الملك الآشوري له إذ أننا نجد أحـد نقوش شبكا يمثـله وهو يخضع الشعوب الآسيوية والأفريقية بالطريقة التقليدية المعروفة في مصر الفرعونية .

وحينما أخضع سرجون الثاني سماريا ونقل أهل أسرائيل إلى بلاد النهرين لم يبق من فاصل بين آشور ومصر (منطقة نفوذ نبته) إلا مملكة يهودا الصغيرة التي كانت تتأرجح بـين الخضوع الملك الأشوري أو لملك مصر ، ثم مـا لبثت كل الممالك الصغيرة في فلسطين ومن بينها يهودا أن خضعت لآشور – وقد ذاقت هذه الممالك الأمرين من حكمها فثارت ضدها وبعدئذ لم يكن هناك بد من غزو الأشوريين لمصر لأن شبكا كان ، يثير قواتها المتحالفة ويشجعها، إلا أن سرجون استطاع أن يقضى على تلك القوات وأن يوطد مركزه في هذه الأمارات .

وبعد أن حـكم شبكا اثني عشر عـاما مات وتبعـه في الحـكم « شبتكو » الذي لم يحكم إلا فترة وجيزة حدث خلالها أن توفى سرجون الثاني هو الاخر وتولى بعده « سنخريب » الذي ضاق ذرعا بمؤامرات مصر وثورات الدويلات الصغيرة في غرب آسيا ، فحاصر أورشليم إلى أن أخضعهـا واضطر ملكهـا « حزقيا » إلى دفع ضريبة ضخمة كان منجرائها أن جردت المعابد من كنوزها ونفائسها وبعدئذ عاد الآشوريون إلى بلادهم حيث يبدو أن وباء انتشر فيصفوف جيشهم ، كما أن الأحوال الداخلية فيبلادهم لم تكنلتشجع على التقدم إلىمصر. ويشير الكتاب المقـدس إلى ذلك فيذكر أن الأشوريـين رجعوا من فلسطين

« نتيجة لوصول طهرقة ولوصول ملاك الرب »[1]

ولا يعرف إلا القليل عن حكم شبتكو إلا أنه في الغالب لم يهتم بالشئون الخارجية أو على الأرجح لم يجد في نفسه القدرة على المغامرة فيها فكرس جهوده البناء ، وقد ذكر مانيثون بأن « طهرقة » قتل شبتكو واعتلى العرش من بعده واتخذ تانيس عاصمة له ولكن هذه الرواية لا يمكن مقابلتها إلا بالشك[2] .

وكان طهرقة قائد الجيش منذ عهد شبكا وما أن اعتلى العرش حتى أخذ ينظم المقاومة ضد الأشوريين ، ولكنه أهمل في السياسة الداخلية بل ولم ينجح في سياسته الخارجية أيضا لأنه لم يقدر الظروف حق قدرها إذ أنه لم يقم بأي جهد في سبيل تنظيم الإدارة الداخلية التي ساءت إلى أبعد حد كما أنه لم يستعد الاستعداد الحربي الكافي لمواجهة خطر آشور بالرغم من أنه كان يدبر المؤامرات ضدها ويتعاون مع الولاة الذين كانوا يناوئونها وخاصة أمراء صور وصيدا .

ويبدو أن نهاية سنخريب لم تكن سارة إذ اغتاله أحد أبنائه[3] وتولى بعده « أسر حدون » الذي أخضع الولايات التي ناوءته بمنتهى العنف ، فما أن امتنع والي صيدا عن دفع الجزئية حتى دفع حياته ثمنا لذلك ، وحينما أصغى ملك صور إلى رسالة طهرقة التي كانت تدعوه لمناوءة آشور وجه أسرحدون

---

(١) سفر الملوك الثاني الاصحاح ١٩ الايات ٨ - ٣٥ - والمعروف ان طهرقة كان قائداً الجيوش المصرية في ذلك الوقت قبل أن يعتلي العرش بعد وفاة شبتكو

(٢) كان نظام توارث العرش في الأسرة النباتية يجعل من طهرقة وريثا لأخيه شبتكو فلم يوجد ما يدعو لأن يقتل طهرقة أخاه أنظر Macadam, Kaw I, pp. 22 ff

(٣) سفر الملوك الثاني الاصحاح ١٩ الآية ٤٧ .

ضرباته للقوتين معا فحاصر صور وأرسل في نفس الوقت حملة إلى طهرقة في مصر ، لكن حصار صور استمر خمسة أعوام واضطر الجيش الذي أرسله إلى مصر أن يتقهقر مما أحنق أسرحدون وأثار غضبه على طهرقه ، فتقدم بجيشه نحو مصر وهزم النبتاويين عند الحدود المصرية ، وحينما تراجع طهرقه إلى منف تبعه الأشوريون واستولوا عليها وخربوها ولكن طهرقة فر إلى الجنوب — أما أمراء الدلتا فقد قدموا ولاءهم لآشور وأبقاهم أسرحدون في مناصبهم كولاة من قبل الاشوريين، وما أن ترك أسرحدون مصر عائداً إلى بلاده حتى رجع طهرقة إلى الدلتا بجيش آخر جمعه من مصر العليا ومن السودان واحتل منف ثانية وقام ببعض الاصلاحات فيها كما استأنف علاقاته مع ملك صور .

وإذا ما نظرنا إلى حالة الدلتا في ذلك الوقت نجد أن معظم أمرائها كانوا موالين لملوك نبته الذين كانوا ينتمون إلى أصل مماثل لأصلهم بينما كان الاشوريون يمثلون عنصرا آخر ، ولم يكن المصريون ليرتاحوا كثيرا إلى العناصر الآسيوية وخاصة إذا دخلت هذه العناصر إلى البلاد غازية أو ذات نفوذ، ومع هذا فلا شك في أن بعض الأمراء كانوا يترددون بين الولاء لملوك نباتا والخضوع لأمراء آشور ومن المؤكد أن طهرقه لم يعد إلى الدلتا إلا بعد أن وجد تشجيعا من معظم أمرائها حيث كتب له هؤلاء على أثر عودة أسر حدون إلى بلاده يطلبون إليه القدوم إلى مصر واقتسام السلطة فيما بينهم [1] .

وقد علم الاشوريون بأمر هذه الرسائل وكان أسرحدون يستعد لإعادة فتح مصر ولكنه توفي وتبعه « آشور بانيبال) — وقد تقدم هذا الاخير على رأس جيش كبير وأعاد فتح مصر ففر طهرقة إلى منف ومنها إلى طيبة إلا أن جيش آشور تبعه إليها وخربها ففر طهرقة إلى نباتا بينما قبض على المتآمرين من أمراء

H. Zeissl, Aethiopen und Assyrer iu Aegypten, (Hamburg 1944-). p. 15

الدلتا وأرسلوا إلى نينوى لمحاكمتهم ، وكان من بين هؤلاء «نكاو» أمير صالحجر الذي — بدلاً من معاقبته — أعيد إلى وظيفته مكرماً كما عين ولده «بسماتيك»[1] أميراً في أتريب ولا ندري سبباً لذلك كما لا ندري كيف استطاع «منتوامحات» أمير طيبة ورئيس كهنتها أن يقنع الأشوريين بالرجوع عن طيبة بعد تدمير طفيف لها — ومع أن طهرقة فر إلى نباتا وبقي بها حتى وفاته إلا أنه ظل يتمتع بسلطة إسمية على مصر حيث اعترف به كملك في طيبة إلى ما بعد هذه الغزوة الأشورية، ورغم كثرة حروبه فإن ما خلفه من آثار يجعلنا نعتقد أنه كان من أكثر ملوك نبتة ثراء .

ولما توفي طهرقة تبعه في الحكم « تانويت أماني » الذي ادعى في لوحة له تعرف باسم لوحة الرؤيا بأن الإله آمون جاءه في المنام وأمره بالتقدم إلى مصر والاستيلاء عليها — ومع أنه يشير إلى ترحاب المصريين به إلا أننا نفهم من بين سطور هذه اللوحة بأن الظروف لم تكن مواتية له تماماً ، كذلك لم يستمر في مصر طويلا لأن آشور بانيبال عاد إليها ثانية وأخضعها من جديد ودمر طيبة للمرة الثانية ففر تانويت أماني إلى نباتا — ومنذ ذلك الحين لم تشاهد مصر بعد ذلك أحد من ملوك النوبة كما أن الآشوريين رجعوا إلى نينوى ، ولم تبق مملكتهم بعد ذلك طويلا بل وتحطمت عاصمتها نينوى بعد غزوة آشور بانيبال الأخيرة بنحو خمسين عاماً .

ومهما كان من أمر الأحداث التي مرت بمصر بعد الغزوة المشار إليها فإن السلطة الفعلية فيها كانت في يد « بسماتيك » الذي أشرنا إلى تعيينه أميراً لأتريب ، فقد تولى إمارة سايس بعد والده ، ويبدو أنه أعلن نفسه ملكاً

---

(١) لم يكتف بهذا بل اعطى بسماتيك اسماً آشورياً كذلك انظر :
Luckenbill, ABAR, II., 770

على البلاد على أثر عودة آشور بانيبال من حملته الأولى [١] أي قبل غزوة آشور الثانية لطيبة – وفي نفس الوقت كانت سلطة تانويت أماني معترفاً بها في مصر العليا لمدة تزيد على ستة أعوام بعد فراره من مصر [٢] ومن الغريب أننا لا نجد نصاً واحداً من النصوص المصرية يشير إلى خروج الأشوريين من مصر وعلى ذلك لم يستطع المؤرخون أن يجدوا سبباً مباشراً لتركهم للبلاد .

ويعد عصر بسماتيك بداية عهد جديد فقد استطاع أن يؤسس أسرة جديدة هي الأسرة السادسة والعشرين ولا نعلم كيف تخلص من النفوذ الأشوري وكيف زال النفوذ الاسمي للملوك نبته نهائياً من طيبة .

٧ ــ عصر النهضة المؤقتة في مصر

الأسرة السادسة والعشرون :

تمتعت مصر خلال عهد الأسرة السادسة والعشرين بشيء من الرخاء والنهوض كانت قد حرمت منها منذ وقت طويل ، كما أنها بدأت عهداً جديداً في علاقاتها الخارجية وإن كانت هذه العلاقات قد سلكت اتجاهاً مغايراً لما اعتادته مصر من قبل حيث أخذت تستعين بالمرتزقة اليونانيين ، وبدأت توطد علاقاتها مع جزر البحر المتوسط ، ومن المحتمل أن بسماتيك الأول طلب المعونة من ملك ليديا لتدعيم سلطانه فأرسل هذا جنوداً من الأيونيين والكاريين – وهكذا نجد أن بسماتيك يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الرعامسة مع فارق بسيط هو أن المرتزقة في عهد الرعامسة كانوا من عناصر ليبية ونوبية ومن شعوب البحر بينما كانت العناصر

---

(١) انظر اعلاه ص ٢٢٤

(٢) F.R. Kienitz « Die Politische Geschichte Aegyptens vom 7 bis Zum 4 jahrhundert vor des Zeitwende », (Berliu 1952), pp. 14 - 15

الإغريقية وعناصر جزر البحر المتوسط تمثل الغالبية في عهد بسماتيك، ومن ثم بدأ النفوذ اليوناني يدخل إلى مصر وتأثرت الثقافة المصرية بتأثيرات يونانية مختلفة - وقد عمل المصريون من جانبهم على تيسير إقامة اليونانيين في بلادهم فبنوا لهم بعض المدن الخاصة وشيدوا لهم مستعمرات أقاموا فيها وتزايد عددهم حتى دب الحسد في نفوس الجنود الآخرين من مصريين وليبيين وغيرهم - وفر بعضهم إلى النوبة لأن هؤلاء لم ينظروا بعين الارتياح لتشجيع بسماتيك للمرتزقة اليونانيين، وقد أطلق هيرودوت على هؤلاء الفارين اسم « أسماخ »[1] - ولكن وجود المرتزقة اليونانيين في أعداد كبيرة كان من جهة أخرى سبباً في إنعاش الأحوال الإقتصادية نوعاً ما لأن بسماتيك وجد أنه لا بد من الإنفاق على هذا الجيش الكبير ، فشجع التجارة مع الدول المجاورة وفي نفس الوقت فرض الضرائب على البضائع الواردة إلى مصر ونظم الإدارة وعاد بها إلى التقاليد القديمة بحيث أخذ المصريون في ذلك الوقت يشعرون بأن عظمة مصر في عهد الدولة القديمة كانت أعلى ما وصلت إليه في تاريخها ، ولذلك اصطبغ عهد الأسرة السادسة والعشرين بصبغة الدولة القديمة في كل شيء وعاد الناس إلى أسلوب الكتابة القديمة وإلى المعبودات القديمة والفنون القديمة مع شيء بسيط من التحرر وربما كان هذا من الأسباب التي تحبذ إطلاق اسم عصر النهضة على هذه الفترة من تاريخ مصر القديم .

وتتميز هذه الفترة من تاريخ مصر أيضاً بنهج جديد في السياسة المصرية ، إذ أن مصر - مع تركيز اهتمامها في علاقاتها الخارجية بالأقطار الشمالية - كانت أكثر ارتباطاً باليونان منها بأي قطر آخر ، وفي نفس الوقت لم تحاول مملكة نباتا من جانبها أن تعيد علاقاتها بمصر بل اتجهت بدورها إلى الأقطار التي تقع

---

(١) Herodotus II, 30

إلى الجنوب منها حيث وجدت أن لا فائدة ترجى لها من الاتجاه شمالاً ، وهكذا نجد أن الوضع السياسي في مصر أصبح يستركز في الوجه البحري حيث أدى هذا إلى ظهور مدن جديدة – ونظراً لكثرة وجود اليونانيين في مصر بدأ اهتمام العالم اليوناني بأحوال مصر وحضارتها ، فإلى ذلك العهد ترجع معظم الكتابات اليونانية عنها ومنها نتبين أن اليونانيين ذهلوا حينما وجدوا أن أمة أخرى غيرهم لها حضارة لا تقل عن حضارتهم إن لم تكن أرقى منها واعتبروا المصريين شعباً غاية في الغرابة ووصفوا أحوالهم وأطوارهم بكل دقة وإن كانوا قد أخطأوا في تفسير بعض مشاهداتهم عن مظاهر الحضارة المصرية .

وقد وجد بسماتيك أن في مقدوره محاولة إعادة السيطرة المصرية على فلسطين وسوريا ولكنه اضطر لوقف أعماله لظهور السيثيين [1] على المسرح الدولي إذ استطاع هؤلاء الزحف على آشور وأصبح خطرهم يتهدد مصر ، ولكن بسماتيك تمكن من إرجاعهم عنها ولا نعرف كيف تم له ذلك وهل لجأ إلى رشوتهم أو أنه استطاع التغلب عليهم ؟ هذا وقد حكم بسماتيك حوالي أربعة وخمسين عاماً عادت البلاد أثناءها إلى حالة من النهوض والرخاء لم تشهدها منذ أيام رعمسيس الثاني وتولى بعده ولده « نكاو » .

وفي تلك الأثناء وصلت آشور إلى منتهى الضعف وكانت سوريا وفلسطين أضعف من أن تقفا أمام أي غزو أجنبي وعلى ذلك تقدم نكاو نحوهما للاستيلاء عليهما ، ولما تأهب اليهود لمقاومته أسرع بإخضاعهم كما أخضع سوريا وتقدم إلى الفرات خشية أن تسترد آشور ملكها مفضلاً أن يبدأ بمهاجمتها – ولما لم يجدها مستعدة لذلك عاد إلى مصر مفضلاً عدم الاستيلاء على نينوى ، وقد نسب نكاو

---

(١) السيثيون scythians قبائل بربرية كانت تتكلم لغة هندو أوربية وكانت تعيش في جنوب روسيا شرق بحر آرال وكانوا حلفاء للاشوريين في أول الأمر ولكنهم خانوهم وانضموا إلى أعدائهم ملك بابل وملك ميديا حيث اشتركا في إسقاط نينوى ٦١٢ ق.م.

نصره إلى الجنود الميليزيين، وهذه هي المرة الأولى التي ينسب فيها الفرعون نصره لغير الإله – ومع أنه كون امبراطورية على إثر الحملة التي قام بها إلا أن هذه كانت مؤقتة ولم تدم طويلا لأن الأحداث في غرب آسيا تطورت سريعاً ، فلم تكد تمض سنتان حتى اتحد ملك ميديا مع ملك بابل واستطاعا معاً أن يحطما آشور وأن يقتسما ملكها ، وقد وقعت سوريا ضمن نصيب بابل وبذلك أصبحت بابل خطراً جديداً يتهدد مصر .

ولما تولى « نبوخذ نصر » – الذي كان ولياً للعهد في مملكة بابل الجديدة (أي الامبراطورية الكلدانية) – قيادة جيوشها ذهب نكاو لملاقاته ولكن نبوخذ نصر انتصر عليه وتعقبه بعض الوقت غير أنه رجع إلى بابل بعد أن اتفق مع نكاو لأن والده كان توفي في ذلك الوقت .

ولم تطمع مصر بعد ذلك في آسيا حتى إنها لم تتدخل حينما حاصرت بابل بيت المقدس واكتفى نكاو بترقية التجارة وتشجيع الملاحة وقد أمر بعثة فينيقية بالدوران حول أفريقية فأتمت ذلك في ثلاثة سنوات (وربما كانت هذه أول رحلة من نوعها في التاريخ) ، كما أمر بشق القناة التي تربط بين النيل والبحر الأحمر ولكنه تخلى عن إتمامها لوفاة عدد كبير من العمال ولأن الكهنة تنبأوا بأن فائدتها سوف لا تعود إلا على الأجانب .

ولما توفي تبعه « بسماتيك الثاني » الذي ذهب إلى ببلوس لزيارة معبد آمون هناك وربما كان ينوي الإحتكاك مع بابل ولكنه اضطر للعودة إلى مصر لعلمه بوجود تكتلات في جنوبها ، ولذا أرسل حملة إلى الجنوب توغلت إلى الشلال الخامس أو السادس [1] – وقد ظلت علاقة بسماتيك طيبة مع اليونانيين وزاد

---

(١) كان بعض المؤرخين فيما سبق يظنون أن هذه الحملة لم تصل إلا إلى الشلال الثاني فقط.
أنظر BIFAO 50, p. 203

من تشجيعهم واستعان بهم في تكوين أسطول ضخم .

وعندما توفي بسماتيك الثاني تبعه « ابريس » على العرش وقد استغل هذا الأخير الأسطول الذي كونه سلفه في غزو فينيقيا ونجح في ذلك بسبب انشغال نبوخذ نصر في حروبه مع ميدياوانسلاخ بعض المدن السورية والفلسطينية عن حكمه وثورة بعض المدن الأخرى عليه وفي أثناء ذلك هاجر كثير من اليهود إلى مصر وكونوا بها جاليات كبيرة ، وهكذا نجد أن القلاقل عادت من جديد إلى شرق البحر المتوسط ووجد أبريس الفرصة فتقدم بجيشه شمالاً واستولى على صيدا ، ولكن هذة قاومت طويلاً ولم ينجح أبريس في الاستيلاء على جنوب فلسطين وأقبلت الجيوش الآسيوية لطرده فاتجه بأسطوله نحو قبرص واستولى عليها، ومع أن بعض قوى غربي آسيا تحالفت مع مصر ضد نبوخذنصر إلا أن هذا الأخير هزم هذا التحالف الذي تكون ضده في ربلة وحاصر أورشليم وبعد عام أسر ملكها صدقيا وقتل أولاده ونهب المعبد وحرق المدينة - ومع ذلك لم تدم مملكة بابل فقد تمزقت بعد موت نبوخذ نصر .

ولم تكن الحالة سيئة في منطقة غرب آسيا وحدها وإنما ساءت الحالة كذلك في مصر حيث حدثت ثورة في صفوف الجيش في عهد أبريس فرت بعض الوحدات على إثرها إلى النوبة ولكن حاكم الشلال استطاع أن يعيد بعض أفرادها ، كما حدث عصيان آخر في صفوف الجيش أيضاً لأن أبريس أرسل قوة معظم أفرادها من المصريين إلى قرطاجة وقد منيت هذه القوة بالهزيمة وبخسائر فادحة فاعتقد هؤلاء أن الملك أرسلهم إلى هناك للتخلص منهم محاباة منه اليونانيين الذين لم يشركهم في هذه الحرب ، وحينما ثاروا ضده أرسل أحد أقربائه ويدعى « أمازيس » لتهدئتهم ولكن هذا الأخير استمال إليه الجنود العاصين فنصبوه ملكاً عليهم مما أحنق أبريس عليه ودارت الحرب بينهما ولكن النصر كان حليف أمازيس ، ورغم ذلك أشركه في الحكم إلا أن أبريس ما لبث أن ثار فقتله أمازيس وانفرد بالحكم .

وظل أمازيس على تشجيع اليونانيين بينما تظاهر بإيقاظ الشعور الوطني ، وقد تغالي في تشجيع اليونانيين ومنحهم كثيراً من الامتيازات بل وتبرع للمعابد في اليونان نفسها وأهدى لبعض حكامها الهدايا ، ومع أن مظاهر النهضة كانت واضحة في عهده إلا أن زيادة عدد الجيش وقوة الأسطول تطلبت كثيراً من النفقات التي اضطرته إلى الإستيلاء على بعض دخل المعابد فأفادت من ذلك السلطة المركزية بطريق غير مباشر لأنه أضعف نفوذ الكهنة — ومع أنه تمكن من بسط نفوذه على بعض سواحل البحر المتوسط فإنه لم يكن أكبر قوة في الشرق واستمر خطر بابل يتهدده ، كما ظهرت قوة جديدة هي مملكة فارس التي تحركت جيوشها وعبرت الفرات لتهاجم ليديا في غربي آسيا الصغرى وكانت مصر وبابل واسبرطة قد وعدت بمساعدة هذه المملكة ولكن مصر كانت هي الوحيدة التي احترمت كلمتها — وبعد أن هزم الفرس مملكة ليديا أخضعوا كلا من سوريا وفينيقيا أيضاً ولم يبق أمامهم سوى بابل ومصر ، وما لبثت بابل أن هزمت وسقطت عاصمتها نينوى على يد كورش ملك الفرس وبذلك ازداد الخطر على مصر حيث أصبحت وحدها أمام قوة الفرس الهائلة .

٨ — عهد الفوضى الأخير
(سيادة الفرس وحكمهم في مصر)

الأسرات السابعة والعشرون إلى الحادية والثلاثون

توفي أمازيس فتبعه « بسماتيك الثالث » على عرش مصر كما توفي « كورش » وتبعه « قمبيز » على عرش فارس ، ولما أراد هذا الأخير الإستيلاء على مصر خان أحد القواد اليونانيين بسماتيك الثالث وأرشد الفرس بنفسه إلى الطريق المؤدية اليها وبذلك تمكنوا من الإستيلاء على الفرما ووصلوا إلى منف —

وفي تلك الأثناء أقبل رسل عن الإغريق الذين يعيشون في ليبيا وأحضروا معهم الهدايا إلى قمبيز ، ولما تم لهذا الأخير الإستيلاء على مصر عامل بسماتيك معاملة حسنة في أول الأمر ولكن هذا الأخير حاول إثارة المصريين ضد قمبيز فاشتط هذا في معاملته حتى أدى به إلى الإنتحار ، وقد غزا قمبيز مصر العليا وأرسل حملة إلى النوبة ويقال أنه جن في آخر أيامه بسبب فشل حملته على النوبة .

ويعد قمبيز مؤسس الأسرة السابعة والعشرين في مصر – ومع أنـــه تمكن من إقامة امبراطورية واسعة إلا أن الأحوال ساءت في فارس نفسها بعد وفاته ، إذ حدثت ثورة في سوريا وكاد خليفته « دارا » – الذي تولى العرش في فارس من بعده أن يفقد ملكه ولكنه استطاع أن يثبته بعد أن خاض تسعة عشر معركة وأسر تسعة من الأمراء ووصل إلى مصر حوالي سنة ٥١٧ ق.م ، وحينما قامت ثورة ليبية ولم ينجح الوالي الفارسي في إخمادها قتله دارا – ومع ظـاهر هذه القسوة إلا أنه كان معروفاً بالعدل وقد احترم ديانة المصريين وشجع التجارة إذ المعروف أنه كان يهودي عصره ،تاجر في كل شيء ومع كل الأقطار ،وقد نجح في حفر قناة وادي الطميلات التي تربط بين النيـــل والبحر الأحمر [١] ولكن سلطانه أخذ يضعف في فارس فانصرف عن شؤون مصر وخاصة بعد أن هزمه اليونانيون في معركة ماراثون حيث ركز كل اهتمامه في الانتقام من الأثينيين حتى أنه كلف شخصاً ليذكره بذلك كل صباح بقوله «مولاي لاتنسى الإثينيين» وبعد تلك المعركة بأربعة سنوات حدثت ثورة في مصر بقيادة « خبـاش » [٢] الذي احتل منف وسايس فبدأ دارا يعد العدة للانتقـــاء من مصر واليونان

---

(١) G. Posener, « La Premiére domination Perse en Egypte », (Bibl. de Etudes XI), pp. 48 - 879 180 - 189

(٢) Herodotus VII I

على السواء ولكنه مات وتبعه « اكزركسيس » الذي استطاع القضاء على ثورة خباش وعين أخاه والياً على مصر ، وقد تغالى هذا الوالي في قسوته وشدته حتى أذل المصريين .

ولم يحكم اكزركسيس طويلاً حيث اغتيل بعد فترة وجيزة وتولى بعده « ارتكزركسيس » الذي وجد امبراطورية واسعة أرهقتها كثرة الحروب والثورات في مختلف الميادين ومن بينها ثورةقامت في مصر بقيادة«إنارُوس» الليبي الذي كان في مريوط « وأميرتايوس » الذي كان مركزه سايس فلما التقى إناروس بالوالي الفارسي كانت الحرب سجالاً بينهما وتراجع الوالي إلى برقة ، وطلب كل من الفريقين المدد واتجه إناروس في ذلك إلى أثينا ولكن النجدة التي أرسلها أرتكزركسيس إلى واليه وصلت قبل النجدة التي طلبها إناروس مما كان له أثره في انتصار الفرس وأسر إناروس وأرسل إلى سوسه حيث قتل هناك ، وبذلك ظل أميرتايوس الزعيم الوطني الوحيد فعاود العصيان محاولاً الاستنجاد بالأثينيين ولكن النجدة لم تصل اليه ، وفي نفس الوقت تهادن الفرس واليونان فلم تجد الثورات المصرية تأييداً من اليونانيين بل اكتفى هؤلاء بإقناع الفرس بتعيين ولدي إناروس وأميرتايوس ولاة على مصر [1] ، وفي هذه الأثناء زار مصر كثير من أعلام اليونان ومن بينهم هيرودوت .

ولما توفي ارتكزركسيس تبعه « دارا الثاني » الذي استبد هو وولاته في حكم البلاد وحاولوا فرض عقائد الفرس على المصريين فثار هؤلاء ضدهم كما ثاروا على اليهود في اليفانتين [2] لأنهم كانوا يعاونون الفرس .

---

(١) Kienitz, op - cit., pp. 69 - 73

(٢) Kienity, op - cit., p. 39 n, 2

ونجحت الثورة مؤقتاً لأن دارا الثاني توفي وخلفه ارتكزركيس الثاني ولم يكن حكم هذا الأخير مقبولا تماماً في أنحاء الامبراطورية ولذا هزمت فارس في ميادين مختلفة ونجحت حركة التحرير التي قادها « إمرتي »حفيد«أميرتايوس» السابق [١] ، الذي يعتبر مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين والملك الوحيد فيها .

وبعد أن حكم هذا الأخير نحو ستة أعوام قتل على إثر ثورة قام بها«نفريتس» أمير منديس مكوناً أسرة جديدة هي الأسرة التاسعة والعشرين التي لم تستمر طويلا هي الأخرى لأن الفرس بدأوا يهتمون بمصر من جديد ، وقد حاول نفريتس جهده أن يتلافى خطرهم فتودد إلى الإغريق للاستعانة بهم عند الحاجة وتحالف مع الاسبرطيين حيث أرسل اليهم مدداً في حربهم ضد الفرس ، وفي نفس الوقت تقدمت القوات المصرية إلى الحدود السورية واحتلت بها بعض المواقع ولكن نظراً لهزيمة أسطول اسبرطة في حربها ضد أثينا انسحبت قوات اسبرطة من الأقاليم الآسيوية — كذلك اضطرت القوات المصرية إلى التراجع نظراً لحلول الشتاء .

ويمكن أن يقال أن الأسرة التاسعة والعشرين بدأت بداية طيبة ولكن سوء الحالة الداخليه ظل على ما هو عليه ولم يقدر لانتفاضة مصر في عهدها طول البقاء ، فحينما توفي نفريتس وتبعه « أخورس » على العرش تحالف هذا الأخير مع أمراء ليبيا واليونان وقبرص ضد فارس ومع أن مصر لم تكن لديها فرصة لتدعيم قواها فإن أخورس أرسل إلى ملك قبرص الذي كان يحارب الفرس مدداً من السفن الحربية والمؤن والمال — واستمر هذا الصراع ثلاثة أعوام ولكنه لم يؤد إلى نتيجة وبعدئذ رأى قائد الأسطول الفارسي أن يتحالف مع أخورس فاستطاع هذا الأخير أن يتفرغ للإصلاحات الداخلية ولم تلبث الحال أن تبدلت

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٣٢

في نهاية عهده حيث حدثت ثورة في سمنود بزعامة أميرها «نختنبو» الذي استطاع أن يؤسس الأسرة الثلاثين بعد أن توفي أخورس وخليفتيه « بساموتس » و « نفريتس الثاني »[1] .

ولا تذكر النصوص المصرية الكثير عن حكم « نختنبو الأول » ولكن بعض مؤرخي اليونان وخاصة ديودور يشيرون إلى أن نختنبو الأول حارب الفرس وهزمهم ، ولكن حروبه هذه لم تكن خارج مصر بل داخل الحدود المصرية رغم أن نختنبو ذكر في نقوشه التذكارية قائمة ببلدان أجنبية أخضعها غير أن هذه النقوش لا يمكن الأخذ بها وخاصة لأننا نعلم أن الفرس بعد أن هزموا ملك قبرص وجدوا الفرصة سانحة للانتقام من مصر فتقدموا اليها - وعمد نختنبو إلى إقفال مصبات النيل السبعة وحصن كلا منها كما حصن بلوزيوم إلى أقصى حد ، ومع ذلك تمكن الفرس من الانتصار على المصريين في الفرع المنديسي ولكنهم أرجأوا الهجوم على منف ، وفي هذا الوقت حل الفيضان فساعد المصريين على المقاومة وانتصروا على الفرس الذين تراجعوا إلى بلادهم - وقد أوجد هذا الانتصار حالة من الاستقرار مكنت نختنبو من القيام ببعض الإصلاحات وأشرك ولده « تيوس » في الحكم .

وحينما اعتلى هذا الأخير على العرش حاول تجديد التحالف مع اليونان فأرسل نقوداً إلى ملك اسبرطة و إلى ملك أثينا ليرسلا له جنوداً مرتزقة وتمكن بذلك من تجهيز جيش ضخم يعد أعظم ما عرفته مصر منذ أيام الدولة الحديثة ، وسار على رأس جيشه إلى آسيا محرزاً انتصارات ساحقة في سوريا حتى ظن أنه سيعيد الإمبراطورية إلى ما كانت عليه في عهد « نكاو » ولكن أخاه الذي تركه في مصر خانه وألب عليه المصريين وخاصة الكهنة الذين أحنقهم

---

(١) Herodolus 111, 15

استيلاء تيوس على أموالهم باستمرار لكي يدفع نفقـــات جيشه – ثم تمكن هذا الأخ من اغتصاب العرش ، ولم يكتف بهذا بل استدعى ولده الذي كان يحارب مع عمه فعاد إلى مصر بمعظم الجيش كما استدعت اثينا قائدها اليوناني « كابريوس » (الذي كان معه) فوجد تيوس نفسه وحيداً واضطر إلى الفرار إلى صيدا حيث احتمى بملك الفرس .

ولما اعتلى العرش في مصر « نختنبو الثاني » الذي كان يحارب مع عمه تيوس في سوريا لم يلبث طويلاً في الحكم حتى حدثت ثورة في منديس (التي كانت مقراً للأسرة التاسعة والعشرين) ولولا مقدرة المرتزقة اليونانيين لضاعت الفرصة من نختنبو الثاني ، ومع هذا لم يكد يبدأ تنظيم مملكته حتى تولى عرش فارس (أرتكزركيس الثالث) الذي أراد الاستيلاء على مصر ولكنه فشل في محاولاته الأولى لأن نختنبو الثاني استعان بمرتزقة من الأثينيين والاسبرطيين – وقد أثر هذا النصر على سلطان ارتكزركسيس وحدثت سلسلة من الثورات في فينيقيا ربما كان يشجعها « نختنبو الثاني » مما أثار ارتكزركسيس وجعله – بعـــد أن يقضي على الثورات – ينظم هجوماً مخيفاً على مصر من البر والبحر ، وتقدم في الدلتا سريعاً ووصل أسطوله عبر مصب النيل إلى منف ففر نختنبو إلى مصر العليا حيث احتفظ بملكه هناك عامين .

ولاندري كيف انتهى عهده ولا كيف بسط الفرس سلطانهم على مصر كلها ، وإن كان من المرجح أن إتمام فتح مصر كان عن طريق حملة ثانوية متممة للحملة السابقة – وعلى أي حال يعد أرتكزركسيس الثـــالث أول ملوك الأسرة الحادية والثلاثين .

وحينما توفي هذا الأخير تبعه في الملك « أرسيس » الذي استطـــاع أن يحكم

مصر بأكملها ولكنه لم يستمر سوى ثلاثة أعوام ثم تبعه « دارا الثالث » الذي كان تاريخه غامضاً لا يعلم عن تاريخ مصر في عهده شيئاً يستحق الذكر، ولكن من المؤكد أن المصريين كانوا في أشد الاستياء من حكم الفرس كما نتبين ذلك من بردية كتبت في عهد البطالمة تعرف باسم أخبار الإيام الديمقوطيقية [١] .

وقد حدثت ثورة في الدلتا بقيادة أحد أمرائها ويدعى « خبـاش » أو « خباباش » اعترف به كهنة منف ملكاً ، وقد وجد في السرابيوم لوحة مؤرخة بالسنة الثانية من حكمه كما وجدت باسمه بعض الآثار الأخرى من بينها تمثال يعرف باسم تمثال الوالي [٢] وكلها تشير إلى جهوده في سبيل تحرير البلاد ، ومع هذا يمكننا القول أن تلك الجهود ذهبت عبثاً لأن مصر – بالرغم من أن الامبراطورية الفارسية كانت في طريقها إلى الزوال – لم تستقل طويلا ، فبعد أن هزم (دارا الثالث) في إسوس على يد الاسكندر الأكبر فقدت فارس معظم قوتها ولم تحاول الدفاع عن مصر حينما جاء إليها هذا الأخير غازياً .

وكان الاسكندر الأكبر لبقاً إذ تظاهر بمظهر المخلص لمصر من نير الفرس لأن المصريين أنفسهم كانوا يتطلعون إلى ذلك حيث أننا نعلم أن مصرياً يدعى « تفنخت » من مدينة أهناسيا ذهب إلى ملك مقدونيا واستنجد

---

(١) هذه البردية محفوظة بالمكتبة الأهلية في باريس برقم ٢١٥ وقد نشرت هي وترجمتها في مراجع مختلفة ـ عن هذه المراجع أنظر

Drioton & Vandier. L'Egyqte (40.ed.), p. 616

(٢) Sethe, UrK II, pp. 11 - 22

بالاسكندر بعد أن شاهد معركة إسوس ليخلص بــلاده من الفرس – وقد أحسن هذا معاملة المصريين وأكرم آلهتهم وزار المعابد المختلفــة واعترف به الكهنة ملكاً بمعبد آمون بسيوة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر جزءاً من العالم الشرقي الذي تأثر بالنفوذ الأغريقي وإن ظلت تحتفظ ببعض مظاهر حضارتها القديمة التي استهوت في بعض نواحيهـا كل من وفد اليها من كتاب اليونان فكتبوا عنها الكثير وإن كانوا قد شوهوا بعض الحقائق عنها لعجزهم عن إدراك بعض مظاهرها وفهمها فهماً تاماً .

الفصل الرابع

بلاد العرب

تقع بلاد العرب فيما بين خطي عرض ٣٠°، ٤٠° شمـــالاً وخطي الطول ٦٠°،٣٥° شرقاً، وهي أشبه ما تكون بشبه جزيرة تنتهي اليها آسيا في طرفها الغربي – وتبلغ مساحتها نحو ربع مساحة أوروبا أو ثلث مساحة أميركا الشمالية تقريباً، وهي أبعد ما تكون عن وحدة التضاريس إذ تشمل وحدات إقليميـة تفصلها حدود طبيعية مما جعلها تنقسم في العصور القديمة إلى وحدات سيـاسية كان لكل منها كيان مستقل في أغلب الأحوال ولم تنشأ بها وحدة سياسية شاملة ذات تاريخ مشترك إلا بعد انتشار الإسلام.

وعلى هذا يمكن القول – قياساً على أن الدولة لا تدخل في عصرها التاريخي إلا بمعرفة الكتابة وتكوين وحدة سياسية شاملة – بأن بلاد العرب– ككل – لم تدخل عصرها التاريخي إلا بعد انتشار الإسلام ومن جهة أخرى يمكن القول بأن أجزاء منها دخلت في عصرها التاريخي بينما ظلت جهـــات أخرى منها في عصورها قبل التاريخية.

وربما كان ذلك من الأسباب التي دعت جمهرة الباحثين إلى تقسيم تاريخ بلاد العرب

إلى قسمين شاملين : ما قبل الإسلام (أو العصر الجاهلي) والتاريخ الإسلامي ، وبما أن عصر ما قبل الإسلام يمتد إلى العصور الوسطى فإن تاريخ بـلاد العرب القديم سواء كان في العصور قبل التاريخية أو في العصور التأريخيـــة لبعض أجزائها يدخل ضمناً في عصر ما قبل الإسلام حتى يصعب على البعض التفرقـة بينهما غير أنني أفضل عدم تجاوز نهاية الفترة التي حددتها مجالاً للدراسة في هـذا الكتاب ، أي أننا سنكتفي بالتوقف عند التاريخ الذي يعادل ظهور الإسكندر بقدر الامكان .

ولا شك في أن قسوة الظروف الطبيعية في شبه الجزيرة قد جعلت منها بيئة غير مرغوب فيها لا يعرف العالم المتحضر من تاريخها إلا القليل إذ أن هذه الظروف كانت سبباً في عدم نشاط الارتحال اليها وجعلت القيام ببحوث علميـــة وأثرية فيها أمراً يكاد يكون مستحيلا إلا في بعض مناطق محدودة للغاية ، وقـد يجيء الوقت الذي يمكن للانسان فيه أن يستعين بوسائل المدنية الحديثة على البقـاء في أقسى جهاتها ظروفاً وأن يقوم بما يريد من أبحاث تزيد معلوماتنا عنها .

رغم قلة ما توصلنا اليه من معلومات عنها تدل شواهد الأحوال على أن شبه الجزيرة كان ينعم بظروف مناخية ملائمة لسكنى الإنسان ، فهي في هذا تمـاثل نظيراتها في العالم القديم – أي الصحراء الليبية وصحراء مصر الشرقيـــة – ولذا يرجح أنها ظلت كذلك إلى نهاية العصور الحجرية على الأقل ، فقـد وجد أحد الأمريكيين في الربع الخالي بقايا نهر واسع هو السهـــل المنخفض المسمى « أبو بحر » كما وجدت آثار أنهار في جنوبي شبه الجزيرة يستدل عليها من ودیانها الجافة الآن ، وفي هذه الأماكن وبالقرب منها بقايا حيوانات من تلك التي تعيش في مناخ شبيه بما كان سائداً في شمال أفريقيا في تلك العصور – كذلك عـــثر على آثار تدل على أن بعض المدن كانت توجد في مناطق مختلفـــة من جنوب شبه الجزيرة على الأقل .

لم يتمكن البحاثة مع الأسف من الوصول إلى المناطق شديدة الجدب والقيام فيها بأبحاث تنير لنا السبيل عن عصورها القديمة ولكن بعثات قليلة قامت ببعض الأبحاث في جنوب شبه الجزيرة كشفت عن وجود آلات من الصوان في حضرموت تشبه كثيراً آلات العصر الحجري القديم في شرق أفريقيا - ومع هذا فإن الإختلافات القليلة التي تبدو في آلات كل من المنطقتين قد أدت إلى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين فمنهم من يرى أن التقدم الذي طرأ على الآلات الحجرية في أفريقيا يوحي بأن الحضارة التي أنتجت هذه الآلات نشأت في شبه الجزيرة ثم انتقلت منها إلى أفريقيا ، بينا يرى البعض الآخر أن آلات شبه الجزيرة لا تكاد تختلف عن آلات شرق أفريقيا في أقدم صورها ولذا فإنهم يذهبون إلى أن شرق أفريقيا كان مهداً لثقافة مركزية تفرعت منها ثقافات متعددة إلى جهات مختلفة من أفريقيا وآسيا وأن من المحتمل أن الحضارات الآسيوية بصفة خاصة (ومن بينها حضارات شبه الجزيرة) قد انفصلت عن حضارات شرق أفريقيا بعد فترة - وهؤلاء الباحثون جميعاً يستدلون على نشأة هذه الحضارات في مكان ما (من تلك التي أشرنا اليها) ثم انتقالها إلى الأماكن الأخرى بما لاحظوه من عدم استقرار تشابه آلاتها بعد تطورها .

ولا يمكن أن نحدد الزمن الذي استمر فيه استعمال آلات العصر الحجري القديم في شقه الجزيرة بل ولم يعثر حتى الآن على آثار من العصر الحجري الحديث فيها - كذلك لا يمكن في حالة معلوماتنا الراهنة أن نحدد الزمن الذي بدأ فيه العصر التاريخي في شبه الجزيرة ، وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن أجزاءها المختلفة لم تبدأ عصرها التاريخي في وقت واحد وأن من المرجح أن الركن الجنوبي الغربي منها (اليمن) وإقليم عمان ومنطقة حضرموت كانت أسبق هذه الأجزاء في الوصول إلى عصورها التاريخية .

ومن المسلم به أن شبه الجزيرة تعد بيئة طرد لا يرغب الإنسان في البقاء بها إذا ما ساءت الظروف – وكثيراً ما كان يحدث ذلك – فهناك من الأدلة مايشير إلى خروج عدة هجرات منها إلى المناطق المجاورة في العراق وسوريا وغيرها ، وهي المسؤولة عن تحركات العناصر السامية التي كان لها أكبر الأثر في تاريخ إقليم الشرق الأدنى من أقدم العصور ، فمن المرجح أن هجرة سامية خرجت منها في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد إلى الشمال الشرقي واختلطت بالسومريين ونشأت عن ذلك الدولة الأكدية التي أسسها سرجون الأكدي في بلاد النهرين (حوالي سنة ٢٣٧١ ق م) ، بعد زوال سلالة أور الثالثة التي كانت آخر دولة للسومريين في العراق حيث انفرد الساميون بالزعامة السياسية فيه – وفي منتصف الألف الثالث ق.م خرجت منها هجرة أخرى جاءت بالأموريين إلى سهول سورية الشمالية وبالكنعانيين إلى السهل الساحلي فيها ، وقد أطلق اليونان على هؤلاء اسم الفينيقيين – وفيما بين عامي ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق.م خرجت منها جماعات الآراميين الذين انتشروا في الجزء الشمالي من سوريا والعبرانيين الذين استقروا في جنوبها – وفي حوالي سنة ٥٠٠ ق.م خرج منها الأنباط إلى شمال شرقي شبه جزيرة سينا وأسسوا دولة كانت تدمر عاصمتها في أيام الرومان .

ورغم صعوبة التعرف على تاريخ شبه الجزيرة قبل الكتابة فإن وجود بعض مصنوعات في العراق وبعض الجهات الأخرى من المواد التي جلبت من شبه الجزيرة يدل على وجود صلات بينها وبين تلك الجهات من أقدم العصور – ومن أمثلة ذلك أن سكان بلاد النهرين جلبوا من بعض أجزاء الجزيرة أحجاراً ومعادن منذ عصور ما قبل التاريخ ، فقد جلبوا النحاس الخام من عمان وحجر الابسديان من شرق شبه الجزيرة – ومن المحتمل كذلك أن المصريين في عصورهم

التاريخية قد اتصلوا بجنوب شبه الجزيرة وجلبوا منها العطور[1] .

مصادر تاريخ بلاد العرب

اعتمد المؤرخون فيما توصلوا إليه من تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام بصفة عامة على المصادر الآتية :

١ ـ القرآن الكريم فمع أنه نُزّل للعظة والعبرة إلا أنه أشار إلى حياة العرب قبل الاسلام وذكر بعض الشعوب العربية القديمة وما تعرضت لها من أحداث مثل عاد وثمود وأصحاب الفيل (الغزو الحبشي) وأصحاب الأخدود (أهل نجران الذين أبادهم ذو نواس الحميري) ، وسيل العرم (سد مأرب) وغير ذلك ولكنه لم يلتزم في سردها نفس الترتيب دائماً بل ذكرها حسب المناسبات التي يوردها بقصد العظة والعبرة .

٢ ـ الحديث الشريف وهو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية فقد تعرض لذكر بعض ما كان قائماً قبل الإسلام من نظم دينية وفكرية وسياسية واجتماعية .

٣ ـ كتب المفسرين : تناول المفسرون ما ورد في القرآن من أخبار مختصرة أو تشبيهات واستعارات أغلق فهمها بالشرح والإيضاح وكان النبي عليه الصلاة والسلام أول من قام بذلك وتبعه الصحابة ثم التابعون وتابعو التابعين ومن أشهرهم الطبري والرازي وابن كثير والبيضاوي وغيرهم .

٤ ـ كتب السير والمغازي : التي تعرضت لأخبار الجاهلية قبيل الإسلام

---

(١) يشك بعض الباحثين في أن هذه المنطقة هي التي عرفها المصريون باسم بلاد بونت وإن كنا لا نميل إلى هذا الرأي .

أو المتصلة بحياة الرسول ومن أهم كتابها : عبد الملك بن هشام وعروة بن الزبير وأبان بن عثمان بن عفان وشرحبيل بن سعد وغيرهم .

٥ - كتب أخبار الجاهلية التي كتبها المسلمون بعد انتشار الإسلام وهذه لم يبدأ الإهتمام بتدوينها إلا في العصر الأموي وكان أهم ما يعني به كتابها رواية أنساب القبائل العربية والرجوع بأصولها إلى عدنان وقحطان واسماعيل وأبناء نوح والخروج من ذلك إلى تقسيم العرب إلى طبقات - وقد تأثر وافي ذلك بما جاء في التوراة وما ورد في الأساطير والقصص الشعبية الحافلة بالخرافات وخاصة عن أزمان الجاهلية التي تسبق الإسلام بزمن بعيد ومن أهم الكتاب في هذا المضمار عبيد بن شريه الجرهمي اليمني ووهب بن منبه وهشام بن محمد السائب الكلبي وولده أبو المنذر والهمداني المعروف بابن الحائك وغيرهم .

٦ - الشعر الجاهلي : وهو من المصادر الهامة لما تضمنه من إشارات عن أحوال العرب في الجاهلية وتقاليدهم وعاداتهم وأنسابهم وحروبهم ومن أشهر شعرائهم امرؤ القيس وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم والنابغة الذبياني وعنترة بن شداد وغيرهم .

٧ - الأمثال العربية ومن أهمها كتاب مجمع الأمثال للميداني .

د - المصادر غير العربية

١ - التوراة: وهي أقدم المصادر وبها إشارات متعددة عن العرب قصد منها تفسير الصلات بين العبرانيين والعرب .

٢ - التلمود : المكمل للتوراة وشارح أسفارها ويشير إلى العرب في مواضع مختلفة .

٣ - ما كتبه العبريون ومن أهم كتابهم يوسيفوس فلافيوس (٣٧- ١٠٠م)

وقد ألف كتاباً في تاريخ حروب اليهود فيما بين استيلاء انطيوخس ابيفانوس على القدس سنة ١٧٠ق م واستيلاء الامبراطور تيتوس سنة ٧٠م عليها وهو يتضمن أنباء هامة عن العرب وخاصة عن الأنباط .

٤ – ما كتبه اليونان والرومان والسريان : كتب هؤلاء بعض المعلومات التاريخية والجغرافية الهامة عن بلاد العرب وإن كانت لا تخلو من أخطاء أحياناً نظراً لأنهم اعتمدوا على ما زودهم به المحاربون اليونان والرومان والرحالة والتجار من أخبار ومن أقدم الكتاب اليونان أخيلس أو ايسكيلوس (٥٢٥ – ٥٤٦ ق.م) وهيردوت (٤٨٠ – ٤٢٥ ق.م) وتيوفراست (٣٧١ – ٢٨٧ ق.م) وإيراتوستينس (٢٧٦ – ١٩٤ ق.م) وديودور الصقلي (توفي ٤٠ ق.م) وسترابو (توفي ٧٩ ق.م). وأحد الكتاب المجهولين الذي كتب عن رحلة (الطواف في بحر اريتريا) ويعرف باسم « صاحب الطواف » ويرجح أنه (توفي ٨٠ ق.م) ويوزبيوس (٢٦٥ – ٣٤٠ م) واثناسيوس (توفي ٢٧٣ م) وزينوفون (توفي ٣٥٦ م) وبروكوبيوس (توفي ٥٦٥ م) وغيرهم .

جـ – أهم الجهود الأثرية :

أولا – في جنوب بلاد العرب : بدأ الاهتمام بها منذ أوأسط القرن الثامن عشر ويرجع سبب ذلك إلى أن الأوربيين في أسفارهم إلى الهند سمعوا ما يتناقله أهل شواطىء اليمن–وحضرموت عن آثار الابنية المدفونة في رمال تلك البقاع وما عليها من كتابات عجز العرب واليهود عن قراءتها فخطر لعالم الماني أسمه « مخايلس » أن يبحث في تلك الآثار وقراءتها واقترح على فريدريك الخامس

ملك الدانمرك تشكيل لجنة تذهب لارتياد تلك البقاع فأجــابه لطلبه وأمر بتشكيــل لجنــة من خمسة أعضاء [1] من بينهم « كارستن نيبور » وجــمل تحقيق بعض مــا ورد في التوراة عن جغرافيــة وعادات وحاصلات الشرق ولكن أعضاء الرحــلة ماتوا جميعاً فيما عـدا نيبور الذي أصدر كتابا بعد عودته لم يأت بنتائج هامة ، ومع كل فإن هذه الرحلة كانت تمهيدا لرحــلات أوربية أخرى كما أن الكتاب - الذي صدر عنها يعد أول كتاب علمي عن اليمن حوى نقوشا مكتوبة بخط المسند وخرائط لأمــاكن يمنية كانت مجهولة للأوربيين من قبل .

وفي سنة ١٨١٠ تمكن العالم الألماني « سيتزن » من الاهتداء إلى نقوش في ظفار - (جنوبي صنعاء) كان نيبور قد أشار إليها في كتابه ، كما استطاع أن ينسخ بعض النقوش التي أرسلها إلى اوربا ثم أختفى داخل اليمن في ظروف غامضة واختلفت الآراء حول مصيره . وفي سنة ١٨٣٦ تمكن جروتفند الألماني من نشر خمسة نقوش سبئية عثر عليها في صنعاء كما تمكن الضابط الانجليزي ولستد ١٨٣٨ من اكتشاف حصن الغراب ونسخ نقشا على جدرانه يرجع تاريخه إلى ٥٢٥ م ثم قام برحلة في غرب وادي ميفعة حيث عثر على آثار حصن كان في منطقة خصبة تعرف حاليا باسم نقب الهجر .

ويعتبر عام ١٨٤٣ من الاعوام التي شهدت نشاطا ملحوظا في ارتياد اليمن حيث ارتاد الرحــالة الالماني أدولف فون فريده صحراء الأحقاف شمــال حضرموت واكتشف آثار سور قــديم في وادي أوبنه بسهل ميفعة الشرقي نقش عليه بكتابة حضرمية - وفي نفس العام قام الصيدلي الفرنسي توماس أرنو

---

(١) تألفت هــذه البعثة سنة ١٧٦١ من بيتر فورسكال طبيب سويدي متخصص نبات ، كريستيان شارلز كرامر جراح وعالم حيوان ، فردريك كريستيان فون هافن عــالم لغات ومستشرق ، وليم نورتفيد فنان ، كارستن نيبور مهندس وعالم رياضيات .

برحلة إلى اليمن أدت إلى اكتشاف سد مأرب وآثار أخرى من عصر سبأ منها معبد المقه « إله القمر » الذي أطلق عليه العرب اسم محرم بلقيس وتمكن في عودته أن ينسخ عـــددا من النقوش السبئية في صنعاء ومأرب وصرواح بلغ عددها ٥٦ نقشا قام بترجمتها قنصل فرنسا في جـــدة وكان مهتما بدراسة اللهجات العربية الجنوبية .

وفي سنة ١٨٧٠ أرسلت أكاديمية النقوش والفنون الجميلة في باريس بعثـــة إلى اليمن برئاسة المستشرق اليهودي جوزيف هاليفي الذي تمكن من اختراق الجوف اليمني والوصول إلى نجران وطاف حول مأرب وصرواح وعاد إلى فرنسا بعد أن جمع ٦٨٦ نقشا جديدا وهو أول من اكتشف آثارا معينية ومن أهمهـــا خرائب « قرناو » عاصمة الدولة المعينية .

وفي سنة ١٨٨٢ قام المستشرق النمسوي « لانجر » برحلة إلى اليمن وتنكر في زي الأعراب . . حيث اخترق بلاد حمير القديمة وعـــثر على نقش حميري هام بالقرب من ظفار كما نسخ عددا من النقوش في صنعاء وعدن ثم حـــاول التوغل إلى داخل البلاد ولكنه قتل .

وتبعه في الذهاب إلى اليمن المستشرق النمسوي ادوارد جلازر الذي قام بأربعة رحلات إليهـــا واستطاع أن يقنع المسئولين الاتراك في صنعاء بمساعدته وتذليل الصعاب له وكانت أولى رحلاته فيما بين عامي ١٨٨٢ وفيها درس الآثار السبئية بالمنطقة المحيطة بهمدان ، ورحلته الثانية كانت ١٨٨٥ وفيها زار ظفـار العاصمة القديمة للدولة الحميرية ونسخ عددا كبيرا من النقوش المعينية –أما رحلته الثالثة فكانت فيما بين عامي ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ وفيها درس آثار مـــأرب وتمكن من رسم تخطيطات لآثار القنوات والسدود ونسخ الكتابات المسجلة على السدود وتعتبر هذه الرحلة أهم رحلاته فقدقضى بعدهاأربعة سنوات في أوربا حيث عكف على دراسة النقوش التي عـثر عليها في مـأرب وهي أهم نقوش

عثر عليهـا كما رسم خرائط للبقاع التي زارها ووصف آثارهـا ، وحينما عاد إلى اليمن للمرة الرابعة ١٨٩٢ نسخ نقوشا بعضها قتبانية وبعضها الآخر سبئية من مناطق الجوف واستعان في ذلك ببعض الأعراب بأخذ طبعات لهذه النقوش على ورق من نوع معين كذلك حصل جلازر على بعض العملات العربية القديمة.

ومع أن الإمام يحيى أغلق اليمن في وجه الرواد والرحالة لشدة الصراع بينه وبين الانجليز بشأن عدن والمحميات إلا أنه كان حريصا على الكشف عن أثار بلاده حيث قام بالتنقيب في قرية حجة شمال صنعاء ورحب ببعثة أوربية كان على رأسها كارل راتجنز Rath jens ، وفون فيسمان ١٩٢٨ اللذان قاما برحلات إلى الحبشة وحضرموت واليمن في عامي ١٩٣١ ، ١٩٣٢ .

وفي سنة ١٩٣٦ قامت بعثة أثرية من جامعة القاهرة برئاسة الدكتور سليمان حزين إلى ناعط بالقرب من صنعاء ونسخ الدكتور خليل يحيى نامي أحد أعضاء البعثة بعض النقوش السبئية وفي أثناء ذلك كان الصحفي السوري نزيه مؤيد العظم يزور اليمن وأقام في صرواح ومأرب ونشر نتائج رحلته في كتاب « رحلة في بلاد العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء » وطبع في القاهرة ١٩٣٨ وفي سنة ١٩٣٧ قامت ثلاث رحالات أوربيات برحلة إلى حضرموت وكشفن عن معبد لإله القمر وعثرن على عدد من النقوش وقد نشرت كاتون تومسون ، نتائج هذه الرحلة في كتاب طبع في اكسفورد ١٩٤٢ وفي نفس الوقت قام بعض العلماء الأوربيين برحلات أخرى إلى اليمن أهمهم فيلبي الذي ارتاد عسير ونجران وشبوه وتريم على أن هذه الرحلات وجهت اهتماما خاصا إلى جغرافية حضرموت، وفي سنة ١٩٤٥ قام الاستاذ محمد توفيق برحلة إلى اليمن لدراسة هجرات الجراد وانتهز فرصة وجوده هنـاك فزار الجوف وتمكن من تصوير عـدد كبير من الآثار ونسخ كثيرا من النقوش ونشر جزءا من أبحـاثه ١٩٥١ كما نشر « نقوش خربة معين » سنة ١٩٥٢ - كذلك قام الدكتور خليل يحيى نامي بنشر نقوش خربة براقش على ضوء مجموعة الاستاذ محمد توفيق - وقام الأثري المرحوم

الدكتور أحمد فخرى بزيارة مناطق كثيرة لم يزرها رحالة آخر بعد جوزيف هاليفي ونشر تفصيلات رحلته في كتاب أصدره ١٩٥٢ وعدة مقالات وبحوث علمية .

وفي سنة ١٩٥٢ قامت بعثة أثرية أمريكية برئاسة « وندل فيلبس» بالتنقيب في تمنع عاصمة الدولة القتبانية كما نقبت في الساحة الأماميه لمحرم بلقيس وفي سد مأرب وكشفت عن الكثير من الآثار البرونزية والرخاميه وبعض النقوش السبئية ولكن توقفت أعمال هذه البعثة سريعا لخلاف نشب بينها وبين الحكومة اليمنية إلا أن النتائج التي أسفرت عنها تنقيباتها هامة للغاية .

ثانياً- في شمال بلاد العرب ووسطها: اهتم عدد كبير من العلماء والمستشرقين الأوربيون بآثار البتراء وجنوب سوريا وكان في طليعة الرواد الذين زاروها لودفيج بورخاردت السويسري الذي تنكر في زي عربي وأطلق على نفسه اسم ابراهيم بن عبدالله وبهذه الوسيلة تمكن من أداء فريضة الحج وزيارة مسجد الرسول كأحد الحجاج ووصف موسم الحج وصفا دقيقا ثم زار آثار الانباط في البتراء وسورية الجنوبية .

وفي سنة ١٨٤٥ زار المستشرق جورج والين بلاد نجد كما زار « سير ريتشارد بيرتون » بلاد الحجاز متنكرا باسم الحاج عبد الله في منتصف القرن ١٩.. وتوالت بعد ذلك رحلات العلماء أمثال جراهام ويلجراف ورنكير وغيرهم -ويرجع الفضل في الكشف عن النقوش العربية الشمالية إلى داوتي وهوبر واوتينج الذين ارتادوا المنطقة الشمالية الغربية والوسطى من بلاد العرب فيما بين عامي ١٨٧٦،١٨٨٤- ومن المستشرقين الذين وصلوا إلى أطلال مدينة الحجر (مدينة صالح) وتيماء والعلا جيوسن وسافنياك بينما اهتم آخرون أمثال برينوف ودوماسفسكي وموسل ودلمان بدراسة آثار الأنباط في بلاد العربية الصخرية وتدمر في بادية الشام - ومن أهم العلماء الذين قاموا برحلات في باديتي

الشام والعراق المستشرق الفرنسي رينيه دوسو والمستشرقين الالمانيين تيودور نلدكه الذي كتب عن تاريخ أمراء الغساسنة وروتشتاين الذي نشر بحثا عن تاريخ اللخميين في الحيرة .

وبالرغم من كل ما سبق من دراسات وبحوث فإن نتائجها أبعد من أن تعطى صورة تاريخية تامة شاملة لكل أجزاء شبه الجزيرة وهي أبعد ما تكون أيضا عن إعطاء سلسلة تاريخية لها متصلة الحلقات إذ توجد فجوات كثيرة لم يمكن معرفتها حتى الآن ، ولا بد مضاعفة الجهود الأثريه في شتى انحاء شبه الجزيرة حتى يمكن إكمال الصورة التاريخية لها ومع كل فإننا سنحاول فيما يلي دراسة تاريخ أجزاء شبه الجزيرة حسب أرجح الآراء .

العصر التاريخي

يكاد تاريخ بلاد العرب القديم المعروف قبل ظهور الاسكندر ينحصر في القسمين الجنوبي والشرقي ، أما شمال بلاد العرب فلا يعرف عنه شيء قبل اليونان باستثناء بعض إشارات طفيفة وردت في نصوص الأشوريين .

اولا : القسم الجنوبي

بلاد اليمن

من المرجح أن اسمها مشتق من كلمة « يمنات » الواردة في نصوص سبأية قديمة كاسم لهذه البلاد وربما يكنى بها عن اليمن والخير لأن بلاد اليمن قديما كانت وفيرة الخيرات حتى عرفت باسم اليمن الخضراء لكثرة ما بها من أشجار ونباتات ومما يؤيد ذلك أن اليونان قديما سموها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix على احتمال أنهم ترجموا كلمة «يمنت أو يمنات » بالبلادالسعيدة.

وقد عرفت اليمن قديما بتجارة العطور والبخور والمر والصمغ والكافور والورس (وهو نبات كان يستخدم في الصباغة) وكانت مصر تستهلك كميات كبيرة من اللبان اليمني والبخور في المعابد وفي تحنيط الموتى – ولم يكتف اليمنيون بالاتجار في حاصلات بلادهم بل عملوا كوسطاء للتجارة أيضا بين الهند والعراق والشام ومصر فكانت التوابل والسيوف الهندية والحرير الصيني والعاج والأبنوس والذهب من اثيوبيا تنقل بوساطة تجار اليمن إلى مصر والعراق .

وقد أشار كتاب اليونان والرومان إلى ثروات اليمن ومن امثلة هؤلاء هيرودوت وثيوفراست (تلميذ ارسطو) الذي وصف السبئيين بأنهم محاربين وزراع وتجار مهرة وديودور الصقلي واسترابو وبلينوس ... أما كتاب العرب الذين أشاروا إلى ثروة اليمن فمن أشهرهم الهمذاني والالوسي والمقدسي ونظرا لما حظيت به اليمن من الثروة فإنها كانت أكثر بلاد العرب تحضرا وكانت كثيرة الحصون والقصور التي كانت تعرف بالمحافد ومن أشهرها غمدان وناعط وصرواح وظفـــار وبراقش ومعين وعمران وغيرها . وينسب إلى هذه المحافد والقصور أصحاب فيقال ذو غمدان ، ذو صرواح وهكذا – وإذا تجمع عدد من المحافد والقصور في مقاطعة كبيرة سميت مخلافا ويتولي شئون المخلاف أمير يقال له قيل (والجمع أقيال) وقد بلغ عدد هذه المخاليف ٨٤ مخلافا كان من أهمها مخلاف صنعاء ومخلاف همدان ومخلاف خولان وغيرها ..

ولا شك في أن عصور ما قبل الكتابة أو العصور قبل التاريخية لا يعرف عنها إلا القليل وقد سبق أن اشرنا إليها (ص ٢٤٠) .

أما عن العصر التاريخي في بلاد اليمن فإن أهم أحداثه يمكن أن تنحصر في تاريخ الدول التي قامت بها وهذه الدول هي : الدولة المعينية والدولة السبئية والدولة الحميرية . وتاريخ هذه الأخيرة يخرج عن مجال العصر التاريخي

الذي يعالجه هذا الكتاب ، وهناك دولتان اخرتان لم يكن لهما إلا دور ضئيل في تاريخ العرب وهما دولتا قتبان ودولة حضر موت ..

أ - الدولة المعينية (١٣٠٠ -٦٥٠ ق.م)

تعد أقدم دولة معروفة في شبه الجزيرة العرب وهي أقـــدم دولة كذلك ظهرت في بلاد اليمن ومن الغريب أنها لم تذكر في المصادر العربية بل ذكرت بلدة معين وكانت تقرن غالبا ببلدة براقش حيث أشير إليهما كمحفدين من محافد أو قصور اليمن القديمة وموقعها في الجوف فيما بين نجران وحضرموت بينما أشارت المصادر اليونانية والرومانية إلى المعينيين وذكرت عاصمتهم (معن)باسم «قرناو» – ومن المحتمل أن الكتابة عرفت في معين قبل قيام دولتها ببضعة قرون وقد ظلت حضارة المعينيين غير معروفة إلى أن تمكن هـــاليفي من الكشف عن آثار عاصمتهم معين ونسخ كثيرا من نقوشهم ونشر نتائج كشفه سنة ١٨٧٤ ، وقد زاد عدد النقوش المعينية التي نسخت بفضل جهود جـــلازر وجوسن ومن دراسة هذه النقوش عرفنا الكثير عن هذه الدولة وملوكها وكان عـــدد هؤلاء ٢٦ ملكا موزعين على خمس أسرات وأن كان بعض الباحثين يرى أن هؤلاء الملوك ينتمون إلى ثلاث طبقات ، ولـــكن فيلبي يؤيد أنهم في خمس أسرات إلا أنه لم يذكر إلا ٢٢ أسما من أسماء هؤلاء الملوك – كذلك أمكن عن طريق هذه النقوش أن نتعرف على بعض الألقاب الملكية مثل لقب (يطوع) المخلص ، صدوق أي العادل وريام أي المضيء وكان الملوك يخاطبون بلقب (مزود) اي مقدس أو (كبر) أي العظيم أو الكبير – وقـــد ظهرت دولة المعينيين في المنطقة السهلة (أى الجوف) بين نجران وحضر موت حيث كان المعينون يشتغلون بالتجارة ويسيطرون على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ثم أزداد نفوذهم السياسي حتى بلغ شمال الحجاز فدخلت معان وديدان (العلا) في نطاق نفوذهم كما تشير إلى ذلك النصوص المعينية والكشوف الاثرية التي عـــثر عليها

في هاتين المنطقتين[1] ويبدو أنهم كانوا هم والسبئيون الذين ينتمون إلى نفس جنسهم يسيطرون خلال الالف الاول قبل الميلاد على الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب وامتد التنافس على السيادة فيما بينهم إلى الواحات التي كانت تمر بهـا طرق التجارة فكانت بكل من تلك الواحات جاليـة من ابناء العرب الجنوبيين يتولى أمرهم مقيم من بلادهم ويشرف على مـلوك ورؤساء الواحـة ويراقبهم حتى لا يضروا بمصالح سيده السبئي أو المعيني حسب تبعيته حيث كان الطريق التجاري العظيم الذي يوصل برا بين اليمن والشام ومصر يقع أحيانا تحت سيطرة المعينيين وأحيانا في أيدي السبئيين الذين عاصروهم في أواخر عهدهم، وفي كل واحة من الواحات التي يمر بها الطريق كان يقيم حكام من معين أو سبأ تؤيدهم حاميات عسكرية لحماية جالياتهم التجارية وفي بعض الأحيان كانت توجد جاليات تجارية أفريقية أيضا وأثناء توسع المعينيين في الواحات شمالا احتكوا بآشور وفينيقية ومصر وكان حكام أشور يتفاوضون مع الحـكام المعينيين في الواحات على أنهم الملوك المعينيين الجنوبيين لا على أنهم الممثلين لهم كما أن الوثائق السريانية والعـبرية تشير إلى بلاد هؤلاء الملوك الجنوبيين تقع جنوب شرقي البحر الميت ويدل ذلك من جهـة أخرى على أن المعينيين والادوميين (سكان سعير) خضعوا لسلطان ملوك بلاد العرب الجنوبيين .

وأدى اشتغالهم بالتجارة إلى معرفتهم تدوين الحسابات التجارية فاقتبسوا الأبجدية بالفنيقية واستخدموها في كتاباتهم وظل المعينيون يستخدمونهـا حتى بعد زوال مملكتهم حيث عثر على كتابات معينة في الجيزة بمصر وفي جزيرة ديلوس باليونان ترجع في تاريخها إلى القرن الثاني قبـل الميلاد كذلك عثر على كتابات لهم في أور والوركاء بالعراق .

---

(١) عبد العزيز سالم « تاريخ العرب قبل الاسلام » (اسكندرية سنة ١٩٧٣) ص ٣٨-٣٩

ومن المحتمل أن أول الملوك المعينيين كان « اليفع وقه »،وقد عثر على اسمه مكتوبا في النقوش المعينية في مدينة (نشان) وفي براقش (ايثيل) وقد خلفه في حكم اليمن ابنه « وقه ايل صدق » الذي ذكر اسمه مع اسم والده - كذلك ذكر مع « اليفع وقه » اسم ابن آخر له هو « أبو كرب يشع » ومن الملوك الذين وردت أسماؤهم في نقوش معينية الملك « اب يد ع يشع » الذي قام بعض اشراف قرناو (معين) بترميم خنادقها واصلاح أسوارها في عهده وتشير النقوش التي من عهده أيضا إلى حروب نشبت بين اليمن وبين إحدى الدويلات الشمالية كما تشير كذلك إلى حروب حدثت بين عدن وموصر في وسط مصر وقد اختلفت الاراء بشأنهما إنما يرجح أنهما كانا شعبين يعيشان بالقرب من سيناء .

ومن ملوك المعينيين أيضاً « وقة ايل روام » « ويشع ايل صدق » وقد بني هذا الأخير حصن «يشبوم» وقد أشارت بعض النقوش إلى أن الحالة السياسية أصبحت سيئة في عهدي « يشع ايل ريم » وابنه « تبع كرب » وهما من الملوك المتأخرين وربما أصبحت معين خاضعة لسبأ حيث أن هذه النقوش تشير إلى إعتراف معين بسلطان آلهة وملوك وشعب سبأ .

ويبدو أن انتقال السيادة إلى سبأ قد أخذ في الظهور حينما عجزت معين عن حماية قوافلها التجارية وضعف حكامها المقيمين في المراكز التجارية التي تمر بها طرق القوافل عن مجابهة قطاع الطرق والقبائل المعادية التي كانت تعترض طرق القوافل، وربما عمت الفوضى بعد ذلك حيث أننا نجد في النقوش المعينية ما يشير إلى وجود اثنان أو أكثر كل منهما يلقب بلقب ملك في وقت واحد وتعددت الضرائب فكان هناك ثلاثة أنواع منها على الأقل : نوع يجبي لخزانة الملك ونوع يجبي للمعابد ونوع ثالث يجبي للمشايخ والحكام المحليين ومن الجدير بالذكر أن ضرائب المعابد كانت نوعين أحدهما كان يدفع تقرباً للإلهة (اكرب) والثاني كان يفرض فرضا على الأشخاص ويقال له العشر - ومع أن معين كان يحكمها ملوك إلا أن كل مدينة كان لها مجلس يدير شئونها في السلم والحرب

ويعرف بإسم (مسود) .

ب – دولة قتبان : من القرن الحادي عشر ق .م – ٢٥ ق. م .

كان القتبائيون يقطنون في الطرف الجنوبى من بلاد اليمن إلي جنوب سبأ ويتاخمون حضر موت وكانت عاصمتهم تقع في وادي بيجان قرب باب المندب أي كحلان الحالية ولم تشر المصادر إلى أخبار ذات قيمة عن قتبان. وقد شهدت الدولة القتبانية نهاية الدولة المعينية وعاصرت دولة سبأ والدولة الحميرية وقد اندمجت فيما بعد بالدولة الاخيرة .

ويرجع الفضل فيا عرفناه من أخبار هذه الدولة إلى النقوش الكثيرة التي جمعها (جلازر) ومع هذا فقد اختلف المؤرخون في تحديد بداية ونهاية هذه الدولة ، ومع كل فإن البعض يحاول أن يقسم تاريخ قتبان إلى ثلاثة مراحل مختلفة .

المرحلة الأولى : امتدت إلى حوالي منتصف القرن الرابع ق – م وكانت أهم فتراتها هي تلك التي كانت بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد حيث كان يحكم المكربون (أي المقربون أو من جمعوا بين الكهانة والملك) وكان من أشهرهم «يدع اب ذبيان» الذي قام بمهاجمة سبأ والاستيلاء على بعض ممتلكاتها وينسب إليه أنه هو الذي شيد المدخل الجنوبي لمدينة « تمنع » وإنشاء طريق يخترق الجبل وبعض الأعمال العمرانية الأخرى ، ومن المرجح أن قبائل غير قتبان اشتركت في أنشاء طريق الجبل لما له من فائدة مشتركة ومن بعض نقوش هذا الملك يتبين لنا أن مجالس المدن كانت تقترح مشروعات القوانين ولكن الملك وحده هو الذي كان يملك حق إصدارها .

والمرحلة الثانية : كانت تمتد من ٣٥٠ إلى ٢٥٠ ق . م وأول ملوكها

« أب شيم » الذي تلاه ولده « شهر غيلان » وهذا الأخير ترك نقوشا مختلفة تدل على إنشائه أحد الأبراج وبنائه لإحدى العمارات كما تشير إلى أن رؤساء القبائل كانوا مسؤولين عن جمع الضرائب التي توردلخزينة الدولةفي نهاية كل عام وتذكر النصوص أيضاً ضرائب أخرى كانت تورد للمعابد – وقد انتصر « شهر غيلان » على حضرموت وخلد هذا الإنتصار بتشييد معبد للإله « عشتر » في ذبحان (بيحان القصب الحالية) كما يشير إلى ذلك أحدالنقوش–ومن ملوك هذه المرحلة أيضاً « شهر يجيل » الذي تغلب على دولة معين ثم خلفه أخوه (شهر هلال ينعم » الذي انتهت بوفاته الأسرة القتبانية الثانية وانتهت أيضاً المرحلة الثانية من عهد الدولة القتبانية .

والمرحلة الثالثة : تمثل عصراً تناوب فيه عدد من الملوك عرش البلاد كان آخرهم « يدع اب غيلان » ثم تتولى قتبان أسرة ملكية أخرى وكانت ضعيفة انهارت في عهدها دولتهم حتى آلت إلي الزوال .

وكانت المرحلة الثانية من تاريخ قتبان هي العصر الذهبي لها حيث أخضعت فيه كلا من معين وسبأ وربما ترجع أسباب قوة قتبان إلى موقعها الجغرافي بجوار باب المندب وحضرموت كما كانت تنتج أفضل أنواع الطيب والبخور وجنوا من الأشجار فيها أرباحاً طائلة – وقد عثر على كثير من آثارها ومن بينها عملات هلينية ورومانية مما يوحي بتأثر القتبانيين بالحضارتين الهلينية والرومانية .

جـ – دولة حضرموت (١٠٢٠ – ٣٠٠ ق م)

تقع إلى شرق اليمن على ساحل بحر العرب وتنسبها التوراة إلى حضر موت

ابن يقطن بن عامر بن شالغ [1] ولم يكن الباحثون على علم بشيء من أخبار الدولة التي قامت في حضرموت ولكن بعد أن عثر على عدد من النقوش فيها أمكن التعرف على بعض تاريخها ومن ذلك نعلم أنه قامت في حضرموت دولة كانت تعاصر كلا من حمير وسبأ وقتبان وأنها صارت تابعة للدولة الحميرية الثانية منذ حوالي ١١٥ ق.م إذ كان ملوك حمير يلقبون أنفسهم بلقب « ملوك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات » ومن المعتقد حسب ما ورد في النقوش أن أول ملوك حضرموت هو « شهرم علام ابن صدق ايل » وكان حفيده «معدي كرب» الذي يرجح أن حضرموت اندمجت في مملكة معين في عهده أو بعد وفاته إذ يعتقد أنه بينما كان « معدي كرب » يحكم في حضرموت كان أخوه يحكم في معين . .

ويبدو من بعض النقوش أن علاقات ودية أو تجارية كانت قائمة بين حضرموت وتدمر والأراميين في عهد ملك يدعى « العزيلط الثاني » كما تشير النقوش كذلك إلى أن ملكاً آخر يدعى « يدع ال بين » بن « رب شمص » أعاد بناء مدينة شبوه وأقام بها وبنى معبدها بالحجارة بعدما حل بها من تخريب، ولا يعرف سبب هذا التخريب ولكنه يعزى إلى نشوب قتال بين سبأ وبين حضرموت أو إلى حدوث ثورة داخلية ربما أدت إلى القضاء على الأسرة الحاكمة وحلول أسرة أخرى محلها ومن المرجح أن حضرموت فقدت استقلالها واندمجت نهائياً في مملكة سبأ وريدان في عهد « شمر يهرعش » الذي حمل لقب « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات » . .

وكانت العاصمة القديمة لحضرموت هي « ميفعة » ثم انتقلت العاصمة بعد ذلك إلى «شبوه» التي يحتمل أنها أسست في القرن الثاني قبل الميلاد وقد كشف فيلبي عن آثارها التي شملت أطلال كثير من المعابد والقصور وبقايا السدود التي أقيمت على وادي

---

(١) سفر التكوين ١٠/٢٦ ، أخبار الأيام ١/٢٠

شبوه لحصر مياه الأمطار وكانت الحاصلات تنقل إلى «قن» وهي ميناء حضرمية إلى الشرق من عدن وهي على الأرجح حصن الغراب الحالية ومنهـــا تصدر حاصلات حضرموت براً وبحراً .

د – دولة سبأ ٨٠٠ – ١١٥ ق.م

ورد في نصوص تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني الأشوريين وسنحريب الكلداني ما يشير إلى أنهم فرضوا الجزية على ملكي سبأ « يثعمر » و « كرب ايلو » اللذين يحتمل أنهما كانا من حكام سبأ المقيمين في الواحات التي على طريق التجارة إلى الشام لا ملوكاً في سبأ نفسها كذلك ورد اسم سبأ بضعـة مرات في التوراة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم – وقد اختلف الباحثون في أصل السبئيـــين ونسبهم ولكن يغلب على الظن أنهم كانوا شعباً بدوياً يتنقل بين شمال وجنوب شبـه الجزيرة العربيـة إلى أن استقر بهم المقـام في اليمن حوالي ٨٠٠ ق.م وقد اضطرتهم الظروف إلى ذلك إذ يحتمل أن الأشوريين ازدادوا ضغطاً عليهم في الشمال وفي نفس الوقت وجدوا الفرصة سانحة لكي يستغـلوا الضعف الذي منيت به الدولة المعينية وأخذوا في التوسع جنوباً على حساب المعنيـين وقوى نفوذهم تدريجياً إلى أن قضوا على دولة معين وأقاموا دولتهم على أنقاضها وورثوا لغتها وحضارتها وحلوا محلهم في نقل التجارة بين الهند والعراق والحبشة ومصر والشام وأصبحوا أعظم الوسطـاء التجـاريين بين هذه الأقطار ويرى البعض من الباحثين أنهم تركوا مواطنهم التي أطلق عليها الأشوريين اسم عربي أو أريبي (ووردت في التوراة باسم يا رب أو يعرب) وارتحلوا إلى جنوب شبه الجزيرة في القرن الثامن قبل الميلاد واتخذوا صرواح ثم مأرب عاصمة لهم وهذه الأخيرة يحتمل أنها سميت كذلك نسبة إلى موطنهم الأصلي (يا رب) .

واستطاعت دولة سبأ أن تزدهر وأن ينعم شعبها بالثراء لاشتغالهم بالزراعة والتجارة حيث سيطروا على الطريق البري الذي يربط الجنوب بالشمال وازداد نفوذها فأقامت حكاماً لها في الواحات الواقعة على هذا الطريق التجاري تعاونهم حاميات عسكرية وكانت واحة ديدان (العلا) هي مركز نفوذها على شمال بلاد العرب .

ويمكن حسب ما ورد في النقوش السبئية – أن نقسم عصر الدولة السبئية إلى مرحلتين تاريخيتين متتاليتين : مرحلة المكارب ٨٠٠ – ٦٥٠ ق.م أي المقربين من الآلهة والناس أو الذين كانت لهم مكانة دينية إلى جانب حكمهم كملوك وقد اتخذوا صرواح عاصمة لهم في أول الأمر ثم نقلوا العاصمة بعد ذلك إلى مأرب ، مرحلة ملوك سبأ وتمتد إلى ١١٥ ق.م .

مكارب سبأ وتمتد إلى ١١٥ ق.م .

أسس « سمة على » دولة سبأ ثم خلفه على العرش ابنه « يدع ايل ذريح » (حوالي ٧٨٠ ق.م) وقد شيد معبداً للإله المقه في صرواح ومعبداً آخر لنفس الإله في مأرب وقدم القرابين إلى الإله عشتر . ثم تبعه ولده « يثع أمر » الذي ينسب اليه بناء معبد في بلدة دابر « الواقعة في الجوف بين مأرب ومعين مما يوحي بأن السبئيين اصطدموا بالمعينين في عهده وقد قام ولده «يدع ايل بين» الذي خلفه في الحكم بتحصين أبراج مدينة نشق المعينية .. ومنذ بداية القرن السابع قبل الميلاد اهتم مكارب سبأ بالاصطلاحات الزراعية فقد وزع « كرب ايل بين » الأراضي المحيطة بنشق على الفلاحين لاستصلاحها وزراعتها وسار ولده « دمر على ذريح » على نفس السياسة أما ابن هذا الأخير « سمة على ينف » فقد شيد سداً على مدخل وادي « زنة » بمأرب يعرف باسم سد « رحب »

سنة ٦٥٠ ق.م فساعد على تنظيم ري المناطق المجاورة طوال العام ولكنه لم يف بحاجة كل الأراضي الزراعية مما جعل « يثعمر أمر بين » ولده وخليفته يزيد في حجم السد (طولا وعرضاً وارتفاعاً) كما شيد سداً أعظم منه يعرف باسم « سد حبابض » وكان لهذين السدين بمأرب أعظم الأثر في زيادة الرقعة الزراعية وزيادة ثروة البلاد – وقد رمم سد « زنة » وأصلح في العصور التالية ولكن اضطراب أحوال الدولة الحميرية فيما بعد وإهمالها له عجل بتصدعه ثم انهياره فتحولت الأراضي الزراعية إلى الجدب وأدى ذلك إلى هجرة بعض القبائل إلى مشارف الشام والبحرين والعراق .

وآخر مكارب اليمن هو « كرب ايل وتر » الذي تخلى عن سياسة التعمير واتجه إلى التوسع العسكري فهاجم الدولة المعينية وقضى عليها كما انتصر على القتبانيين وسجل انتصاراته على جدران معبد صرواح ولقب نفسه بلقب « ملك سبأ » فأصبح أول حكام سبأ الذين تلقبوا بهذا اللقب ..

ملوك سبأ : اتسعت مملكة سبأ واشتد بأسها وأصبح لها أسطول تجاري ضخم يتنقل بين ثغورها والثغور الأجنبية وقد أخذت تظهر فيها أسرات قوية وخاصة منذ سنة ٥٠٠ ق.م ومن بين هذه الأسرات أسرة همدانية تمكنت من اغتصاب العرش، وحدثت تغيرات سياسية وفكرية هامة فبدأت تظهر أسماء آلهة جديدة لم يكن يسمع عنها من قبل ثم بدأت المتاعب تحيط بملوك سبأ منذ سنة ٣٥٠ ق.م إذ أن الهمدانيين وبعض أمراء القبائل الأخرى طمعوا في العرش أو الاستقلال بإماراتهم وحاولت المملكة أن تقضي على استقلال هذه الإمارات وأن تدمجها في المملكة ولكن عز على هذه الامارات أن تتنازل عن استقلالها وضعف مركز ملوك سبأ وخاصة بعد أن أخذ البطالمة في مصر يحتكرون التجارة الشرقية وقامت اضطرابات وثورات عنيفة أدت إلى تدهور الأوضاع الإقتصادية

والسياسية وتدخلت الدول الأجنبية في شؤون المملكة وخاصة بعد أن فقدت سيطرتها على البحر الأحمر وسواحل أفريقيا حيث انتقلت التجارة البحرية إلى أيدي اليونان ثم إلى أيدي الرومان من بعدهم .

وفي أواخر عهد ملوك سبأ قام نزاع خطير حول العرش تسبب في تدمير البلاد وتحول الكثير من الأراضي الزراعية إلى صحارى – وقدأفاد الريدانيون (وهم شعب عربي جنوبي كان ينزل قرب ساحل شبه الجزيرة الجنوبية إلى الشمال من حضرموت) والحميريون من ذلك النزاع وتمكنوا من انتزاع العرش السبئي وأسسوا في ١١٥ ق.م الدولة الحميرية التي حكم ملوكها باسم « ملوك سبأ وذي ريدان » .

ثانياً : القسم الشرقي

أ – مجان :

ذكر سرجون الاكدي أنه غزاها وجلب منهـا ومن ملوخاودلمون سفنا [١] ولذا يعتقد أغلب الباحثين أنها تقع في شرق شبه جزيرة العرب بينما يرى البعض أنها عمان الحالية وأنها اشتهرت بالتجارة والملاحة ، وتشير نصوص «نرام سين» (حفيد سرجون ملك أكاد) إلى أنه غزا مجان وأخضع ملكها مانيؤم وهواسم يبدو أنه سامي مما يوحي بوجود مملكة حكامها من العرب الساميين .

ومع أن اسم مجان قد يكون مشتقاً من كلمة سومرية بمعنى ميناء أو أرض السفن

---

(١) من المرجح أن منطقة « ميجان » الحالية التي تقع على ساحل الخليج العربي عند مصب وادي شهبة هي البقعة التي نشأت فيها مملكة مجان القديمة ، ولا يمكن تعيين موقع ملوخا بالتحديد حتى الآن ولكن لا شك في أنها كانت قريبة من ميجان ـ أما دلمون فمن المرجح أنها كانت تضم جزر البحرين وجزءاً من الإحساء .

إلا أن النصوص المسمارية تصف (مجان) بأنها « جبل النحاس » وقد اشتهر نحاسها بوجود نسبة من القصدير – كذلك اشتهرت « مجان » بحجر الديوريت الأسود الذي صنع منه قدامى ملوك العراق تماثيلهم ونصبهم .

ب – دلمون او تلمون (البحرين)

ذكر اسم دلمون أو تلمون في المصادر المسمارية وكانت على علاقات مختلفة مع السومريين والبابليين والأشوريين منذ أقدم العصور – وقد وردت عنها إشارات في النصوص المسمارية منذ منتصف الألف الثالث إلى نحو سنة ٥٠٠ق.م وهذه النصوص تدل على أن دلمون تقع في منطقة البحرين وأنها أرض أسطورية غريبة ، حيث يذكر سرجون الثاني (ملك آشور) أن ملك دلمون يعيش في وسط البحر الذي تشرق منه الشمس ، كما يذكر الملك آشور بانيبال أن دلمون تقع وسط البحر الأسفل والمقصود « بالبحر الذي تشرق منه الشمس » و «الأسفل» في النصوص الأشورية هو الخليج العربي ، ويستدل من نصوص سرجون المشار إليها على أن الوصول إلى دلمون كان يتطلب نحو ٦٠ ساعة ملاحة من مصب الفرات أي أنها كانت تبعد نحو ٣٠٠ ميل وهي نفس المسافة إلى جزر البحرين – وفي سنة ١٨٧٩ م عثر على كتابة مسمارية في البحرين ترجع إلى العهد البابلي القديم في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م وبها إشارة إلى « قصر رموم عبد الإله انزاك رئيس قبيلة أجاروم » ومن المحتمل أن أجاروم القديمة هي قبيلة عربية بقي اسمها مستعملاً وحرف إلى بني هجر التي تقيم الآن في بقعة تجاور البحرين ، كما يرجح أن هذا الإسم المحرف « هجر » كان يستعمل في العصور الوسطى للدلالة على منطقة الإحساء .

وقد اشتهرت دلمون بتمرها منذ أقدم العصور – ويغلب على الظن أن الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب كان ضمن مملكة دلمون التي ازدهرت في الألف الثاني قبل الميلاد وكانت تضم الإحساء والبحرين .

وما زالت الآراء تختلف في أصل الدلمونيين إذ يرى البعض أنهم جاءوا من الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة وكانت لهم صلات مع العراقيين منذ عصر فجر الأسرات السومرية ، بينما يرى البعض الآخر أن من المحتمل أن يكون السومريون القدماء قد جاءوا أصلاً من دلمون .

وقد تعرضت دلمون لغزوات كثيرة من ملوك بلاد النهرين ، فقد غزاها سرجون الأكدي هي ومجان وملوخا وجلب منها سفناً كثيرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، كذلك حاول بعض الأشوريين ضمها إلى ملكهم – ومما يذكر في هذا الصدد أن سنحريب بعد أن دمر بابل سنة ٦٨٩ ق.م أرسل إلى دلمون أمراً بالخضوع ومعه بعض رماد حريق بابل كتهديد لها بنفس المصير فبادر ملك دلمون بإرسال جزية وهدايا لسنحريب رمزاً لخضوعه له .

ويود بعض الباحثين أن يربط جنة عدن المذكورة في الكتب السماوية بمنطقة دلمون ويستندون في هذا إلى ما تذكره الأساطير المسمارية التي تصفها بأنها أرض غريبة وإلى الأساطير العربية الشائعة في شبه الجزيرة التي تصفها كجنة ليس فيها إلا الخير والطهر ، وإلى أن أسطورة سومرية عن الطوفان تشبه أسطورة جلجاميش تشير إلى دلمون كأرض مقدسة ولكننا بالطبع لا نستطيع تأكيد ذلك .

جـ - باصو أوبازو « نجد » وحاسو « الاحساء »

تقع هذه البلاد في شرق وجنوب شرقي شبه جزيرة العرب وقد اتصل بها غير واحد من ملوك الاشوريين وكان أهمهم أسر حدون الذي توغل في بلاد العرب لى أماكن بعيدة وصفها وصفاً ينطبق على نجد والأحساء ، وقد ذكر اسميهما باصو (أوبازو) وحاسو على الترتيب ، ومع أن بعض البحوث الأثرية قد تمت حديثاً في الأحساء وفي جزيرة البحرين إلا أنها لا تلقى كثيراً من الضوء على تاريخ هذه الجهات قبل خروج الإسكندر في حملاته في الشرق .

الفَصل الخامِس

الاقليم السوري

ويقصد بالإقليم السوري هنا تلك المساحة التي عرفها اليونان بهـذا الاسم ، أي المساحة الواقعة بين جبال طوروس شمالا وسيناء جنوباً وبين البحر المتوسط غرباً والبادية وبلاد النهرين شرقاً .

ولو تأملنا هذا الإقليم لوجدناه ينقسم من ناحية التضاريس إلى أقسام طولـية يغلب فيها بوجه عام تناوب الأراضي المنخفضة والمرتفعات حيث نجد أن السهل الساحلي تتلوه سلسلة الجبال الغربية ويلي هذه سهل البقاع ثم السلسلة التي تنتهي إلى بادية الشام مع ملاحظة أن كلا من هـــذه الأقسام يختلف في اتساعه بين بقعة وأخرى .

وقد تأثر هذا الإقليم في تاريخه وحضاراته ببضعة عوامـل يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - الموقع الجغرافي : تقع سورية بين القارات الثلاثة الرئيسية للعالم القديم، فهي لهذا تعد حلقة الاتصال فيما بينها ، ومع أن هذا الموقع أتاح لهـا أن تلعب دوراً هاماً في التبادل التجاري وفيانتشار كثير من المظاهر الحضارية بين أقطار

الشرق الأدنى إلا أنه من جهة أخرى جعلها عرضة للهجرات والغزوات المختلفة وكانت مجاورتها لأقدم مراكز الحضارة الفعالة في العراق ومصر وآسيا الصغرى من العوامل الهامة التي جعلتها تتأثر بتلك الدول وحضاراتها.

٢ – التضاريس : أشرنا إلى أنها تنقسم إلى أقسام طولية مختلفة الاتساع والمظهر وقد أدى ذلك إلى قيام وحدات منفصلة فيها ، ولم تكن إحدى هذه الوحدات من الاتساع بحيث تنشأ فيها دولة قوية يمكنها أن توحد سوريا بأكملها تحت سلطانها ولذا كان توحيدها غالباً ما يتم بإرادة سلطة خارجية .

٣ – وجود المناطق الصحراوية في شرق سوريا وجنوبها جعلها المطمع الدائم للبدو من سكان هذه الأقاليم فكان في صراع مع تلك العناصر .

ونظراً لأن هذه العوامل مرتبطة بالظروف الطبيعية للإقليم السوري فإن أثرها الحضاري والتاريخي ظل مستمراً في معظم أدواره التاريخية، وفيما يلي موجز للأدوار التي مر بها .

أولاً ـ العصور قبل التاريخية

أ – العصر الحجري القديم

العصر الحجري القديم الأسفل :

وجدت آثار حضاراته (التي تشبه مثيلاتها في جهات العالم الأخرى) في كهوف عدلون (بين صيدا وصور) وفي الكرمل وأم قطفة (شمال غرب البحر الميت) والزطية (شمال غرب بحيرة طبرية) ورأس شمرا (أوجاريت)

- ولم يعثر على بقايا بشرية تمثل سكان هذا العصر [1]

العصر الحجري القديم الأوسط :

عثر على آثاره في كهوف في جبل الكرمل وفي جنوب الناصرة وفي شمال غرب طبرية ، وقد عثر في بعض هذه الكهوف على بقايا بشرية تبين أن إنسان هذا العصر كان خليطاً من السلالات التي تمثل إنسان نياندرتال وأنواع أخرى أرقى منه تكاد تشبه الانسان الحديث ، ومن المحتمل أنه كان يأكل اللحوم البشرية كما يستدل على ذلك من بقايا العظام البشرية التي وجدت وقد استخرجت مادتها النخاعية [2] .

العصر الحجري القديم الأعلى :

وجدت آثاره في كهوف أنطلياس وفي حوض نهر الكلب وفي كهف بالقرب من طبرية حيث عثر فيها - فضلاً عن الأدوات الميكروليثية - على بقايا هياكل عظمية لأنواع مختلفة من الحيوانات مثل الكركدن والضبع والثعلب والماعز والغزلان (وهذه الأخيرة كانت أكثرها) كما عثر على بعض بقايا إنسانية ، ومن المحتمل أن الإنسان توصل - في هذه المرحلة - إلى معرفة النار واستخدامها في الطهي .

---

(١) أنظر مع ذلك فيليب حتى « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ص ٩ حيث يميل إلى أن سكان سورية في هذا العصر كانوا « نوعاً بدائياً غير متميز من الانسان الأبيض » .

(٢) أنظر نفس المرجع السابق ص ١١

ب – العصر الحجري المتوسط

تمثل هذا العصر حضارة تعرف باسم الحضارة الناطوفية [1] (نسبة إلى وادي النطوف شمال غربي القدس) ، وفيها ظلت الأدوات الميكروليثية مستعملة بينما أخذت بعض الحيوانات التي كانت تعيش في تلك الجهات في الاختفاء نظراً لتغير الظروف المناخية – ويستدل من بقايا إنسان هـذا العصر على أنه كان قصير القامة مستدير الرأس، ويرجح أنه عرف استئناس الحيوان والمرحلة البدائية في الزراعة وإن كان هذا لا يستند إلى دليل قوي حتى الآن، واتخذ منازل عبارة عن أكواخ من الطين أو اللبن عثر على أقدم آثارها في أريحا وتل الجديدة (شمال سوريا) ورأس شمرا – ويتغالى بعض المورخين فيعتبر سورية أول من عرف بعض أسس الحضارة التي انتقلت منها إلى جهات أخرى من الشرق الأدنى [2] وهو ما لا يتفق مع نشأة الحضارات العظيمة في مصر والعراق .

ومن المرجح أن الانسان – ابتداء من هذا العصر – اهتدى إلى نوع من العقيدة بدليل ما عثر عليه من أواني الطعام والتقدمات في أماكن الدفن ، كما أنه أخذ ينمي ملكته الفنية حيث أصبح يحاول محاكاة ما حوله من الكائنات بحفرها على العظم أو الحجر إذ عثر على قطعة من العظم في هيئة غزال وعلى تماثيل طينية لبعض الحيوانات الداجنة كانت في مزار مقبرة في أريحا .

---

(١) Dorothy A . E Garrod & D .M . A . Rates ,« The Stone Age of Mount Carmel » Vol . 1 (Oxford 1937), pp . 145 , 153 , 175 - 7 ; D . A . E . Garrod « A New Mesolithic Industry : The Natufian of Palestine» , in the Journal of the Royal Institute of Great Britain , vol L X 11 (1932), pp . 267 ff .

(٢) فيليب حتى « المرجع السابق » ص ١٧ وما بعدها .

جـ - العصر الحجري الحديث

يتمثل العصر الحجري الحديث والعصر التالي له (بداية استخدام المعادن) في عدة مواقع في سورية وفلسطين - وقد اصطلح كثير من الأثريين على اتخاذ منطقة العمق في سورية نموذجاً للحضارات التي شاعت في هذا العصر وما تلاه نظراً لأن تلالها الكثيرة بطبقاتها المختلفة تحوي آثاراً لكل من هذه الحضارات ويقابل هذه المنطقة في فلسطين منطقتي جريكو وتل الغسول .

وقد وجدت آثار حضارة العصر الحجري الحديث في تل الجديدة وساكجي جوزي (في أقصى الشمال) ومرسين في قيليقيا وهـــذه يمكن وضعها ضمن آسيا الصغرى ولكنها أقرب إلى الاقليم السوري ولذلك تلحق به ، وقد وجدت نظائر لهذه الآثار في طبقتي العمق أ ، ب بسورية وطبقتي ١٠ ، ٩ في جريكو بفلسطين ، ويمكن أن نعدها نظائر لحضارات حسونة بالعراق وسيالك الأولى في إيران - وهي تمثل مرحلة استقرار بالمعنى الصحيح إذ عثر فيها على بعض الفؤوس والمناجل الحجرية لا شك في أنها استخدمت في الزراعة ، كما عثر فيها على أجران ومخازن - أما الأواني الفخارية التي عثر عليها فربما كانت متأثرة في صناعتها بما كان سائداً في العراق حيث يرى البعض أنها متأثرة بحضارة سامراء التي تنتمي إلى أواخر الدور الحجري الحديث بينما يرى البعض الآخر أنها متأثرة بحضارة حلف [1] التي تنتمي إلى أوائـــل دور بداية استخدام المعادن .

د - دور بداية استخدام المعادن (عصر النحاس والحجر)

تتمثل حضارات أوائل هـــذا الدور في أوجاريت (قرقميش) وفي جزر

---

(١) أنظر مع ذلك فيليب حتى تاريخ سورية ... (الترجمة) ص ٢٢ ، ٢٣ استخدام المعادن .

وتل الغسول وفي الطبقة جـ بمنطقة العمق والطبقه ٨ بمنطقة جريكو (وهي تقابل تقريباً حضارة حلف بالعراق - وقد عثر فيها على منازل من اللـبن أساساتها من الحجر الغشيم (غير المهذب) وكان الأطفال يدفنون عادة في جرار تحت أرضيتها أما البالغون فكان بعضهم يحرق والبعض يدفن في جرار على هيئة الجنين [١] ، ومن المحتمل أن تحصينات المدن بدأت من هذا العصر - وكانت الزراعة مقارنة بالرعي واستئناس الحيوان كالثور (الذي يرجح أنه قدس) والماعز والغنم ، وكان الحمام يرمز عادة للإلهة الأم - وفي هذا العهد كانت تغلب على السكان صفات جنس البحر الأبيض المتوسط في الجنوب أما في الشمال فيغلب على الظن أنهم كانوا من الأرمنيين .

وتتمثل حضارات أواخر هذا الدور في أريحا ومجدل (تل المتسلم) والعفولة وبيت شان (بيسان) وأوجاريت وبيبلوس وهي تقابل طبقات العمق د ، هـ ، و في سوريا والحضارة الغسولية وعصر البرونز الأول في فلسطين - ويبدو أن سوريا خلال هذه المرحلة كانت في حضارتها تساير حضارات العراق ومصر المناظرة لهـا وخاصة في الجـزء الأخـير من عصر التمهيد للكتابة في العراق وعصر ما قبـل السلالات الحاكمة في مصر أي حضارتي جمدة نصر وسماينة ، ويبدو التطور واضحاً في هذه الحضارة إذ نجد أن الفخار أصبح يصنع بالعجلة وأن اللبن أصبح يستخدم في البناء وطليت الجدران بلون أبيض وزينت برسوم تمثل بعض الأشخاص والآلهة - وقد توصل أهل هـذه المرحلة إلى صب المعادن حيث عثر على تماثيل نحاسية صغيرة مصبوبة كما تطورت الفنون عامة ويتجلى ذلك بوضوح في زخرفة الأواني بطلاء زجاجي .

---

(١) C. Leonard Woolley, « Hittite Burial Customs » in ,The Annals of Archaeology and Anthropology, « University of Liverpool », VI (1914) p. 88

ثانيا ـ العصور التاريخية

أ – الدول التي أثرت في تاريخ سوريا

سبق أن أشرنا [1] إلى أن ظروف الأقليم السوري الجغرافية لم تيسر قيام دولة قوية فيه وأن الوحدات التي نشأت به لم تتحد إلا بإدارة سلطة خارجية – والواقع أن كل ما وصلنا من معلومات عن طريق البحوث التاريخية والأثرية يوحي بأن سورية ظلت في معظم فترات تاريخها ميدانا لصراع القوى المجاورة، وإن ظهرت بعض دويلات المدن المستقلة التي تظل مستعصية على الغزاة بعض الوقت إلا أنها كانت تستسلم في النهاية تحت ضغط القوى الفتية التي تغزوها – ومن الممكن القول إجمالاً بأن الإقليم السوري كان في أقدم عصوره التاريخية على علاقات تجارية مع مصر التي كثيراً ما كانت تنشر نفوذها فيه، وليس من المستبعد أن تكون جالية مصرية قد أقامت في جبيل (ببلوس) بلبنان في زمن الأسرة الرابعة المصرية[2] لملاحظة التبادل التجاري بينها وبين مصر كما أن نصوص الأسرة الخامسة تدل على قيام حملات حربية مصرية إلى تلك الجهات أو على الأقل بعثات تجارية مسلحة – ومن المحتمل أن بعض عناصر الإقليم السوري استطاعت أن تهدد الحدود المصرية بل ويرجح أنها في نهاية عهد الأسرة السادسة تمكنت من بسط نفوذها على الدلتا [3]، وما لبث أن حدث رد فعل في عهد الأسرة الثانية عشرة إذ يبدو أن ملوكها كان لديهم شيء من النفوذ في جنوب الاقليم السوري كما أنهم استأنفوا النشاط التجاري

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٦٥

(٢) أنظر أعلاه ص ١٠٨

(٣) أنظر أعلاه ص ١٢٣

مع سواحله الشمالية وكانت لهم علاقات ودية مع بعض الإمارات الأخرى .

والظاهر أن ظروفاً سيئة حلت بالإقليم السوري خلال هذه الفترة إذ أن بعض القبائل السورية جاءت في عهد سنوسرت الثاني [١] تطلب السماح لها بالاستقرار في مصر ويرجع سبب ذلك إما لحدوث قحط في هذه الجهات أو لتعرضها لغزوات بعض الدويلات المجاورة وخاصة لأن الأموريين أخذوا ينتشرون في أواسط سوريا وجنوبها خلال هذه الفترة تقريباً بعد أن كانوا قد تركزوا فترة في سوريا الشمالية أو لتدفق بعض سكان شمال ووسط سوريا عليها من جراء ضغط هجرات بعض العناصر الهند وأوربية الرعوية التي جاءت بالإيرانيين والحوريين وغيرهم ممن انتشروا في أعالي دجلة والفرات ثم زحفوا إلى سوريا الشمالية — والظاهر أن ازدياد هذا الضغط قد أدى إلى زيادة تسلل العناصر الآسيوية إلى مصر وانتشارها وازدياد نفوذها تدريجاً حتى استطاعت أن تستولي على السلطة فيها وحكمتها في أعقاب الدولة الوسطى — وقد عرف هؤلاء في التاريخ باسم الهكسوس وهم الذين تمكن ملوك الأسرة الثامنة عشرة من طردهم وتعقبهم في فلسطين إلى أن قضوا على سلطانهم .

وظل الإقليم السوري خاضعاً للسلطان المصري معظم عهد الأسرة الثامنة عشرة ولو أن مملكة قوية عرفت باسم مملكة ميتاني نشأت في شماله الشرقي (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق م) إلا أن نفوذها لم يتعد ذلك إلى مناطق النفوذ المصري بل وكانت علاقاتها طيبة مع مصر وارتبط ملوكها بروابط المصاهرة مع الفرعنة — وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة تقاسم الحيثيون والمصريون النفوذ في سوريا إذ أصبحت الأجزاء الشمالية منها في قبضة الحيثيين بينما اقتصر النفوذ المصري على جنوبها، ولم يستمر الحال كذلك إذ انتهت الأسرة التاسعة عشرة في مصر نهاية سيئة

---

(١) أنظر أعلاه ص ١٤٣

فأعلن حكام الأقاليم استقلالهم واغتصب أحد كبار موظفي البلاط السوريين العرش فترة إلى أن تمكن مؤسس الأسرة العشرين « ست نخت » من اعتلاء العرش بعد طرد الغاصب السوري وعاد الأمن والاستقرار في البلاد [1] ،وفي عهد هذه الأسرة الأخيرة حدثت اغارات مفاجئة من شعوب هند وأوربية عرفت باسم « شعوب البحر » على آسيا الصغرى فأسقطت دولة الحيثيين وواصلت تقدمها في شمال سوريا وزحفت جنوباً حتى أصبحت تهدد مصر ولكن رعمسيس الثالث – ثاني ملوك هذه الأسرة – تصدى لهم وهزمهم براً وبحراً في معركة فاصلة، وبذلك احتفظ بشيء من النفوذ المصري في سوريا، وكذلك ظلت بعض الولايات الحيثية قائمة فترة بعد ذلك في شمال سوريا إلى أن قضى عليها نهائياً سرجون الثاني ملك آشور في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد – وبعد عهد رعمسيس الثالث أخذ نفوذ مصر يزول تدريجياً من سوريا إلى أن انتهى تماماً في أواخر الأسرة العشرين ولم تقم له قائمة بعد ذلك إلا في فترات متباعدة ولمدد قصيرة من عهدي الأسرتين الثانية والعشرين والسادسة والعشرين ثم أصبحت سوريا ومصر نفسها بعد ذلك جزءاً من الإمبراطورية الفارسية .

ولا شك في أن ظروف الإقليم السوري الجغرافية التي أشرنا إليها من قبل[2] لا تجعل من مصر الدولة الوحيدة التي كان على علاقات معها ، بل وربما كانت بعض المناطق الأخرى أيسر اتصالاً به وعلاقاته معها أبعد مدى ، فمن المعروف أن المنطقة بين سهول سوريا الشمالية وحوض نهر دجلة الأعلى كانت كثيفة السكان منذ أقدم العصور، يسهل الانتقال عبرها بين بلاد النهرين والإقليم السوري ولذا كانت بمثابة حلقة الاتصال بينهما مما أدى إلى تشابه بعض حضاراتهما في العصر قبل التاريخي وإلى توسع الدول القوية التي تنشأ في أي منهما في أراضي

(١) أنظر أعلاه ص ١٩٥-١٩٦

(٢) أنظر أعلاه ص ٢٦٤ - ٢٦٥

الآخر ، وهكذا نجد أن « لوجال زاجيزي »[1] يدعى بأنه غزا سورية ووصل « سرجون » الأكدي في فتوحاته إلى لبنان ، وما أن تحررت أرض الجزيرة وشمال سورية من الأكديين حتى جضع الجزء الشمالي مـن سورية للحوريين ، وبعدئذ تمكن « نارام سن » من السير في فتوحاته شمالاً حتى أخضع حلب ولم يقتصر نشاط العلاقات بين القطرين على سياسة التوسع فقـــد قامت بينهما علاقات تجارية من أقدم العصور وخير مثال لذلك ما قام به « جوديا » حاكم لجش من إحضار خشب الأرز من لبنان.

وعندما ازدادت قوة الساميين الغربيين « الأموريين » الذين كانوا يقطنون في الإقليم السوري زحفوا على طول نهر الفرات وأصبحوا حكاماً لكثير من بقاع بلاد النهرين ولكن لم يلبث « حامورابي » أن أخضعهم لسلطان بابـــل ولو أنه هو نفسه كان أصلاً من الأموريين ، وما أن انتقلت السيادة في بـلاد النهرين إلى الاشوريين حتى وجدوا أن الآراميين أصبحوا يتركزون على الجانب الأيمن للفرات ولذا عمد ملوكهم الأقوياء إلى فرض سلطانهم على هؤلاء الآراميين بل وتوسعوا غرباً حتى وصلوا إلى البحر المتوسط ، ولم تكد بضعة الدويـلات السورية القائمة أن تفيق من ضربات الأشوريين المتلاحقة بعـد سقوط آشور حتى تعرضت من جديد لغزوات الكلدانيين .

ولم تكن آسيا الصغرى في علاقاتها بالإقليم السوري أقل شأناً مـن غيرها ، بل ويمكن أن نعد الجزء الجنوبي منها – وهو الواقع خلف جبال طوروس – امتداداً للإقليم السوري ولذلك نجد تشابها في حضارتهما منذ العصر الحجري الحديث ، وقد وجدت دولة الحيثيين « سكان آسيا الصغرى » فرصة للتوسع في الإقليم السوري حيث بدأوا بالقضاء على مملكة يامخاد الامورية ودمروا

---

(١) أنظر فيما بعد ص ٣٥٤

عاصمتها حلب في أواخـــر القرن السادس عشر ق م ثم اشتد التنافس بينها وبين المصريين من أجـل السيطرة عليه ابتداء من أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد [1] ثم تكونت فيه عدة ممالك حيثية صغيرة خلال القرن الحادي عشر ق م [2] .

وهكذا نجد أن الاقليم السوري كان ميداناً لصراع دول وشعوب مختلفة أثرت في تاريخه أيما تأثير .

ب ـ الشعوب التي أثرت في تاريخ سورية

أشرنا إلى أن موقــع الإقليم السوري كان عظيم الاثر في تاريخه وحضارته إذ أنه جعله عرضة لوفـود بعض العناصر التي لعبت في تاريخه دوراً هاماً ـ وأهم هذه العناصر هي :

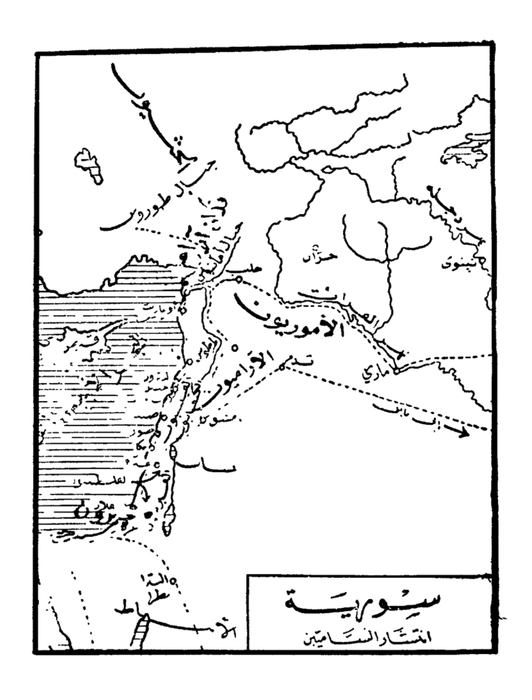
أولا ـ العناصر السامية :

وفدت هذه العناصر إلى الاقليم السوري في موجـات متتابعة واستقرت في أنحاء مختلفة منه (خريطة رقم ٤) ، وظلت تسود فيه خلال الجزء الاكبر من تاريخه القديم .

وقد تركت هذه الشعوب بصماتها في التاريـخ حيث احتكت بالشعوب المجاورة وتأثرت بها وأثرت فيها من الناحية الحضارية ـ ومع أن بعض هذه

(١) أنظر فيما بعد ص ص ٢٧٨ ، ٣١٢ - ٣١٦

(٢) أنظر فيما بعد ص ص ٣١٨ - ٣٢٠


سورية
انتشار الساميين
الأموريون
الآراميون
جبال طوروس
حران
نينوى
حلب
تدمر
ماري
الفرات
دجلة
إلى بابل

خريطة رقم ٤

الشعوب لم يستدل عليها إلا من التوراة إلا أن لغاتها انتشرت في الشرق الادنى حتى أصبحت دولية كما أن الكتابة التي توصل إليها البعض الآخر استخدمتها الشعوب غير السامية التي عاشت في الشرق الادنى ، بل وينسب إلى الفينيقيين أنهم أول من عرفوا الهجائية التي انتقلت منهم إلى اليونان الذين نقلوها بدورهم إلى أوربا ، فهي تعد إذاً تعد أساس الهجائيات الاوربية الحديثة [1] .

ولم يكن انتشار هذه الشعوب في الاقليم السوري بدرجة واحدة ولم يسيطر أحدها على الاقليم بأكمله ، على أنه يمكن القول إجمالاً أن الأموريين ظلوا يشكلون غالبية السكان (فيما عدا السواحل) من منتصف الالف الثالث ق . م إلى منتصف الالف الثاني ق . م تقريباً ، بينما سكن الكنعانيون (الفينيقيون) الذين جاءوا مع الاموريين في هجرة واحدة على السواحل وظل نشاطهم بها حتى منتصف الاول ق . م تقريباً ، ومن منتصف الالف الثاني ق . م توغلت العناصر الآرامية في شمال ووسط سوريا ، وفي نفس الوقت تقريباً كان العبريون يحاولون دخول جنوب الاقليم السوري والتركز حول البحر الميت تقريباً .

وعلى العموم يمكن إجمال المعالم الرئيسية لتاريخهم على النحو التالي :

١ - الأموريون :

هم أول شعب سامي عاش في سورية ، وقد جاءوا من بلاد العرب في هجرة واحدة مع الكنعانيين حوالي منتصف الالف الثالث ق . م وأخذوا يتجولون في شمال سورية قبل أن يستقر بهم المقام في أواسط حوض الفرات ، وكانت هذه المنطقة تسكنها جماعات سومرية عند وفود الأموريين ثم ما لبث

---

(١) أنظر ص ٢٨٠

هؤلاء أن أصبحوا يمثلون غالبية السكان ، وبعد انتصار سرجون الاول (ملك أكد) على لوجال زاجيزي [1] حوالي سنة ٢٣٧١ ق . م اجتاح بلاد الأموريين – ولكن هؤلاء نجحوا في بداية الألف الثاني قبل الميلاد في تأسيس سلالة من الدول في فلسطين وسوريا وبلاد النهرين فما أن حل القرن العشرين قبل الميلاد حتى أصبحت منطقة الفرات الأوسط أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها حيث أسسوا دولةعاصمتها ماري جنوب مصب الخابور – وانتشرت إماراتهم من آشور شمالا إلى لارسا جنوبا ومن البحر المتوسط غرباً إلى مرتفعات عيلام شرقاً ، والظاهر أن بعض الجهات التي قطنوها في أول الأمر تعرضت لحملة مصرية في عهد ساحورع أحد ملوك الاسرة الخامسة [2] حيث أن النقوش التي تركها على جدران معبدة تبين انتصاره على آسيويين مثلوا بملامح تغلب فيها الصفات الارمنية (رأس مستديرة وأنف ضخم) وهي صفات كانت سائدة بين الاموريين أيضاً ، ومن المرجح أن بعض مواطنهم تعرضت لبعض المتاعب فجاءت جماعات منهم تطلب الاستقرار في مصر ، ويتضح هذا من نقوش مقبرة « خنوم حتب » أحد أشراف مصر الوسطى في عهد سنوسرت الثاني من السلالة الثانية عشرة حيث مثلت إحدى القبائل التي لها نفس الملامح وقد جاءت تطلب السماح لها بالاقامة في مصر [3] – وربما كان الاموريون يمثلون الغالبية بين الشعوب التي اجتاحت سورية وتسللت إلى مصر وسيطرت عليها وهي التي عرفت باسم الهكسوس [4] .

وقد شهد مطلع النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد تحولا في النشاط

---

(١) ملك مدينة أوما ـ أنظر فيما بعد « عصر فجر الأسرات السومري » بالعراق

(٢) أنظر أعلاه ص ١١٤ ـ ١١٥

(٣) أنظر أعلاه ص ١٤٣

(٤) أنظر أعلاه ص ١٥٠ وما بعدها

الدولي إلى سورية الوسطى التي كان الأموريون يلعبون الدور الرئيسي فيها ، لأن الدولة الحيثية أصبحت من القوة بحيث أخضعت الجزء الشمالي من سورية لسلطانها بعد أن كانت تسيطر عليه مملكة يامخاد الأمورية التي كانت عاصمتها حلب – وفي تلك الأثناء كانت مصر قد أخذت تبني إمبراطوريتها في عهد الدولة الحديثة ووقع جزء من سورية تحت سيطرتها ، وهكذا انحصرت بقية الإمارات الأمورية في سوريا الوسطى وخاصة في الجزء الشمالي من لبنان والإقليم الداخلي حول دمشق – وظلت هذه الإمارات تتأرجح بين الخضوع للحيثيين أو الولاء لمصر ، وظل الحيثيون في تقدمهم بينما أخذت المستعمرات المصرية تزداد سوءاً في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر وانكمشت الممتلكات المصرية حتى أصبحت قاصرة على الجزء الجنوبي من سوريا وأخذ الحيثيون يسيطرون على شمال سورية ووسطها إلى أن انتهى نشاط الأموريين منها واقتصر على جنوبها حيث تأرجحت بعض الولايات الأموريه بين الولاء لمصر وبين الولاء للحيثيين كما أن الولايات استقلت لفترات قصيرة ساد الصراع خلالها فيما بينهم إلى إن قضى الأشوريون والبابليون ثم الفرس على كيانهم ودخلوا الإقليم السوري بعد ذلك تحت سيادة الاسكندر ، ومن الجدير بالذكر أنهم لم يتركوا وثائق هامة بلغتهم الخاصة بل استعملوا البابلية القديمة ويكاد لا يظهر في وثائقهم من لغتهم سوى أسماء الملوك والحكام وبعض أسماء الأماكن السورية . ويبدو أن لغتهم كانت اللهجة الكنعانية التي انتشرت في شرق الإقليم السوري ، كما يبدو أن الفينيقية كانت هي الأخرى اللهجة الكنعانية التي انتشرت في غرب هذا الإقليم .

ب – الكنعانيون أو الفينيقيون

أشرنا إلى أن هؤلاء وفدوا مع الأموريين في هجرة واحدة ولكن هؤلاء الكنعانيين استقروا على الساحل حيث أطلق عليهم اليونان اسم « الفينيقيين » ، ولم تمكنهم طبيعة المنطقة التي عاشوا فيها من تأسيس دولة قوية موحدة

بل انتظموا في جماعات صغيرة يحكم كلا منها ملك ويتركزون حول مدن محصنة ، تحميها أسوار وأبراج قوية تلجأ إليها تلك الجماعات عند مهاجمتها ، وبعض هذه الجماعات كانت تحتل – إلى جانب اماكن استقرارها على الساحل – جزرا صغيرة في مواجهتها حتى إذا ما أشتد الهجوم عليها التجأت إلى تلك الجزر التي كانت محصنة هي الأخرى ، أي أن هذه الجماعات كانت تتبع وسائل دفاع مزدوجة استطاعت بفضلها بعض مدنهم أن تقاوم طويلا هجمات كثيرة تعرضت لها ووقفت صامدة أمام الغزاة رغم حصارهم لها سنوات متتالية .

وكثيرا ما كان يكثر التطاحن بين هذه المدن وتنشب بينها الحروب ومع ذلك فإنها كثيرا ما كانت تتحد أمام المهاجين من الشعوب الأخرى ، وقد تحصل إحداها على الزعامة وتتمتع بنوع من السيادة على الآخرين [1] ولكن هذه الأحلاف كانت لا تستمر طويلا وخاصة لأن بعض المدن كانت تحاول الانتفاع على حساب البعض الآخر .

وكان الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ ، أخذوا يجوبون البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وأنشأوا المستعمرات ونشروا حضاراتهم وحضارات غيرهم بين مختلف الجهات ، وكانوا تجارا نموذجيين ألفت الشعوب القديمة رؤية سفنهم ولذا نجدها ممثلة في نقوش المصريين والأشوريين – ومن أهم ما قاموا به الدوران حول أفريقية في عهد نخاو (ثاني ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية) [2] كما ينسب إليهم أنهم وصلوا إلى بريطانيا وكانوا يتاجرون معها إذ كانوا يحصلون منها على القصدير في نظير الخزف والملح والأواني النحاسية – وأهم المستعمرات التي أسسوها كانت في قبرص وصقلية وسردينيا وأسبانيا وأوتيكا (تونس) وقرطاجة وبلاد اليونان-

---

(١) مثل الحلف الذي تكون بزعامة قادش أيام تحتمس الثالث - أنظر ص ١٦٦

(٢) أنظر ص ٢٢٨

وكانت قرطاجة أكثر هذه المستعمرات نجاحا فقد تطورت حتى أصبحت تنافس الوطن الأم في القرن الثامن قبل الميلاد ، وكونت منذ القرن السادس ق.م إمبراطورية واسعة امتدت من حدود ليبيا إلى جبل طارق وشملت بعض جزر البحر المتوسط حتى نازعت روما السيادة على هذا البحر ، وبلغ من تسلطها عليه أن تردد القول بأن الرومان لم يكونوا يستطيعون غسل أيديهم في مياهه دون إذن من قرطاجة - وتطورت الحرب بين روما وقرطاجة إلى أن دمرت هذه الأخيرة على يد الرومان وأشعلوا فيها النيران لمدة سبعة عشر يوما حتى أتت عليها في سنة ١٤٦ ق.م.

ويبدو أن الفينيقيين كانوا أول من استعمل الأبجدية الراقية [١] التي لا شك في أنهم اقتبسوها من الكتابة المصرية كما أنهم تأثروا بالمصريين في كثير من أمورهم كالآداب والعقائد وفن العمارة وعادات الفن وغير ذلك ، إذ أن من المرجح أن النفوذ المصري كان سائدا في الساحل الفينيقي من حوالي ٢٤٠٠-١٢٠٠ق.م ، وكانت أول مدينة تحتل مركزا رئيسيا في العلاقات المصرية الفينيقية هي جبيل (ببلوس) حيث كانت مصر تستورد منها خشب الأرز والخمور والزيوت في نظير الذهب والمصنوعات المعدنية وورق البردي ، وقد دخلت سوريا تحت سلطان فراعنة الدولة الحديثة على العموم ، ولكنها خرجت عن سيادتها بعد ذلك .

ولم يكن التأثير الحضاري لبلاد النهرين على سوريا أقل من التأثير المصري ، وكان ملوك بلاد النهرين الأقوياء يحصلون على خشب الأرز من هذا الإقليم كما حدث في عهد جوديا ملك لجش ، بل ويحتمل أن سوريا الشمالية خضعت لسرجون الأول ملك اكد وإلى نارام - سن (ثالث خلفائه حوالي ٢٢٣٨ ق.م) ،

---

(١) عثر في أوجاريت على ألواح طينية كتبت بهجائية مسمارية في لهجة كنعانية وتتشابه في بعض موادها مع بعض نصوص الآداب العبرانية . ـ أنظر أيضا ص ٢٨٢

على أن خضوعها بصفة حاسمة لدول بلاد النهرين لم يحدث إلا في عهد الأشوريين حينما انهارت الدولة الحيثية فقد استطاع تجــلات بلاسر الأول ملك آشور أن يفرض سلطانه عليها ، ومـا لبث الآراميون أن غزوا ممتلكاته فيها ولـكن آشور ناصر بال (أحد خلفائه) تمكن من استرجاعها—وفي عهد وريثه شلمناصر الثالث تكون حاف ضده من المدن السورية ومن مالك دمشق (٨٥٣ ق.م) ولكنه انتصر عليه إلا أن انتصاره لم يكن حاسما .

وحينما اعتلى تجلات بلاسر الثالث عرش آشور قام بعدة حملات لفتح سورية ثم استطاع ولده شلمناصر الخامس أن يجتـاح المدن الفينيقية فيما عـدا صور ، ولكن في عهد سنحريب تمكنت آشور من الاستيلاء على معظم الإقلـيم السوري بما في ذلك صور نفسها – وفي عهد خلفه أسرحدون قامت صيدا بالثورة ولكنه خربها وقتل ملكها وأخضع بعض مدن فينيقية أخرى كانت صور تتزعمـها وبعـدئذ استطاعت صور أن تتخلص مـن السيادة الأشورية فترة قصيرة إلا أن أسر حدون وخلفة آشور بانيبال تمكنا في النهاية من مد امبراطوريتها إلى البحر المتوسط بل وإلى مصر أيضا .

وحينما أصبح الكلدانيون حكام بابل بعد آشور ادعوا أنهم ورثوا السيطرة على سوريا — أما مصر فقد تخلصت من سيادة بلاد النهرين وأرادت أن تفرض سيادتها على سورية ، وكانت المدن الفينيقيه أميل للاعتراف بسلطان مصر منها إلى الاعتراف بالسيادة البابلية — وفي عام ٥٨٧ ق . م وصل نبوخذ نصر ملك بابل إلى سورية وأعاد فتح البلاد الفينيقية وفلسطين وحاصر صور ثلاثة عشر عاما حتى خضعت له .

وبعـدئذ أخضع الفرس الإقليم السوري ومصر لسلطانهم ، وقد أزدهرت بعض المدن الفينيقية في عهدهم حيث سمحوا لكل منها بالاستقلال الذاتي ثم كونت هذه المدن اتحـادا مركزه طرابلس ، وفي عهد ارتكزركسيس الثاني ثارت المملكة

الفينيقيـة التي تكونت من هـذا الاتحاد ولكن الملك الفـارسي استطاع القضاء عليها .

هذا ولم يترك الفينيقيون إلا وثائق قليلة بالهجائية الفينيقية رغم أن اختراع الهجائية ينسب إليهم ولعل السبب في ذلك أنها كتبت على البردي أو مواد قابلة للتلف وإلى جانب هذه وجدت وثائق كتبت بالخط المسماري البابلي .

حـ – الآراميون

كان هؤلاء من الرحل الذين عاشوا في شمال شبه جزيرة العرب ثم هاجروا إلى سورية ، وما أن حـل منتصف الالف الثاني قبل الميـلاد إلا ووصلوا إليها – وفي خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م اجتاحت جماعات منهم سورية الشمالية والوسطى ووقفت جبال لبنان حـائلا دون طغيانهم على السهل الساحلي في الغرب – ومنذ حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م اصبحت دمشق مركزا لدولة آرامية تأثرت بحضارة الأموريين والكنعانيين ، كذلك تأسست عدة مدن ودويلات آرامية في أجزاء أخرى من الإقليم السوري وبلاد النهرين.

وكانت دمشق أهم هذه الدويلات ، عاصرت تأسيس المملكة العـبرانية فكانت محصورة بين هذه الملكة جنوبا وبين مملكة آشور شمالا . وقـد استمر عداء الآراميين للعبرانيين نحو قرنين من الزمان – ومن الدويلات الآرامية التي كانت تنازع العبرانيين مملكة صوبة التي كانت إلى جنوب زحلة في سهل البقاع ، وقد انتصر داود ملك العبرانيين على هذه المملكة كما احتل دمشق – ثم تناوبت دمشق وصوبة السيادة بعد ذلك ، فبعد أن كان ملك دمشق تابعا لصوبة قام بمحاربة العبرانيين طوال عهد سليمان [١] وانتقلت السيادة بعدئذ

---

(١) سفر الملوك الأول ١١ : ٢٥

إلى دمشق التي حالفها الحظ بانقسام مملكة العبرانيين إلى مملكتين (اسرائيل ويهودا سنة ٩٢٢ ق . م) حيث أخذت تؤلب إحدى هاتين المملكتين ضد الأخرى - وتمكن ملك دمشق بنحدد الأول، (٧٨٩ - ٨٤٣ ق . م) من أن يأخذ من ملك يهودا كنوزا ثمينة من المعبد ومن القصر الملكي في أورشليم ثم هاجم إسرائيل وأخضعها (إسميا على الأقل) لسلطانه - وحينما تحالفت المدن السورية ضد شلمناصر الثالث [١] كان ملك دمشق برأس الحلف الذي لم يتمكن الأشوريون من الانتصار عليه انتصارا حاسما ، وبعد نحو سبعين عاما أصبحت دمشق من الضعف بحيث هاجمها يربعام الثاني ملك اسرائيل وذلك لأن هجمات آشور ضعضعت قوتها - وفي عهد تيجلات بلاسر الثالث اجتاح الأشوريون معظم المدن السورية وحاصروا دمشق وأسقطوها في سنة ٧٣٢ ق . م وقتل ملكها وبذلك انتهت السيادة الآرامية .

وحينما سيطر الفرس على سوريا ومصر ازدهرت دمشق وأصبحت أهم المدن السورية كما اتخذت الامبراطورية الفارسية اللغة الآرامية إلى جانب الفارسية واستخدمت الهجائية الآرامية شعوب أخرى حتى أصبحت واسعة الانتشار وتشعبت إلى لهجات يمكن ضمها في فرعين للآرامية أحدهما يضم اللهجات الشرقية والآخر يضم اللهجات الغربية ، وما زالت بعض الجماعات في سوريا وبلاد النهرين وأرمينية تستعمل الآرامية .

د - الشعب العبراني

نزح العبرانيون من شبه جزيرة العرب إلى سوريا عن طريق كنعان في نفس الوقت الذي وصلها فيه الآراميون تقريباً ، فتسلسل العناصر السامية التي وصلت

---

(١) انظر اعلاه ص ٢٨١

إلى الإقليم السوري كان على النحو التـــالي : الأموريون تركزوا بادىء الأمر في الشمال والكنعانيون في الساحل والآراميون في المنطقة الداخلية والعبرانيون في الجنوب .

ولا يوجد من الوثائق والنصوص ما يشير إلى تاريخ العبرانيين سوى نذر يسير أو إشارات عابرة في كتابات الأقوام الذين احتكوا بهم وما روتـــه التوراة عن تاريخهم ، ورغم ما يبدو فيها من اضطراب وزيف فإنها تعدأوفى ما كتب عنهم حتى أن المؤرخين يعتبرونها المصدر الرئيسي لتاريخهم ولذا اعتمدوا عليها في كتابة هذا التاريخ .

وإذا ما أخذنا بما ترويه التوراة عنهم نجد أنها تذكر أن هؤلاء العبرانيين أتموا هجرتهم إلى فلسطين على ثلاثة مراحل ، أقدمها كانت إلى الصحارى القريبـة من شمال بلاد النهرين ، ويرجح أنها كانت في نفس الوقت الذي حدثت فيـــه تحركات الهكسوس في شرق البحر المتوسط أي في القرن الثـــامن عشر ق.م ، والثانية توافق هجرة الأراميين أي حوالي القرن الرابع عشر ق.م ، والثـالثة كانت في أواخر القرن الثالث عشر ق م وفيهـــا خرجوا من مصر إلى جنوب شرق فلسطين بعد جولة ليست بالقصيرة في شبه جزيرة سيناء .

وحينما وصلت هجرتهم الأولى إلى الإقليم السوري كان السواد الأعظم فيـه من الأموريين والكنعانيين بالإضافة إلى بعض العناصر غير السامية كالحوريـــين والحيثيين وغيرهم — وقد استطاع هؤلاء العبرانيون أن يختلطوا بهؤلاء جميعـاً وأن يتعلموا حياة الاستقرار بعد أن كانوا من المتجولين المغامرين، واتخذوا اللغة الكنعانية بدلاً من لغتهم الأصلية كما تأثروا بكثير من مظاهر الحضارة والثقافة الكنعانية ولذا يمكن اعتبارهم ورثة للكنعانيين أو أخلافاً لهم حيث تذكر

الأساطير العبرانية أن جدهم الأكبر ابراهيم (أو قبيلتهم الأصلية) أتى من أور الكلدانيين عن طريق حران واستقر مؤقتاً قرب حبرون (الخليل) الأمر الذي يعتقد المؤرخون أنه يتفق مع الهجرة الأولى - وأن حفيده يعقوب (ابن اسحق) عاش عدة سنوات في فدان آرام ثم انتقل إلى مصر ، ويحتمل أن هذا هو ما يتفق مع هجرتهم الثانية ، وحينما وقع الاختيار على إسحق ليكون صاحب الشأن بينهم غير اسمه إلى اسرائيل كما غير أخوه عيسو اسمه هو الآخر إلى أدوم وسمى ورثته بالأدوميين - ومن أبناء يعقوب كان يوسف الذي وصل إلى مكانة مرموقة في مصر [1] ، وبعد أن عاش أحفاد يعقوب فيها عدة أجيال أخرجوا منها وكان يقودهم موسى ، وهذه هي هجرتهم الثالثة التي تعد بداية التاريخ الحقيقي للاسرائيليين .

ولا يعرف تاريخ هذه الهجرة الأخيرة بالضبط رغم أن كلمة اسرائيل وردت على لوح حجري من عهد مرنبتاح [2] بن رعمسيس الثاني وقد ظل أفرادها يتجولون طويلاً في سيناء حيث قاسوا كثيراً ، وتزوج موسى من ابنة كاهن مدين (في جنوب سيناء) الذي كان يدين بوحدانية يعبد فيها يهوه وهو أحد آلهة العرب الشماليين - ثم اتخذت هذه الجماعة الإسرائيلية مكاناً لها في جنوب شرقي الأردن استعداداً لدخول فلسطين وكان عددها يقدر بحوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ نفس ومرت في طريقها بدويلات صغيرة في جنوب وشرق وشمال شرقي البحر الميت - ولم تحاول مهاجمة هذه الدويلات ولكنها حاربت إمارة سيحون الأمورية (في شرق الأردن) وانتصرت عليها كما انتصرت على إمارة باشان التي كان ملكها عوج بن عنق المشهور في التوراة على أنه كان من العمالقة -

---

(١) يحتمل أن أحد ملوك الهكسوس هو الذي قرب يوسف اليه باعتباره من أصل سوري مثله.
(٢) أنظر ص ١٩٣

واستولوا على بعض المدن الكنعانية المحصنة في فلسطين وأحرقوها وقتلوا أهلها حتى الأطفال ، ولكن بعض المدن الأخرى استعصت عليهم مثل جزر وأورشليم وبيت شان ، وهذه الأخيرة لم تسقط في أيديهم إلا حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م أو بعد ذلك بقليل .

وبعد أن استقروا في الجهات التي وصلوا اليها اختلطوا بسكانها ومن بينهم أقرباؤهم الذين كانوا قد فضلوا البقاء فيها من قبل ولم يهاجروا إلى مصر ، ثم تغلغلوا في أماكن أخرى ، وبعدئذ قسموا الجهات التي سيطروا عليها بين إحدى عشرة قبيلة من القبائل الاثنى عشر التي تضمهم - أما القبيلة الباقية وهي قبيلة « لاوي الكهنوتية » فقد تفرغت للشؤون الدينية ووزعت على القبائل الأخرى ، وهذا هو ما يعرف بعصر القضاة .

وهؤلاء القضاة كانوا أبطالاً وحكاماً قادرين قادوا قبائلهم في حروبهم ضد أعدائهم واشتهر منهم كثيرون من بينهم شمشون الجبار حيث روت عنه الأساطير العبرانية الشيء الكثير فيما يتعلق بحروبه مع الفلسطينيين الذين كانوا أشد أعداء العبرانيين ، وهم من شعوب البحر التي جاءت من منطقة إيجة في أواخر القرن الثالث عشر ووصلوا إلى سواحل سورية الجنوبية واستقروا بها (ومن اسمهم اشتق اسم فلسطين) ، وقد حاولوا الدخول إلى مصر في عهد رعمسيس الثالث [١] ولكنه هزمهم وحال دون توغلهم إليها ، ومن مدنهم الخمسة الرئيسية كونوا اتحاداً بزعامة أشدود - وفي حوالي سنة ١٠٥٠ ق.م حاربوا العبرانيين وانتصروا عليهم وأخذوا منهم تابوت العهد [٢] ونقلوه إلى أشدود .

---

(١) أنظر ص ٢٠٠

(٢) تروي الأساطير أن تابوت العهد صندوق طويل من الخشب صنعه موسى عليه السلام (كان يوضع في أقدس مكان من المعبد العبراني بعد بنائه) وكان به لوحان من الحجر منقوشان بالوصايا العشر وقبل أن يشيد المعبد كان العبرانيون يحملون هذا التابوت معهم في ترحالهم .

ويبدو أن العبرانيين حينما وجدوا أن جيرانهم كان يحكمهم ملوك طلبوا إلى زعيمهم الديني « صموئيل » أن يعين عليهم ملكاً فاختار « شاؤول »، ولكن هذا كان ضعيفاً مسناً، ازداد نفوذ الفلسطينيين في عهده وتسلطوا على مدن داخلية بعيدة مثل بيت شان، وحينما حارب الفلسطينيون العبرانيين انتصروا عليهم وقتلوا ثلاثة من أبناء شاؤول وأصيب هو نفسه بجراح خطيرة فانتحر .

وتشير التوراة إلى أن داود كان حاملا لدرع شاؤول وأنه اختير ملكاً من بعده وهو يعد المؤسس الحقيقي للمملكة العبرانية، فمع أنه بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين إلا أنه نجح في التخلص من سلطانهم وتمكن من توسيع مملكته إلى حد لم تبلغه في أي وقت آخر [1] واختار حصن أورشليم ليكون عاصمة له، وفي عهده ظهر الأدب العبري الذي يعتبر من أرفع الآداب التي خلفها الشرق القديم ودونت في عهده الحوادث والحوليات الملكية في أسلوب حيوي لم يكتب مثله من قبل .

وورث سليمان ملك أبيه داود، وفي عهده وصلت المملكة إلى غاية المجد والأبهة وتنسب اليه التوراة أنه عاش [2] بين مظاهر الترف كملك شهواني [3] مستبد فحذا حذوه العبرانيون، وأن أعماله العمرانية كانت عظيمة للغاية ومنها هيكله الشهير الذي كان عبارة عن معبد ملكي ملحق بالقصر

---

(١) من بين الإمارات التي أخضعها « إيدوم » وقد أسرف قائده في ذبح الذكور من أبنائها ولكن أميرا إيدوميا حديث السن يدعى حداد هرب إلى مصر حيث أكرم فرعونهـا وفادته ومع ذلك عاد إلى فلسطين على غير إرادة الفرعون وأصبح عدواً مدى الحياة لسليمان، أنظر : سفر الملوك ١ الاصحاح ١١ الآيات ١٤ وما بعدها .

(٢) سفر الملوك الاصحاح العاشر ١٤ ـ ٢٩ وأخبار الأيام الثاني اصحاح ٩

(٣) سفر الملوك الاصحاح الحادي عشر ١ ـ ٥

تم إنشاؤه في سبع سنوات [1] ثم أصبح بعد ذلك مركزاً عاماً لعبادة العبرانيين، وقد نشطت التجارة في عهده وعم الرخاء حتى أجمعت الأساطير والقصص على إعلاء شأنه وإن كانت بعض الوثائق التاريخية توحي بأن فلسطين كانت تعترف بالسيادة المصرية في ذلك العهد، وقد تزوج سليمان من ابنة فرعون (الذي يرجح أنه بسونس الثاني آخر ملوك السلالة الحادية والعشرين) — وحينما استولي الفرعون على حصن جزر الكنعاني أعطاه مهراً لابنته زوجة سليمان [2] وتذهب التوراة إلى أن نفقات هذا الأخير وتبذيره وسوء إدارته كانت سبباً في انقسام المملكة من بعده حيث لجتمع ممثلو القبائل العبرانية الاثنى عشر بعد وفاته لتنصيب ولده رحبعام ملكاً وأبدوا له رغبتهم في أن يخفف عنهم عبء الضرائب التي فرضها عليهم والده فرفض ذلك بقسوة وتهور، وعلى ذلك رفضت عشرة قبائل أن تعترف به ملكاً وانتخبت «يربعام» بدلا منه وعرفت مملكتهم باسم اسرائيل، أما القبيلتان الباقيتان فخضعتا لرحبعام وعرفت المملكة التي تكونت منهما باسم «يهودا» وقد تنافست المملكتان واستحكم العداء بينهما وكان الصراع بينهما سجالا فكانت كل منهما تتفوق على الأخرى أحياناً حتى انتهى الأمر بانهيارهما.

اسرائيل

كان «عمرى» من أشهر ملوك اسرائيل (ويدل اسمه على أنه كان من أصل عربي أو نبطي)، بنى السامرة وحصنها واتخذها عاصمته الجديدة وبنى فيها قصراً.

---

(١) سفر الملوك الاصحاح السادس ١ - ٣٨

(٢) سفر الملوك ١ الاصحاح ٣ الآية ١ والاصحاح ٩ الآية ١٦.

وحينما تولى العرش «آحاب» بن عمرى وسع في قصر أبيه وزخرفه، وقد عرف هذا القصر باسم بيت العاج حيث عثر فيه على أثاث منزل من العاج يبدو أن كثيراً منه كسي بالذهب – وكانت علاقة آحاب بن عمرى مع جيرانه ودية فقد حالف مملكة دمشق في معركتها ضد آشور وتزوج من ابنة ملك صور وصيدا ، وهذه كانت قوية الشخصية فرضت سيطرتها على زوجها كما أرادت فرض عبادة يهوه على إسرائيل .

وبعد فترة وجيزة قام أحد الضباط واسمه ياهو بالثورة وتمكن من الاستئثار بالملك وجعل عبادة يهوه العبادة الوحيدة في إسرائيل ، ولكن هذا الملك لم يكن موفقاً في سياسته الخارجية حيث خضع لشلمناصر الثالث ملك آشور وقـــدم له الجزية – ولفرط ضعف كل من إسرائيل ويهودا في ذلك العهـد قامت إمارة من الإمارات بالثورة ضد إسرائيل ، وفي نفس الوقت قامت ثورة أخرى ناجحة ضد مملكة يهودا ولكن ما لبثت قوة إسرائيل أن تجددت في عهد يربعام الثاني وهو ثالث ملك من سلالة ياهو حيث أمكنها أن توسع حدودها الشماليـــة على حساب الآراميين .

وظلت إسرائيل تنعم بالهدوء إلى أن اعتلى تجلات بلاسر الثـــالث عرش آشور الذي ما لبث أن أخضع سورية وحولها إلى مقاطعـــات أشورية وفرض الجزية على إسرائيل التي انكمشت مساحتها حينئذ – وبعد بضعة سنوات رفض هوشع ملك إسرائيل الاستمرار في دفع الجزية فهاجمه شلمناصر الخامس وريث تجلات بلاسر المذكور وحاصر السامرة ثلاث سنوات ولكنها لم تسقط إلا في يد خلفه سرجون الثاني الذي سبى أحسن رجال إسرائيل وعددهم ٢٧٠٨٠ ونقلهم إلى ميديا فتلاشت مملكة إسرائيل إلى الأبد (٧٢٠ ق.م) حيث أن الباقين من الرجال لم يكونوا إلا قسماً صغيراً من سكان المملكة يقع في غرب نهر الأردن،

أما المسبيون فقد اندمجوا مع غيرهم في المناطق التي نقلوا إليهـا – ولم يكتف سرجون وخلفاؤه بذلك بل نقلوا قبائل من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب محل الإسرائيليين وأسكنوهم في السامرة وما حولها فامتزج هؤلاء بالسكان واتحدت معتقداتهم الدينية مع عبادة يهوه وأصبح يطلق على الجميع اسم السامريين، ولكن ما لبث النزاع أن نشب بين اليهود والسامريين بعد عودة بعض أنبيائهم من السبي حيث أن هؤلاء دافعوا عن فكرة النقاوة العنصرية .

يهودا

اعتلى العرش فيها عدد من الملوك مساو لعدد ملوك اسرائيل (أي ١٩ ملكاً)، إلا أن هذه المملكة استمرت مده أطول من المدة التي عاشتها إسرائيل بنحو قرن وثلث من الزمان وفي عهد ملكها رحبعام تعرضت لغزو مصر على يد فرعونها شيشنق الذي كان قد زوج ابنته من يربعام ملك اسرائيل ، ولم يتمكن رحبعام من صد هذا الغزو فاستطاع شيشنق أن يخرب المدن وأن ينهب أورشليم [1] ، وحينما توقف نشاط كل من آشور ومصر أفادت كل من إسرائيل ويهودا من استقرار الأمور وعمدت يهودا إلى تنظيم جيشها كما أصلحت حصونها ووسعت حدودها ونظمت شئونها الداخلية إلا أنها بعد زوال مملكة إسرائيل أصبحت عرضة للهجمات المباشرة من آشور – وبالرغم من تزايد الخطر على يهودا لم يتبع ملوكها سياسة حكيمة ، فعندما اعتلى العرش ملكها حزقيا استجاب لتشجيع مصر رغم تحذير النبي أشعيا له وتحدى آشور بالتحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها من المدن المجاورة ضدها فتوالت على يهودا حملات سرجون وخلفه سنخريب الذى حاصر أورشليم ولكنها لم تسقط في يده، ومع ذلك فقد أجبرت يهودا على دفع الجزية بعد أن خضعت كلها فيما عدا أورشليم لسلطان آشور

(١) أنظر أعلاه ص ٢٠٨

واستمرت آشور في توسعها فخضعت لها مصر في عهد آسرحدون وآشور بانيبال [١] وتقلصت مملكة يهوذا وظلت تدفع لها الجزية بانتظام .

وما أن دب الضعف في آشور حتى استقلت مصر وحاولت يهودا أن تعيد وحدتها مع إسرائيل ، وبعد أن سقطت نينوى على يد الدولة البابلية الجديدة وميديا سعت مصر إلى إعادة امبراطوريتها ثانية في سوريا وقام ملكها نخاو بحملة وصل فيها إلى قرب أعالي الفرات ، وقد قاومه يوشع ملك يهوذا حيث اعتبر نفسه تابعاً لبابل الجديدة وريثة آشور ولكنه قتل في مجدو — وبعدئذ ترددت يهودا بين الخضوع لبابل وبين التحالف مع مصر ، واختار يواقيم ملكها حينئذ التحالف مع مصر وكان جزاؤه أن دخل نبوخذ نصر أورشليم وقيده بالسلاسل ليحمله معه إلى بابل ولكنه قضى نحبه وتبعه في الحكم ولده الذى لم يمكث سوى ثلاثة شهور ثار فيها على بابل فجاء نبوخذ نصر إلى أورشليم وسبى الملك ونساءه وموظفيه وسبعة آلاف من الجنود وألف من مهرة الصناع ونقلهم إلى بابل وعين صدقيا وهو عم الملك السابق ملكاً على يهودا — وظل هذا الأخير يتظاهر بالولاء لبابل بضعة سنين ثم حاول الاستقلال فجاءت الجيوش البابلية وخربت أورشليم وهرب الملك ولكنه أدرك في أريحا وجيء به إلى معسكر نبوخذ في ربله حيث قتل أبناؤه أمامه ثم سملت عيناه وحمل إلى بابل ، وسبى الأشوريون عظماء المدينة وغيرها من البلاد (وكان عددهم خمسين ألفاً تقريباً فلم يبق في يهودا إلا جماعة من البائسين) ودمروا كل مدينة مهمة ما عدا صور التي قاومت الحصار نحو عشر سنوات ثم خضعت بعد ذلك ، ولما حاولت الثورة أخمدت ثورتها بسهولة وعلى ذلك أصبحت سوريا كلها في يد الكلدانيين .

ولما صارت الامبراطورية الفارسية تتحكم في معظم أقطار الشرق الأدنى

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٢٣ وما بعدها .

عاملوا اليهود المسبيين في بابل معاملة حسنة وأعادوا من رغب منهم إلى أوطانهم في فلسطين وتكونت الدولة اليهودية التابعة للفرس متمتعة باستقلال ذاتي ونعم اليهود في ظل العرش بالهدوء والاستقرار وظلت علاقات الوئام قائمة بينهما .

ثانياً – العناصر غير السامية

الحوريون والميتانيون

ظهر الحوريون في التاريخ من منتصف الألف الثالث ق.م (أي منذ العهد الأكدي) حيث كانوا ممثلين بأعداد قليلة في شمال بـلاد النهرين شرقي نهر دجلة ثم زاد عددهم منذ عهد سلالة أور الثالثة[1]، وزادت مساحة الأراضي التي شغلوها في منتصف الألف الثاني ق.م وأصبح لهم كيان سياسي في شمال بـلاد النهرين وسورية وبعض جهات الأناضول ، وفي ذلك الحين كان الساميون أكثرية في وسط الفرات وجنوب سورية وفلسطين ، ويحتمل أنهم هم الذين غزوا آشور بعد شمش أدد الأول [2] وحمورابي – وبلغ نفوذهم أوجه عندما أسسوا دولة قوية في شمال سورية بالإضافة إلى مكانتهم في العراق ولعبوا دوراً هاماً في سياسة المنطقة ، ومن بعد سنة ١٥٠٠ ق.م تقلص نفوذهم في المنطقة ولكنهم مع هذا كونوا في الإقليم الذي تركزوا فيه في شمال بلاد النهرين دولة قوية عرفت باسم مملكة ميتاني يستدل من أسماء ملوكها على أن الطبقة الحاكمة فيها كانت من العنـاصر الهندوأوربية غير أننا لا نستطيع الجزم بالأصل الجنسي لعامة الحوريين .

وقد بلغ من قوة هذه الدولة أنها كانت تحكم المساحة الممتدة بين البحر المتوسط ومرتفعات ميديا بما في ذلك آشور التي خضعت لنفوذها نحو قرن من الزمان حتى تحررت في عهد ملكها آشور أوبلط الأول (حوالي ١٣٦٥ –١٣٣٠ق.م)

---

(١) أنظر عودة الدولة السومرية في بلاد النهرين

(٢) ملك آشور الذي يعاصر حمورابي وقد حكم حوالي ١٨١٤ – ١٨٧٢ ق.م

وكانت شوكاني (التي يرجح أنها الفخارية الواقعة على نهر الخابور في شرقي تل حلف) عاصمة لميتاني ، ومن أهم مراكزها نوزي ويوزغان تبة وأربخا جنوب كركوك الحالية - وقد عرفت هذه المملكة في النصوص المصرية باسم نهارينا، ومن أشهر حكامها هاني جلبات ثم توشراتا الذي كان صهراً لأمنحتب الثالث [١] وأمنحتب الرابع - وبعد أن نجحت المملكة الحورية في الاعتداء على الأراضي الحيثية على أثر ما أصاب الحيثيين من ضعف عقب موت تليبينوس استعاد الحيثيون قوتهم بعد ذلك في عهد ملكهم سوبيلوليوما وهاجموا المملكة الميتانية في عهد ملكها توشراتا واستمرت حملاتهم عليها في عهد خلفه أيضاً وانتهت هذه الحملات باستيلاء الحيثيين [٢] على القسم الشمالي من سورية - الذي يحده الفرات في الشرق ولبنان في الجنوب ثم ما لبث الأشوريون أن استولوا على القسم الباقي منها في عهد ملكهم أددنيراري وهكذا زالت دولة ميتاني من الوجود.

---

(١) أنظر ص ١٧٥

(٢) أنظر عهد سوبيلوليوما في الامبراطورية الحيثية وخاصة ص ٣١٢ ، ٣١٣

الفصل السادس

آسيا الصغرى

يرى البعض أن المناخ في هضبة الأناضول تتعدد أنواعه إلى درجة تدعو إلى الإعتقاد بان الممكن أن يجد في أجزائهـــا المختلفة كل من الانجليزي والأفريقي والسويسري والروسي وغيرهم نوع المناخ الملائم له – فهضبة أرمينيا التي تمـد امتدادا لسلسلة جبال البرز المطلة على بحر قزوين ، يصل ارتفـــاع بعض قممها في أرارات إلى ١٧ الف قدم وتنتهي إلى خطوط تقسيم مياه الفرات التي تعتبر الحدود الطبيعية لهضبة الأناضول بالمعنى الصحيح ، ومن هـــذه الهضبة تخرج سلسلتان جبليتان تسير إحداهما في محاذاة ساحل البحر الأسود وتمتد الثـــانية إلى الجنوب الغربي حتى تصل إلى البحر المتوسط وهما تحصران الهضبة الوسطى حيث تمتد السلسلة الشمالية إلى ما يعرف باسم القوس البونتي Pontic Arc الذي لا يتخلله إلا بعض الأخاديد العميقة تمر فيها مياه الأنهـــار إلى البحر الأسود بينما تنتهي السلسلة المقابلة لها جنوبا إلى سهول قيليقيا (خريطة رقم ٥)،فالهضبة فيما بين هاتين السلستين أشبه بحوض متوسط وفي غربها توجد عـــدة بحيرات وأنهار تنحدر بشدة إلى بحر إيجه حيث تنتهي شبه الجزيرة بسلاسل جبليـة متوازية تمتد نحو هذا البحر،وهي تمد امتداداً للسلاسل الموجودة في بلاد اليونان وهكذا تنوعت التضاريس وأدى ذلك إلى اختلاف المنـــاخ وتباينه في أجزاء هضبة الأناضول المختلفة ، ومع كل فإنها تتميز بشتاء قاس طويل ولم تكن مغرية

بالسكنى في الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى هذا لا شك في أن القرويين الذين عرفوا الزراعة والاستقرار لم يكونوا هم أول من غامر بسكنى الهضبة وكانت لديهم الشجاعة على تحمل شتائها الطويل ولذا ينبغي أن نستنتج بأن الهضبة سكنتها أقوام سبقت أولئك الذين عاشوا فيها معيشة استقرار بعد أن عرفوا الزراعة وأن هؤلاء الأخيرين لا بد وأنهم وفدوا إلى الهضبة من الخارج – وإذا ما حاولنا أن نتعرف على الموطن الأصلي الذي جاء منه هؤلاء لوجدنا أن الأدلة الأثرية تعوزنا في هذا السبيل – وإذا ما درسنا الظروف المحيطة بالهضبة بدقة فإننا نستبعد قدومهم من المناطق الجنوبية البعيدة في الهلال الخصيب لأن سكان هذه الجهات كانوا قد تحولوا من البداوة إلى حياة الزراعة والاستقرار وليس من اليسير أن يتركوا أوطانهم إلى داخل هضبة الأناضول إنما المعقول أن يكون هؤلاء الوافدون قد جاءوا من القوقاز أو من منطقة بحر قزوين حيث وصلت في نفس الوقت هجرة أخرى من عنصر جنسي مخالف (ولكنه كان يعيش في ظروف مشابهة تقريباً) إلى المناطق التي تحف ببحر إيجه من الغرب ، وقد عاش هؤلاء الأخيرون مع السكان الأصليين – الذين سبقوهم إلى تلك الجهات – في وئام تام فترة طويلة .

ويجب أن نلاحظ بأن آثار أماكن الإقامة أثناء الدور الحجري القديم في آسيا الصغرى وجدت – كما في الجهات الجبلية الأخرى – التي تحف بالهلال الخصيب (فلسطين وكردستان العراقية وإيران) في كل من الكهوف والعراء ...

أما الحجري الحديث الذي يرجح أنه كان في الألف الخامس قبل الميلاد فتتمثل آثاره في أعمق الطبقات في بعض البقاع مثل مرسين وطرطوس وساكجي جوزي التي تحتل مواقع جغرافية تجعل ظروفها مشابهة لظروف الأماكن التي وجدت بها آثار الحجري الحديث في الهلال الخصيب ولذا فهي تعد



خريطة رقم ٥

الامتداد الشمالي لهذه الأماكن فمند دراسة الحجري الحديث في الإقليم السوري تلحق به لأنه أقرب إليها من داخل الهضبة [١] .

العصور قبل التاريخية

الدور الحجري القديم

ظل البحث عن آثار هذا الدور فترة طويلة بطريقة غير منظمة وعلى أسس غير علمية وعلى ذلك فإن أى خريطة لتوزيع ما عثر عليه في تلك الفترة من آثار هذا الدور تعطى نتائج خاطئة لأنها مركزة في المناطق التي يكثر ارتيادها لسبب أو لآخر، ومع كل فمن بين الجهات التي وجدت فيها تلك الآثار قرقميش وملاطيا وحول العاصمة الحديثة أنقرة .

ومن الممكن تبعا لذلك أن نستنتج بأن الإنسان وجد في الأناضول منذ بداية الدور الحجري القديم ، ومن المناطق التي لها أهمية خاصة منطقة آديامان (Adiyamau) التي تقع في حوض الفرات الأعلى بالقرب من ملاطيا (Malatya) لأن الا ثار التي وجدت بها تبين تعاقب معيشة الجماعات البشرية بها كما أنها تعد بمثابة حلقة الاتصال الأولى بين حضارات الإقليم السوري من جهة وبين تلك التي وجدت في كردستان والقوقاز من جهة أخرى – ويجب أن لا يغيب عن الذهن بأن الدلائل الأثرية التي اعتمد عليها الباحثون حتى الآن تتكون في معظمها من مجموعات متفرقة من المخلفات السطحية ومن الآثار التي اكتشفت غير منتظمة في طبقات ، أما النتائج التي أمكن التوصل إليها على أسس سليمة فهي تلك المترتبة على الاكتشافات التي تمت في كهف كارين (Karain) بالقرب من أنطاليا (Antaly) حيث وجدت آثارحضارات

---

(١) أنظر ٢٦٨

أشولية وموستيرية وأورنياسية متتابعة في طبقات ، كما عثر على آثار لبعض حفريات حيوانية فقرية أهمها دب الكهوف Ursus spelaeue وأسد الكهوف Felis leo spelaeus كما عثر على سنة من أسنان طفل من جنس نياندرثال .

الدور الحجري الحديث

بدأ سلوك الانسان في الهضبة كما في غيرها يتغير خلال هـــذا العصر حيث أخذ في استئناس الحيوان وعرف الزراعة المنظمة وكان هذان كافيين لأن يغيرا من نظام حياته تغييرا شاملا ، وقد عرف الأواني الفخارية وعنى بتشكيلهـــا وزخرفتها مـــع احتفاظه فيها بأشكال ورسوم تقليدية (أنظر شكل ٢٧) كما استحدث أنواعا من الآلات الحجرية لتقابل مطالب الحياة الجديدة ، وكانت الأسلحة الصوانية — ومن بينها السكاكين وأسنان المناشير ومخارز ثقب الجلود— أكثر هذه الآلات شيوعا في آسيا الصغرى حيث عثر على نماذج كثيرة منها بجوار البحيرة الملحة في الهضبة الوسطى ، وهذه يعتقد البعض بأنها جلبت مع التجار



(شكل ٢٨ ـ أواني وأدوات من مرسين د عصر حجري حديث)

الذين كانوا يفدون للبحث عن الملح — وإذا كان الأمر كذلك فلا بد وأن هؤلاء جاءوا من أمـــاكن بعيده لأن أقرب مراكز الاستقرار — مرسين وساكجي جوزي — تبعد نحو ٣٠٠ إلى الجنوب وراء منطقة الجبال .

ويبدو أن ثورة الدور الحجري الحديث كانت قاصرة على منطقة تحددها سلاسل طوروس والسفوح المطلة على سهول سوريا لأن هذه كانت موطن نمو الحبوب التي كان يعتمد عليها الاقتصاد الزراعي في هذه الحضارة ، ولكن نظراً لأن هذه الحبوب كانت تنمو أيضا في مناطق أخرى مثل القوقاز فلا بد أن انعدامها في داخل هضبة الأناضول كان يرجع إلى الظروف التي أوجدت حاجزا مناخيا جعل إنسان الدور الحجري الحديث يقف وراء حدود معينة فتمثلت حضاراته خارجها ، ولذا لا نجدها في الهضبة الداخلية بل على حافتها في بقاع مثل مرسين وساكجي جوزي التي أشرنا إليها عند دراستنا لسوريا [١] .

دور بداية استخدام المعادن

تتضح بداية استخدام المعادن من الناحية الأثرية بواسطة عدد من المستحدثات التي كان لها أثرها بالطبع في زيادة وتنويع أساليب الحياة التي كانت قائمة بالفعل ولكنها لم تحدث تطورا ثوريا ، أى أن الإنسان ظل يتدرج في استعمال الحجر إلى جانب بدء استخدامه للمعدن فترة طويلة يحتمل أنها استغرقت الجزء الأعظم من الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد ، ولذا لا تمثل هذه الفترة مرحلة واحدة بل عدداً من مراحل التطور الحضاري – وحينما بلغت الحضارة في هذا الدور منتهاها كان الإنسان يعيش في مدن محصنة بها معابد وقصور ويشرع قوانينه ويكيف حياته حسب حاجياته ، ونظراً لأن هذه المظاهر لم يعثر على ما يماثلها داخل هضبة الأناضول خلال هذا الدور فإن من المرجح أن الحاجز المناخي الذي أشرنا إلى أنه كان قائما خلال الدور الحجري الحديث [٢] ظل قائما كذلك

---

(١) أنظر ص ٢٦٨

(٢) أنظر أعلاه

إلى أواسط دور استخدام المعادن على الأقل فظلت الجهات الداخلية من الأناضول مجهولة بالنسبة لأهل حضارة بدء استخدام المعادن ولم ينتبهوا إليها إلا في أواخر هذه الفترة — وهذا الحاجز المشار إليه يكاد ينطبق على خط كنتور المرتفعات الجنوبية الذي يصل إلى ارتفاع ألفي قدم أو أكثر ويمتد من المشرق إلى المغرب ولكن تتخلله فجوات عميقة تخترقها وديان بعض الأنهار وتصل شمالاً إلى سهل قيليقيا.

وعلى أي حال ففي وقت ما من القرون الأخيرة للألف الرابع قبل الميلاد تمكنت الجماعات التي تعتمد على الزراعة من أن تعيش في بعض الجهات الواقعة شمال هذا الحاجز المناخي وبدأت المحلات الزراعية تظهر في الهضبة نفسها وفي الإقليم الإيجي في الغرب ، ولكننا لا نستطيع الجزم بالمكان الذي جاءت منه هذه الجماعة ، فما زالت المعلومات التي أمكن الوصول إليها عن هؤلاء الأناضوليين الأوائل ضئيلة للغاية وغير كافية لأنها جاءت عن طريق الاكتشافات التي تمت في مواقع قليلة ومعظمها لا تخرج عن كونها نتجت عن مجسات طبقية في بعض الأماكن أو أشياء وجدت على سطح الأرض في أماكن أخرى ، ومع هذا يمكن القول بأنها تغطي مساحة جغرافية لا بأس بها إذ أنها تمتد من أقصى الغرب إلى حدود إيران ، ولو أنها في أول الأمر كانت عبارة عن سلسلة من الاكتشافات المتفرقة التي أمدتنا بمخلفات تتميز في كل موقع أو مجموعة من المواقع المتجاورة عما عداها ولم يمكن معرفة أنها ترجع إلى دور بداية استخدام المعادن إلا عن طريق أدلة الطبقات فقط .

ومن أمثلة الإختلاف في آثار الجهات المختلفة ما يشاهد من فوارق بين المخلفات التي عثر عليها في كل من عليشار وأزجوق (بالقرب من سمسون ودنداراتبه) وبيوق جلوجك (بالقرب من ألاجا) وطرواده وكوم تبه وغيرها — ومع أن كلا من هذه تتميز عن الآخرين في صفات معينة إلا أن هذه الصفات الخاصة

ترجع – دون شك – إلى اختلاف المظاهر الجغرافية التي كانت تميز تلك البيئات المختلفة ، ويرى البعض أن من المحتمل وجود صلة بين الأناضول والبلاد التي تحف ببحر إيجة وامتدادها شمالاً حتى حوض بحر الدانوب ، ويؤكد وجهة نظرهم هذه ما يرى من تشابه بين أشكال الفخار التي اكتشفت حديثاً في بقعة تعرف باسم فكيرتبه Fikirtepe (على الشاطىء الآسيوي للبسفور) مع فخار جلوجك مما يساعد على معرفة اتجاه حركة الاستيطان الأولى في الهضبة – ومن الغريب أن المخلفات الأثرية في الأناضول لا تدل على أي نوع من الصلات التي تربطها بمخلفات الحضارة التي تطورت عن حضارة العصر الحجري الحديث فيما وراء الحاجز الجنوبي ، وعلى هذا نستبعد كلية احتمال استيطان هضبة الأناضول عن طريق انتشار سكان تلك الجهات الجنوبية إلى الشمال – والواقع أن أول الاتصالات الملحوظة بين هؤلاء وبين جيرانهم في الأناضول على الساحل الغربي لآسيا الصغرى يرجع إلى وقت تكوين أول محلة في طرواده [1] أي في عصر البرونز القديم الذى استغرق الجزء الأكبر من الألف الثالث ق.م مع أن استخدام النحاس لم يعرف في داخل الهضبة إلا في وقت متأخر عن ذلك ، ويبدو أن المجتمعات التي عاشت في داخل الهضبة – في فترة لا يمكن تحديدها من القرون الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد – امتزجت مع بعضها البعض وانصهرت في وحدة بشرية جديدة لا تحمل إلا شبهاً بسيطاً لأى عنصر من العناصر الأولى التي دخلت في تكوينها ولم يحدث ما يحول دون تطور تلك الجماعات في هدوء وبطء إذ أنهم ظلوا ممثلين لمدة سبعة أو ثمانية قرون في كل قرية أو مدينة تجارية (من سقاريه إلى الفرات ومن البحر الأسود إلى سلاسل طوروس التي تكون حافة الهضبة) وكانوا يعيشون في نفس المنازل مستعملين لنفس الأدوات ومفضلين لنفس الأشكال في فخارهم ، وكانت ظروف ومعدات حياتهم

---

(١) Seton Lloyd , Early Anatolia (pelican A 354) , pp. 95 ff.

الزراعية معروفة من بضعة المحلات التي تم اكتشافها فلم يلاحظ في معظمها إلا تغير طفيف في حالات شاذة – وربما كانت هذه التغيرات الضئيلة في الصناعات التقليدية نتيجة هجرة قوية ، ومع ذلك فإن المظهر العام لحياتهم ظل كما هو إلى ما بعد الألف الثالث قبل الميلاد ، فانعدام مظاهر التقدم في مخلفاتهم يكاد يكون عاماً بينما عاصرت حضارات عصر استخدام النحاس في الأناضول حضارات بالغة الرقي في بقية أقطار الشرق الأدنى ، فمصر مثلا كانت تعيش في عهد الدولة القديمة وهو من أزهى عهودها التاريخية ولذا لا يمكن أن نقارن بين حضارات الأناضول وتلك التي كانت في الأقطار الأخرى خلال هذه الفترة بل ويمكن القول بأن منطقة طرواءة المطلة على بحر إيجة كانت منفصلة حضارياً عن داخل الهضبة ، والواقع أن قليلا من الأدلة الأثرية هي التي تربط بين المنطقتين في هذا العصر السحيق بحيث يصعب إيجاد صلة بينهما أما الأدلة على ارتباط طروادة (خلال هذا العصر) بإقليم بحر إيجة فهي متعددة وكافية لأن تؤيد وجود صلة بينهما .

ومع أن مخلفات الحضارات التالية من عصر النحاس في طروادة التي تتمثل في طبقاتها الأثرية ابتداء من الطبقة الثانية إلى الطبقة الخامسة – وهي التي تعد نموذجاً لكل المنطقة المحيطة ببحر إيجة – تشير إلى اقتصاد زراعي متواضع إلا أن بعض آثار فيها تدل على غنى عظيم يوحي بوجود مستوى أعلى للحياة بين الطبقات العليا ، وهذه تتمثل في وجود بعض حلي من الذهب والفضة عثر عليها شليمان Shliemann في الطبقة الثانية من حفائره في طروادة ، ولكن شواهد أخرى تدل على حدوث تغيرات واضحة فيما بعد حيث توجد آثار حريق عظيم في هذه الطبقة الثانية يرجع تاريخه إلى نهاية القرن ٢٤ ق.م تقريباً .

ولا يوجد من التشابه بين الحضارة التى سادت منطقة إيجة وتلك التي كانت

داخل الهضبة إلا مظاهر ضئيلة أخذت تختفي بعد ذلك، فقد وجدت في الصناعات المعدنية أثناء عصر النحاس طرز مشتركة في الأدوات وفي بعض المظاهر الزخرفية الصغيرة بكل من المنطقتين تكاد تكون من الكثرة بحيث توحي باحتمال الوصول إلى مراحل متشابهة في تطور نوع معين من الصناعة في الشرق الأدنى، بينما لا يتمثل ذلك التشابه في الفخار إلا في أشكال فردية يمكن أن تستخدم في المقارنة التاريخية، كما أن اختلاف بقية المظاهر الأخرى لا التشابه فيما بينهما هو الذي يستحق الدراسة لكي نتبين مدى اختلاف الحضارة في كل من المنطقتين — ولابد من الإشارة هنا إلى منطقة قيليقيا حيث أنها بالمثل تترك الهضبة من خلفها وتتجه نحو سوريا ولذا لا نتبين هنا إلا آثاراً طفيفة للاحتكاك بين مرسين وطرسوس من جهة وبين أهل طروادة من جهة أخرى خلال عصر البرونز القديم، أما في عصر النحاس فإن علامات هذا الإحتكاك وفيرة تدل على نشاط تبادل التجارة مع الهضبة عن طريق ممرات طوروس وعلى تغلغل الذوق السوري بل والفلسطيني أيضاً، ومن المنطق أن نستنتج بأن التيار الحضاري كان يتخذ طريقه عبر قيليقيا إلى وديان الأنهار والبلاد الواقعة في جنوب « حاجز الحجري الحديث » ومن ثم إلى الأراضي المرتفعة في شرق الفرات ثم إلى ساحل البحر الأسود في الشمال، ونظراً لأن هذه المساحات لم تدرس دراسة وافية بعد فإن أي شيء يقال عن تاريخها في عصر النحاس يكون في معظمه مجرد تخمين — والواقع أن المثال الوحيد لمخلفات هذا العصر يوجد في موقع يعرف باسم كاراز (Karaz) بالقرب من أرزروم (Erzurum) حيث عثر في طبقة أثرية تنتمي إلى عصر النحاس على طرز جديدة من الفخار يوجد ما يشبه لها في القوقاز .

والخلاصة أن جيران الأناضول في الشمال والشرق والجنوب الشرقي ما زالوا غامضين نسبياً إذا ما قورنوا بساحل المتوسط في غرب قيليقيا وقد يدل عدم وجود آثار في تلك الجهات على أنها لم تكن مسكونة بالفعل خلال هذا العصر —

وهكذا فالهيكل الأساسي لما نعرفه عن عصر النحاس يمكن تلخيصه في سطور قليلة ، ففي حوالي سنة ٢٣٠٠ ق.م تغيرت مميزات الحضارة في الأناضول نظراً لدخول طائفة من الناس تميل إ الفخار الملون الأجنبي الذي ينتمي إلى كبادوشيا وهنا نصل إلى نهاية العصرقبل التاريخي في هضبة الأناضول .

العصر التاريخي

أشارت التوراة إلى الحيثيين في عدد من أسفارها [١] كما أشارت النصوص المصرية إلى علاقاتهم مع ملوك الدولة الحديثة – الذين أطلقوا على بلادهم اسم « خيتا » كذلك ذكرها الأشوريون (من عهد تجلات بلاسر الأول) باسم « خاتي » – وظل أمرهم مجهولاً إلى أن أخذ الرحالة والمبشرين يجوبون شمال سوريا وآسيا الصغرى حيث عثر على أحجار وتماثيل منقوشة برموز غريبة لاتشبه الهيروغليفية المصرية أطلق عليها الهيروغليفية الحيثية.

وفي سنة ١٨٨٠ ألقى A. H. Syce محاضرة أمام جمعية الآثار الإنجيلية بلندن قرر فيها أن هذه من آثار الحيثيين ، وحينما قامت بعثة من المتحف البريطاني بالتنقيب في قرقميش كشفت عن نقوش عدة بهذه الكتابة ، كذلك عثرت بعثة تنقيب ألمانية على نقوش مماثلة في سنجرلي فيما بين ١٨٨٨ ، ١٨٩٢ .

ولما عثر على خطابات « تل العمارنة » المكتوبة بالخط المسماري في مصر سنة ١٨٨٧ أمكن التعرف على قدر لا بأس به من تاريخ الحيثيين و كان من بينها خطابان مكتوبان بلغة مغايرة اتضح أنها ذات صلة باللغات الهندوأوربية .

وفي سنة ١٩٠٦ بدأت بعثة ألمانية بإشراف هوجو فنكلر بالتنقيب في بوغاز كوي

(١) التكوين ، يشوع ، حزقيال ، الأعداد، الملوك الأول، الملوك الثاني، أخبار الأيام الثاني.

وكشفت عن آلاف من الألواح المسمارية الكتابة بعضها باللغة الأكدية التي كانت قد عرفت والغالبية بنفس لغة الخطابين اللذين عثر عليها في تل العمارنة وأمكن استنتاج أن هذه الألواح سجلات ملكية وأن بوغازكوي كانت عاصمة الحيثيين، ومما أيد ذلك العثور على الأصل الحيثي للمعاهدة التي أبرمت بين شوبيلوليوما وبين رعمسيس الثاني [1].

وقد عكف الألمان على دراسة النصوص المسمارية الحيثية ونجحت محاولاتهم إلى حد كبير في تفسيرها وخاصة بعد العثور على نصوص أشورية تشير إلى عدد من الأماكن والشخصيات الحيثية أمكن مطابقتها في النصوص الحيثية كما عثر على أجزاء من معاجم لغوية دونت فيها كلمات سومرية وأكدية وحيثية في جداول متوازية، كذلك وجدت كلمات سومرية وأكدية في بعض النصوص الحيثية مما ساعد كثيراً على نجاح المحاولات التي بذلت في تقسيم المسمارية الحيثية.

ومن جهة أخرى بذل الإنجليز وغيرهم محاولات وجهود مضنية في سبيل تفسير الهيروغليفية الحيثية ولكن يمكن القول أن النجاح في تفسيرها ما زال محدوداً وإن كان قد ثبت أنها تمت إلى الكتابة المسمارية بصلة.

ومما هو جدير بالذكر أن النصوص المسمارية التي عثر عليها في الأناضول شملت تسعة لغات مختلفة منها أربعة تمثل كل منها لغة مستقلة وهي الأكدية والسومرية والحورية والآرية وأربعة أخرى حوت عناصر متشابهة ولكن كلا منها استعمل في إقليم مختلف من آسيا الصغرى أما اللغة الباقية فكانت تنفرد بمميزات تختلف عن سائر اللغات الأخرى وهي تعرف حالياً باسم « ما قبل الحيثية » أو « الحاتية ».

---

(١) أنظر أعلاه ص ١٨٩

ومهما كان الأمر فإن الكتابات المسمارية كانت أهم ما اعتمدعليه المؤرخون في التعرف على تاريخ الحيثيين من مصادره الأصلية .

وقد اصطلح المؤرخون على أن العصر التاريخي في هضبة الأناضول يبدأ بوصول تجار أشوريين إليها وكان هؤلاء يتراسلون مع أوطانهم الأصلية باللغة البابلية حيث عثر على ألواح رسائلهم الطينية في كول‌تبه وغيرها – وهي لا تمدنا إلا بالقليل من المعلومات عن السكان الأصليين وتاريخهم غير أننا نتبين فيها كثيراً من الأسماء الهندأوربية مما يوحي بأن الهندوأوربيين كانوا قد استقروا في المنطقة قبل ذلك ، كما تحدثنا هذه الألواح عن الأمراء المحليين وقصورهم – ومن ذلك نستنتج أن البلاد كانت مقسمة إلى عشرة مقاطعات صغيرة على الأقل من بينها مدينة بوروش خاندا التي تمتعت بالسلطان في بادىء الأمر لأن حاكمها كان مميزاً عن حكام المدن الأخرى بلقب الأمير المعظم ، ومدينة كوسارا[1]التي ترك أميرها أنيتا بن بتخانا نصاً يشير إلى كفاحه وكفاح أبيه من أجل السلطان ضد بعض المدن المنافسة ومن بينها حاتي كما يذكر أنه قد تم إخضاع هذه المدن بنجاح وأن حاتوساس دمرت تدميراً تاماً وبعد أن تم له قهر جميع الأعداء نقل مقر حكمه إلى نيسا Nesa ، ويظهر أن هذا الملك قد تمكن في أواخر عهده من الاستيلاء على الجزء الأكبر من هضبة كبادوشيا .

ولا يعرف متى أدخلت الكتابة الحيثية بالخط المسماري إذ أنها تختلف اختلافاً بيناً عن الأسلوب الذي استعمله التجار الأشوريون في كتابة لغتهم وخاصة لأن النصوص الحيثية المتأخرة تشير إلى أن الأمراء المحليين في العصور المبكرة كانوا يستعملون اللغة الأكدية في كتاباتهم .

---

(١) يحتمل أن كوسارا كانت إلى جنوب حاتوساس (بوغازكوي الحالية) عاصمة دولة حاتي التي كانت تتركز في منطقة كبادوشيا .

ويبدو أن النشاط التجاري للأشوريين في كبادوشيا ظل مزدهراً حوالي ثلاثة أجيال ولكنه انتهى فجأة في حكم الملك أنيتا ، ولا ندري هل كان ذلك نتيجة لانتصارات هذا الملك أو أن كارثة حلت بمدينة آشور نفسها في ذلك الوقت – وليس هناك ما يبرر الإعتقاد بأن السكان المحليين لم يكونوا على علاقات ودية مع التجار الأشوريين بل على العكس من ذلك ربما كان هؤلاء يرحبون بمثل أولئك الذين كانوا يحملون لهم ثمار الحضارات المتقدمة من بلاد النهرين .

وإذا ما أردنا تتبع علاقة الملك أنيتا المشار إليه بمملكة حاتي فإننا نجد أنه كان يحكم في مدينة كوسارا أي أن هذه المدينة كانت مقره في العصور الحيثية المبكرة إن لم تكن هي عاصمته الإدارية كذلك ، ولذا يعتقد بعض العلماء أن الأسرة المالكة الحيثية كانت من سلالة أنيتا إلا أن هذا الإعتقاد فيما يبدو لا يتفق مع ما نعرفه عن تدمير حاتوساس والعداء الذي أظهره أنيتا لها مما يدل على أنه كان ينتمي إلى تقاليد تختلف عن تقاليد الملوك الذين اتخذوا حاتوساس عاصمة لهم فيما بعد – كذلك لم نعثر في نصوص ملوك الحيثيين على ما يثبت أن أحداً منهم ادعى بأن أنيتا كان أحد أسلافه .

الدولة القديمة

كان الملوك الحيثيون في العصور المتأخرة يميلون إلى انتسابهم إلى ملك يدعى لابارناس ، أي أن التاريخ الحيثي يبدأ به على الرغم من أنه لم يكن فيما يبدو أول ملوك أسرته ، بل ولم يوجد لهذا الملك أي نص وإنما ذكرت أعماله في نص لأحد خلفائه نتبين منه أن لابارناس كان يتزعم أولاده وأقاربه في بقعة صغيرة « وكلما خرج إلى القتال أخضع أعداءه بالقوة وجعل بلادهم مغلوبة على أمرها ومد حدوده إلى البحار » والظاهر أنه وصل بحدود بلاده إلى أقصى اتساع بلغته

المملكة حتى في أزهى عصور الإمبراطورية المتأخرة كما يرجح أنه عاصمته لم تكن حاتوساس بل كوسارا القديمة .

وخلف لابارناس على العرش حاتوسيليس الذي كان يتولى الحكم في كوسارا - وقد ألقى فيها خطاباً يعد مصدرنا الرئيسي عن الحالة السياسية في ذلك العهد ، ومنه نتبين أن العاصمة في نهاية حكمه كانت حاتوساس وأن اسمه الأصلي لم يكن حاتوسيليس الأول بل كان لابارناس مثل أبيه ، أي أنه نقل عاصمة ملكه وغير اسمه - ولا بد أن تغيير العاصمة كان يرجع إلى أسباب استراتيجية إذ بدأت المملكة الحيثية في الاتساع جنوباً وشرقاً في عهده والعهود التالية ، أي أن الجيوش الحيثية قد خرجت من خلف حواجزها الجبلية واخترقت سلاسل جبال طوروس المنيعة التي لا يوجد بها إلا عدد قليل من الممرات ، وربما كان الدافع إلى ذلك هو ثراء السهول الجنوبية وازدهارها وقدم حضارتها - وربما كانت أول مملكة اصطدم بها حاتوسيليس هي مملكة يامخاد الأمورية [1] التي كانت عاصمتها حلب وكانت تسيطر على شمال سوريا ، ولا شك في أن هذه المملكة قد خضعت الحيثيين ولكنها ثارت وخرجت عن سلطانهم بعد ذلك .

ولما تولى العرش مورسيليس الأول خلفاً لحاتوسيليس دمر يامخاد ولم يكتف بفتح سوريا الشمالية بل تتبع الفرات جنوباً وقضى على المملكة الأمورية الكبرى في بابل حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م وبذلك انتهت الأسرة البابلية الأولى التي كان حامورابي أعظم ملوكها .

ويبدو أن النظام الداخلي في المملكة الحيثية لم يكن قد وصل إلى درجة من الإستقرار تهيء لها الصمود فقد ظهرت فيها علامات الإضطرابات منذ عصر الملك حاتوسيليس إذ أن أفراد البيت المالك ثاروا عليه بقيادة ولي عهده ولكنه

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٢٧٨

استطاع أن يسحق الثورة وأنكر ولي عهده ونفاه وعين في مكانه مورسيليس الذي كان أصغر منه ، وخلفه بالفعل على العرش ولكن كثرة تغيب هذا الملك الشاب في حملاته الحربية شجعت على حدوث المؤامرات ضده حيث قتله صهره حانتيليس – الذي كان متزوجاً بأخته – بعد عودته من بابل وبدأ عهداً مليئاً بحوادث القتل والدسائس استمر أجيالاً عدة حتى آلت المملكة إلى حالة قريبة من الفوضى .

وقد توالت الأزمات وحلت الكوارث الخارجية في عهد حانتيليس فالحورريون المقيمون بالجبال المحيطة ببحيرة وان Wan والذين كان مورسيليس قد غزاهم من قبل هاجموا الجزء الشرقي من المملكة الحيثية وتقدموا فيه حتى وصلوا إلى قرب العاصمة من الناحية الشمالية ، ودمروا في طريقهم بعض المدن مما جعل الملك يضطر إلى تقوية حصون حاتوساس نفسها .

وقد فقد حانتيليس وخلفاؤه معظم الأراضي التي كان أسلافهم قد استولوا عليها في الجنوب ، ولم يتحسن الحال نوعاً إلا عندما اعتلى العرش تليبينوس الذي كان مغتصباً ولكنه كان على عكس أسلافه يمتاز بالمهارة إذ نجح في تقوية مركزه بالتخلص من الذين نافسوه على السلطة ونجح في إنهاء حالة الفوضى التي استمرت حوالي خمسين عاماً وذلك بسن قانون لاعتلاء العرش وتقوية الدولة الحيثية من الداخل ويعد هذا أعظم أعمال تليبينوس ، ومن المحتمل أن القانون الذي أصدره عن كيفية اعتلاء العرش والتعليمات الخاصة بسلوك الملوك والأمراء هو الذي اتبع فيما بعد حتى آخر أيام الإمبراطورية .

أما سياسته الخارجية فتتلخص في أنه اكتفى بتأمين حدوده الدفاعية وتقويتها وطرد الغزاة البرابرة من شمال العاصمة وشرقها كما يحتمل أنه أعاد غزو بعض الأراضي التي خرجت عن سلطان الحيثيين – وقد عقد معاهدة مع مملكة كيزواتنا (Kizzuwatna) ، وهو أول من ذكر بأنه عقد معاهدة مع دولة أجنبية وهذه

المملكة هي التي كانت تحتل في ذلك الوقت الجزء الشرقي من سهول قيليقيا — ويبدو أنها كانت دولة قوية إذ اعترف بملكها على قدم المساواة معه .

ويعتبر تليبينوس عادة آخر ملوك الدولة القديمة ، ورغم عدم العثور على وثائق تاريخية يمكن بواسطتها التعرف على أسماء خلفائه الذين تبعوه في السنوات الأربعين التالية لحكمه إلا أننا نجد أن قليلاً من النصوص تحدثنا عنها ، إذ يرجح أن القانون الذي عثر على نصوصه في بوغاز كوي وهو أحد الوثائق التاريخية الهامة يرجع إلى عهد أحد خلفائه كما أن كثيراً من عقود الأرض والمواثيق تنتمي إلى هذه الفترة أيضاً .

عصر الامبراطورية

يعد تود هالياس الثاني مؤسس الأسرة التي كان لهـا الفضل في تشييد الإمبراطورية الحيثية شخصية غامضة ولم يسجل له التاريخ إلا حادثاً واحداً وهو غزو حلب وتدميرها وهذا لا يكفي للدلالة على أن المملكة الحيثية قد استعادت استقرارها الداخلي وأصبحت قادرة على فرض سلطانها مرة أخرى على جيرانها ، ومع أن تاريخ تدمير حلب وظروفه غير مؤكدة إلا أنه يجب وضع هذا الحادث حسب تاريخ سوريا المعروف في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فبعد موت مورسيليس الأول ضعف الحيثيون فترة طويلة تمكنت خلالها هاني جلبات وهي إحدى الوحدات السياسية التي انتظم فيها الحوريون من السيطرة على شمال سوريا حوالي ١٥٠٠ ق.م ، ومما يدل على ضعف حاتي في ذلك الوقت أن أحد موالي المملكة الحورية نجح في الاعتداء على حدود البلاد الحيثية ولم يلق جزاء على ذلك ، وفي سنة ١٤٥٠ ق.م انتهت السيطرة الحورية بفضل انتصارات تحتمس الثالث في حملته الثامنة وأصبح المصريون هم أصحاب السلطة العليا في سوريا لمدة ثلاثين عاماً تقريباً ، ولكن سيطرتهم على شمال سوريا تراخت قليلاً

بعد وفاته لظهور قوة حورية جديدة هي مملكة ميتاني التي أصبحت القوة الفعالة في غرب آسيا فترة من الوقت .

وربما كان غزو الحيثيين لحلب يرجع إلى أنهم أرادوا عقاب هـذه المدينة على عودتها للخضوع إلى هاني جالبات ولذا يرجح أن غزوها لا يمكن أن يكون متأخرا عن هزيمة هاني جلباث على يد تحتمس الثالث في سنة ١٤٥٧ ق.م. وليس من المستبعد أن يكون الحيثيون قد قاموا بهذا الغزو بالاتفاق مع الملك المصري تحتمس الثالث إذ أننا نعلم بأنه قد تسلم هدايا من خيتا العظمى وهـذا ما يفسر لنا سبب عـدم وجود أى إشارة في النصوص المصرية إلى الاستيلاء على حلب في هذه الحملة .

وقد سببت نهضة ميتاني أزمة جـديدة للمملكة الحيثية فبعض المقاطعات التي كانت فيما مضى تسير في فلك الحيثيين انضمت إلى القوة المنافسة (ميتاني) أو أعلنت استقلالها وبدأت علامات الضعف تبدو في المملكة إبتداء من عهـد أرنووانداس الأول خليفة ـ تودهالياس الثاني ـ وفي عهد خلفاء هـذا الأخير وهم حاتوسيليس الثاني وتود هالياس الثالث وارنووانداس الثـاني وصلت المملكة إلى حافة الهاوية كما يشير إلى ذلك نص تركه أحد الملوك المتـأخرين ، ومما جاء فيه :

« في الأيام الخوالي كانت البـلاد الحيثية تغزو البـلاد التي تقـع خارج حدودها » .

ثم جاء العدو من كاسكا ونهب الأراضي الحيثية واتخذ نيناسا حدوداً له... كما جاء العدو من آرزاوا وا خلف الأراضي السفلى ونهب البلاد الحيثية أيضاً واتخذ تووانودا وأودا حدودا له . كذلك جاء العدو من بعيد من أونا ونهب أرض جاسيبا ... الخ »

وليس من المعقول أن تكون الهجمات العديدة التي ذكرها هذا النص قد حدثت دفعة واحدة ولكن يبدو أن القصة تتفق مع حقيقة الحال في ذلك الوقت إذ لا بد أن الأقطار المجاورة لمملكة الحيثيين من الشرق كانت تلقى تأييدا من جانب ميتاني ، ويستدل على ذلك من الخطابات التي وجهها الفرعون إلى ملك آرزاواوا التي عثر عليها في محفوظات تل العمارنة .

وتنتهي فترة الضعف هذه باعتلاء سوبيلوليوما على العرش حوالى سنة ١٣٨٠ ق م وظروف ارتقائه غامضة رغم أنه كان ابن تودهالياس الثالث وعرف عنه أنه صاحب والده في حملاته ولكنه كافح بضع سنين في أول حكمه حتى دعم سلطانه في وطنه وأغلب الظن أنه هو الذي شيد الحائط الضخم في جنوب العاصمة حاتوساس وأقام تحصينات أخرى للدفاع عنها. وبعد ذلك تفرغ لتسوية حسابه مع مملكة ميتاني التي يمكن أن تعد مسؤولة عن سوء الحالة التي وصلت إليها المملكة في الجيل السابق .

وقد باءت غزوته الأولى التي عبر فيها جبال طوروس إلى سوريا بالفشل وتكبد خسائر فادحة وتمكن ملك ميتاني توشراتا من أن يقدم جزءاً من الغنيمة التي حصل عليها إلى حليفه ملك مصر ، وقد استفاد ملك الحيثيين من هذه التجربة فأعد غزوته الثانية بدقة كبيرة ومن المحتمل أنه استطاع أن يكتشف بأن خطوط الدفاع الرئيسية لمملكة ميتاني كانت في شمال سوريا ولذلك عبر الفرات عند مالاطيا وهاجم مملكة ميتاني من الخلف بعد أن مهد لذلك بحملة أولية ، لأن الطريق المؤدى إليها كان شديد الخطورة لوجود القبائل المتوحشة في منطقة الجبال التي تحف به وقد استطاع أن يخضع هذه القبائل في تلك الحملة الأولية وعقد معاهدة معهم توثقت بزواج أخت الملك من زعيم هذه القبائل ، ثم استطاع سوبيلوليوما أن يعبر الفرات وأن ينقض فجأة على عاصمة ميتاني التي كان اسمها

وشوجاني فدخلها ودمرها – وعـاد سوبيلوليوما بعد ذلك إلى اجتياز الفرات وتقدم إلى سوريا حيث سارع أمراؤها المحليين إلى التسليم بعـد أن حرموا من مساعدة ميتاني واكتفي سوبيلوليوما بأن جعل نهر الأورنت حدا له ولم يتقدم نحو مصر ، ولكن ملك قادش التي كانت تعتـبر نقطة أمامية للنفوذ المصري خرج لقتاله إلا أن العربات الحيثية اكتسحته وتقـدم الجيش الحيثي جنوبا إلى « أبينا » بالقرب من دمشق وادعى سوبيلوليوما أنه اتخـذ لبنان حدودا له ، ومن حسن حظه أن مصر في ذلك الوقت لم يكن يحكمها من الفراعنـة من يهتم بالدفاع عن امبراطوريتها إذ كان اخناتون منهمـكا في الاصلاح الديني الداخلي [١] – وهذه الحملة يجب تأريخها حوالى سنه ١٣٧٠ ق م ، وكان من نتيجتها أن أصبحت حلب وعلالق Alalakh (عطشانه الحالية) حيثية [٢] ومن المحتمل أن المعاهدات بين ممالك أواسط سوريا وآمور التي تشمل منطقة لبنان وجزءا كبيرا من ساحل البحر المتوسط قد عقدت في ذلك الوقت ، وعلى أي حال فإن بعض البلاد وخاصة قرقميش كانت تنتظر مساعدة من قوات توشراتا ملك الميتانيين التي لم تنهزم وإن كانت الثقة فيها قد أصبحت مفقودة .

وقد اضطر سوبيلوليوما في ذلك الوقت أن يعود إلى وطنه نظرا لظروف طارئة عاجلة وترك مهمه المحافظة على سوريا لأحد أولاده وكان يدعى تليبينوس ولكن هذه المهمة لم تكن سهلة إذ انقسمت المقاطعـات السورية إلى فريقين : فريق كان ينـاصر الحيثيين والآخر يناصر الميتانيين وأخـذ كل منهما يترقب نتيجة الصراع الدائر بين الكتلتين الكبيرتين – ولحسن حظ الحيثيين فرقت الفتنة مملكة ميتاني لأن ملكها توشراتا كان يحالف المصريين وتوطدت الصلة بين الأسرتين المالكتين فيها بالزواج ولكن مصر كانت في ذلك الوقت قد أصبحت

---

(١) أنظر اعلاه ص ١٧٧-١٧٨

(٢) أنظر أعلاه ص ١٧٩

عاجزة عن أن تمد يد المساعدة لحليفتها ، وقد رأى في ذلك فرع منافس للبيت المالك الميتاني فرصة للخروج على الحكم وطلبوا مساعـدة أشور أو بالط الذي كان ملـكا على آشور في ذلك الوقت وتمـكن هـذا من مساعدة الحزب الذي لجأ اليه ، وقتل توشراتا فاعترف أرتاتاما ملك ميتاني بآشور كما اعترف بها كذلك ابنه شوتارنا وقدما إلى ملك آشور الهدايا الفاخرة بعد أن كان ملوكها يقدمون الولاء لمملكة ميتاني .

وكان ظهور هذه الدولة الفتية (آشور) المفـاجيء ممـا ساعد دون شك على سقوط ميتاني وأدى هذا بدوره إلى سهولة غزو الحيثيين لسوريا واستطاع سوبيلوليوما أن يجتاح سوريا وأصبحت الأراضي الممتدة من الفرات حتى البحر بما في ذلك حصن قرقميش ولاية حيثية وعين ولده تليبيوس المشار اليه ملكاً على حلب كما عين ابناً آخر ملكاً على قرقميش .

ولم يمض وقت طويل حتى لجأ ابن توشراتا إلى سوبيلوليوما (وقد فر بحياته بعد مقتل أبيه) وبذلك وجد سوبيلوليوما فرصة سانحة لإنشاء دولة محـايدة بينه وبين المملكة الفتية آشور فأرسل ابن توشراتا إلى ولده ملك قرقميش وتقدم الإثنان بعد عبور الفرات على رأس قوات كبيرة ودخلوا « وشوجاني » عاصمة ميتاني وهكذا ظهر إلى الوجود ملك جديد موال للحيثيين .

ويبدو أن سوبيلوليوما نال شهرة كبيرة ، لأنه حينما كان يحاصر قرقميش وصله رسول من مصر يحمل خطاباً من ملكتها تذكر فيه أن زوجها توفي وليس لها ولد وطلبت منه أن يرسل أحد أبنائه لكي تتزوج منه لأنها لا ترغب زوجا من رعيتها ، فدهش سوبيلوليوما وأرسل رسوله الخـاص إلى مصر ليتأكد بأن ليس في الأمر خدعة ، وقد عاد هذا الرسول سريعـاً يحمل رسالة ثانيـة من الملكة تذكر له فيهـا بأنه لو كان لهـا ولد لما كتبت إلى أجنبي تستدعيه

إذ ليس من المعقول أن تعلن مصيبتها ومصيبة شعبها على الملأ كما أن كرامتها تأبى عليها أن تتزوج بأحد من رعيتها ونظراً لأن له أبناء كثيرين فقد لجأت إليه ليرسل إليها أحدهم - ومن المرجح أن هذه الملكة هي زوجة توت عنخ آمون الإبنة الثالثة للملك أخناتون ، ولم يضع سوبيلوليوما الفرصة فأرسل أحد أبنائه على الفور ولكن هذا الأمير الحيثي لقى حتفه عند وصوله إلى مصر بإيعاز من « آي » أو « حور محب » [1]

وبعد وفاة سوبيلوليوماهاجم آشور أو بالط مملكة ميتاني (التي كان ملكها ابن توشراتا الموالي للحيثيين) وضمها إلى ملكه — ومع ذلك فإن سلطان الحيثيين على سوريا لم يتزعزع، فبعد وفاة سوبيلوليوما وولده الأكبر أرنوانداس الثالث ظل أمراء حلب وقرقميش على ولائهم لوارث العرش الشاب مورسيليس الثاني مع قلة خبرته — وقد أثبت هذا جدارته بإخضاع أمراء المقاطعات الثائرة التي خرجت عن طاعة الحيثيين وعين بدلهم ولاة حيثيين كما أنه ظل ينظم الإمبراطورية طوال حياته ، ولكن الثورات كانت دائما تتجدد كلما اعتلى العرش ملك جديد كما أن الحدود الشمالية كانت مصدر قلق دائم ولذلك وزعت القوة الحيثية على مناطق متباعدة فكان من الصعب على المملكة أن تحتفظ بحدودها وخاصة لأن القبائل البعيدة كانت تتلقى مساعدات خارجية .

وقد قامت ثورة في سوريا بتحريض من مصر في عهد حور محب على الأرجح وكان « شار كوشورخ » ملك قرقميش قد توفى واستطاع أحد الغزاة أن يستولى عليها ولكن ملك الحيثيين (وهو شقيق ملك قرقميش) تدخل شخصياً في السنة التاسعة من حكمه ، وكان مجرد ظهور الجيش الإمبراطوري كافيا لاخضاع الامراء السوريين وعين ابن شار كوشورخ ملكا على قرقميش ، وفي نفس السنة تقدم ملك الحيثيين شمالا حيث استطاع إخضاع بعض المناطق هناك .

(١) أنظر أعلاه ص ١٨٣ هامش

وقد ترك مورسيليس لابنه وخليفته مورواتاليس إمبراطورية وطيدة الدعائم تحوطها شبكة من الممالك الموالية فلم تحدث أية اضطرابات عند اعتلائه للعرش ، ومع ذلك كان لا بد من استعراض قوته في الغرب – وبعد ان أمن الملك سلطانه في هذه الجهات أصبح قادرا على تركيز مجهوداته ضد الخطر الآتي من الجنوب حيث تحرك المصريون أخيرا لان ملوك الأسرة التاسعة عشرة طمعوا في استرجاع أقاليم سوريا التي سبق أن غزاها تحتمس الثالث وضاعت أثناء حكم اخناتون ، وفي حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م قاد سيتي الأول ملك مصر جيوشه إلى إلى كنعان وتقدم إلى قادش ولكن يبدو أن الحيثيين قاوموه بشدة، ومع ذلك فقد أعاد الملك المصري القانون والنظام في أرض كنعان وظل السلام قائما بقية عهده ، ولكن عندما تولى خليفته رعمسيس الثاني حكم بلاده . كان من الواضح أن من المستحيل تجنب الصدام بين الامبرطوريتين المتنافستين، ولهذا جمع « مورواتاليس » فرقا من كل حلفائه الذين ذكرتهم القوائم المصرية بينما لم تشر إليهم القوائم الحيثية التي من ذلك العهد ، وكان الدردانيون من بين هؤلاء الحلفاء (وهم الذين عرفوا في إلياذة هوميروس أيضا) والفلسطينيون والشرادانيون الذين ذكرتهم النصوص المصرية مرارا–وتقابلت جيوش الامبراطوريتين في قادش في السنة الخامسة من حكم رعمسيس ، ويبدو أن « مورواتاليس » قد تمكن من التقدم والاستيلاء على « آبا » أو « أبينا » بالقرب من دمشق–ورغم أن الفرعون ملأ الدنيا تفاخرا ببسالته ونقش أخبار انتصاره على المعابد المصرية ولكن ليس هناك أدنى شك في أن معركة قادش قد انتهت بانتصار الحيثيين الحاسم .

وفي عهد مورواتاليس أعيد تنظيم المقاطعات الشمالية الشرقية من المملكة ووحدت في إمارة عاصمتها « حاكبيس » تحت إشراف « حاتوسيليس » شقيق الملك بينما أقام الملك نفسه في الجنوب في مدينته المنيعة « داتاسا » ليبقى بقربة من العمليات الحربية في سوريا .

وعندما توفي مورواتاليس تولى ابنه « أورهي تشوب الملك » وأراد أن يخفض من أملاك عمه الطموح لاعتقاده بأنه يريد العرش لنفسه وظل « حاتوسيليس » يعاني اتهامات ابن أخيه نحو سبع سنوات وأخيراً أعلن الحرب عليه وعزله ، ويدعونا هذا إلى الظن بأن حكومة « أورهي تشوب » لم تكن محبوبة على الإطلاق وقد أسر « أورهي تشوب » في سموحا بالقرب من مالاطيا ولكنه عومل بالحسنى ونفي إلى المقاطعة السورية البعيدة نوهاس .

وعندما اعتلى « حاتوسيليس » العرش كان يبلغ من العمر نحو ٥٠ سنة وكان قائداً محنكاً نعمت الإمبراطورية الحيثية في عهده بشيء من السلام والازدهار النسبي وإن كانت قد حدثت في بداية عهده بعض الاحتكاكات بينها وبين مصر وبابل (الدولة الكاشية) ، وربما كان ظهور قوة آشور في ذلك الحين مما ساعد على التقارب بين الإمبراطوريتين الحيثية والمصرية وأصبحت العلاقات بينهما ودية للغاية ، وفي سنة ١٢٦٩ ق.م عقدت المعاهدة المشهورة بين « رعمسيس الثاني » وبين « حاتوسيليس » — وبعد ١٣ سنة توطدت المعاهدة بزواج رعمسيس من أميرة حيثية — وفي عهد حاتوسيليس كذلك عادت العاصمة إلى « حاتوساس » التي كانت قبائل « الكاسكا » قد نهبتها في عهد « مورواتاليس » عندما كان متغيباً في حملة في الجنوب ، وأعيد بناء المدينة وتدوين الأرشيف وساد الاستقرار والازدهار وصدر عدد كبير من المراسيم الدينية والإدارية — ومع هذا فإن ما وصلنا من حوليات حاتوسيليس يدل على أن الحالة لم تكن في الغرب على ما يرام وربما وجهت بعض العمليات الحربية ضد العدو القديم في آرزواوا كما تدهورت العلاقات مع بابل بعد وفاة ملكها كادشمان تورجو ، وربما كان لأورهي تيشوب الأمير المنفي يد في ذلك حينما كان يقيم في نوهاس إذ أن حاتوسيليس يقص علينا بأنه (أي أورهي تيشوب) ضبط وهو يتآمر

مع البابليين وأنه نقل بسبب ذلك إلى البحر ، وربما كان المقصود بأنه نقل إلى قبرص أو إلى قطر أجنبي بحري ولم يقف نشاطه عند هذا الحدبل إنه اتصل بملك مصر – ومن المحتمل أنه كان يسعى للحصول على مساعدة دولة أجنبية لاسترداد عرشه ولكنه باء بالفشل ، وقد اخترع حاتوسيليس قصة مؤداها أنه طرد الملك الشرعي واستأثر بالعرش نظراً لما لقيه من استفزاز شديد وبناء على أمر من الإلهة « آشتار » إلهة « ساموحا » .

وقد توفي حاتوسيليس بعد فترة قصيرة من زواج إبنته من ملك مصر وتولى من بعده إبنه « تود هالياس الرابع » الذي وجه اهتمامه نحو الشؤون الدينية ، ويمثل الجزء الأول من حكمه عصر سلام وإن كانت بعض الحملات الناجحة في غرب المملكة قد مكنت الحيثيين من ضم إقليم أسووا إلى مملكتهم ولكن لم تلبث أن ساءت الحالة هناك قبل نهاية حكمه – ومع أن الملك كان في حالة من القوة تسمح له بالقضاء على أي عدوان على أجزاء من مملكته إلا أن أيام الإمبراطورية الحيثية أصبحت معدودة ، ففي عهد الملك التالي وهو « أرنووانداس الثالث » تدهورت الحالة في غرب هضبة الأناضول وحدثت تحركات ضخمة من شعوب هذه المناطق حيث تقدمت واجتاحت الأقاليم الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط واضطرت الحيثيين وشعوب هذه الجهات إلى الهرب إلى سوريا ، ثم اتحدت بعد ذلك مع شعوب البحر في هجوم كبير كان من نتائجه استقرار الفلسطينيين على ساحل فلسطين وحل الفريجيون محل الحيثيين كقوة حاكمة وأصبح خطر هذه الشعوب يهدد مصر لولا أن « رعمسيس الثالث » نجح في الانتصار عليهم براً وبحراً وأبعد خطرهم .

الممالك الحيثية الجديدة

استمر الأثر الثقافي للحيثيين في الأجزاء الجنوبية الشرقية من امبراطوريتهم

بعد سقوطها نحواً من خمسة قرون وظلت السجلات الأشورية تشير إلى سوريا ومنطقة طوروس على أنها أرض حاتي وتتحدث عن ملوك يحملون أسماء حيثية، كذلك يشير الكتاب المقدس إلى ملوك المقاطعات السورية كملوك للحيثيين واهتم الكثيرون منهم بإقامة آثار تحمل نقوشاً دونت بخط هيروغليفي لم يمكن تفسيره تماماً حتى الآن، أي أن تقاليد الثقافة الحيثية ظلت منتشرة في المناطق الممتدة من ملاطيا إلى حدود فلسطين حتى بعد أن تحولت هذه المنطقة إلى جزء من الإمبراطورية الأشورية، ولم تكن لغة تلك النقوش الحيثية الجديدة ولا الديانة التي نصت عليها هي التي استعملت في «حاتوساس» وليست هي التي استعملها عامة الشعب الذين استوطنوا سوريا في عهد الإمبراطورية الحيثية (لأنهم كانوا حوريين) وعلى هذا يبدو أن سوريا قد اجتاحها شعب آخر جاء من إحدى المقاطعات الحيثية وكان يتخذ الحضارة الحيثية، ويحتمل أن المقاطعة هي «كزوواتنا» ويرجح أن ذلك لم يكن نتيجة غزو منظم لأنه أدى إلى ظهور عدد كبير من الممالك الصغيرة في القرن ١٢ ق م تدل أسماءها على أنها لم تكن على الإطلاق مجرد استمرار للمالك الحيثية القديمة التي كانت خاضعة للامبراطورية في سوريا وأن معظم هذه الأسماء نشأ حديثاً، ونظراً لأن الخط الهيروغليفي الحيثي يصعب تفسيره حتى الآن فلا يمكن تتبع تاريخ هذه الممالك في إيجاز إلا عن طريق سجلات الدول المجاورة مثل آشور وأورارتو (آرارات) وإسرائيل.

وأول ملك أشوري يصل إلى غرب الفرات بعد سقوط «حاتوساس» هو «تيجلات بلاسر الأول» الذي ذكر بأنه حارب حاتي العظمى ووصل إلى البحر المتوسط ولا شك أنه كان يقصد مملكة «ميليد» ويدهشنا أن يذكر بأن مملكة أخرى لحاتي العظمى قدمت له عند عودته فروض الطاعة والولاء وربما كان يقصد

بهذه مملكة « قرقميش » ، أي أن هاتين المدينتين كونتا مملكتين حيثيتين عند معبر الفرات .

وقد انسحبت الجيوش الأشورية على أي حال ومضت عـدة سنوات قبل أن يصل أي ملك أشوري آخر إلى غرب الفرات أو أن يعبره ، وفي خلال فترة الضعف الأشوري هذه جاء الآراميون البدو من الشرق وأسسوا بدورهم ممالك في سوريا كانت أولها وأقواها دمشق [1] التي تقع جنوب خط الغزو الحيثي — ولا بد أن الآراميين قد اصطدموا في الشمال مع الإمارات الحيثية الحديثة العهد وهزموا الحيثيين في أماكن متعددة وحل محلهم الآراميون حيث كونوا أسرات حاكمة في عواصم الممالك الحيثية التي استولوا عليهـا ونقشوا نقوشهم بالكتابـة الفينيقية أو بلغتهم الآرامية بينما ظلت الأسر الحيثية الباقية تحافظ على كيانها واستمرت في تدوين نقوشها بالهيروغليفية الحيثية .

ولا نعرف شيئاً عن تاريخ قيليقيا في هذه الفترة لأن نقوش « كاراتيب » لم يمكن تفسيرها بصفة مؤكدة حتى الآن ولكن يستدل من النقوش التي تركها والي « أضنة » بأن أضنة كانت العاصمة ولم يكن حاكمها هو الملك بل كان والياً من قبل الملك ، وربما كان « الدانيونا » الذين ذكرتهم النصوص المصرية بين شعوب البحر هم سكان هذه البلاد ، كما يحتمل أنهم كانوا من جنس يغاير الشعوب المجاورة لهم — وقد عرف الأشوريون قيليقيا منذ عهد شلمناصر الثالث ولكنهم كانوا يطلقون عليهم اسم « قوا » ولا يعرف تفسير لهذا الإسم حتى الآن .

وتمتعت الممالك الحيثية الحديثة وجيرانها الآراميون بشيء من الاستقرار والازدهار لمدة يسيرة وانتشرت الثقافة الحيثية جنوباً إلى فلسطين وخدم الجنود المرتزقة الحيثيون في الجيوش اليهودية وأدخل سليمان الحيثيات في حريمه .

---

(١) أنظر أعلاه ٢٨٢

وقد بدأت آشور تستعيد مجدها في عهد « أدادنيراري الثاني » وفي عهـــد خلفه « توكولتي نينورتا الثاني » ، ولم تتنبه الممالك السورية لهذا الخطر فاستطاع خليفتها « آشور ناصر بال » أن يدعم فتوحات أسلافه سريعاً ، وفي السنوات السبع الأولى من حكمه استولى على الإقليم الواقع شرق الفرات ولم تقاومه قرقميش عندما فرض عليها الجزية وحينما عبر الجيش الأشوري الفرات واخترق سوريا إلى الساحل لم تقاومه الممالك الحيثية الأخرى حيث فشلت في الاتحاد ضد الغازي — ومع أنها حاولت الإتحاد بعد ذلك بنحو ١٨ سنة حينـــما عبر « شلمنصر الثالث » نهر الفرات إلا أنها لم تنجح في المقاومة ووقع شمال سوريا مرة أخرى في يـــد الأشوريين غير أنهم اضطروا للانسحاب أمام المقاومة التي أبداها ملوك حماة ودمشق التي كان يعاونهم فيها ١٢ أميراً من أنصارهم وخاصة من الساحل الفينيقي رغم أن المتحالفين قد تكبدوا خسائر فادحة — ومع هذا فقد عاد « شلمنصر الثالث » إلى الهجوم على دمشق في السنوات التالية حتى ضعفت وتمكن « أدادنيراري الثالث » بمساعدة زاكير الآرامي (الذي كان قد استولى قبل بضعة سنوات على حماة الحيثية) من إخضاعها وبذلك ادعى أدادنيري السيادة على حاتي وأمورو وبالاشتو جميعها .

وقد ضعفت سلطة الأشوريين بعد ذلك فترة لا تقل عن نصف قرن بسبب ظهور منافس جديد في الجبال الشمالية يتمثل في مملكة أورارتو التي استنفـذت الجزء الأكبر من جهود ملوك آشور ، ومن المحتمل أن الدولة الحيثية في شمال سوريا كانت تشعر بشيء من التقارب الجنسي أو الثقافي مع هذه المملكة الجديـــدة ، أما جنوب سوريا فقد أصبح كله آرامياً ، وهكذا انقسمت سوريا إلى قسمين : حيثي وآرامي ثم انتهت هذه الحالة فجأة بنهضة آشور مرة ثانية بقيادة « تيجلات بلاسر الثالث » ، فقد نجح هذا الملك في السنة الثالثة من حكمه في التقدم غرباً

والانتهاء من مشاكل سوريا بصفة نهائية إذ استطاع أن يهزم السوريين وكان يعاونهم ملك أورارتو الذي حضر بنفسه على رأس قواته ولكنه اضطر إلى الهرب هرباً مشيناً بعد هزيمة جيشه – وبعد ثلاثة أعوام تمكن ملك آشور من إخضاع بقية سوريا وعادت جميع ممالكها إلى ولائها السابق لاشور ، إلا أن ذلك لم يستمر سوى عامين حيث قامت ثورة جديدة اضطر ملك آشور إزاءها إلى السير لإخمادها وضم سوريا إلى آشور ضماً مباشراً – وقد اتسع خلفاء تيجلات بلاسر الثالث سياسته التي سار عليها إذ نجد أن « شلمنصر الخامس » و « سرجون الثاني » يستعملون القوة والعنف في ضم بقية الممالك السورية حتى انتهى أمرها في سنة ٧٠٩ ق م ، وبذلك انتهى تاريخ الممالك الحيثية في شمال سوريا حتى إن الرحالة الإغريق عندما زاروا هذه البقاع لم يجدوا إلا مقاطعات الإمبراطورية الأشورية وأصبح اسم حاتي نفسه منسيا .

سكان غرب وجنوب هضبة الأناضول « الآخيون والطرواديون »

يظن أن بلاد الآخيين أو اليونان الميسينية هي التي عرفت في النصوص الحيثية باسم أهياوا (Ahhiyawa) أو أهيا (Ahhiya) وقد ظهر هـذا الاسم لأول مرة في عهد سوبيلوليوما ، ومن المحتمل أن المقصود في هذه الحالة جزيرة قبرص التي نفي اليها « أورهي تشوب »[1] – كذلك ذكرت هذه البلاد في حوليات « مورسيليس الثاني » في السنتين الثالثة والرابعة من حكمه ومنها عرفنا أن تلك البلاد كانت عبر البحر .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣١٧ - ٣١٨ .

وحينما مرض الملك مورسيليس بحث الكهنة ، عن مصدر الغضب الإلهي الذي سبب هذا المرض ودونت الأسئلة والإجابات المتعلقة بذلك على لوحة كبيرة يفهم منها أن إله أهياوا وإله لازباس قد جلبا على أمل إيجاد علاج له ، ويفهم منها كذلك أن علاقات الود كانت قائمة بين حاتي وأهياوا ولازباس التي يحتمل أنها ليزبوس (Lesbos) .

ومن الرسائل الهامة في ذلك العهد رسالة تعرف باسم خطاب تاواجالاواس (Tawagalawas) وقد دونت في ثلاثة لوحات ، ومنها عرفنا أن شخصاً كان والياً حيثياً أو من الطبقة العليا (واسمه بياما رادوس كان يقيم في ميلاواندا) أصبح قاطع طريق وسبب اضطرابات في بلاد لوكا « ويحتمل أنها ليقيا » التي كانت تكون مقاطعة من الامبراطورية الحيثية وكانت مركز عملياته مدينة مجاورة في منطقة خارج ممتلكات الحيثيين وتحت الحكم غير المباشر لملك أهياوا - ولما كانت هذه الرسالة موجهة من أحد ملوك الحيثيين [1] إلى ملك أهياوا فإن من المرجح أن الغرض المقصود منها هو تسليم ذلك الثائر وإراحة مقاطعة لوكا من متاعبه - ويبدو أن تاواجالاواس كان قريباً لملك أهياوا وقد قصده أهالي المقاطعة لمساعدتهم وبعد أن دعم تاواجالاواس مركزه في بلاد لوكا بعث برسالة إلى الملك الحيثي يطالبه فيها بالاعتراف به كوالي من قبله، كما يبدو أن الملك الحيثي وافق على ذلك وأرسل ولده ليصاحب تاواجالاواس إلى حضرته، فاستاء هذا الأخير لأن مرافقه لم يكن القائد العام للجيش بنفسه وعلى ذلك انسحب غاضباً فسار ملك الحيثيين إلى لوكا وقضى على الثورة فيها ، وبعدئذ تسلم رسالة من ملك أهيا يخبره فيها بأنه أمر عامله في ميلاواندا بأن يسلمه

---

(١) إما أن يكون هذا الملك هو مورسيليس الثاني أو خلفه مورواتاليس .

قاطع الطريق ولما تقدم الملك نحوها وجد أن ذلك الثائر (بيـــامارادوس) قد أبيح له الهرب على ظهر سفينة فأرسل ملك الحيثيين رسولاً خاصاً إلى ملك أهياوا لإقناعه بتسليم الثائر واعداً إياه بالإبقاء على حياته ومملناً له بأنـه يترك رسوله الخاص كرهينة من أجل ذلك – ويتبين من سياق النصوص أن العلاقات بين حاتي وأهياوا كانت ودية ومتينة ، وبعد مضي بعض الوقت أصبـح حاكم ميلاوندا من موالي الملك الحيثي – ومن الرسائل التي تبودلت بينهمـا تتبين أن خلافات عديدة نشبت بينهما وأن ملك أهياوا رضخ في النهاية لطلب الملك الحيثي وسلمه قاطع الطريق .

ولدينا خطاب من عهد حاتوسيليس يبين أن ملك أهياوا أرسل إلى ملك حاتي يطلب نصيبه من الهدايا التي أرسلت اليه ، ولا تعرف طبيعـة هذه الهـدايا ، وهناك نص آخر يشير إلى الوقائع الخاصة بانقلاب « حاتوسيليس » [1] ولكنه مهشم وإن كان البعض يرى أن هناك ما يدعو إلى ربط اسم « أورهي تشوب » مع أهياوا ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك .

وفي إحدى فقرات معاهدة أبرمت بين « تود هالياس الرابع [2] » وبيـــن ملك أمورو نتبين أن ملك أهياوا ذكر على قدم المساواة مع ملوك مصر وبابل وآشور ، أي أنه كان يمثل إحدى القوى الكبرى في ذلك الوقت وإن كان القصر الحيثي لم يعترف بهذه الحقيقة رسمياً بدليـل إزالة اسم أهيـاوا من النص ولكن العلامات المتخلفة تدل على وجود اسمها فيه من قبل – وهناك نص مهشم ربما كان

---

(١) انظر أعلاه ص ٣١٧

(٢) انظر أعلاه ص ٣١٨

من عصر « تود هالياس الرابع » كذلك يشير إلى أن ملك أهياوا قد انسحب ، مما يوحي بأنه كان موجوداً في آسيا الصغرى وأن بلاده كانت ولاية على حدود الإمبراطورية الحيثية وأنه كان قد استولى على بعض أراضيها ثم انسحب بعد ذلك .

والخلاصة التي يمكن أن نستنتجها أن العلاقات بعد حاتي وبين أهياوا كانت طيبة في أول الأمر حتى إن أقارب ملك أهياوا كانوا يرسلون إلى حاتي لدراسة فن قيادة العربات كما كانت ترسل آلهة أهياوا إلى حاتي لعلاج الملك في مرضه ثم نسمع بعد ذلك بازدياد الأعمال العدوانية التي يرتكبها عمال أهياوا على حدود الممتلكات الحيثية وقد بلغت هذه أشدها أثناء حكم « تود هالياس الرابع » « وأرنوواندااس الثالث » ورغم أن هذا النشاط بدأ في عهد مورسيليس فقد ظلت العلاقات الرسمية بين الملوك ودية في الظاهر على الأقل حتى نهاية عهد مورسيليس ، ثم ترد بعض الإشارات عن تدخل ملك أهياوا بصورة عدائية في إقليم موال للحيثيين ولا يوجد بعدئذ ما يدل على وجود علاقات رسمية ودية .

ومن الواضح أن أهل أهياوا كانوا بحارة ممتازين وصلت سفنهم حتى ساحل سوريا (أمورو) وقد اعتدوا على الإمبراطورية الحيثية في أربعة مناطق على الأقل ، ولا شك في أن الحيثيين قد أخطأوا في نطق اسمهم وحرفوه إلى أهياوا بعد أن عرفوهم واتصلوا بهم ، ولا بد وأن هؤلاء كانوا يعيشون في أقصى غرب شبه الجزيرة وسيطروا مثل المقدونيين على البحار . فابتداء من سقوط كنوسس حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م إلى الغزو الدوري في القرن الثاني عشر كانت السيادة العليا على البحار متركزة في أيدي الاغريق الميسينيين وقد وجدت منتجاتهم بكثرة في مختلف الجزر وخاصة قبرص وكريت ورودس التي لا بد وأن كان

في كل منها مستعمرة هامة الآخيين كما وجدت مستعمراتهم بكـــثرة في بعض الأماكن السورية وفي قيليقيا وفي أماكن مختلفة من السواحل الجنوبية الغربيـة لآسيا الصغرى – وبما أن الحيثيين لم يعرفوا إلا مملكة واحدة باسم أهيـاوا ، وبما أن العالم الميسيني لم يشمل وحدة سياسية واحدة فإننا لا ندري هل كانت أهياوا تدل على ميسينا بأكملها أو أنها كانت أحدى الممالك التي تنقسم إليها بلاد ميسينا سواء في شبه الجزيرة الإغريقية نفسها أو مملكة في إحدى الجزر مثل كريت وقبرص وغيرها .

أما طروادة فقد ذكرت في النصوص الحيثية بأسماء كثيرة وذكرت في إحدى المرات ضمن مناطق بلاد آسووا ومعنى ذلـك أن هذه الأخيرة تقع على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ويرى البعض أن اسمها هو الذي حرف فيما بعد إلى آسيا ، ويبدو أن أول ملك حيثي زار هذه الأنحاء هو « تود هالياس الرابع » .

ويحاول الكثيرون أن يقربوا بين الأسماء التي وردت في النصوص الحيثية وبين الأسماء التي ذكرت في أشعار هومر والأساطير اليونانية التي يمكن ربطها بطروادة ولكن هذه المحاولات ما زالت مبنية على أسس غير مؤكدة ومن ذلك مثلاً محاولة استنتاج أن مملكة تسمى في النصوص الحيثية إلوسينا أو (ولوسيا) وكانت موالية للحيثيين هي نفسهـــا التي تعرف في شعر هومر باسم وليوس التي يظن أنها طروادة وكان ملكها يدعى « الكساندوس » في عهد موواتاليس الحيثي (حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م) ويرى البعض أن هذا الملـــك ليس إلا (Alaxandres Aliaé Paris) بارس أمير طروادة ، وتشير أسطورة بيزنطيـة إلى أن موتيلوس (Motylos) هو الذي استقبل هيلين وبارس (في رحلتهـــما من اسبرطة إلى طروادة) ويظن بعض المؤرخين أن هـــذه الأسطورة تشير

إلى المعاهدة التي أبرمت بين مورواتاليس والكساندروس وبكاد يكون اسم دردني الذي أطلق في النصوص المصرية على جماعة كانوا يحاربونهم كحلفاء الحيثيين في معركة قادش هو اللفظ الوحيد القريب من إسم الطروادين — وهكذا لا يمكن أن نجد ما يؤكد وجود صلة بين الأسماء التي ذكرت في النصوص الحيثية وبين طروادة .

الحيثيون في فلسطين

مع أن الكتاب المقدس يشير إلى الحيثيين كقبيلة فلسطينية إلا أن معلوماتنا عن تاريخ أهل حاتي تقودنا في البحث عن موطنهم الأصلي بعيداً عن فلسطين وتذهب بنا إلى قلب هضبة الأناضول وخاصة لأنه لم توجد دولة حيثية جنوب جبال طوروس قبل عهد سوبيلوليوما وأن الدول السورية الموالية للإمبراطورية الحيثية اقتصرت على المنطقة الواقعة شمال قادش على نهر الأورنت — ورغم أن الجيوش الحيثية وصلت إلى دمشق إلا أنها لم تدخل فلسطين على الإطلاق ولم توجد دولة حيثية من الدول الجديدة جنوب حماه ، إذ كان يفصل هذه الأخيرة عن فلسطين المملكة الآرامية في دمشق .

وعندما حل الطاعون بأرض حاتي في بداية عهد الملك «مورسيليس الثاني» وبحث الملك في الأرشيف عن سبب غضب الإله عثر على لوحتين أوضحتا له أنه أهمل عيداً خاصاً وأن أهل حاتي قد نكثوا عهد إلههم « جوحاتي » بعد أن أقسموا به في معاهدة لهم مع مصر إذ أنهم أغاروا على أملاكها السورية ثانية وتقدموا إلى العمق ونجحت الحملة فحينها تفشى وباء الطاعون بينهم بدا ذلك لمورسيليس كعقاب واضح .

ومن المحتمل أن فئة من الحيثيين استوطنوا تلال فلسطين أو أنهم ممن جاءوا من بلاد تحت حكم الحيثيين ، كذلك ربما كان هؤلاء المستوطنون من أقرب الأقاليم الحيثية في سوريا التي استولى عليها سوبيلوليوما باسم آخر كأنها غير حيثية لأن هجرة الحيثيين من الأناضول إلى فلسطين لم تكن كثيرة الحدوث - كذلك يحتمل أن هؤلاء المستوطنين الحيثيين لم يكونوا في الواقع إلا من الأقوام التي كانت تتكلم اللغة الحيثية وعاشت منعزلة في تلال فلسطين حتى بعد أن ساد فيها الساميون والحوريون لأن هذه اللغة كانت واسعة الانتشار في جنوب غربي آسيا .

الفصل السابع

العـــراق

يقع العراق في جنوب غربي آسيا ويحتـــل القسم الشمالي الشرقي من الوطن العربي ، وهو يبدو لأول وهلة شبيهاً بمصر من حيث ظروفه الطبيعية إذ يعتمد سكانه في صميم حياتهم على نهري دجلة والفرات كما يعتمد المصريون على نهر النيل، وقد استرعى التشابه بين الفرات وبين النيل أنظار قدماء المصريين فأطلقوا عليه اسم النهر المنعكس أي الذي يسير على غير ما ألفوه في النيل .

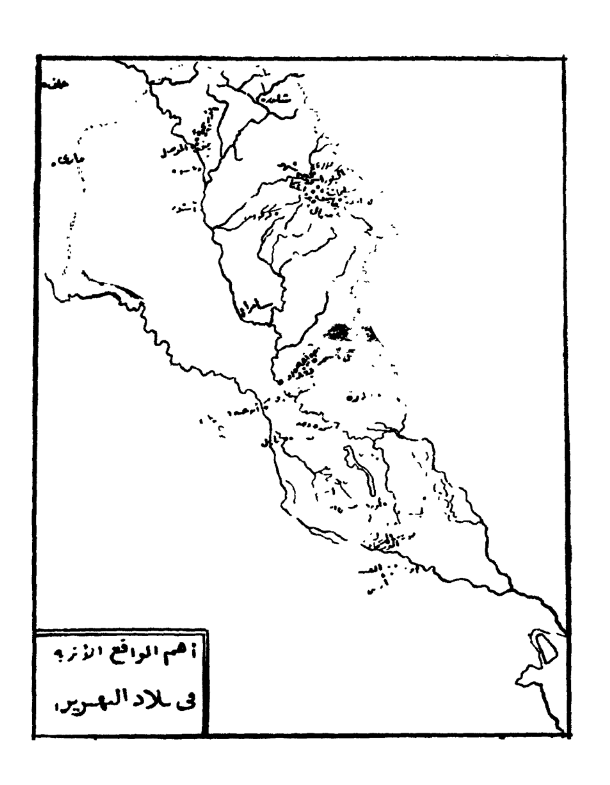
ولا يقتصر الفرق بين مصر والعراق على اتجاه الأنهار فحسب وإنمـا تبدو الاختلافات بينهما واضحة عند دراسة بقية الظروف الجغرافية في كل منهـما – فبمقارنة ما عرفناه من طبيعة مصر[1] بما نجده في العراق نجـد أن هذا الأخير ينقسم إلى قسمين رئيسيين :

أ – القسم الشمالي :

وتغلب عليه الطبيعة الجبلية إذ تكثر به المرتفعات وخاصة في قسمه الشمالي

---

(١) أنظر أعلاه ص ٥٠ - ٥١



خريطة رقم ٥

الشرقي الذي تتخلله وديان نهر دجلة وفروعه ويفصله عن الجهات التي تقع أبعد من ذلك شمالا سلسلة جبال طوروس وهضبة أرمينيا .

ب – والقسم الجنوبي :

وهو حديث التكوين من الناحية الجيولوجية لأنة كان جزءاً من الخليج العربي ثم غمرته الرواسب التي جاء بها نهرا دجلة والفرات من المناطق الجبلية في الشمال [1] .

ونظراً لوقوع العراق في طريق الهجرات البشرية التي حدثت في أزمنة مختلفة من تاريخ الإنسان فقد استقرت به عناصر سامية وغير سامية ، وإن كانت العناصر السامية قد سادت فيه في معظم أدواره التاريخية إلا أن العناصر غير السامية كانت تتوغل فيه أحياناً وخاصة من الشمال والجنوب الشرقي – وكان لهذه العوامل بالطبع أثرها في تاريخ العراق وحضارته .

العصور قبل التاريخية :

١ – العصر الحجري القديم

لم يعثر إلا على آثار ضئيلة جداً من حضارات العصر الحجري القديم ، وهي تتمثل على الخصوص في هضبة كردستان إذ وجدت آثار الحضارتين الشيلية والأشولية في بردابلكا (شرق جمجمال) كما وجدت آثار الحضارة الموستيرية

---

(١) يرى البعض خلافاً لذلك – أن هذا القسم من العراق كان مرتفعاً ثم انخفض فغمرت مياه البحر بعض أجزائه التي انخفضت عن مستواه ولكن هذا الرأي ما زال لا يجد قبولا لدى الكثيرين .

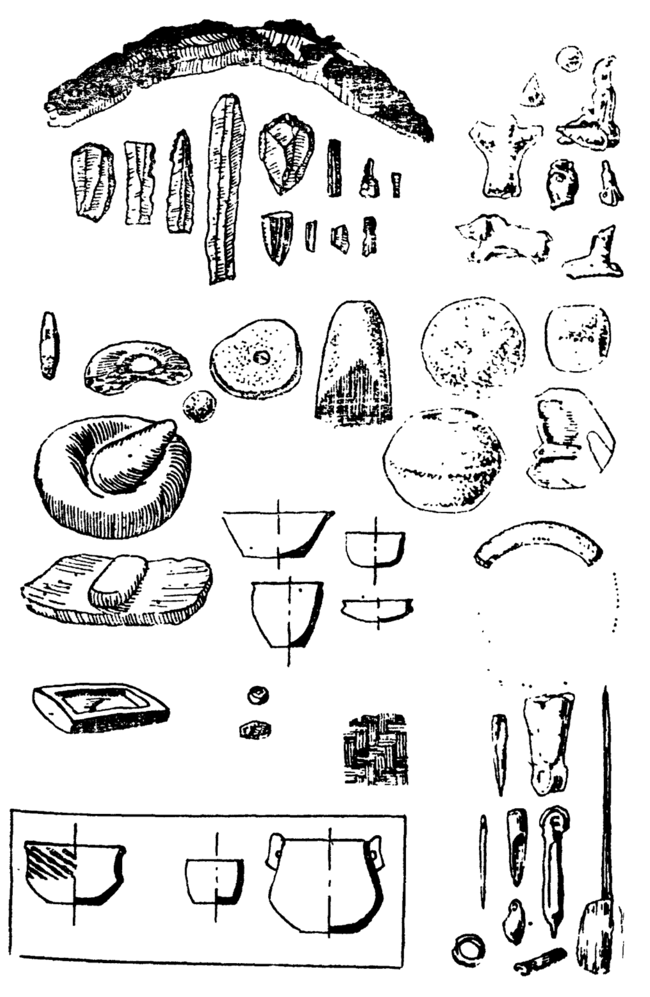
في كهف شاندر وكهف هزارمرد ، ومن المحتمل أن هيكل الطفل الذي عثر عليه في كهف شاندر من نوع إنسان نياندرثال – أما آثار أواخر العصر الحجري القديم فقد وجدت في كهوف زرزي وبالي جورا وكريم شهر وإن كان البعض يميل إلى تأريخ آثار كريم شهر بأول العصر الحجري الحديث .

٢ ـ العصر الحجري الحديث

تتمثل آثار هذا العصر في حضارات جرمو (في لواء كركوك) وحسونة (في لواء الموصل) وسامراء (في لواء بغداد) .

حضارة جرمو :

عثر في منطقة جرمو على حوالي ١٢ طبقة حضارية ، وتتميز الآثار التي وجدت فيها بالطبقات التي تنتمي إلى العصر الحجري الحديث بأن بقاياها المعمارية تمثل منازل بسيطة تتألف جدرانها من الطين وهي مقامة على أساس من الحجر – وقد عثر في هذه الطبقات على بعض التماثيل الصلصالية التي تمثل بعض الحيوانات وآلهة الأمومة ، كذلك عثر فيها على مناجل فخارية وبقايا بعض الحبوب مما يوحي بتوصل أهل هذه الحضارة للزراعة ، كما وجدت لديهم بعض الأدوات والأواني الحجرية (شكل ٢٨) – وتدل بقايا الحيوانات التي عثر عليها على أنهم استأنسوا الأغنام والماعز والبقر والخنازير وأنواع صغيرة من الخيول ومن المحتمل أن تكون حضارة جرمو حضارة قائمة بذاتها حيث يظن أن بينها وبين كريم شهر فجوة حضارية أخرى ، وقد يرى البعض أن حضارة جرمو تعاصر حضارة الفيوم ولكن – نظراً لأن الفيوم أصبح بشك في أنها معاصرة



(شكل ٢٩) أدوات وأواني من حضارة جرمو

لحضارة نقادة الأولى [1] التي تمد من عصر بداية استعمال المعادن بينمـــا ترجع حضارة جرمو إلى العصر الحجري الحديث – فإن من العسير الأخذ بهذا الرأي .

حضارة حسونة

يبدو أن حياة الاستقرار بالمعنى الصحيح أخذت تثبت دعائمها ابتداءمن عصر هذه الحضارة التي ترجع إلى الألف السادس قبل الميلاد تقريباً ، ومع أن أهلها كانوا يعيشون في بداية الأمر في بيوت من الشعر [2] إلا أنهم اتخذوا بيوتاً بسيطة من الطين فيا بعد – وقد وصلوا إلى مرحلة لا بأس بها من التقدم والرقي إذ تتميز حضارتهم بنوع من الفخار المزين بالنقوش والأصباغ (شكل ٢٩) ، انتشر استعماله في المناطق الممتدة إلى البحر المتوسط .

وتدل آثار حضارة حسونة على أن أهلها كانوا زراعـــا وأنهم استأنسوا الأغنام والماعز – ولم يمكن التوصل حتى الآن إلى الجنس الذي كان مسؤولا عن هذه الحضارة رغم العثور على جثث أطفال دفنت في أواني فخارية كبيرة .

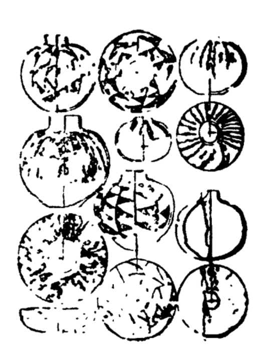
حضارة سامراء :

عثر في هذه الحضارة على أواني فخارية مزينة بنقوش هندسية وحيوانات وأشخاص ، وهي تؤرخ بأواخر الألف السادس قبل الميـــلاد ، وتدل الآثار التي وجدت بها على وجود علاقات بينها وبين أرمينيـــا وبلاد العرب بدليل وجود بعض المصنوعات التي استخدمت فيها موادتنتمي أصلا إلى هذه الجهات.

---

(١) أنظر أعلاه ص ٦٩

(٢) طه باقر « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » جـ١ (بغداد سنة ١٩٥٥) ص ٦٠



شكل (٣٠) أواني من حسونة

عصر بداية استخدام المعادن [١]

حضارة حلف

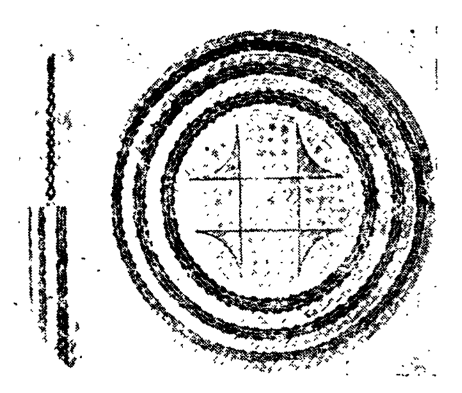
يختلف المؤرخون في أصل هذه الحضارة التي تعد أول عهود ما قبل الأسرات في العراق ، وقد وجدت آثارها في جهات مختلفة تمتد غربا إلى منطقة العمق في سوريا كما وجدت شمالا في الأربجية قرب الموصل .

وتتميز هذه الحضارة بأواني فخارية مصقولة رقيقة الجدران ، كان الواحد

(١) أطلق على هذا العصر في العراق أيضا اسم ما قبل الأسرات شأنه في ذلك شأن مصر انظر اعلاه ص٧١

منها يلون بعدة ألوان زاهية جميلة (شكل ٣٠) ، وتعد الزخارف التي زينت بها هـذه الأواني من أحسن ما خلفه الإنسان القـديم على الفخار ، كما تتميز هذه الحضارة أيضا ببدء استخدام النحاس وزيادة القرى عنها في العصر السابق - وتدل الآثار التي اكتشفت في الأريحية على أن القرية كانت شوارعهـا مبلطة بالحجارة وأنها كانت محاطة بسور ووجدت بها بعض المباني العامة والمعـابد كانت بين آثارها تماثيل صغيرة تمثل آلهة الأمومة مما يدل على تقدم الحيـاة الاجتماعية والدينية .

وليس من الغريب أن تنسب هذه الحضارة إلى حلف التي تقـع في الإقليم السوري وتخرج عن نطـاق العراق فقد وجدت آثارهـا في أماكن متفرقة من سوريا مثل رأس شمرة (أو جاريت القديمة) إلى جانب وجودها في بعض جهات العراق .



شكل ٣١ إناء من الأريحية

هذا ويلاحظ بأن كل الحضارات من أقدم العصور إلى عصر حضارة حلف ليست ممثلة في جنوب العراق مما يرجح أن هذا الاقليم لم يكن صالحا للسكنى حتى قيام هذه الحضارة .

حضارة العبيد :

يبدو أن الإقليم الجنوبي من العراق أخـذ يصلح للسكنى ابتداء من عصر هذه الحضارة ، وكان اختلاف ظروف البيئة في الجنوب والشمال خـلال هـذا العصر سببا في وجود بعض الاختلافات في مظاهر الحضارة التي سادت في هذين القسمين ، ويذكرنا ذلك بما حدث من تخصص إقليمي أثناء العصر الحجري الحديث في مصر وهو يدعونا إلى التمييز بين حضارة العبيد الشمالية وحضارة العبيد الجنوبية .

فحضارة العبيد العبيد الشمالية تتميز بالفخار الملون والتماثيل الطينية الصغيرة والأواني الحجرية والأدوات العظمية ، كما عثر في إحدى المناطق التي تنتمي لهذه الحضارة (وهي تبة جورا) على مجموعة من المباني الهامة (معابد ومنازل) استخدم الآجر في بعض أبنيتها ولم يستعمل الحجر في ذلك إلا نادرا ، وقد عثر على مقابر للأطفال في طبقات المنطقة بينما كان البالغون يدفنون في جبانات أخرى على السفح عند أسفل التل وكانت المقابر أحياناً تغطى بالحصير .

أما حضارة العبيد الجنوبية فتعتبر أقـدم حضارة ظهرت في هـذا الجزء من العراق حيث أن مخلفاتهـا تستقر على الأرض البكر ، ومن أهم مواقعهـا تل أبو شهرين (أريدو) وأور وقلعة الحاج محمد (قرب الوركاء) ، ومن أهم ما يميزها الفخار الملون بلون يميـل إلى الخضرة والحمرة أو اللون البني والرسوم التي تزينه ملونة بألوان مائية سوداء وهي تمثل أشكالا هندسية (شكل ٣٠) مما يذكرنا بحضارة نقادة الأولى في مصر — وقد عثر كذلك على تماثيل طينية

و أدوات وأواني حجرية وبعض المناجل التي على شكل الهلال .



شكل ٣٢ – اواني فخارية من أريدو (حضارات العبيد)

هذا وقد عثر على آثار مجموعة من المعابد" يتضح منها أن عمارة المباني ذات المداخل والمخارج التي على أبعاد منتظمة تأخذ في الظهور منذ هذا العصر، وهذا الطراز يبدو بصورة واضحة في مقابر عهد الأسرتين الأولى والثانيـة في مصر- ويبدو أن حضارة العبيد على العموم جـاءت عن طريق إيران إلى جنوب العراق ومنه انتشرت إلى الشمال ، ومنذ ذلك الحين أحرز جنوب العراق قصب السبق في ميدان الحضارة، فبينما توصل أهل الجنوب في حضارة الوركاء التالية إلى بداية الكتابة ظل أهل الشمال يجهلونها وعندما بدأ هؤلاء يستخدمونها كان أهـل

الجنوب (سومر) قد دخلوا عصرهم التاريخي [١]

حضارة الوركاء

تتمثل هذه الحضارة في بضعة مواقع لم يعثر فيها على مقابر إلا في موقعي أور وخفاجة شرق بغداد حيث عثر على بضعة مقابر صغيرة -وقد عثر في الوركاء على برج مدرج من اللبن عرف باسم الزاقورات [٢] على جانبي درجه معبد أو معبدان يعرفان باسم المعبد الأرضي أو السفلي ويحيط بالزاقورة والمعبد الأرضي ساحة كبيرة بها حجر متعددة ويحيط بالجميع سور ضخم كما وجدت بالمدينة معابد أخرى منها معبد إي - أنا (إلهة السماء التي عرفت فيما بعد باسم الالهة عشتار) وهو يتوسط القسم الشرقي من المدينة ومعبد جميل شيد لعبادة الاله آنو (إله السماء) في القسم الغربي من المدينة وقد عرف باسم المعبد الأبيض لوجود طلاء في الجص على جدرانه .

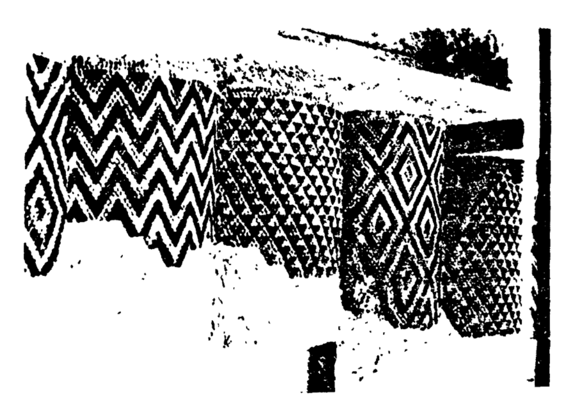
وتتميز هذه الحضارة بوجود أقدم امثلة النحت في السطوح المستوية ونحت كتل الأجسام (نحت التماثيل أو النحت المستدير)،هذا فضلاعما عثر عليه من آثار تدل على تطور في الصناعة مثل الأواني الحجرية والأختام الأسطوانية وأدوات الزينه وتتمثل في هذه الحضارة كذلك أقدم محاولات الكتابة ، وهي كتابة بدائية استعملت فيها الصورة لتدل على معاني وكانت تكتب بقلم معدني ذو طرف مدبب على لوحة من الطمي قبل أن تجف ، وامتازت هذه الحضارة أيضا بنوع من الفخار الأملس المصبوغ بالأحمر والبرتقالي كما أن المباني كانت تزخرف بقطع صغيرة من الفخار أو الحجر الملون وهذه القطع كانت مخروطية الشكل وتثبت في الجدران المبنية باللبن في صفوف بحيث تبدو كأنها فسيفساء (شكل ٣٣) .

---

(١) Georges Roux, Ancient Iraq. (Pelican A 828) , p. 81

(٢) عن الزقورات أنظر :

Andre' , Parrot, «Ziggurats et Tour de Babel,» Pars 1949



شكل ٣٣ أعمدة مغطاة بالموزاييك المخروطي الشكل في أوروك (الوركاء)

حضارة جمدة نصر :

آخر مرحلة سابقة للعصر التاريخي وقد استطاع الإنسان فيها أن يصل إلى مرحلة متقدمة في الفن والكتابة حيث نجد أمثلة متفوقة في العمارة ذات الفجوات التي على أبعاد منتظمة — وتطورت فيها صناعة الأواني الحجرية والفخارية وزخرفتها كما أن الرموز التي استعملت للتعبير بالكتابة تعددت وبسطت حتى أصبح من الميسور أن يعبر بها عن أغراض أكثر من ذي قبل ، على أن أهم موضوعات الكتابة التي عثر عليها في هذه المرحلة كانت تتصل بحسابات مختلفة منها ما يتعلق بالمعابد ، وهذا يدل على مدى ارتباط النواحي الاقتصادية بتطور الكتابة كما أنه يعتبر تمهيداً للعصر التاريخي ويمكن القول بأن التوصل للكتابة قد ساعد على تنظيم النواحي الاقتصادية بل والسياسية والاجتماعية كذلك — على أنه يجب أن لا يغيب عن الذهن ما نلاحظه من اختلاف فى ظروف البيئة بين مصر وبلاد النهرين حيث أنها في الأولى قد ساعدت على توحيد كل من مصر

السفلى والعليا قبل ظهور الكتابة بزمن طويل أي أن سهولة الاتصال بين الجماعات التي عاشت فيها قد مكنت من تعاونهم واتحادهم فانضموا تحت لواء هاتين الوحدتين الكبيرتين ، أما في الحالة الثانية (بيئة بلاد النهرين) فقد كانت صعوبة الاتصال نسبيا سببا في تكوين عدد من المدن تحكم كلا منها حكومة معينة – ويرى البعض أن بلاد النهرين توصلت منذ نهاية عصر التمهيد للكتابة إلى إيجاد نوع من الحكم الديمقراطي إذ فرضت ظروف البيئة (التي كانت عرضة للكثير من الفيضانات والأعاصير وإغارات الشعوب المجاورة) نوعا من التنظيم الاجتماعي وذلك لمواجهة خطر مشترك أو للرغبة في نفع مشترك كالتحكم في مياه الأنهار واستغلالها وتحالف بعض المدن ضد القوى المعادية التي تهدد كيانها .

وكان التوصل إلى بعض مظاهر الحضارة في كل من مصر والعراق إحداهما قبل الأخرى مما جعل الأثريين والمؤرخين يختلفون فيما بينهم على أي الدولتين كانت أسبق من الأخرى في ميدان الحضارة ولكن لم يمكن حتى الآن إثبات أسبقية حضارة إحداهما بصفة مؤكدة ، كما أنه لا يوجد من الأدلة القاطعة ما يكفي لإثبات أن الحضارة قد انتقلت من إحداهما إلى الأخرى وخاصة في تلك المرحلة السحيقة في القدم .

العصر التاريخي

زار هيرودت بابل في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ولكنه اهمل زيارة نينوي لأنها كانت قد دمرت قبل ذلك بقرن ونصف تقريباً كما تحدث عن بابل كذلك استرابو التي وصفها كمدينة مخربة كادت أن تكون مهجورة ،وبمرور الزمن طمرها الرديم بعد ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة ولم يعد العالم يذكر عن ماضي العراق إلا قدر ضئيل كان يذكره المؤرخون والجغرافيون العرب .

ولم يهتم الغربي بعاديات وحضارة بلاد النهرين القديمة بصفة عامة إلا في القرن السابع عشر على أثر عودة النبيل الإيطـالي بيترو ديللافال Pietro della Valle سنة ١٦٢٥ من رحلته فيها وإحضاره أحجارا منها منقوشة برموز غير معروفة.

وفي سنة أرسل ملك الدانمرك بعثته العلمية الشهيرة إلى الشرق [١] لجمع كل ما يمكن من معلومات عن الشرق في كافة فروع المعرفة ، وقد تمكن رئيسها كارستن نيبور من نسخ نقوش جديدة من برسبوليس أثارت اهتمام علماء اللغات فبذلوا جهودهم في محاولة تفسيرها، ومنذ ذلك الحين أخذ كل من ذهب إلى الشرق يحاول البحث والتنقيب في أطلاله ويجمع ما يمكن الحصول عليه من عادياته وينسخ ما يمكنه نسخه من النقوش من الآثار الثابتة التي يراها ، ومن أشهر هؤلاء القس الفرنسي جوزيف دي بوشام Joseph de Beaichamp سنة ١٧٨٦ والقنصل البريطاني في بغداد جيمس ريتش James Rich سنة ١٨٠٧ السير هنري كريزوك رولنسون Sir Henry Creswick Rawlinson (سنة ١٨٣٥ وما بعدهـا) وبول إميـل بوتا Poul Emile Botta القنصل الفرنسي في الموصل سنة ١٨٤٣ وسير هـنري لايارد Sir Henry Layard وغـيرهم ومن مطلع القرن الحـالي أخذت بعثات أجنبية من مختلف الجنسيات تنقب في أنحاء مختلفة من العراق .

وكما كان حجر رشيد مكتوبا بثلاثة لغات مختلفة مما ساعد على تفسير رموز الكتابة المصرية وجدت نقوش في إيران كتبت بثلاث لغات مختلفة أيضا ولكنها تختلف عن حالة حجر رشيد في أن لغات هذه النقوش كانت كلها غير معروفة ومن أهمها نقش بهستون [٢] ونقوش برسبوليس (اصطخر) إلى الشمال الشرقي

---

(١) أنظر اعلاه ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٢) عبارة عن نص واحد نقشه دارا الأول بثلاث لغات مختلفة هي الفارسية القـديمة والعيلامية المتأخرة والبابلية على صخرة بهستون بالقرب من كرمنشاه .

من شيراز – وبالرغم من عدم معرفة أي من هذه اللغات فقد استطاع جورج فردريك جروتفند Georg Friedrich Grotefend أن يستنتج في سنة ١٨٠٢ من نقشين في برسبوليس قراءة اسماء ثلاثة مـلوك وأن يعرف القيمة الصوتية لثـلاثة عشر رمزا من الفارسية القديمة [١] كما استطاع العـالم الفرنسي يوجـين برنوف Eugene Burnouf والعـالم الالماني كريستيان لاسين Christian Lassen أن يحدد سنة ١٨٣٦ القيمة الصوتية لعلامات الكتابة الفارسية القديمة غير أن معرفة المعاني ظلت محدودة لقلة النقوش التي كانت معروفة إلى ذلك الوقت .

وكان لاكتشاف رولنسون نقش بهستون الطويل أبلغ الأثر في حل رموز الكتابة المسمارية بصفة عامة وقد بدأ نسخه سنة ١٨٣٥ ثم نشره مترجما ابتداء من سنة ١٨٤٦ [٢] وأصبح في الإمكان تفسير النقش المدون بالفارسية القـديمة وقد ساعد ذلك على التوصل لحل رموز النقشين العيلامي والبابلي وبالتالي أمكن التوصل لقراءة النصوص السمارية وتفسيرها .

وقد استطاع جروتفند أن يلقى بعض الضوء على العيلاميـة واكتشف أن الأسماء المذكرة يوضع لها مخصص قبل الاسم وليس بعده كما في المصرية – وبمقارنة النقش العيلامي بالنقش البابلي اتضح له أن العيلامي حوى ١١١ رمزا بينما كان عدد رموز البابلي هائلا مما أدى إلى استنتاج أن العيـلامية كتابتها مقطعية أي ليست بها هجائية ولا رموز معاني .

وحينما انكب ادوين نورس Ednwin Norris الذي كان سكرتيرا لجمعية الدراسات الاسيوية الملكية بلندن ابتداء من سنة ١٩٣٨ على حل رموز العيلامية بدأ كالمعتاد بالتعرف على الاسماء فتوصل إلى ٤٠ إسمـا سنة ١٨٥٣ زادت

---

(١) أنظر فيما بعد ص ٤٠٠

(٢) نظر فيما بعد ص ٤٠١

بعد ذلك إلى ٩٠ إسماً كما أنه اكتشف أن رولنسون عند نشره لنقش بهستون سها عن أحد الأسطر ولما راجعه في ذلك رجع هذا إلى نسخته الأصلية وثبتت صحة ما أخبره به نورس ، وهكذا كان نقش بهستون خير معين للعلماء في تحديد معظم رموز المقاطع ومعاني الكلمات وقواعد اللغة العيلامية .

أما عن البابلية ، فقد وجد علماء أوربا أن النقش المدون بالبابلية في بهستون يشبه الكتابة المدونة على الآثار العراقية التي وصلت أوربا ، ومن الذين أسهموا في حل رموز البابلية لوفن استرن Lowen Stern السويدي إذ توصل إلى معرفة بعض الرموز وبعض معاني الكلمات من مقارنة النص البابلي بالنص الفارسي القديم في ذلك النقش .

وفي سنة ١٨٥٠ قدم رولنسون بحثاً لجمعية الدراسات الآسيوية الملكية بحثاً أوضح فيه توصله إلى رموز ٨٠ إسماً والقيمة الصوتية لنحو ١٥٠ رمزاً و ٥٠٠ كلمة بابلية وفي نفس السنة أعلن هينكس Hincks الإيرلندي أن البابلية ليست هجائية بل تتألف من رموز ويمثل كل منها مقطع أو كلمة ذات معنى أو مخصص أي أن الرمز كانت له قيم مختلفة كما تعرف على عدد كبير من المخصصات كذلك توصل بوتا عند تنقيبه عن قصر سرجون الثاني من مقارنة النقوش التي عثر عليها بأن الكلمة الواحدة قد تكتب برمز واحد (معنوي) أو برموز مقطعية ، وفي سنة ١٨٥١ نشر رولنسون النص البابلي في نقش بهستون وأعلن أن الرمز المقطعي قد تكون له قيم مختلفة النطق وأورد أكثر من ٢٠٠ رمز كأمثلة لذلك ، وكانت النهاية المؤيدة لكل ذلك العثور في نينوى على قوائم بكلمات سومرية (رموزها معنوية) وما يقابلها بالكتابة الأشورية البابلية ، ونظراً لما أثير من شك حول صحة قراءات وتفسير البابلية أرادت جمعية الدراسات الآسيوية الملكية التحقق من صحة ما توصل علماء الأشوريات الأربعة البارزين في ذلك الوقت (وهم رولنسون وتالبوت الذي كان يعمل بالمتحف البريطاني وأوبرت Oppert

الذي كان أستاذاً للأشوريات في College de France ،فأرسلت إلى كل منهم نسخة من نص مسماري لم يكن أحدهم يعرف عنه شيئاً لأنه كان حديث الاكتشاف وهو على ثلاثة أختام صلصالية من عهد تيجلات بلاسر الأول وطلبت إليهم أن يرسل كل منهم ترجمته على حدة للجمعية التي شكلت هيئة للتحكيم فجاءت ترجماتهم متطابقة إلا من اختلافات تافهة ، وعلى ذلك أصدرت لجنة التحكيم قرارها بأن النصوص المسمارية البابلية الأشورية أمكن تفسيرها وأصبح في الإمكان قراءتها وفهمها .

ومن معالجة مختلف النصوص التي عثر عليها في بلاد النهرين يتبين لنا أن عصرها التاريخي (على خلاف تاريخ العصر التاريخي في مصر) أبعد من أن يمثل تاريخ وحدة سياسية لأنه لم يبدأ في جميع أرجائها في وقت واحد نظراً لاختلاف ظروف البيئة في أقسامها المختلفة ولاختلاف الأقوام التي عاشت فيها ، ولذا ينقسم هذا العصر إلى أقسام يتميز كل منها بتغيرات سياسية هامة تصاحبها أحياناً تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية .

وأول هذه الأقسام هو الذي يطلق عليه اسم العصر قبل السرجوني [١] أو عصر فجر السلالات إذ أنه يشمل جزءاً من الألف الثالث وينتهي بغزو الملك السامي سرجون الأول ملك أكد لبلاد سومر حوالي سنة ٢٤٠٠ ق.م — وقد سبق أن أشرنا إلى أن القسم الجنوبي من بلاد النهرين بدأ عصره التاريخي قبل قسمها الشمالي [٢] ، ولما كان ذلك القسم قد عرف باسم سومر [٣] فإن من الممكن القول بأن السومريين هم الذين بدأوا العصر التاريخي في بلاد النهرين .

---

(١) نسبة إلى سرجون الأول ملك أكد وهو سادس ملوك الأسرة السامية (الأمورية) التي تأسست في وسط العراق .

(٢) أنظر أعلاه ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(٣) طه باقر « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » جزء (١) (بغداد ١٩٥٥) ص ٨٩ وما بعدها .

١ ـ السومريون

اختلف المؤرخون في أصل هؤلاء السومريين إذ لم يمكن إرجاع لغتهم إلى عائلة اللغات السامية أو إلى عائلة اللغات الهندو أوربية ، ولذا فإن فريقاً من الباحثين يرى بأنهم جاءوا أصلاً من مكان في شرق بلاد النهرين أو جنوبها الشرقي ، ويرى فريق آخر بأنهم جاءوا عن طريق البحر وأنهم من نفس الجنس الذي وصل إلى مصر في عصر ما قبل الأسرات ، بينما يرى فريق ثالث أنهم نشأوا نشأة محلية وتطورت حضارتهم محلياً أي أنهم لم يكونوا من الأجانب .

وإذا ما تتبعنا الأساطير السومرية لوجدنا أن السومريين اعتقدوا بأن الآلهة خلقت البشر ليقوموا على خدمتهم وأن الإنسان في حاجة إلى من يرعاه من الحكام الذين يختارهم الآلهة لتدعيم قوانينها المقدسة ، « ففي عصر سحيق أنزل التاج وعرش الملكية من السماء » ـ ومنذ ذلك الوقت سيطرت سلسلة من الحكام على مصائر أهل سومر نيابة عن الآلهة وهم يعملون لصالحها في نفس الوقت ، فالملوك على هذا النحو كانوا يتمتعون بالقدسية منذ أقدم العصور وإن كان بعض الباحثين يعتقدون بأن نظام الحكم في سومر كان يمثل ديموقراطية بدائية حيث كانت طائفة من المدنيين تختار ـ عند الأزمات ـ زعيماً للمحاربين « لوجال » لتولي شؤون الدولة ويستدلون على ذلك بما يتمثل في أسطورة الخلق حيث تشير إلى أن الآلهة اختارت « مردوخ » كي يقضي على « تياما » [1] ـ ورغم أن تاريخ السومريين غير واضح في معظمه إلا أن ما وصلنا من نصوص تاريخية وما أسفرت عنه البحوث الأثرية تدل على أنهم كانوا في عصر فجر السلالات يعيشون في عدد من المدن المستقلة تحاول كل منها فرض سيادتها على المدن

---

(١) « مردوخ » هو أبو الآلهة عند البابليين ويمثله لدى السومريين « إنليل » إله الجو والهواء أما « تياما » أو « تيامات » فهي إلهة الماء الملح وكانت تريد إهلاك أبنائها .

الأخرى ولكن لا يوجد من النصوص التاريخية ما يدل دلالة قاطعة على أن دويلات المدن كانت تحكمها هيئات جماعية بل ولا نجد في تاريخ هذه المدن إلا حكام أو ملوك كانوا يتلون الآلهة في المرتبة .

وقد وصلتنا بضعة وثائق تحتوي على أسماء الملوك الذين حكموا في هذه المدن ومدة حكمهم ، وقد وردت السلالات الحاكمة في المدن المختلفة متتالية الواحدة بعد الأخرى رغم أن بعضها على الأقل كان يعاصر البعض الآخر ، وقد اتفقت هذه الوثائق في الإشارة إلى حدوث فيضان كبير أو طوفان وأهلك الحرث والنسل ، يحاول كثير من الباحثين الربط بينه وبين الطوفان المشار إليه في الكتب السماوية — كذلك تفصل هذه الوثائق بين الملوك الذين حكموا قبل الطوفان وأولئك الذين حكموا من بعده — وقد أمكن التوصل إلى قائمة بملوك سومر جمعت من ١٥ وثيقة مختلفة من تلك الوثائق [1] وهي تمدنا بهيكل تاريخي لسومر منذ أقدم العصور إلى (القرن ١٨ ق.م) وقت كتابة هذه الوثائق .

وهذه القائمة تشير إلى الأبطال الذين عاشوا في العصر الأسطوري لسومر فتذكر بأن الملكية هبطت من السماء إلى مدينة أريدو أولا حيث حكم فيها ملكان لمدة لا تقل عن ٦٤,٨٠٠ سنة وانتقلت بعد ذلك إلى بادتبيرا (تل المداين قرب تللو) حيث حكم ثلاثة ملوك منهم الإله تموز (إله الإنبات) لمدة ١٠٨,٠٠٠ سنة ومنها إلى لارك (قرب كوت العمارة) حيث حكم ملك واحد لمدة ٢٨,٨٠٠ سنة ثم إلى سيبار (أبو حبة) حيث حكم ملك واحد لمدة ٢١,٠٠٠ سنة ثم إلى شوروباك (تل فرا) حيث حكم ملك واحد لمدة ١٨,٦٠٠ سنة وبعدئذ جاء الفيضان

وبعد زوال الفيضان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى كيش (شرق بابل) حيث تكونت فيها السلالة الأولى من ٢٢ ملكاً حكموا بمعدل ١٠٠٠ سنة

(١) Th. Jacobsen, The Sumerian King List. 1939

للواحد منهم ، ومن الملاحظ أن من بين هؤلاء الملوك ١٢ ملكاً أسماؤهم سامية ، ٦ أسماؤهم سومرية ويرى بعض المؤرخين أن ما ورد عن هـــذه الأسرة ليس بأكمله أسطورياً بل بعضه تاريخي – كذلك تذكر هذه القائمة أن آخر ملوك كيش « أجا » هزم على يد أول ملوك أسرة الوركاء ولكن مصادر أخرى تدلنا على أن الأسرتين كانتا متعاصرتين فترة طويلة وأن « أجا » المشار إليه كان يعاصر خامس ملوك الوركاء « جلجامش » الذي قضى على مملكـــة كيش – كذلك يستدل من هذه المصادر على أن الوركاء كانت على علاقة مع آراتا (التي يحتمل أنها كانت غرب إيران أو في عيلام) وأن جماعات مارتو (الأموريين في سوريا حاصروها واستولوا على الحكم في بلاد النهرين .

ومن العسير التوصل إلى بداية العصر التاريخي نظراً لأن قائمة ملوك سومر تذكر أرقاماً خيالية لمدة حكم الملوك فلا نعرف منها متى انتهى العصر الأسطوري ومتى بدأ العصر التاريخي ، ومما يزيد الأمر صعوبــة أن بعض البحوث الأثرية أسفرت عن الكشف عن أسماء عدد من الملوك الذين حكموا في مدينــة لجش ولم يذكروا في القائمة وقد أمكن وضع مجمل تاريخي لهذه المدينــة من الألف الثالث ق.م إلى سنة ٢٠٠٠ ق م تقريباً ولكن ربما كان ذلك لأنهم لم يحكموا سومر كلها – ومهما كان الأمر فإن العثور على نصوص تاريخية لملوك من الذين ذكروا في قائمة ملوك سومر يدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الملوك عاشوا بالفعل وأن أقدم النصوص يرجع إلى أسبق الملوك في ترتيبه الزمني .

ففي المتحف العراقي قطعة من المرمر مجهولة المصدر كتب عليها « مي-براج-سي » ملك كيش وأمكن إثبات أن هذا الملك هو « إن – مي – براج – سي » [١]

---

(١) لفظ « إن » يدل على أداة يمكن حذفها ـ أنظر
G. Roux., op. cit., p. 119

الملك الثاني والعشرين من أسرة كيش الأولى الذي كان يعتبر أسطورياً وهو والد « أجا » الذي حارب ضد جلجامش خامس ملوك الوركاء – كما أن قطعة رخامية أخرى عثر عليها في أور كتب عليها أن الملك « إي – أني – بدا » ابن « مس – أني – بدا » بنى معبداً الإلهة « نن – هورساج » (وهي الإلهة الأم وتقابل إينانا التي عرفت باسم عشتـــار لدى الساميين) – ولم يكن « إي – أني – بدا » معروفاً ولكن والده يعد في قائمة ملوك سومر مؤسس الأسرة الأولى في أور التي تلت أسرة الوركاء الأولى في هذه القائمة ، وقد أمكن إثبات أن هذا الملك الأخير كان يعاصر جلجامش – ومن كل ذلك نستنتج بأن أقدم حاكم سومري معروف لنا هو « إن – مي – براج – سي » ، وإذا ما اعتبرنا أن سرجون الأكدي عاش في الفترة ٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م فإن من الممكن تقدير تاريخ حكم « إن – مي – براج – سي » بحوالي سنة ٢٧٠٠ ق.م كما يمكن اعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخي في بلاد النهرين [١].

ومع أن أحد الكهنة البابليين ويدعى برعوشو (Berossus) وكان يعيش في عهد أنتيوخوس الأول (سوتير ٢٨٠ – ٢٦١ ق.م) وضع تاريخـاً لبابل في ثلاثة أجزاء فإن ما وصلنا من تاريخه عن طريق مؤرخي اليونان لا يعدو جزءاً ضئيلا لا يلقي كثيراً من الضوء عن تاريخ هؤلاء السومريين، كذلك لا تذكر النصوص الأدبية التي ترجع إلى عصر فجر الأسرات إلا ١٣ مدينة هي من الشمال إلى الجنوب : سيبار ، كيش ، أكشاك ، لاراك ، آداب، أوما، لجش، بادتيبرا، أورك ، لارسا ، أور ، أريدو بينما أسفرت البحوث الأثريـة عن وجود مدن

---

(١) G. Roux, op. cit., pp. 119 - 120

هامة أخرى في أجزاء بعيدة من بلاد النهرين كانت تحت تأثير سومري قوي ومن هذه آشور (قلعة شرقاط) على نهر دجلة وماري (تل الحريري) على نهر الفرات ، ومع أن هذه الأسماء المدونة في نقوشهما المحلية تدل على أنهما في قلب منطقة سامية إلا أن الآثار التي عثر عليها كانت سومرية الطابع وقد وجدت آثار شبيهة بها كذلك في أشنونا (تل أسمر) في وادي ديالة .

وقد عثر في بعض مقابر الجبانة الملكية في أور على ما يثبت دفن الضحايا البشرية مع المتوفي ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى الاعتقاد بأن هؤلاء المتوفين كانوا من الآلهة سواء في ذلك الملك أو الملكة فلم يكن هناك من فاصل بين الملك ورئاسة الكهنة - ثم أخذت هذه العادة في الاختفاء بعد أن تم الفصل بين العرش والمعبد كما يستدل على ذلك من أن « أينتمينا » حاكم لجش (٢٥٠٠ ق.م) لم يكن كاهنها الأعظم إذ أن آنية فضية عثر عليها دونت عليها عبارة تفيد أن « دودو » كان كاهن « ننجرسو » إله لجش ، ويبدو أن النزاع قد اشتد بعد ذلك بنحو مائة عام بين الملك والكهنة حيث ظهر ذلك في عهد أوركاجينا آخر ملوك لجش ، ولم يستمر هذا النزاع طويلاً لأن لجش وسومر كلها خضعت لغير السومريين بعد ذلك .

عصر فجر الأسرات :

مما سبق يتبين لنا أن عدداً من الحكام المحليين كانوا متعاصرين ، وأن أسرة كيش الأولى كانت صاحبة السيادة إذ تشير قائمة الملوك السومرية إلى أن الملكية هبطت إليها بعد الفيضان وعلى ذلك أصبح لقب « ملك كيش » يعادل على الأرجح لقب « ملك سومر - وقد أشرنا إلى أن ملكها « إن - مي - براج - سي » حكم حوالي سنة ٢٧٠٠ ق.م ، وتدل الشواهد الأثرية على أنه بنى معبداً

للإله إنليل في نيبور مما جعلها تعتبر عاصمة سومر الدينية وأصبح ملوك وحكام مختلف المدن يتبارون في إرسال الهدايا لمعبدها ، وبالتالي أصبح من الضروري أن يتم اختيار الحكام بواسطة الإله إنليل في نيبور إذا ما أرادوا أن يعترف بهم الأمراء الآخرون كسلاطينهم وأصبح امتلاك نيبور لا مناص منه للسيادة على سومر ، وأصحاب نظرية الديموقراطية البدائية يميلون إلى أن السومريين في عصر الأسرات الباكر كانوا يرسلون إلى نيبور (عندما يهدد سومر غزو أجنبي) مندوبين من كل دويلات المدن لاختيار قائد عام للحرب – فاختيار إنليل لمن يصبح صاحب السلطان المطلق في البلاد هو المظهر الباقي لهذا الإجراء القديم ولكن وجود مثل هذا التعصب لنيبور أمر افتراضي بحت وربما كان للعوامل الإقتصادية أثرها كذلك حيث كانت كيش ونيبور تقعان فيما بين دجلة والفرات وتتحكمان في طريق البرونز الذي يصل من الأناضول وإرمينيا وأذربيجان إلى جنوب العراق – وربما لم تصبح نيبور عاصمة سياسية اكتفاء بمركزها الديني مثل هليوبوليس في مصر .

وتشير الأساطير السومرية والبابلية إلى جلجامش وتصف أعماله الخارقة وحكمته البالغة وأسفاره البعيدة جرياً وراء الخلود وإلى أنه بنى أسوار الوركاء ومعبدها المقدس كما أنها تذكر ما حدث في عهده من طوفان عظيم يحاول الباحثون توحيده بطوفان نوح في الكتب السماوية – وقد سبق أن ذكرنا بأنه هو الذي قضى على مملكة كيش [١] .

ومن المرجح أن أسرة اور الأولى خلفت أسرة كيش في السيادة لأن مؤسسها

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٤٨

« مس – أني – بدا » ذكر على ختم عثر عليه في أور باعتباره « ملك كيش »
كما أن ولديه من بعده امتلكا نيبور لأنهما قاما بترميم معبدها – ومن الآثار التي عثر
عليها في جبانة أور تتبين مقدار ثراء هذه المدينة وعظمة أسرتها الحاكمة حيث
عثر على بعض مقابرها الفنية التي حوت كثيراً من الأثاث الثمين والتحف النادرة
ومن أهم هذه المقابر مقبرة « بو – آبي » التي كانت تعرف فيما سبق باسم
« شب – عاد »[1] التي حوت بالإضافة إلى حلي هذه السيدة كأساذهبية وغطاء
للرأس في حالة جيدة وقيثارة ذهبية تعد من آيات الفن القديم/ وقد دفن
مع صاحبة المقبرة عدد من الأتباع أحياء – ومن بين الآثار التي عثر عليها في إحدى
مقابر أور لوحة خشبية مطعمة بالصدف نقوشها تمثل الحاكم (أو الملك) وهو يستعرض
عدداً من الجنود والأسرى ، وفضلاً عن ذلك فإن آثار هذه المدينة تؤيد ما ذهبنا
إليه من أنها كانت تنعم بالرخاء والرفاهية إلا أن هذه الحال فيما يبدو لم تدم طويلاً
فبعد نحو قرن فقدت أهميتها لأن القبائل العيلامية التي كانت تسكن الجبال
الشرقية من بلاد النهرين كانت تغير عليها إلى أن تمكنت أسرتا أوان وحمازى
الأجنبيتان (وهما من عيلام) أن تفرضا سلطانهما عليها وعلى جزء من سومر
على الأقل – ولم يكن هذا هو أول دور في سلسلة الحروب الطويلة بين بلاد النهرين
وعيلام التي استمرت منذ ذلك التاريخ لمدة ألفي سنة – ومن أهم مدن عصر
فجر السلالات مدينة لجش ، وليس هذا لأن آثارها أمدتنا بنصوص تاريخية
أكثر من أي مدينة أخرى فقط بل لأن أحد حكامها سيلعب دوراً هاماً أيضاً
في بلاد سادتها الفوضى بعد الغزو الأجنبي إذ أن « إياناتم » (حوالي ٢٥٥٠ ق.م)
كان مثل جده « أورنانشه » حاكم لجش بناء عظيماً للمعابد وشق القنوات ،
وقد جعلته الظروف أيضاً محارباً عظيماً فخلص السومريين من قبضة العيلاميين

(١) G. Roux, op. cit., P. 127

وأمن حدوده الشرقية بإخضاع عدة مدن عيلامية على الحدود إن لم يكن كلها كما ادعى ، وقهر أور وأورك « وأضاف مملكـة كيش إلى إمارة لجش » ولكن الحرب التي جاءتنا عنها معلومات هامة هي الحرب المحليـة ضد أوما على بعـد ١٨ ميلا شمال غربي لجش حيث كان التنافس بينهما على أشده من أجل منطقة زراعية تدعى « جو إيدين » تقع على الحدود بين المدينتين وكل منهما كانت تدعي ملكيتها ، فقبل « إياناتم » بعدة أجيال توسط ملك في كيش يدعى «ميسيلم»[1] بين الدولتين ووضع لوحة له كحدود فاصلة بينهما وانتهى القتال بمعـاهدة سلمية وثبت ملك لجش حدوده مع «إيناكالي» أمير أوما وأعاد لوحة ميسيلم إلى مكانها وفرض ضريبة ضخمة من الشعير على أوما .

وقد بين إياناتم انتصاره على أوما في لوحة تعرف باسم لوحة النسور وفي نهاية عهده حارب ضد ائتلاف من رجال كيش وماري . يقوده « زوزو » (أوأنزو) ملك أكشاك [2] ومع أنه أعلن انتصاره إلا أنه لا شك في أن هذه الحرب قد تسببت في إنهاء امبراطوريته الصغيرة التي كونها .

والقرن الذي تلا إياناتم كان مضطرباً – ويبدو أن « إن – شاكوش – أنا» ملك أورك و « لوجال أنا موندا » ملك أداب (بسمايا الحالية على بعد ١٦ ميلا شمال تل فرا) احتلا على التوالي كيش ونيبور واعترف بهما ملوكاً على سومر ولكن ملوك ماري كانوا يتحدون سيادتهما – وتذكر قائمة ملوك سومر أن ستة من ملوك ماري حكموا في سومر لمدة ١٣٦ سنة وهذا الرقم مبالغ فيه ، كما أن حكم ملوك من هذه المدينة التي تبعد كثيراً في الشمال الغربي لمنطقة جنوب العراق يدل على أن الفوضى سادت هذه المنطقة في ذلك العهد – وفي لجش اندلعت

---

(١) ويحتمل توحيده مع « مس - أني - بدا » حاكم أور .
(٢) لم تحدد بالدقة بعد ويحتمل أنها تل عمر (سلوقيا) أمام طيسفون .

الحرب ثانية بين « انتمينا » ابن أخ « إياناتم » وبين أوما التي كان ملكها يعاونه « ملوك أجانب » يحتمل أنهم ملوك ماري – وعلى ختمين اسطوانيين يوجد نص طويل يشير فيه « أنتمينا » إلى ما حدث في الماضي من أنه قضى على قوات أوما وقاوم حاكمها « مخرب الحقول والزراعات ، الناطق بالسوء » وحفر خندقاً كحدود دائمة بين المدينتين المنافستين ، كذلك نعلم من مصادر أخرى أن « أنتمينا » أبرم معاهدة سلمية مع جاره القوي « لوجال – كينيش – دودو » ملك أورك الذي وحد أورك وأور في مملكة واحدة وانتهى حكمه في سلام ورفاهية ولكن بعد سنوات قلائل تدهور الموقف ثانية في لجش واستولى كهنة « ننجرسو »[1] على الحكم نحو عشرين عاماً وزادوا في ممتلكاتهم على حساب الآلهة وبعد ذلك أطاح بهم « أوروكاجينا »[2] الذي عرف بإصلاحاته الإجتماعية ولكنه لم يحكم سوى ٨ سنوات ثم استطاع « لوجال زاجيزي » حاكم أوما أن يستولي على لجش وأن يدمرها وبعدئذ استولى على أورك ونصب نفسه ملكاً عليها ثم تقدم لغزو بقية سومر ونجح على ما يبدو في ذلك حيث دون على إناء نذري لإنليل عثر عليه في نيبور أن غزواته شملت كل بلاد النهرين وسوريا .

ومن العسير الاعتقاد بأنه امتلك هذه الإمبراطورية ، ويحتمل أن ملك الوركاء تمكن من الحصول على اعتراف الساميين في ماري بخضوعهم له أو الإتحاد معه وكان هؤلاء بدورهم لهم نفوذ على الساميين في سوريا – وعلى أي حال لم تستمر امبراطورية لوجال زاجيزي أكثر من حكمه الذي استمر ٢٥ سنة حيث قضى عليه وعلى امبراطوريته الأمير السامي سرجون ملك أكاد .

---

(١) معبود مدينة لجش .

(٢) يعد أول مشرع في تاريخ البشر وعن تشريعاته أخذ حامورابي قانونه .

٢ ـ الساميون

في عصر الأسرات الباكر تنافس حكام سومر على السيادة على نحو ١٢ مدينة وبضعة أميال مربعة من الأرض القابلة للزراعة التي يحدها البحر جنوباً وتنتهي عند كيش شمالاً وكانت كل من ماري وآشور أجنبية بالنسبة لهم مثل عيلام - ولكن بعد سنة ١٤٠٠ ق م بقليل تمكن الأمراء الساميون في وسط العراق من تغيير مجريات الأحداث ، فلم يكتف سرجون وخلفاؤه بإخضاع دويلات المدن السومرية لسلطانهم بل غزوا كل حوض دجلة - الفرات وأجزاء أخرى من البلاد المجاورة كما أرسلوا بعثات في الخليج العربي وكونوا أول امبراطورية عظيمة لبلاد النهرين - وقد استمرت هذه الإمبراطورية نحو قرنين ثم قضت عليها قبائل جبال زاجروس والثورات الداخلية ولكنها ضربت مثلاً لا يمحى عن إمكان وحدة بلاد النهرين ووصولها إلى حدودها الطبيعية التي أصبحت حلم كل الملوك بعد ذلك فمن منتصف الألف الثالث ق.م إلى سقوط بابل سنة ٥٣٩ ق.م يتمثل تاريخ العراق في محاولات هؤلاء الملوك لتحقيق هذا الغرض ومدى نجاحهم وفشلهم فيه .

ويختلف المؤرخون بشأن نشأة المملكة الأكدية فمنهم من يرى بأن وجود العنصر السامي في جنوب ووسط العراق يرجع إلى غزوة سامية حدثت في أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وكانت مدينة كيش أهم مسرح لها - وما أن استقر الأمر لهؤلاء الساميين حتى عملوا على توسيع رقعة سلطانهم ونجحوا في ذلك حتى استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ في العراق القديم ، ومن المؤرخين من يرى بأن الساميين كانوا بالعراق منذ أقدم العصور وقد عاشوا جنباً إلى جنب مع السومريين بدليل وجود أسماء سامية لملوك سلالة كيش الأولى ولكنهم كانوا دون شك يكونون غالبية السكان في شمال العراق - ومهما كان الأمر فإن هذا العنصر

السامي قد نجح إلى أبعد الحدود وتركز نشاطه في المنطقة الوسطى من بلاد النهرين وقد عرفت هذه المنطقة باسم أكد ولذا يطلق على الدولة التي أسسها سرجون فيها اسم الدولة الأكدية .

سرجون الأول :

يرجع بعض المؤرخين حكمه إلى الفترة ما بين ٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م بينما يرى البعض الآخر أنه أنشأ مملكة موحدة حوالي سنة ٢٣٥٠ ق.م ولكنهم جميعاً يتفقون في أنه حكم نحواً من ٥٥ عاماً على أي حال - ونظراً لنجاحه الساحق فقد حيكت حول نشأته الأساطير وخاصة لأنه لم يكن في طفولته شخصية معروفة ، ومن المحتمل أنه كان من غلمان قصر ملك كيش ثم تدرج في سلك الوظائف حتى أصبح ساقياً للملك « أور - زبابا » (ثالث ملوك أسرة كيش الرابعة) .

وبفضل ذكائه استطاع أن يصل إلى مركز سام جعله يستحوذ على السلطة وما لبث أن قضى على سيده وأعلن نفسه ملكاً على كيش ، ثم بدأ في الكفاح ضد لوجال زاجيزي ملك أوما الذي سبقت الإشارة إليه[1] وتمكن من الإنتصار عليه ثم شيد مدينة أكد وأخذ في تدعيم ملكه حتى أنشأ الإمبراطورية السامية الأولى ، إذ أنه بعد أن نجح في ثورته على سيده وانتصاره على لوجال زاجيزي اتجه نحو الشمال واستولى على مدينة ماري (تل الحريري) ومنها اتجه نحو الشمال الشرقي إلى هضبة كركوك وأربيل وبعد ذلك عاد إلى جنوب العراق حيث نشر نفوذه على مدينة أور السومرية واستطاع أن يوحد العراق لأول مرة توحيداً ظل مستمراً فترة طويلة نسبياً - وبعد أن وطد نفوذه في الداخل استولى على منطقة عيلام الواقعة في جنوب غرب إيران (أي جنوب شرق العراق)

---

(١) أنظر ص ٣٥٤

وكانت عاصمتها سوسة ، وتذكر وثيقة من تل العمارنة (وهي مكتوبة في عصر متأخر عن عصر سرجون) بأنه عبر جبال طوروس إلى بلاد الأناضول وسيطر على جزء كبير منها ، ويؤكد ذلك ما ورد في بعض الوثائق التي عثر عليها في أطلال بوغاز كوي كما يحتمل أنه وصل إلى جزيرة قبرص - وهكذا نجد أنه حكم إمبراطورية مترامية الأطراف ظل يحكمها نحو ٥٥ عاماً حتى حيكت حوله الأساطير وأصبح في نظر الأجيال المتأخرة إلهاً ، ومع هذا فقد أخذت نيران الثورة تشتعل ضده في جميع أنحاء الإمبراطورية قبل وفاته .

ومنذ عهد سرجون أخذت العناصر السامية تسيطر من الناحيتين السياسية والحضارية وقد بدأت اللغة الأكدية المكتوبة بالخط المسماري تحتل مكانة رفيعة حتى أصبحت اللغة الدولية في الشرق الأدنى القديم .

خلفاء سرجون

خلف سرجون ابنه « ريموش » الذي اضطر للكفاح من أجل إعادة السلم في مختلف أنحاء مملكته فقام بغزوات متلاحقة على كثير من أطرافها لكي يخمد الثورات فيها ، ولم يستمر في الحكم طويلا بل ذهب ضحية مؤامرة في السنة التاسعة من حكمه وخلفه أخوه « مانيشتوسو » الذي استمر في كفاحه من أجل الإبقاء على الإمبراطورية التي شيدها أبوه ولم يقتصر في ذلك على سياسة الغزو بل قام بتحسين الأحوال الإقتصادية والشؤون الداخلية في البلاد ، وقد حكم خمسة عشر عاماً ثم تبعه ابنه « نرام - سن Naram - Sin »الذي تمكن من إعادة الإستقرار إلى إمبراطوريته الواسعة على الرغم من محاولة السومريين تفكيك وحدتها ، وقد حكم « نرام - سن » نحواً من أربعين عاماً بذل فيها جهده في رفع شأن أمته حيث شجع الفنون على اختلافها وحرص على تشييد دور العبادة وتعميرها ، ومن أهم آثاره لوحة النصر وهي تمثله على رأس جيشه منتصراً على بعض القبائل الجبلية المعروفة باسم لولوبي Lulubi ، ومن آثاره كذلك

لوحة حفرت في جبل عال في منطقة ديار بكر شمال العراق جاء فيها أنه هزم بلاد « ماجان » التي تحوي محاجر الديوريت وقد استورد منها هذا الحجر ليصنع تمثالا لنفسه . وكان بعض المؤرخين يشك في أن « ماجان » هي مصر حيث أن النصوص البابلية كانت تشير إلى مصر باسم « مالوخا » الغنية بالذهب كما يشكون في أن « نرام سن » هاجم مصر في أوائل عهد الأسرة السادسة ويستدلون على ذلك بأن بيي الأول كلف وزيره أوني بالدفاع عن مصر ضد غزوات قوية وجهت إليها في شمالها الشرقي ولكن أوني استطاع أن يهزم العدو عند الحدود الشمالية الشرقية لمصر إلا أن هذا الرأي بعيد عن الصواب لأن ماجان كانت تطلق على منطقة عمان الواقعة جنوب شبه جزيرة العرب وهي غنية بالحجر والنحاس .

وكان نرام سن آخر ملك قوي من الأكديين حيث تبعه في الحكم ولده «شاركار شري » (وشار بالأكدية تعني ملك) الذي كان ضعيفاً لم يستطع مجابهة الظروف حيث اندلعت الثورات في أنحاء الإمبراطورية وقامت الشعوب التي خضعت للأكديين تبغي إعادة استقلالها ، كما انتهزت قبائل الجوتيين التي كانت تسكن في الجبال الشمالية الشرقية فرصة الضعف الذي منيت به الإمبراطورية وزحفت على السهول الخصبة في بلاد النهرين وقضت على حكم الإمبراطورية ، وكان من قسوتها في حروبها أن ظل الناس في الأجيال التالية يذكرون فظائعهم لمدة طويلة ، وقد وصف أحد الكتاب القدامى ذلك بقوله « وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهن والأطفال من أمهاتهم والذين اغتصبوا الحكم وقضوا على (سومر) بعد أن حملوا كنوزها معهم إلى الجبال » .

وبعد أن استقر الأمر لهؤلاء الغزاة فضلوا العودة إلى وطنهم في الشمال

مكتفين بفرض الجزية على أهل المدن السومرية، وقد اتبعوا في حكمهم الأساليب التي استعملها الأكديون ولم يغيروا شيئاً من النظم الحضارية فاستعملوا اللغة السومرية في رسائلهم ومكاتباتهم وقد تفاخروا بتلقيب أنفسهم بلقب «ملوك الجوتي وأركان العالم الأربعة» – ولم يصلنا عن حكمهم شيئاً المهم إلا أسماء ملوكهم فقد ذكرت لهم قائمة الملوك السومرية أسماء ٢١ ملكاً ولكن خمسة فقط من هؤلاء هم الذين تركوا بعض النقوش ولم نعرف من النصوص التاريخية اللاحقة لعهدهم شيئاً عن الأحداث التاريخية في زمنهم ولكنها مع ذلك تصفهم بالتعسف الشديد .

وكان لبعدهم في الشمال وتركهم تصريف الأمور لأبناء البلاد الأصليين أثر في إتاحة الفرصة لهؤلاء كي يعيدوا مجد الحضارة السومرية وأن ينهضوا من جديد فظهرت في ميدان القوة بعض المدن السومرية وخاصة أور ولجش وغيرها – ولم يستمر حكم الجوتيين أكثر من ١١٠ عاماً تقريباً .

٣ ــ عودة نفوذ السومريين (النهضة السومرية)

ظلت معظم المدن السومرية تحت حكم أسراتها الحاكمة وإن خضعت لسلطان الأكديين أو غيرهم ، وانتقل الحكم من أسرة إلى أخرى في المدن المختلفة وظهر فيها بعض الحكام الأقوياء بين حين وآخر .

ومن أشهر هؤلاء الحكام « أوتو حيجال » مؤسس أسرة الوركاء الخامسة الذي أعلن الحرب على الجوتيين – وما أن بدأ كفاحه ضدهم حتى انضم إليه عدد من أمراء جنوب العراق فهزموا الجوتيين المكروهين لدى الجميع وحاول ملكهم « تيرقان » الهرب ولكن قبض عليه وسلم لقائد السومريين ، ونهضت نيبور من جديد وأصبحت الوركاء على رأس دويلات المدن السومرية – إلا أن ذلك

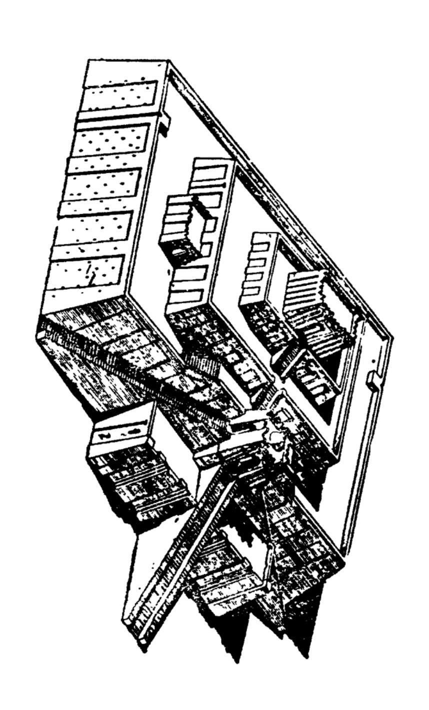
لم يستمر طويلا لأن « أورنمو » مؤسس الأسرة الثالثة في أور سرعان ما أعلن الثورة على « أوتو حيجال » وانتزع منه السيادة وأعلن نفسه ملكـــاً على دولة سومر .

وكان أورنمو «Ur - Nummo» من قواده في أول الأمر ولكنه استطـــاع أن يبرز في أور وأن يمد نفوذه إلى ما وراء حدودها فضم عدداً من المدن تحت سلطانه وأعلن نفسه ملكاً في أور على دولة سومر وبذلك أسس أسرة أور الثالثة التي يمد عصرها « عصر أور الذهبي » لما ظهر فيه من تقدم ورخاء .

وقد قام أورنمو بإصلاحات كبيرة فأعاد بناء ما تهدم من المعابد وأعاد حفر شبكة القنوات التي كانت تعتمد عليها ثروة البلاد ، وقد عثر على نسخة من القانون الذي وضعه قبل قانون حمورابي بثلاثة قرون تقريباً ومن أهم الآثار التي تركها معبد أور المدرج المعروف باسم زقورات أور Ziggorat [1] شكل وكان مبنياً باللبن في درجات يعلو بعضها البعض تؤدي إلى الأماكن التي تعلو البناء — وقد ترك لنا أورنمو نقوشاً تبينه وهو يتعبد في المعبد كما تبين بعض مناظر عملية بنائه — وكان جوديا رابع أمير في أسرة لجش الثانية يعاصر « أورنمو » أو خلفه « شولجي » وقد اشتهر هذا الأمير بأعماله العمرانية وتشجيع التجارة مع كثير من أقطار الشرق الأدنى مثل عيلام وسوريا والأناضول وقد عمل على رفاهية رعيته طوال مدة حكمه التي بلغت ثلاثين عاماً وكان تفانيه في خدمة الدين من الأسباب التي جعلته يترك آثاراً تفوق آثار غيره من أمراء المدن السومرية .

---

(١) أراد البعض مقارنته بالهرم المدرج ومباني الهنود الحمر في المكسيك إلا أن الوظائف المخصصة لكل من هذه المباني تختلف عن وظائف الأخرى ، فالهرم المدرج عبارة عن مقبرة ملكيـــة أما زقورات أور ومباني الهنود الحمر المدرجة في المكسيك فهي عبارة عن معابد ـ والجزء الأساسي من الهرم المدرج هو حجرة الدفن التي تقع تحت سطح الأرض بأسفل الهرم أما في زقورات أور ومعابد المكسيك فإن الجزء الأساسي هو الذي في أعلى البناء وهو الهيكل نفسه ـ وربـــما كانت الدرجات التي تؤدي إلى أعلى البناء في زقورات أور تغطى بالطمي لزراعة بعض النباتات .



شكل ٣٣ – زاقورات اور

ولما مات أورنمو خلفه ولده « شولجي Chulgi » الذي سار على نهـــج والده في سياسة التعمير ولكنه اهتم بمدينة « أريـــدو » التي كانت على شاطىء البحر وكانت تعتبر مقراً للإله « إنكي » إله الماء والبحار - وقد عثر على بعض اللوحات في مدينة لجش أمكن منها معرفة الكثير عن النظام الإداري في عهـده وتبـين أن الحكومة المركزية في أور كانت تشرف إشرافاً تاماً على سائر شؤون الدولة وفي مختلف أرجائها ، وقد وصل نفوذه السياسي والحضاري إلى أمد بعيـــد حتى ليرى البعض أنه وصل إلى آسيا الصغرى وحوض البحر المتوسط ، ولكن لا يوجد من الأدلة ما يكفي لإثبات ذلك .

ولما مات شولجي كان الرخاء والأمن سائدين ولذا لم يجـد خلفاؤه ما يوجب بذل جهود ضخمة ، وكان هذا الرخاء في الواقع يحمل بين طياته نذير الاضمحلال .

٤ ــ تنافس الأموريين والعيلاميين
(سيادة مدينتي ايسين ولارسا)

بعد عهد سلالة أور الثالثة الذي دام أكثر من مائة عام نهاية حياة السومريين السياسة لأن هؤلاء اندمجوا بعد ذلك بالساميين ولم تحكم في أور بعـــدها أسرة سومرية خالصة - وقد قام آخر ملوكها (أبي - سن) وهو خامسهم ببناء سد لصد هجوم الأموريين وهم الشعبة السامية التي عاشت واستفحل خطرها في منطقة ماري في حوض الفرات الأوسط .

ومن المعروف - حسب آخر ما كشف من الوثائق التاريخيـة - أن المدن التي كانت تحكمها أور أخذت تخرج عن سلطانها حتى السنة الحـــادية عشر من حكم « أبي - سين » ، وحينما رأى حاكم ماري من قبـل ملك أور (وهو المدعو أشي - إيرا) أن الأموريين يهددون مدينتي « أيسين ونفر » استنجد أول الأمر

بسيده للدفاع ضد الأموريين ولكنه وجد بعد ذلك أن تدهور الأحوال داخل المملكة يشجعه على أن يستغل الفرصة لنفسه فقام بالدفاع عن مدينة أيسين لصالحه الشخصي ونجح في تكوين سلالة خاصة في هذه المدينة إبتداء من السنة الثانية عشرة من حكم أبي سين .

وفي نفس الوقت تقريباً نجح العيلاميون في غزو العراق ودمروا أور — ويرى بعض الباحثين أن أبي سين لم يؤخذ أسيراً إلى عيلام بعد هذه الغزوة لأنه كان متحالفاً مع العيلاميين ضد الأموريين عندما اشتد ضغطهم على بلاده ومهما كان الأمر فإن سيادة أور انتهت بذلك الغزو المزدوج الذي قام به الأموريون والعيلاميون ، وقد نتج عن هذا وجود أسرتين حاكمتين في العراق إحداهما في أيسين وهي التي أسسها « أشي إيرا » والأخرى في « لارسا » وهذه يرجح أنها كانت خاضعة لنفوذ العيلاميين — وفي نفس الوقت كان الأشوريون في الشمال قد بدأوا يكونون دولة مستقلة كما وجدت بعد فترة مملكة في بابل ينتمي ملوكها إلى أصل أموري ومملكة أخرى عرفت باسم مملكة أشنونا (نسبة إلى العاصمة أشنونا وموقعها الآن تل أسمر) في حوض نهر ديالى ، وهكذا نجد أن بابل عادت بعد سيادة أور إلى نظام دويلات المدن ، وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذا العهد باسم العهد البابلي القديم ، وفي أثنائه كانت سلالة من الساميين الغربيين تحكم في مدينة ماري وكان بعض ملوكها يعاصرون الملك حامورابي .

وقد استمر النزاع بين أسرتي أيسين ولارسا ولا نعرف عن حكمهما سوى أن ملوك الأسرة الحاكمة في أيسين قاموا بأعمال عمرانية في أنحاء البلاد الخاضعة لهم ورمموا كثيراً مما خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة — ومن أشهر ملوكهم « لبت عشتار » خامس ملوك الأسرة الذي عثر له على قانون مكتوب باللغة السومرية يعد من أحسن شرائع العالم القديم — وقد حكم في أيسين ١٥ ملكاً

لمدة تقرب من ٢٢٥ سنة اما في لارسا فقد حكم ١٤ ملكاً مدة تقدر بنحو ٢٦٠ سنة ، وكان ملوك أيسين من الأموريين أما ملوك لارسا فمن البابليين الذين خضعوا لنفوذ العيلاميين وقد تدخل هؤلاء في شئون البلاد وقضوا على آخر ملك فيها وعينوا بدلاً منه ابن ملك عيلام في مكانه ، ولما مات هذا الأخير عين أخوه (ريم سين) من بعده - وقد قضى هذا الأخير على الأسره المنافسة في أيسين وحكمها بنفسه - وفي هذه الأثناء كان حامورابي سادس ملوك الأسرة البابلية الأولى يحكم في بابل ، وقد تمكن هذا الملك من أن يقضي على العيلاميين بعد حروب طاحنة - كذلك قضى على مملكة أشنونا وتم لهذلك في السنة الثانية والثلاثين من حكمه كما استطاع أن يقضي على استقلال المملكة التي تكونت في آشور وكان من أشهر ملوكها سرجون الأول (الاشوري) .

٥ - مملكة أشنونا

تعد مملكة أشنونا من دويلات المدن التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ العراق فقد نشأت هذه الدولة التي كانت عاصمتها أشنونا (تل أسمر الحالية) منذ عصر فجر الأسرات ثم قضى على استقلالها سرجون الأكـــدي [١] وبعدئذ خضعت لأسرة أور الثالثة [٢] ، ولكنها استقلت بعد ذلك فترة طويلة دامت إلى السنة الثانية والثلاثين من حكم حمورابي الذي قضى على استقلالها في تلك السنة وضمها إلى إمبراطوريته بعد أن ظلت قائمة نحو قرنين ونصف من الزمان وتوالي في حكمها نحوا من عشرة مـــلوك ترك أحدهم (وهو على الأرجح « بلالاما ») قانوناً

---

(١) أنظر ص ٣٥٦ وما بعدها .
(٢) أنظر ص ٣٦٠ ، ٣٦٣.

يعد من أقدم قوانين العراق القديم إذ أنه يسبق قانون « لبت عشتار » بنحو نصف قرن وقد عثر على هذا القانون في تل حرمل [١] وليس في أشنونا نفسها .

وقد تدهورت مملكة أشنونا بعد « بلالاما » فترة بسبب إغارة ملك « دير » [٢] عليها وهزيمتها أمام ملك كيش الذي حرمها من كثير من ممتلكاتها ، ولكنها عادت إلى التوسع في عهد ملكها « إيبق – أدد الثاني » الذي يبدو أنه أراد الاستيلاء على حوض الدجلة وأرض الجزيرة العليا حتى سفوح كردستان وإنشاء جسر له على نهر الفرات حتى يتحكم في طرق التجارة الآتية من الشمال والغرب ولكن هذا التوسع كان وقتياً وذهبت محاولات الملوك الأخيرين في المملكة من أجل الإبقاء على الأراضي التي امتلكوها سدى لأن الممالك القوية التي نشأت في بابل ولارسا في الجنوب وآشور في الشمال وماري في الغرب أحاطت بأشنونا ووقفت سداً منيعاً أمام أطماعها ثم استولى عليها الأشوريون في عهد ملكهم « شمش – أدد » ، ولم يبق الحال على ذلك طويلا لأن ملك أشنونا الذي يرجح أنه كان « دادوشا » ظل يثير المتاعب ويحيك المؤامرات لجيرانه ولمملكة آشور – وقد تمكن الأشوريون من التوغل في أراضي أشنونا إلى مسافة بعيدة ولكن تعاونت قوات « توروكو » في كردستان مع قوات أشنونا وظهرت جيشها في كركوك بل وهددت ماري أيضاً ، وقد أثار تقدم الأعداء على طول الفرات خوف العاصمة الغربية فاستنجد ملكها الأشوري « يسمح – أداد » بأخية « اشمى – داجان » ملك أشور وأوقف تقدم

---

(١) تل صفير بالقرب من بغداد وهو موقع « شادوبوم » التي كانت المركز الإداري لمنطقة زراعية في مملكة أشنونا .

(٢) في مكان « بدره » الحالية على بعد نحو ٦٠ ميلا شرق تل أسمر .

قوات أشنونا ثم قضى حمورابي ملك بابل بعد ذلك على كل من مملكتي أشنونا وماري .

٦ ـ البابليون

الدولة البابلية الأولى

أسس هذه الدولة الملك « سمو ـ أبوم » الذي كان يحكم رقعة صغيرة في جنوب العراق ، وقد بدأ توطيد سلطانه بالقضاء على أمراء المدن الجنوبية وأعلن نفسه ملكاً على بابل بعد أن بسط نفوذه على سومر وأكاد ، وظل في الحكم ما يقرب من خمسة عشر عاماً ثم خلفه أربعة ملوك حافظوا على حدود المملكة وإصلاح شئونها .

ولما استولى العيلاميون (في عهد زابوم ثالث ملوك الأسرة البابلية) على مدينة أيسين عاصمة الأموريين واستقروا فيها أخذ النزاع يشتد بين ملوك بابل والعيلاميين حيث بدأ ملوك بابل يشعرون بالخطر يهدد كيانهم نظراً لسرعة انتشار نفوذ العيلاميين .

وحينما تولى حامورابي سادس ملوك الأسرة البابلية عرش بلاده (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق . م) لم يغفل خطورة الموقف ، وكان رجلا فذا في شئون السياسة والحرب فلم يحاول الخروج إلى الحرب في السنوات الأولى من عهده بل شغلها بالإصلاحات الداخلية وتقوية وسائل الدفاع حول مدنه الهامة استعداداً لكفاحها المرتقب ، فقد وجد في بداية عهده أن دولة لارسا أصبحت تتحكم في الأجزاء التي تقع إلى جنوب بابل بعد أن أخضع ملكها « ريم سن » مملكة أيسين لسلطانه ، وأن مملكة أشنونا تحكم المنطقة التي تقع إلى شمال بابل مباشرة بينما كانت مملكة آشور تتحكم في الأجزاء التي تلي ذلك شمالاً .

وقد بدأ حمورابي في السنة الخامسة من حكمه بالاستيلاء على أيسين ولكنه وجد أن قوته لا تسمح له بملاقـاة « ريم سن » ملك لارسا ففضل الانتظار نحو ثلاثة وعشرين عاماً قضاها في الاستعداد وفي السنة التاسعة والعشرين تقابل مـع الملك العيلامي ريم سن في حرب قاسية استطاع الانتصار فيها ، وكان هذا الانتصار حدثاً في تاريخ العراق أرخ به المؤرخون ومن جرائه تغنى شعراء بابل بعظمة حامورابي ورتلوا الأناشيد من أجله في المعابد .

ولما زال خطر العيلاميين تمكن حامورابي من مد سلطانه شمالاً إلى أعالي نهر دجلة فاستولى على مملكة أشنونا وضمها إلى إمبراطوريته كما ضم إليه بلاد الأشوريين إذ تمكن في السنة الثانية والثلاثين من حكمه من الاستيلاء على عاصمتهم الغربية ماري ، وحين اكتشف أرشيف قصر هذه المدينة عثر فيه على أكثر من ٢٠ ألف لوحة طينية من بينها مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ملوك المدينة وغيرهم من حكام المدن الأخرى وملوكها ، ومن أهمها رسائل تبودلت بين الملك « زمرى ليم » Zamrilim وبين حموزابي كما أن إحدى هذه الوثائق تثبت معاصرة الملك حمورابي للملك « شمسي أدد الأول » ملك آشور ، — كذلك تمكن حمورابي من الوصول بحدوده جنوباً إلى الخليج العربي ، ويعد عصره العصر الذهبي لبلاد العراق القديم من حيث الرخاء ومن حيث والرفاهية التي كانت تنعم بها .

وتعد مجموعة التشريعات التى سنها وهي المشهورة باسم « قانون حمورابي» أهم ما قام به من إصلاحات ، وقد وجدت نسخة من هذا القانون على كتلة من الديوريت عثر عليها في أطلال « سوسة » وتبلغ مواده نحو ٢٥٠ مادة ، وقد حدد العقوبات التي يستطيع القضاة توقيعها في حالات معينة — أما إذا لم يرد نص يختص بجريمة ما فإنه أشار إلى أن الحكم يجب أن يكون حسب العرف السائد في المنطقة ، ومن الملاحظ في هذا القانون أنه كان قاسياً

في توقيع العقوبات على كل من يخرج على العرف أو يقارف ما يتنافى مع مبادىء الأخلاق كما أنه تعرض لمشاكل الوراثة والتبني وغيرها ، وفي معظم أحكام هذا القانون نجد اتجاهاً للأخذ بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » أو « المعاملة بالمثل » الشائع بين الشعوب السامية .

وقد حكم حموزابي نحو ثلاثة وأربعين عاماً تمثل أزهى عصور العراق ولكن خلفاءه لم يتمكنوا من الدفاع عن دولتهم المترامية الأطراف حيث أخذت الثورات تشتعل في أكثر من مكان ، ورغم أن ولده « سامسو إيلونا » قام بجهود متواصلة لإخماد هذه الثورات فإن جهوده ذهبت عبثاً حيث أخذت أجزاء من الإمبراطورية التي كونها والده في الانفصال وأعلنت استقلالها ودب الضعف في كيان ما تبقى من الدولة حتى تمكن الحيثيون في نهاية عهد الأسرة البابلية من القضاء نهائياً على دولتهم بعد أن حكم فيها ١١ ملكاً نحواً من ٢١٥ سنة .

مملكة بابل الثانية (دولة أرض البحر)

أشرنا فيما سبق إلى أن « سامسو - إيلونا » قام بجهود متواصلة للإبقاء على الإمبراطورية التي تركها والده ، وأن هذه الجهود ذهبت هباء حيث فقدت الإمبراطورية مساحة كبيرة من أراضيها - ومع أن الثورة التي قام بها أحد الثائرين [١] في الأجزاء المتاخمة لعيلام أخمدت وقتل القائم بها بعد عامين من نشوبها، فإن « إيلومو إيلو » الذي يحتمل أنه كان من سلالة « دامق - إيلوشو » آخر ملوك أيسين قد أعلن استقلاله في سومر وأصبح سيداً على البلاد الواقعة في جنوب نيبور جميعها وأسس ما يعرف باسم مملكة بابل الثانية أو « دولة أرض البحر »، ونتج عن ذلك تدمير وتخريب عدد من المدن السومرية - ومن بينها أور - في الحروب الطويلة الطاحنة حيث كانت مسرحاً لعمليات الفريقين المتنازعين

---

(١) كان يدعى « ريم - سين » مثل آخر ملوك لارسا .

وقد حاول خلفاء سامسو إيلونا إعادة خضوع هذه البلاد لسلطانهم دون جدوى، فظلت دولة أرض البحر قائمة تتبادل النصر والهزيمة مع بابل التي قنع ملوكها في النهاية بتحصين بعض مدنهم والتفرغ للأعمال العمرانية والدينية .

وبعد أن قضى الحيثيون على مملكة بابل الأولى وجد الكاشيون الذين كانوا يستوطنون في أقدم عصورهم منطقة لورستان [1] الفرصة سانحة لإخضاع بابل لسلطانهم وخاصة بعد انسحاب الحيثيين المفاجىء منها، وأصبح ملوكهم يتربعون على عرشها بعد أن احتلوها - وفي حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م (أي بعد نحو ٨٠ سنة من الغزوة الحيثية) استطاع ملكهم « أولام - بورياش » أن يهزم ملك أرض البحر « إيا جميل » فقضى على مملكة بابل الثانية وأعاد خضوع بلاد سومر بأكملها لسلطان بابل من جديد .

مملكة بابل الثالثة (الدولة الكاشية)

في نفس الوقت الذي سقطت فيه أسرة بابل الأولى تقريباً أخذت جموع متتالية من رجال القبائل الجبلية الواقعة في شرق نهر دجلة تهبط إلى السهول لمهاجمة بلاد بابل، وقد استطاعت (بعد انسحاب الحيثيين) أن تكون دولة قوية عرفت باسم الدولة الكاشية (Kassites) أو دولة بابل الثالثة ومع أن حكمها يعد أطول احتلال شهدته أي دولة قديمة إذ استمر نحواً من ٤٣٠ سنة (١٥٩٥ - ١١٦٢ ق.م) إلا أن معلوماتنا عنه قليلة نظراً لضآلة الوثائق التاريخية عنه .

ويتميز عصر هذه الدولة بحدوث الكثير من الغزوات والقلاقل في منطقة الشرق الأدنى القديم، وقد كثرت السلطات المتنازعة على السيادة الدولية

---

(١) في الجزء الأوسط من سلسلة جبال زاجروس .

في أثنائه وكانت بعض القوى الجديدة تظهر ثم لا تلبث أن تختفي لتحل محلها قوى أخرى – وهكذا نجد دولة البحر في جنوب العراق والكاشيين في الوسط والأشوريين في الشمال والشمال الشرقي ، وبينما كان الأشوريون يجاهدون في الانفصال عن الكاشيين نجدهم لا يلبثون أن يخضعوا للميتانيين – ومن جهة أخرى كان الميتانيون ينافسون الحيثيين الذين استطاعوا القضاء على دولة بابل الأولى والسيطرة على شمال العراق وسوريا واتسعت إمبراطوريتهم تدريجياً حتى اصطدموا بالمصريين في عهد الدولة الحديثة التي كانت حينئذ تسيطر على أكثر مناطق العالم القديم المعروفة ، أما عيلام فإنها لم تتمكن من أن تعيد قوتها مباشرة بعد أن قضى عليها حمورابي – وفي نهاية هذا العهد تعقدت العلاقات الدولية وتبادل الملوك الرسائل وقامت بينهم المعاهدات والمصاهرات الدولية .

وقد اختلف المؤرخون في أصل الكاشيين ولم يصلوا إلى رأى في هذا الصدد، وكل ما نعرفه عنهم هو أنهم جاءوا من منطقة في وسط جبال زاجروس كما أشرنا، وما أن احتلوا بابل حتى تأثروا بالحضارة البابلية ووحدوا بين آلهتها وبين آلهتهم ، وقد حكم منهم في بابل ٣٦ ملكاً كان أولهم الملك جنداش (Gendach) .

وقد نجح الكاشيون في القضاء على مملكة البحر في جنوب العراق [١] وبذلك ثبت نفوذهم في بابل – وتشير وثائق وخطابات تل العمارنة [٢] إلى وجود علاقات ود وصداقة بين امنحتب الثالث والملك الكاشي المعاصر له [٣] – ولم يستمر عهد الكاشيين طويلاً بعد ذلك لأن الأشوريين في الشمال أخذوا يحتكون بهم حينما أرادوا توسيع مملكتهم لأن دولة ميتاني ودولة الحيثيين كانتا تقفان لهم بالمرصاد

---

(١) أنظر أعلاه ٣٦٨ وما بعدها
(٢) عاصمة اخناتون أنظر ص ١٧٨
(٣) الملك « كادشمان خاربي » على الأرجح .

من الغرب ومن الشمال ، ولذا لم يكن أمامهم سوى الإتجاه في توسعهم إلى الجنوب فهجموا على دولة بابل الكاشية وتمكنوا من ضمها إليهم ، إلاأن الإنتصار الأشوري لم يستمر طويلاً لأن العيلاميين كانوا قد استعادوا قوتهم وخاصة في عهد ملكهم « شيلاق – أنشو شناق » الذي استطاع أن يخضع كثيراً من الأقطار المجاورة لسلطانه[1] –وقدأخضع بابل وأنهى حكم الأسرة الكاشية ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ انتقل الحكم فيها إلى أسرة قوية من أمراء أيسين تعرف باسم « الأسرة البابلية الرابعة » أو « أسرة أيسين الثانية » وبلغ من قوتها أنها كانت تتدخل في شؤون آشور الداخلية – وفي نفس الوقت أخذت عيلام في التدهور فانتهز «نبوخذنصر الأول » ملك بابل فرصة ضعفها وهاجمها بمساعدة أحد أمرائها وانتصر عليها ، إلا أن هذا الانتصار لم يكن هزيمة حقيقية لعيلام ولم يحقق نتائج بعيد المدى .

وما لبثت الأوضاع أن تغيرت بعد ذلك لظهور قوة آشور فكان على خلفاء نبوخذ نصر أن يكافحوا لا من أجل المحافظة على الأراضي الأجنبية التي امتلكوها فحسب بل ومن أجل حماية أنفسهم أيضاً ، ومع كل فقد انتصر الملك الأشوري (آشوردان) على بابل وجعل على عرشها أحد الآراميين[2] ، ولم تنعم بلاد النهرين عامة وبابل بصفة خاصة بالهدوء والاستقرار بعد ذلك إذ عمت الفوضى والحروب في أرجائها فترة طويلة ، ففي بابل حكم سبعة ملوك كونوا بها ثلاث أسرات : أسس الأولى منها (أسرة بابل الخامسة) أحد الكاشيين من مواليد مملكة أرض البحر وأسس الثانية (السادسة البابلية) آرامي ، أما الثالثة (السابعة البابلية) فقد أسسها عيلامي – وما أن تولت العرش أسرتها الثامنة إلا وانحدرت إلى الهاوية وجرد الآراميون عاصمتها من كل نفوذ خارج حدودها حتى إنها لم تتمكن من إقامة الاحتفالات الدينية التي كانت تنتقل فيها تماثيل

---

(١) Ghirshman , Iran , (Pelican A 239) . pp, 66 - 67

(٢) ثالث خلفاء نبوخذ نصر .

الآلهة بين العاصمة وأمهات المدن البابلية في بداية كل عام وأصبح ملوكها مجرد أسماء في قائمة ، ومن المحتمل أن بعض القبائل الآرامية استقرت بين حوض نهر دجلة الأدنى وحدود عيلام وكان من بين هؤلاء الكلدانيون الذين تمكنوا من الاغارة على سومر ثم قدر لهم أن يبعثوا النهضة إلى بابل من جديد بعد نحو ٣٠٠سنة—ويمكن اعتبار سقوط الأسره الكاشية الحاكمة في بابل نقطة هامة في تاريخ بلاد النهرين ولكن أهميتها لا تقاس بالنسبة لما جرى من أحداث في الشرق الأدنى خلال القرن الثاني عشر ق م ، فقد اختفت مملكة الحيثيين في آسيا الصغرى وتضعضعت قوة مصر وأصبحت فريسة للانقسامات الداخلية واستقر الفلسطينيون في كنعان بينما كان موسى يقود شعبه إلى الأرض الموعودة والرحل الآراميون يهددون الأمراء السوريين وملوك آشور وفي الغرب البعيد كان اليونان الدوريون يغيرون على شبه الجزيرة الهلينية ، وهكذا تحرك الهندوأوربيين ثانية إلى غربي آسيا حيث نشروا استعمال الحديد وبدأوا صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية وأحدثوا سلسلة من الحركات الجنسية والسياسية كان لها أثرها السريع في تغيير معالم الشرق الأدنى.

٧ — الأشوريون

كان الأشوريون من الساميين الذين سكنوا في شمال بلاد النهرين منذ الألف الثالث ق.م ، وكانت المدينة « آشور » التي أعطت اسمها لهم [١] تقع في بقعة استراتيجية هامة وتتحكم في الطريق بين سومر وأكد من جهة وبين كردستان وأرض الجزيرة العليا من جهة أخرى فكانت دائماً مطمعاً للملوك الأقوياء الذين

---

(١) كان إسم « آشور » يطلق في النصوص القديمة على كل من المدينة وإلهها والدولة نفسها أنظر G. Roux, op. cit ., 171 n.

ظهروا في الجنوب أمثال سرجون ونارام سن وملوك أور – ومع أن الأمراء الأشوريين جاهدوا طويلا في الاستقلال بدنهم عن حكم الدول التي كانت تخضعهم سواء من الجنوب أو من الغرب إلا أنهم لم ينجحوا في تأسيس دولة إلا في عصر متأخر نسبياً ، بل وليس لدينا أي دليل على أن هذه الدولة تمكنت من الاستقلال قبل الألف الثاني ق م ثم قدر لهذه الدولة أن تصل إلى مركز الصدارة وأن تلعب دوراً خطيراً في السياسة الدولية في ذلك الحين :

ويقسم بعض المؤرخين تاريخ الأشوريين إلى فترتين :

(١) الفترة الأولى من ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق م تقريباً ، وفيها كانوا يناضلون في سبيل النهوض سياسياً وعسكرياً .

(٢) الفترة الثانية وتمتد بعد الفترة الأولى إلى ٦٣٣ ق م تقريباً وهي التي تمكنوا فيها من تكوين إمبراطورية .

غير أن غالبية المؤرخين الآن تميل إلى تقسيم التاريخ الأشوري إلى ثلاثة مراحل هي :

(١) مرحلة التكوين أو « العهد الأشوري القديم » ويبدأ من فجر التاريخ الأشوري إلى نهاية حكم أسرة بابل الأولى .

(٢) عصر المملكة الأشورية أو « العهد الأشوري الوسيط » ويبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى وينتهي في بداية القرن التاسع ق.م .

(٣) عصر الإمبراطورية أو « العهد الأشوري الحديث » ويمكن أن نقسمه بدوره إلى قسمين: (أ) الامبراطورية الأشورية الأولى من ٩١١ إلى ٧٤٥ ق.م تقريباً ، (ب) الامبراطورية الأشوريه الثانية من ٧٤٥ إلى ٦١٢ ق.م تقريباً .

العهد الأشوري القديم

عثر في خورسباد على قائمة بأسماء ملوك آشور يمكن أن نعدها منـاظرة لقائمة الملوك السومرية [1] ، وهي تعطينا أسماء ١٧ ملكـاً تذكر أنهم كانوا يعيشون في الخيام مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هؤلاء كانوا يمثلون ملوك فجر التاريخ الأشوري – ومع أنها تورد السلالات التي تضمنت أسماء هؤلاء الملوك متتابعة إلا أن من المرجح أن بعضاً منها على الأقل كانت تعاصر بعضاً آخر ، ومن الملاحظ أن عدداً من الأسماء القديمة في هذه القائمـة مثل « توديا » ، « أوشبيا » ، « سولولي » ، « كيكيا » لا تدل على أصل سامي أو سومري بل هي أسمـاء هندوأوربية ربما كانت حورية [2] أو سوبارية [3] .

وقد خضع الأشوريون لحكم ملوك أسرة أور الثالثة [4] ، وبعـد سقوط الإمبراطورية السومرية أصبحت – آشور – مثل كثير من المدن الأخرى مستقلة وبدأ « بوزور – آشور الأول » الذي حكم حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م سلسلة جديدة من الملوك الذين يحملون أسماء أكدية بحتة – وقـد ترك لنا اثنان من هؤلاء (« إيلوشوما » ، إيروشوم الأول ») نصوصاً تدل على بناء معابد الآلهة آشور وأداد وعشتار في المدينة – كما أن من المعروف أن « إيلوشلوما » توغل في جنوب بلاد النهرين أثناء حكم « شمشي–داجان » ملك أيسين (١٩٥٣ – ١٩٣٥ق.م) .

ومن المحتمل أنه وسع في مملكته حتى شملت نينوى على بعد ٦٠ ميلا شمال آشور ولكن المؤسسين الحقيقيين لقوة آشور كانوا من الساميين الغربيين الذين تدفقوا

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٤٧

(٢) أنظر أعلاه ص ٢٩٢

(٣) السوباريون قوم سكنوا في شمال شرق بلاد النهرين في أقدم العصور ثم اختلط بهم الساميون الذين أصبحوا أغلبية وكونوا الشعب الأشوري .

(٤) أنظر أعلاه ص ٢٦٠ – ٢٦٢

على شمال وجنوب بلاد النهرين في القرون الأولى من الألف الثاني ق.م حيث بدأ أحد زعماء الأموريين في الاستقرار في المنطقة ما بين نهري الخابور والدجلة وحكمها خافاؤه كأتباع للأشوريين ثم تمكن أحدهم [1] من الاستيلاء على «آشور» واعتلاء العرش ، وفي نفس الوقت تقريباً تمكن أموري آخر من أن يصبح ملكاً في ماري – ومنذ ذلك الحين ارتبط مصير المملكتين الشماليتين العظيمتين كل منهما بالأخرى ، فقد بدأت بينهما علاقات حسن الجوار أولاً ولكنها سرعان ما انفصمت وتمكن الأشوريون من وضع يدهم على ماري بعد أن اغتيل ملكها « ياهدون – ليم » .

وكان الملك « شمشي أدد » الذي استولى على ماري في بدء حياته خارجاً على القانون ، فبعد أن أصبح أخوه خليفة لوالده على عرش آشور فر إلى الجنوب وجمع قوة من المرتزقة استولى بها على مدينة إيكالاتوم في وسط الدجلة (لم يمكن التعرف عليها بعد) التي كانت خاضعة لمملكة أشنونا ثم تقدم إلى آشور ونجح في اغتصاب العرش من أخيه – وبعدئذ توسع غرباً حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط وعين أحد ولديه (يسمح – أدد) حاكماً في ماري وعين الإبن الآخر (إشمي – داجان) حاكماً في إيكالاتوم وهكذا خضع حوضي دجلة والفرات لسلطان الأشوريين ، ولكن لم يدم ذلك طويلا فقد دأبت القبائل الرعوية التي يحكمها زعماؤها على إحداث القلاقل وتهديد الممتلكات الأشورية وخاصة بالنسبة لمملكة ماري كما كانت مملكة أشنونا تحيك الدسائس لمملكة إيكالاتوم واستطاعت أن تهدد مملكة ماري [2] ، وأخيراً تمكنت مملكة بابل في السنة الثلاثين من حكم ملكها حورابي من أن تستولي على ماري وأن تدمرها .

---

(١) الملك « إيلا – كابكابو » .

(٢) أنظر أعلاه ص٣٦٥-٣٦٦

٢ - العهد الأشوري الوسيط :

ظلت آشور خاضعة لسلطان بابل إلى أن سقطت هذه الأخيرة على يد الحيثيين وبعد أن تراجعوا عنها احتلها الكاشيون - أما آشور فقد ظهر فيها أمراء أقوياء كافحوا طويلا في جبهات مختلفة :فقد كان الآراميون في الغرب والحوريون (الذين كونوا المملكة الميتانية) في وسط بلاد النهرين [1] والحيثيون في الفرات الأعلى والخابور والكاشيون في الجنوب - وقد خرج هؤلاء الأمراء من الأزمات والصعاب التي تعرضوا لها ما يقرب من خمسة قرون وتمكنوا من تأسيس دولة قوية ساعدها الحظ في عهد ملكها « آشور أوبلط » بحدوث انقسام في البيت المالك الميتاني إلى فريقين حيث استعان أحد الفريقين المتنازعين بآشور رغم أنها كانت لا تزال خاضعة لسلطان الميتانيين ، وكنتيجة للمؤامرات والدسائس بين الفريقين قتل الملك توشراتا المعارض للفريق الموالي الأشوريين وفر ولده إلى بابل ولكن ملكها « بورنابورياش » تمسكاً بمبدأ الحياد رفض منحه حق اللجوء السياسي فاضطر إلى الذهاب إلى البلاط الحيثي بينما اقتسمت آشور ودولة صغيرة في حوض دجلة الأعلى تدعى « آلشي » بلاد ميتاني ، وهكذا لم يتمكن « آشور أوبلط » من أن يحرر بلاده من سيطرة الميتانيين فحسب بل وتمكن من أن يتسبب في القضاء على الدولة التي كان آباؤه يدفعون لها الجزية (دون أن يطلق سهماً واحداً) - وقد اتبع سياسة حكيمة مع جيرانه فتصاهر مع ملك الكاشيين (الذي تزوج بابنته) أملا في أن يصبح حفيده يوماً ملكاً على بابل.

وتلا آشور أوبلط ثلاثة ملوك قاموا بجهود مشكورة في تأمين حدود بلادهم ، بل وتمكن آخرهم « أدد نيراري » الأول من أن يضم مساحات أخرى من أرض الجزيرة إلى مملكته - على أن أعظم ملوك هذه الأسرة كان دون شك « شلمنصر الأول » رابع خلفاء آشور أوبلط إذ استولى على منطقة أرمينيا

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٨٢ وما بعدها ، ٢٩٢ - ٢٩٣ .

الجبلية (أورارتو) وبلاد الجوتيين وهزم ملك « هاني جلبات »[1] وجنودها المرتزقة من الحيثيين وغيرهم .

وعندما اعتلى « توكلتي ننورتا » خليفة « شلمنصر الأول » على عرش آشور تمكن من الاستيلاء على بابل بعد أن هزم ملكها الكاشي« كاشتلياش »ولكن مع هذا حدثت فتنة في آشور قتل فيها الملك وسادت بعد عهده الإضطرابات وتدهورت أحواال الدولة – وتوالى على حكم بابـــل ثلاثة أمراء ضعاف من الموالين لآشور وبعد ذلك تمكن العيلاميون الذين عادوا إلى القوة بعد ضعف استمر نحو أربعة قرون من الإستيلاء على بابل – ولم يدم حكم العيلاميين لبابل طويلا لأن قواهم قد أنهكت في فتح المساحات الواسعة من إيران الغربيـــة من جهة وتوالى تهديـــد الميديين والفرس لهم من جهة أخرى، وسرعان ما أصبح أمراء الأسرة البابلية الرابعـــة في أيسين على درجة من القوة بحيث أمكنهم التـــدخل في شؤون آشور –وانتهز« نبوخذ نصر الأول » ملك بابل فرصة الإنهيار الذي حدث في مملكة العيلاميين بعد عهد ملكها «شيلاق -أنشوشناق» وهاجمها ولكنه هزم في أول حملة ثم انضم إليه أحد أمراء عيـلام[2] فانتصر عليها انتصاراً حاسماً كما سبق أن أشرنا .

وقد تعرضت آشور لسلسلة من الأزمات بسبب التنازع على العرش وضياع بعض الممتلكات الشرقية من بلادهم ثم تجمعت حولها المتاعب من جميع لإتجاهات وكادت تقضي عليها لولا نشاط وكفاءة بعض الملوك من خلفاء« آشور–دان الأول » – وما أن اعتلى « تجلات بلاسر الأول » عرش اشور حتى قام بغزوات ناجحة في الشمال الشرقي والشمال ووصل إلى البحر الأسود ثم اتجـه غرباً نحو سواحل

---

(١) كان يدعى « رتي مردوخ » ؛

(٢) أنظر أعلاه ص ٣٧١

آسيا الصغرى وفينيقية وبعد ذلك أخضع بابل فأصبح يحكم معظم أنحاء الشرق الأدنى من البحر الجنوبي إلى البحر الشمالي وسواحل البحر المتوسط .

وتوالى بعده على الحكم ملوك ضعاف تدهورت في أيامهم أحوال المملكة وأصبح الآراميون يهددون حدودها في الغرب إلى أن قدر لها بعدذلك أن تنهض من جديد .

٣ – العهد الأشوري الحديث :

يقسم هذا العهد إلى دوري نهوض تخللتهما فترة من الضعف وهذان الدوران هما :

أ – الامبراطورية الأشورية الأولى :

حينما تسلم الحكم « أدد نيراري الثاني » عمل على تقوية جيشه وبدأ في إخضاع بعض الأقاليم المجاورة ثم تحالف مع مملكة بابل ونظم شؤون الدولة ، ولما تبعه « توكلتي ننورتا الثاني » زاد من تأمين طرق مواصلاته التجارية والعسكرية مع أطراف مملكته وشيد بعض القلاع والحصون .

ويعد خلفه « آشور ناصربال الثاني » رغم شهرته بالقسوة من أعظم ملوك الأشوريين فقد وصلت فتوحاته إلى الجبال الشرقية والشمالية وأدخل تحسينات كثيرة في الجيش والإدارة حيث استخدم الخيالة على نطاق واسع وقسم بلاده إلى ولايات يحكم كل منها أحد الولاة وجدد بناء مدينة كالح (نمرود) وبنى فيها قصراً فخماً زينه بألواح كبيرة من الرخام نقشت عليها مناظر تمثله في حروبه وصيده وقدوم الأمراء الخاضعين له ومعهم الهدايا والجزية ، ومن آثاره كذلك مسلة ضخمة عثر عليها في نمرود وهي تحمل نقوشاً تبين أعماله خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه .

ولم يكتف ولده وخليفته « شلمنصر الثالث » بالإمبراطورية الواسعة التي خلفها له والده بل أضاف إليها مستعمرات جديدة وصلت إلى منابع دجلة والفرات ، وقد قام بسلسلة من الحملات الحربية في سوريا وفلسطين على أحلاف الآراميين واليهود [1] كما قام بحملات في الأناضول وهضبة إيران الشمالية وهاجم بعض القبائل العربية .

وفي أواخر حكمه ثار عليه أحد أبنائه وأحدث بعض الإضطرابات التي أدت إلى فقدان هيبة الدولة في الداخل والخارج، ومع أن ولي عهده « شمشي أدد الخامس » تغلب على أخيه الثائر إلا أن تلك الإضطرابات كانت سبباً في فقدان آشور لبعض مستعمراتها البعيدة – وفي تلك الأثناء ظلت بابل على ولائها لآشور وتحسنت العلاقات بينهما بزواج ملك آشور من أميرة بابلية تدعى « شمورامات » حظت بشهرة كبيرة حتى عرفها اليونان باسم « سميراميس » ، وقد صارت وصية على ولدها « أدد نراري الثالث » الذي اعتلى العرش وهو صغير السن بعد وفاة والده .

وقد توالى على حكم آشور ملوك ضعاف بعد ذلك حدث في عهد أحدهم « آشور دان الثالث » كسوف للشمس [2] وتفشى في زمنه وباء الطاعون ، واستمر تدهور الدولة حتى حدثت في العاصمة « نمرود » ثورة داخلية تولى الملك على أثرها « تجلات بلاسر الثالث » الذي أعاد إلى المملكة مجدها وبدأ عهد الإمبراطورية الثانية .

ب – الإمبراطورية الأشورية الثانية

بعد أن توفي « أدد نراري الثالث » تتابع على العرش أولاده الأربعة

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٨١

(٢) بالحساب الفلكي أمكن اتخاذ هذه الظاهرة أساساً لضبط التاريخ الأشوري-أنظر ص٢٨

الذين كان أصغرهم « تجلات بلاسر الثالث » وقد جاء هذا على العرش بعدمقتل أخيه (ثالث أبناء أدد نراري) في الثورة الداخلية التي نشبت في نمرود، وقد أثبت هذا أنه كان جديراً بالحكم إذ عرف مواطن الضعف في الدولة وعمل على علاجها ثم أخذ يعد العدة لإعادة مجد آشور واستطاع أن يبلغ بإمبراطوريته إلى حدود لم تصلها من قبل حيث أخضع الدولة البابلية وضمها إلى إمبراطوريته وأعلن نفسه ملكاً عليها ، كذلك تمكن هذا الملك من اجتياح معظم المدن السورية وحاصر دمشق إلى أن أسقطها وقتل ملكها [١] — كما تمكن أيضاً من أن يؤمن حدوده الشمالية ضد غزوات بعض القبائل الأرمنية ، وهكذا قضى « تاجلات بلاسر الثالث » معظم حكمه في الحروب ولكنه ترك إمبراطورية واسعة .

وفي عهد ولده « شلمنصر الخامس » قام ملك إسرائيل (هوشع)بتحريض من المصريين بمحاولة التخلص من السيطرة الأشورية فأسرع شلمنصر وحاصر السامرة لمدة ثلاثة أعوام ولكنها لم تسقط إلا في يد خلفه « سرجون الثاني » لأنه اضطر إلى العودة إلى آشور لحدوث بعض المؤامرات فيها ، وقد انتهت هذه بقتله بعد حكم دام أقل من خمس سنوات — وفي بداية عهد خليفته « سرجون الثاني » قامت الثورات في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية رغبة في الانفصال عن سيطرتها ، فاضطر أن يقوم بحملات متتالية تمكن على أثرها من أن يعيد الوحدة إليها وأسرعت بعض المناطق المجاورة لاكتساب عطفه بالهدايا مثل قبرص، ولما شعر بأن مصر تبذل جهدها في إقامة بعض الأحلاف مع أمراء سوريا وفلسطين لكي تحمي نفسها من غزوات آشور المتوقعة قضى على تلك المحاولات حيث أخضع معظم الإمارات السورية والفينيقية وفتح السامرة وسبى أحسن رجالها ونقلهم إلى ميديا [٢] .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٨١
(٢) أنظر أعلاه ص ٢٢١ ، ٢٨٩

ولما مات سرجون تبعه ولده سناحريب الذي واجه في بداية حكمه خطرين أحدهما من بابل التي كانت تحاول الاستقلال ثانية والثاني من ولايات سوريا وفلسطين – وكان ملك بابل وملك مصر معنيان بولايات سوريا وفلسطين بالمساعدة، وكانت بابل بوجه خاص تحرص على تشجيع هذه الولايات حتى تشغله عنها، وقد فطن سناحريب لذلك فتوجه إليها ودك حصونها وخربها وعين ابنه « أسرحدون » واليا على جنوب العراق ثم قضى على دويلات أهل البحر في أقصى الجنوب لكثرة ثوراتهم مستعيناً في ذلك بسفن صنعها له صناع مهرة من الفينيقيين واليونانيين – وحينما علم بحدوث تحالف بين أمراء سوريا وفلسطين بمساعدة مصر توجه إلى منطقة الخطر بجيش كبير وغزا المدن الساحلية في فلسطين ثم حاصر بيت المقدس وأخضعها ولكن وباء خطيراً انتشر بين قواته فاضطر إلى العودة إلى بلاده بفلول جيشه [1] وخاصة بعد وصول الأنباء بحدوث اضطرابات فيها ومات بأيدي أبنائه الذين طمعوا في العرش.

وبعد مقتل سناحريب تنافس أبناؤه على العرش. ثم فاز به ولده «أسرحدون» الذي استطاع أن يقضي على الفتنة سريعاً ثم وجه همه للانتقام من مصر لتدخلها في شؤون مستعمراته في سوريا وفلسطين – وقد استعد ملكها النوبي طهرقة لملاقاته كما أرسل بعض الإمدادات إلى حلفائه في سوريا وفلسطين، فلما زحف الملك الأشوري نحو مصر استطاع أن يصل إلى شرق الدلتا ولكن المصريين استماتوا في الدفاع حتى تمكنوا من هزيمة الأشوريين وردوهم عن بلادهم، ففقدت الجيوش الأشورية هيبتها واضطر الملك إلى الإستعداد لاعادة الكرة حرصاً على سمعة الإمبراطورية – أما طهرقة فقد اطمأن إلى أن الأشوريين لن يعودوا إلى مصر ولم يستعد لملاقاتهم إلا أن الملك الأشوري عاد سريعاً وظهر فجأة في سوريا وعاقب ملك صور على انضمامه لمصر ثم أسرع مخترقاً الصحراء ،

---

(١) انظر ص ٢٢١

ولم يكن طهرقة متأهباً للقائه فوصل الجيش الآشوري إلى الوجه البحري واضطر طهرقة إلى التحصن بمنف ولكن الآشوريين أسرعوا وراءه وهزموا الجيش المصري وفتحوا منف ففر طهرقة إلى طيبة في الجنوب واستعمر الآشوريون الدلتا ، ثم عاد أسرحدون إلى بلاده حيث أصيب بمرض مات على أثره .

وحدث اختلاف على العرش من جديد وانتهى هذا الإختلاف بتعيين آشور بانيبال ملكاً بينما عين أخاه الأكبر ملكاً على بابل ، ولم يكد آشور بانيبال يجلس على العرش حتى وصلت أنباء ثورة المصريين ضد آشور وذلك لأن بعض الأمراء اتفقوا مع طهرقة على أن يعود هذا الأخير إلى الدلتا ويقتسم السلطة معهم [1] ، فجرد آشور بانيبال حملة كبيرة سارت إلى مصر – ولم تكتف هذه الحملة باحتلال الدلتا بل سارت إلى طيبة وخربتها وعاد طهرقة إلى عاصمته في النوبة العليا (نباتا) وبقي بها إلى أن مات – ومع ذلك لم يبق الآشوريون بمصر طويلاً بل عادوا إلى بلادهم واكتفوا بأخذ الجزية ، فلما تولى عرش نباتا «تانويت أماني» عاد إلى احتلال مصر من جديد ولم يجد آشور بانيبال بداً من أن يرسل جيشاً إلى مصر فاضطر تانويت أماني إلى الفرار إلى عاصمته نباتا وخرب الجيش الآشوري طيبة للمرة الثانية – وقد استمر التعاون بين آشور بانيبال وأخيه ملك بابل نحو عشرين عاماً ولكن هذا الأخ ثار بعد ذلك فجرد آشور بانيبال حملة تأديبية ضده تمكنت من القضاء عليه وفتحت بابل عنوة وبعدئذ تقدم الآشوريون جنوباً وأخضعوا القبائل العربية والآرامية التي ساعدت بابل في ثورتها وهاجموا العيلاميين وفتحوا عاصمتهم سوسه كذلك .

وبعد وفاة آشور بانيبال حدثت منازعات حول العرش تمكن بعدها ولده « آشور – إتل – إيلاني » من الفوز به ولكنه كان ضعيفاً فانفصلت عن المملكة

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٢٣

بعض ممتلكاتها مثل مصر وكثير من المدن الساحلية في فلسطين وسوريا كما انفصلت عنها مدن أرمنية – وشن أحد ملوك الميديين هجوماً على آشور فصده الجيش الأشوري وهزم جيشه وقتله ، وفي بابل تكونت أسرة جديدة تعرف باسم « الأسرة البابلية الأخيرة » أو « المملكة الكلدانية » ، كما انتهز القائد الأشوري فرصة إقامة الملك في نمرود فأعلن تمرده عليه في نينوى وعزله ولكن أخا الملك حارب هذا القائد وقضى عليه ثم استأثر بالسلطة .

وقد أثرت الحرب الداخلية على سمعة المملكة وهيبتها فانفصلت أماكن أخرى كثيرة عنها واستطاع « كي اخسار Cyaxares » ملك الميديين أن يستولي على شمال إيران وشمال بلاد النهرين ثم توغل إلى سهول آشور حيث قامت بينه وبين الجيش الأشوري حروب طاحنة ، وبعد أن اتفق مع ملك بابل هاجما العاصمة فسقطت في أيديهما بعد حروب عنيفة واقتسما مملكة آشور حيث استولى الميديون على قسمها الشمالي الشرقي واستولى البابليون على جنوبها وأرسل ملك بابل ولده « نبوخذ نصر » ليتتبع فلول الجيش الأشوري التي كانت قد هربت إلى « حران » – وانتصر « نبوخذ نصر » وقضى على بقية الجيش الأشوري ثم واصل سيره غرباً واحتل المقاطعات التي كانت تخضع للأشوريين من قبل ، وقد تقابل مع الملك المصري نخاو الذي كان قد تقدم إلى سوريا ودارت بين الاثنين معركة حاسمة بالقرب من قرقميش انتصر فيها نبوخذ نصر وتراجع الجيش المصري إلى بلاده [1] .

٨ — العهد البابلي الأخير « المملكة الكلدانية »

أشرنا فيما سبق إلى القلاقل التي تعرضت لها الدولة الأشورية قبل انهيارها ،

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٢٨ ، ٣٨٥

والواقع أن أكثر هذه القلاقل خطورة هي التي قامت في الجنوب حيث انتهز البابليون فرصة تدهور آشور وبدأوا كفاحهم من أجل الاستقلال وقد بدأ الحاكم البابلي (الذي عينه آشور بانيبال بعد أخيه) الثورة بمجرد تعيينه، وبعد وفاته أصبح حاكم بلاد البحر (نبوبولصر) [1] زعيماً للثورة ولم تتمكن القوات الأشورية المرابطة في الجنوب (في نيبور) من هزيمته فأعلن نفسه ملكاً على بابل مؤسساً الأسرة الحادية عشرة البابلية وهي التي تعرف باسم « الأسرة البابلية الأخيرة » أو « المملكة الكلدانية » كما أشرنا

وقد ظلت الحروب قائمة بين بابل وآشور نحو ١١ عاماً استطاع بعدها « نبوبولصر » أن يستولي على نيبور وأن يحرر كل بلاد سومر وأكد ثم استمر في فتوحاته شمالا على طول الفرات حتى وصل إلى منطقة حران ومنها تقدم على طول دجلة إلى كركوك وآشور — وحاصر آشور ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها ، وفي تلك الأثناء طلب الأشوريين المعونة من مصر التي كانت خاضعة لهم فيما سبق ولكن هذه المعونة جاءت متأخرة لأن الميديين كانوا هم أيضاً قد بدأوا غزو الأراضي الأشورية واستولوا على أربخا وآشور ، وعند هذ الأخيرة تقابل « كي أخسار Gyaxares » ملك الميديين مع « نبوبولصر » ملك بابل وارتبطا برباط الصداقة والسلام وأيدا ذلك فيما بعد بزواج (نبوخذ نصر) بن (نبوبولصر) من (أميتس) إبنة (كي أخسار) ، ومنذ ذلك الوقت ظل الإثنان يحاربان معاً وتمكنا في النهاية من إسقاط نينوى كما سبق أن أشرنا — وبعد مقتل آخر ملوك آشور اعتلى العرش أحد قواده (وكان يدعى آشور أوبالط) وجمع ما بقي من فلول الجيش الأشوري والمدد المصري الضئيل الذي أرسل إلى آشور واعتصم بهم في منطقة حران ، فتقدم البابليون والميديون نحوه وسقطت مدينة حران

---

(١) كان من قبيلة الكلدان الآرامية - أنظر

Roux, op. cit., p. 340

في أيديهم – وبعد محاولات يائسة لمدة عام تقريباً اختفى (آشور أوبالط) بعد أن اعتلى العرش الأشوري نحو ثلاثة أعوام ، ويبدو أن الميديين لم يهتموا بامتلاك آشور فقنعوا بنصيبهم من الغنائم ثم حولوا أطماعهم إلى أرمينيا وآسيا الصغرى – أما البابليون فقد امتلكوا آشور ولكنهم لم يحتلوها ولم يحاولوا إصلاح ما أتلفوه فيها حيث كرسوا جهودهم لإعادة إحياء المجد الديني والثقافي لجنوب بلاد النهرين .

وحينما وقعت سوريا وفلسطين في أيدي المصريين كمحاولة غير ناجحة من (نخاو)[1] لمساعدة حلفائه الأشوريين تقدم البابليون للقائه بقيادة « نبوخذ نصر » لأنهم كانوا يحرصون على إبقاء طريقهم إلى البحر المتوسط مفتوحاً ، وانتصر البابليون وفتحوا سوريا وفلسطين وتقدموا نحو مصر ولكن موت « نبوبولصر » أثناء ذلك جعل ولده (نبوخذ نصر) يعود مسرعاً إلى بابل .

وقد تولى « نبوخذ نصر » العرش بعد والده وكانت البلاد قد بدأت في الازدهار واستقرت أمورها السياسية فوجه جهوده نحو تشييد العمائر وترميم المعابد وإن كان قد أرسل جيشاً لتأديب مملكة يهودا حيث احتل بيت المقدس، إلا أن اليهود ثاروا بعد مضي عشر سنوات فسار إليهم ودخل بيت المقدس وخربها وفتك بأهلها .

وبعد أن حكم « نبوخذ نصر » نحو ٤٣ سنة خلفه على عرش بابل ملوك ضعاف فلم يكد ولده يحكم عامين حتى ثار عليه الكهنة لسماحه لليهود بممارسة طقوسهم الدينية بحرية وعلى نطاق واسع وقتلوه ونصبوا في مكانه أحد قواد والده وهو صهره في نفس الوقت ، ولم يقم هذا الأخير بما يستحق الذكر ثم مات

(١) أنظر أعلاه ص ٢٢٨ ، ٣٨٥

بعد أن حكم ٤ سنوات وتبعه ابنه الصغير الذي لم يحكم سوى أسابيع قليلة ثم تدخل الكهنة ثانية وأبعدوه عن الحكم وعينوا في مكانه أحد أبناء طائفتهم ويدعى (نبونهيد) ولكن هذا لم يستطيع أن ينهض بأعبـــاء الحكم ولم يقم إلا ببعض النشاط العمراني وقد تحالف مع الملك الفارسي كورش ضد الميديين ثم غزاهم وغزا شمال بلاد العرب وانشغلت فارس بحروبها في جهـــات أخرى – وفي عهد خلفه ثار حاكم سوسه وانضم إلى الفرس وبعدئذ هاجم ملك الفرس « كورش » بابل ودخلها وأخذ ملكهـــا (نبونهيد) أسيراً ، وهكذا زالت آخر سلالة بابلية وانتهى رمز الحضارة البابلية رغم بعض محاولات الفرس لإحياء مجد مدينة بابل ومن بعدهم حاول الإسكندر أن يجعلها مركز إمبراطوريتـــه ولكنها سرعان ما أهملت بعد وفاته وتحولت إلى أطلال .

الفَصْل الثَامِن

إيـــران

تتلو العراق شرقاً منطقة إيران وتعد النهاية الشرقية لإقليم الشرق الأدنى وكانت ذات أثر كبير في تاريخه وحضارته لأنها تقع في طريق المواصلات البرية بين الشرق الأقصى وإقليم البحر المتوسط ، وكثيراً ما كانت تستقبل هجرات بين حين وآخر من وسط آسيا ، وبعد سكان سهولها من أقدم الشعوب التي توصلت إلى الزراعة والاستقرار – وقد تمكن حكامها في بعض عصورها التاريخيـــة من أن يبسطوا نفوذهم على ما جاورهم وأسسوا إمبراطورية واسعة ما أن أفل نجمها حتى أخذت تصبح مجالاً لتنازع القوى الكبيرة لما لها من موقع استراتيجي ممتاز ولما لثرواتها الطبيعية من أهمية إقتصادية .

وهي في شكلها العام تمثل هضبة مثلثة تنحصر بين منخفضين : الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين وسهل التركان في الشمال .. وتغلب عليها الطبيعة الجبلية ولكل سلاسل جبالها تمتد حول منخفض في الوسط يمثل منطقة صحراويـــة كانت في الأصل بحراً داخلياً ثم جفت ميـــاهه ، وهذه السلاسل هي : جبال زاجروس في الغرب وهي تسير في سلاسل متوازية من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، تفصل فيما بينها عدداً من الوديان وجبال البرز في الشمال وهي التي تكاد

تحف بالشاطىء الجنوبي لبحر قزوين وتمتد غرباً بحيث تنتهي في منطقة أذربيجان (وتعرف أيضاً باسم الخليج الميدي) التي تتوسطها بحيرة أرميا الملحة وتكاد تكون أكثر مناطق إيران كثافة في السكان حيث يسهل الدخول إليها من الشمال الغربي والشمال والشمال الشرقي مما كان له أكبر الأثر في تاريخها ، وفي الشرق توجد جبال خراسان وهي قليلة الإرتفاع سهلة العبور وتعد المنفذ الثاني لدخول إيران ، وفي الجنوب توجد جبال مكران - أما الجزء الأوسط من إيران فهو صحراء من أجدب بقاع العالم تنقسم إلى قسمين : الشمالي منهما عبارة عن مسطحات طينية ملحة لا يعيش فيها كائن إلا حيث تقل نسبة الملوحة في جهات نادرة . أما القسم الجنوبي فعبارة عن منطقة جافة تماماً تنعدم فيها الحياة (أنظر خريطة رقم ٧) فالحياة في إيران منذ عصورها السحيقة محتملة في الوديان والسهول فقط سواء تلك التي تحف بالهضبة من الخارج أو التي توجد بداخلها .

ويمثل السهول التي تحف بالهضبة من الخارج : « أ » سهل خوزستان في الجنوب الغربي (منطقة سوسة القديمة) وهو يعد امتداداً لسهول العراق وكان مقراً لمدنية قديمة مستقرة إلا أن أهله تأثروا في تاريخهم بالقبائل البدوية وشبه البدوية التي سكنت الجبال والتلال المجاورة - وحينما اتسعت رقعة الإمبراطورية الإيرانية كان مركزها في وسط هذا السهل (حول سوسة) ، « ب » السهل الشمالي الذي ينتهي عند الجبال المطلة على بحر قزوين .

أما السهول الداخلية في الهضبة فلم تلعب إلا دوراً ثانوياً في حضارة إيران وكانت الصعوبة الدائمة أمام أهلها تنحصر في عدم توفر مياه الري ومحاولتهم تدبيرها ، وقد عثر على ما يشير إلى أن القنوات الصناعية استخدمت بها من أقدم العصور إلى عهد الإخمينيين [١] - وتقع مدن إيران القديمة وعواصمها في مواجهة

---

(١) أنظر فيما بعد ص ٤١٠ وما بعدها .

الصحراء على طول الطريقين الرئيسين اللذين يحفان بسلسلتي الجبال العظيمتين (البرز في الشمال ومكران في الجنوب) ، وكان لهذا أثره بالطبع حيث نجد أن أهم المواقع الأثرية مثل سيالك (قرب قاشان) ودمغان ومشهد وغيرها فهي تقع في هيئة قوس حول الصحراء الملحية سالفة الذكر .

وهكذا نجد أن الهضبة الإيرانية – من الوجهة الطبيعية – تعتبر مجزأة إلى مناطق منفصلة غير متجانسة لا يسهل توحيدها كما أن الدفاع عنها عسير – ومع أن هذه كانت حالها في تاريخها الطويل ، ومع أن أهلها عاشوا مشتتين في الواحات والسهول الزراعيه الضيقة فقد استطاعوا خلق مدنية تركت طابعها في كثير من المدنيات الأخرى [1] .

العصور قبل التاريخية

العصر الحجري القديم :

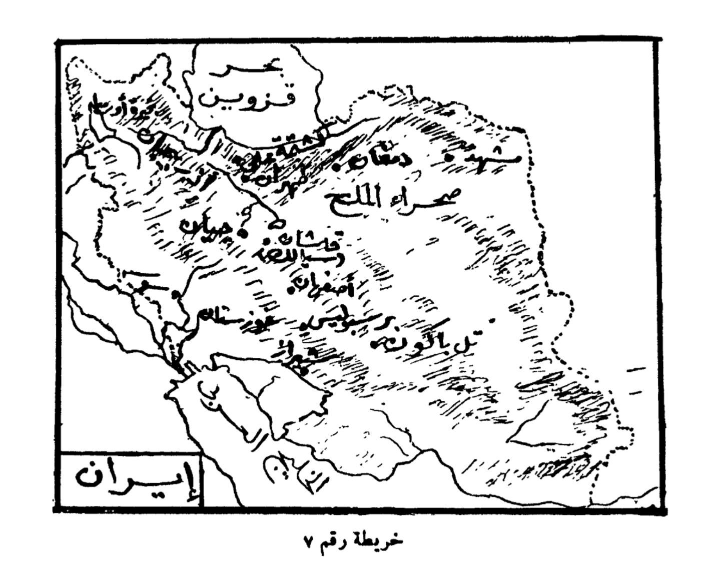
أقدم ما عثر عليه من آثار في إيران يدل على أن الإنسان كان يعيش في الكهوف واستمر كذلك إلى العصر الحجري الحديث ، ومن المواقع التي وجدت فيها آثار من العصر الحجري القديم كهف تنجى بابدا في جبال بختياري التي تحد الهضبة [2] من الغرب حيث عثر على فؤوس حجرية تشبه نظائرها في جهات العالم الأخرى.

العصر الحجري المتوسط :

لم يعثر على آثار تمثله في إيران حتى الآن وما زالت البحوث الأثرية فيها غير كافية بصفة عامة .

(١) R, Ghirshman, « Iran » (pelican 1945) , p. 26

(٢) Ghirshman, op. cit , 27 f



خريطة رقم ٧

العصر الحجري الحديث :

حينما اشتد الجفاف في أقاليم الشرق الأدنى أخذ الإنسان يهجر المناطق التي عاش فيها إلى وديان الأنهار وبالقرب من المجاري المائية الدائمة كما سبق أن أشرنا [١] ، ولم يشذ أهل إيران عن غيرهم من سكان بقية أقاليم الشرق الأدنى فاتجهوا إلى السهول حيث أخذوا يتحولون إلى حياة الإستقرار فيها – وأقدم المحلات التي أمكن التعرف عليها في السهول توجد في سيالك (قرب قاشان) جنوب طهران التي يميز فيها بين طبقات حضارية ثلاث تعرف بين الأثريين باسم سيالك ١ ، سيالك ٢ ، سيالك ٣ على الترتيب – ولا ينتمي إلى العصر الحجري الحديث إلا سيالك ١ .

سيالك ١ :

تنتمي هذه الحضاره إلى نهاية العصر الحجري الحديث ، وفيها لم يعرف الإنسان بناء المنازل بل كان يحتمي – في أول الأمر – في درو ة من المواد الخفيفة ثم عرف – في نهاية المرحلة – كيف يقيم جدراناً من الطين يأوي إليها ، ومع أنه استمر صياداً إلا أنه أخذ يستأنس بعض الحيوانات مثل الماشية والأغنام (التي اكتشفت عظامها مع مخلفاته) وبدأ مرحلة الزراعة وصنع الفخار وهو إما أسود أو أحمر وكانت أوانيه مزخرفة بخطوط أفقية ورأسية متقاطعة يحتمل أنها كانت محاكاة للسلال ، وكانت كل آلاته من الحجر ، وقد عثر منها على سكاكين ومحتات وفؤوس وغيرها أما أدوات الزينة فكانت كثيرة منها دلايات من المحار وأساور وخواتم من المحار أو الحجر ، ومن المرجح أن الإنسان في ذلك العصر استعمل الوشم أو طلاء الوجه على الأقل حيث عثر على مصحن وصلاية دقيقين – وقد أخذت النزعة الفنية في الظهور فبدأ الحفر والنقش في العظام إذ نجد

---

(١) أنظر أعلاه ص ٤٤

مقابض بعض الأدوات مزينة برسوم تمثل غزلان أو أرانب ، وأجمل ماعثر عليه من هذا العصر قطعة يحتمل أنها كانت مقبض سكين وهي في هيئة إنسان يلبس قلنسوة ويغطي عورته إزار مثبت بحزام وتعد من أقدم تماثيل الشرق الأدنى القديم .

وكان أهل هذه الحضارة يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل في وضع مقرفص ومن المرجح أنهم اعتقدوا في البعث لوجود بعض الأثاث الجنزي والتقدمات مع الموتى .

ويدل وجود المحار – وهو من نوع يوجد على بعد ٦٠٠ ميل من موقع سيالك – على أن إنسان سيالك « أ » كان على صلات تجارية مع مناطق بعيدة جداً ، ويرجح بعض الأثريين أنه توصل إلى معرفة النحاس واستخدامه في بعض الأغراض البسيطة مثل عمل الدبابيس ، فإن صح هذا فإن إيران تكون أول من استخدم النحاس في العالم القديم ولا يمكن في هذه الحالة أن تعتبر سيالك «أ» ضمن العصر الحجري الحديث .

عصر بداية استخدام المعادن :

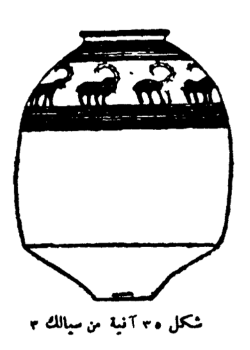
سيالك ٢ : هذه الحضارة تعاصر تقريباً حضارة البداري في مصر وحضارة العمق « حـ » في سوريا – وهي مرحلة متقدمة يبدو أن الأمور استقرت فيها مما أتاح الفرصة للنهوض ، فقد أخذ الإنسان يستخدم اللبن بدلاً من الكتل الطينية التي كان يستعملها في بناء مأواه ، ولم يكن هذا منتظماً في شكله تماماً لأنه لم يصنع بقوالب بل كان يهيؤ باليدين مما جعله يتخذ شكلاً بيضياً (أي أنه كان في وسطه أكثر سمكاً منه في الطرفين) – وكانت المنازل متسعة وأصبحت تطلى باللون الأحمر وتزود بالأبواب أو بمنافذ تغطيها ستر ، وكان الموتى يدفنون في أرضيتها كما كان الحال في الحضارة السابقة – وتقدمت

صناعة الأواني الفخارية وزادت زخرفتها حيث زينت بمناظر حيوانات وطيور رسمت بلون أسود على أرضية حمراء ، وكثر استخدام النحاس وإن كان مازال يطرق ولا يصب في قوالب ولم يتعد استخدامه صناعة بعض الأواني والدبابيس ـ كذلك كثرت أدوات الزينة واستخدمت فيها مواد جديدة مثل العقيق وغيره من الأحجار البراقة ، ومن الحيوانات التي استأنسها إنسان هذه الحضارة كلاب الصيد والخيل الصغيرة الحجم بالإضافة إلى الماشية والأغنام التي عرف استئناسها من العصر السابق .

سيالك ٣ : يظهر في هذه الحضارة تطور معماري جديد إذ أصبح شكل اللبن منتظماً بعد أن صار يصب في قوالب وأصبحت القرى تخترقها ممرات طويلة ضيقة ومتعرجة تفصل بين الملاك المختلفين وكانت المنازل تزود بأبواب ونوافذ صغيرة ضيقة ، ولكن كان مما يساعد على زيادة إضاءتها أن جدرانها لم تكن مستقيمة بل كانت ذات مداخل ومخارج أو فجوات على أبعاد منتظمة وكانت تزينها من الخارج قطع من الأواني الفخارية الكبيرة يرجح البعض أنها تثبت في الجدران لحمايتها من الرطوبة ، كذلك كانت تطلى باللون الأحمر كما في العصر السابق أو باللون الأبيض الذي أخذ يظهر في بيوت هذا العصر ـ وقد ظل الموتى يدفنون تحت أرضية المنازل وفي الوضع القرفص أيضاً ، وزادت كمية الأثاث الجنزي وكثرت التقدمات .

ومن أهم الإختراعات في هذا العصر عجلة الفخار التي ساعدت على خلق كثير من الأشكال في صناعة الأواني كذلك أدخلت أنواع عديدة من الزخارف (أنظر شكل ٣٥) ـ ونتبين في رسوم الفخار أنها مرت بثلاثة مراحل : الأولى كانت الكائنات فيها ترسم على حقيقتها ، والثانية رسمت فيها الكائنات

بشكل زخرفي مختصر ، أما الثالثة فقد عاد الميل فيها إلى فن الحقيقة من جديد وتميزت المناظر المختلفة فيها بالحيوية والحركة حيث يبدو أن الفنان كان يريد أن يعبر بها عن أفكار يرغب في إبدائها للناظر أي أنه كان في الواقع يمهد للكتابة وهذه المرحلة ترجع إلى نفس الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة في العراق، أي أنها عاصرت نشأة الكتابة هناك – ولم يقتصر التقدم الفني على رسوم الفخار



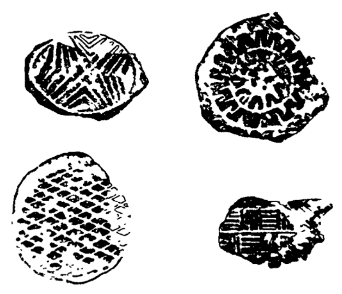
شكل ٣٥ آنية من سيالك ٣

بل كان يتمثل كذلك في أشكاله حيث عملت منه تماثيل صغيرة تمثل إلهة الأمومة وأنواع عديدة من الحيوانات ولعب الأطفال .

وقد تطورت صناعة المعادن فأصبح النحاس يصهر ويصب في قوالب لعمل الأدوات المختلفة ولو أن الآلات الحجرية ظلت مستعملة كذلك وتعددت أدوات الزينة وزاد استخدام الأحجار شبه الكريمة ، ومن المرجح أن اتساع نطاق التجارة جعل الصناع يميزون صناعاتهم بعلامات مميزة فاستخدموا ختماً من الحجر على مخروط كان في بداية الأمر ينقش بزخارف هندسية الشكل

ثم وضعت بعد ذلك رموز أخرى من الكائنات الحية (شكل ٣٦) والنباتات التي كانت تستوحى من رسوم الفخار .

وكان التقدم واضحاً في كل مضمار أثناء هذه المرحلة الحضارية إذ ارتقت الحياة الإجتماعية حيث انتظمت الجماعات المختلفة في مدن كبيرة في مناطق



شكل ٣٦ ـ أختام بها زخارف هندسية الشكل

السهول وخاصة في سوسة فقد ظهرت أول حكومة مدنية في عيلام،أما المناطق الأخرى من الهضبة فإن قلة عدد السكان وتفرقهم في أماكن متباعدة كان سبباً في تأخر نمو هذه الجماعات وانتظامها في مدن كبيرة .

ولم يعثر على ما يمثل هذه المراحل الحضارية الثلاثة سالفة الذكر مجتمعة في أي من الأماكن الأثرية بالهضبة ، ففي جيان (قرب نهاوند) وتل باكون وسوسة مثلاً لم تستقر الحضارة فيها إلا من نهاية عصر سيالك ٢ وبعدها أخذت بعض المظاهر الحضارية ومن بينها الفخار الملون تنتشر في كل أنحاء الهضبة وخارجها ، ثم أخذت صناعة الفخار والمعادن تخطو في تقدمها خطوات موحدة تقريباً وإن وجدت مميزات فردية لكل منطقة حيث أخذ كل مصنع يميل إلى

أشكال معينة ويتأثر بمؤثرات خاصة ، وقد مهد ذلك إلى تطور الحضارة في منطقة عيلام قبل دخولها في عصرها التاريخي .

فترة التمهيد للعصر التاريخي في عيلام

أشرنا إلى أن علامات انعدام الوحدة في صناعة الفخار الملون أخذت تظهر في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ثم اختفى هذا الفخار فجأة من سوسة وحل محله فخار أحمر يماثل أحد الأنواع التي ظهرت في بلاد النهرين ، وربما يرجع ذلك إلى حدوث نهضة حضارية في سوسة كانت متأثرة بحضارة تلك البلاد .

ولم تكن منطقة سوسة هي المنطقة الوحيدة التي تأثرت بمؤثرات غريبة بل أثبتت الأبحاث الأثرية أن كل السواحل الشمالية للخليج العربي قد تأثرت بها ، كما أن المناطق الجنوبية من إيران كافحت طوال العصور التالية دخول المؤثرات الثقافية التي كانت تأتي من بلاد النهرين — أما المناطق التي كانت في غرب الهضبة فلم تعان ضغطاً أجنبياً وظل الفخار الملون مستعملاً وبنفس الأساليب القديمة ولكن أضيفت إلى أشكاله وزخارفه القديمة أشكال وعناصر زخرفية جديدة كما يتبين ذلك في آثار جيان ثم أخذ الفخار الملون في الاختفاء تدريجياً من غرب إيران وحل محله الفخار الأسود أو الرمادي المسود مما يوحي بتسلسل عناصر أجنبية إلى المنطقة واندماجهم مع السكان الأصليين فيها ، وتدل شواهد الأحوال على أن العناصر لدخيلة جاءت من التركستان الروسية أو من سهول بعيدة وسط آسيا واستمرت في تقدمها غرباً حتى وصلت إلى كبادوشيا Cappadocia بآسيا الصغرى .

ولم ينج وسط إيران من المؤثرات الخارجية فقد وجدت في سيالك آثار تدل على حدوث حريق وتدمير لبعض المساكن التي تنتمي إلى سيالك ٣ وإقامة مساكن أخرى في مكانها اختفى الفخار الملون منها وحل محله فخار أحمر أو رمادي يشبه في أشكاله فخار سوسة ، كما أن الختم الأسطواني أصبح يستعمل بدلا من الختم المخروطي الذي كان معروفاً من قبل ، ويدلنا هذا على إدخال الكتابة على الألواح الطينية وبالفعل ظهرت الكتابة قبل العيلامية في ألواح وآثار وجدت مع هذه الأختام – ويبدو أن العناصر التي جلبت معها هذه الكتابة « قبل العيلامية » إلى سوسة دخلت أيضاً إلى منطقة سيالك ولكن في غزوة وحشية ، ومن المرجح أنها كانت أقوى وأغنى من سكان المنطقة الأصليين ، لأن وجود مظاهر حضارية (من تلك التي أحدثوها في سوسة) بمنطقة سيالك مع ما صاحبها من آثار تدمير وحريق يشير إلى أن هذه الحضارة قد فرضت بالقوة خلافاً لما حدث في المنطقة الشمالية حيث تسللت إلى هذه الأخيرة العناصر المسالمة التي أشرنا إلى احتمال مجيئها من التركستان أو من السهول البعيدة في وسط آسيا وجلبت معها الفخار الأسود والرمادي المسود واندمجت مع السكان الأصليين [١] .

وتتميز منازل هذا العصر بأنها بنيت بعناية ولو أن أبوابها ظلت حقيرة ، وكانت تزود عند مدخلها بموقد مقسم إلى قسمين – أحدهما للطعام والآخر للخبز وإلى جانبه إناء للماء – وقد عثر فيها على أثاث متواضع خشن الصنع كانت مفرداته والمؤن المختلفة التي معه توضع داخل فجوات مخصصة لها أو تحاط بأسوار أو حواجز حجرية لحمايتها – وكان الموتى يدفنون تحت أرضية الحجرات وتوضع معهم مهمات جنزية وتقدمات مختلفة مثل أدوات الزينة والمرايا النحاسية وأواني من المرمر وغيرها – وقد زين الموتى أنفسهم

---

(١) يبدو ذلك واضحاً في آثار جيان كما أشرنا أعلاه .

بحلى كثيرة منها دلايات من الفضة المطعمة بالأصداف والذهب واللايس لازولي [1] ودلايات أخرى من الفضة المطروقة وأقراط مزينة بقطع من الذهب واللايس لازولي بالتبادل وأساور من فضة وعقود طويلة خرزها من أحجار بيضاء ومن الذهب والفضة واللابس لازولي والعقيق ، ويوحي تعدد الموادورقي الصناعة بأن هذه الحلي صنعت في سوسة أو في بلاد العراق حيث عثر على ما يشبهها في المقابر الملكية في أور .

وتنحصر أهمية تلك الحضارة التي وجدت في سوسة وتوغلت إلى وسط هضبة إيران في استخدام الكتابة التي يدل مظهرها على أنها كانت متقدمة عن الكتابة التصويرية البحتة ، ومع أنها لم تقرؤ بعد إلا أن ما عثر عليه من نصوص كتبت بها يدل على أن هذه النصوص عبارة عن أرقام وعمليات حسابية خاصه بشؤون تجارية .

ومنطقة سيالك هي الموقع الوحيد الذي وجدت فيه وثائق مكتوبة قبل عصر الأخمينيين [2] في داخل الهضبة ، وحيث أن هذه المنطقة قد تأثرت بحضارة عيلام [3] فلا بد وأن الكتابة والثقافة والعيلامية قد انتشرتا إليها عن طريق توسع سياسي عيلامي يحتمل أنه كان لخدمة أغراض تجارية ، ومما يرجح هذا الرأي أن الكتابة والثقافة العيلاميتين استمرتا فيها طوال المدة التي بقيت فيها مراكز تجارية عيلامية في وسط الهضبة ثم اختفت بعد زوالها .

ومع أن التأثيرات الحضارية التي جاءت إلى إيران لم تصل إليها من منطقة

---

(١) كان التطعيم بتثبيت هذه المواد في الفضة بواسطة القار Chirshman , Iran , 48

(٢) منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد سادت إيران ثلاث عناصر هندو أوروبية فقد حكمها على التوالي الإيرانيون والميديون ثم الأخمينيون الذين كونوا إمبراطورية واسعة تنازعت مع اليونان على السيادة على العالم القديم إلى أن قضى عليها الأسكندر الأكبر .

(٣) أنظر أعلاه ص ٣٩٨ وما بعدها .

واحدة أو في وقت واحد أو بدرجة واحدة فإنها استطاعت أن تمتص هذه المؤثرات وفي نفس الوقت كانت ثقافتها تنتشر إلى ما جاورها فمثلاً استعملت بلاد النهرين نوعاً من الفخار المزخرف الذي كان شائعاً في سيالك وحسار أي أنه انتقل إليها من إيران .

العصر التاريخي

بدأ التعرف على آثار ونقوش إيران منذ القرن الخامس عشر حيث زارها بعض المبشرين والرحالة وقد ذكر بعضهم أن النقوش التي شاهدوها لا تمت للفارسية الحديثة ولا تشبه العربية أو الآرامية أو العبرية ولكنهم مع ذلك أخطأوا في افتراضاتهم التي افترضوها لتفسير هذه النقوش والأنقاض التي شاهدوها — وربما كان الجلبرت كيمبفر Engeldert Kaempfer الذي رافق بعثة سويدية إلى إيران سنة ١٦٨٣ أول من حاول وصفها وصفاً علمياً بل وهو أول من أطلق على تلك النقوش اسم « الكتابة المسمارية » .

وفي أثناء عودة نيبور [١] من الهند مخترقاً فارس توقف أمام أنقاض برسبوليس سنة ١٧٦٥ وعمل تخطيطاً ونسخ نصوصاً منها وكان أول من تبين أن بها ثلاثة كتابات مختلفة [٢] وافترض أن العلامات البسيطة التي توجد بعد علامتين أخرتين أعقد منها هي علامات هجائية استنتج منها ٤٢ علامة هجائية ثبتت صحة ٣٢ منها فيما بعد بينما أخطأ في تسعة منها أما العلامة الباقية فكانت تستخدم فاصلاً بين الكلمات وليست هجائية ، كذلك افترض بأن النقوش كانت تقرؤ من اليسار

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٤٥ .

(٢) هذه الكتابات تمثل اللغات الفارسية القديمة والعيلامية المتأخرة والبابلية — أنظر أعلاه ص ٢٤٢ هامش .

إلى اليمن — وهكذا كان نيبور من أعظم الذين أسهموا في محاولة تفسير هذه النقوش أو على الأقل وضع أسساً هامة في هذه المحاولة .

ومن أهم من جاءوا بعد نيبور المفسر الألماني جروتفند Grotfend الذي استطاع عن طريق الترجمة اليونانية لبعض النصوص الفارسية التي وضعها هيرودوت وغيره من كتاب اليونان أن يتعرف في نقشين من برسبوليس باللغة الفارسية على أسماء ثلاثة من الملوك وأن يستنتج منها القيمة الصوتية لثلاثة عشر علامة ولذلك يمكن أن يقال بأنه اكتشف مفتاح اللغة الفارسية القديمة [1] ، ولكن هذا لم يقابل بالتقدير من معاصريه إلا أن جهوده لم تتوقف عند هذا الحد بل تابع جهوده في محاولة كشف غموض كتابات قديمة أخرى في آسيا الصغرى وإيطاليا .

وظل علماء آخرون يبذلون جهودهم في تفسير رموز الفارسية ولكن نجاحهم كان محدوداً ومن أمثلة هؤلاء راسك Rask (الدانمركي) وبرنوف Bernouf الفرنسي ولاسن Lassen الألماني النرويجي وغيرهم ، وقد أحرز هذا الأخير نجاحاً كبيراً بالاستعانة بفقرة مما كتبه هيرودوت عن الفرس حيث تعرف على أسماء مرادفة لها في النقوش الفارسية القديمة المدونة في برسبوليس بالمسمارية ومن فحص النصوص التي نسخها نيبور تبين له أن أحدها حوى ما لا يقل عن ٢٤ إسماً استنتج منها هجائية ثبت فيما بعد أن ٢٣ حرفاً منها كانت صحيحة .

ولعل أبرز المفسرين للغة الفارسية كان رولنسون الإنجليزي Henry Creswick Rawlinson الذي يعد بحق رائد أو « أب » الأشوريات ففي سنة ١٨٣٥ / ١٨٣٦ تمكن من نسخ نقشين من النقوش الثلاثية في سلسلة جبلية جنوب همدان ، وكل منها كان مكتوباً بثلاث لغات ولم يكن يعرف

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٤٣ .

أن جروتفند كان قد توصل إلى معرفة أسماء ثلاثة ملوك من قبل وقد لاحظ أن النقشين يتشابهان في احتواء كل منهما على ثلاث مجاميع من العلامات استنتج أنها لنفس هؤلاء الملوك ومنها توصل إلى معرفة عدد من الحروف — كذلك وجد أن هذه الأسماء وردت في الأسطر الأولى من النقش المدون بالفارسية القديمة وتذكر سلسلة نسب اجزركسيس كما وردت في فقرة من تاريخ هيرودوت فساعده ذلك على التعرف على أسماء أكثر — وتوالى نجاحه بعد ذلك حتى تمكن من تفسير النقش بأكمله ونشره في سنة ٦ — ١٨٤٩ .

ومن حل رموز هذه اللغة ومن تفسير مختلف النصوص التي عثر عليها أمكن التعرف على تاريخ إيران والتوصل إلى أنه ينحصر في مرحلتين أساسيتين هما : مرحلة تاريخ عيلام ، مرحلة تاريخ الإيرانيين (الميديين والفرس) .

أولا — عيلام

في بداية الألف الثالث قبل الميلاد لم يدخل من إيران في العصر التاريخي سوى منطقة عيلام وحدها أما بقية المناطق فإن معلوماتنا عنها تأتي من مصادر بلاد النهرين التاريخية وعلى الأخص المصادر البابلية وهذه لاتذكر شيئاً عن الجهات الداخلية البعيدة وإنما تكتفي بالمناطق المتاخمة لها على الحدود حيث كان سكانها يعيشون على التلال ويحتكون دائماً بأهل بلاد النهرين السومريين والساميين ، وسكان المناطق المرتفعة هؤلاء هم من الجنوب إلى الشمال : العيلاميون والكاشيون واللولوبي والجوتي ، وكلهم ينتمون إلى جنس واحد ويتكلمون لغات متشابهة — وقد أدى الضغط المستمر الذي كانت تفرضه عليهم الممالك المتحضرة في السهول إلى اتحادهم أحياناً وبصفة مؤقتة إذ كان الكفاح مستمراً بين الأمم المتحضرة في السهول وبين البدو وأشباه البدو في المناطق الجبلية ، فكلما تكونت أسرة قوية في بابل زاد الضغط على سكان المناطق الجبلية وكلما ضعفت بابل انحدر

هؤلاء من الجبال إلى مناطق السهول الغنية يحتلونها لفترات مختلفة ، وعلى ذلك ظلت الهضبة الإيرانية في معظمها على حالة من البداوة ولم يدخل العصر التاريخي في أول الأمر إلا منطقة عيلام .

فحوالي الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد كانت هناك أسرة عيلامية قائمة بالفعل تحكم مساحة كبيرة من السهول والمناطق الجبلية من بينها جزء هام من ساحل الخليج العربي ومنطقة بوشير ، وتدل شواهد الأحوال على أن المملكة القائمة (وإن كانت قد اتخذت كتابة خاصة) إلا أنها استعملت اللغة السومرية .

وعندما اعتلى « سرجون » الأكدي عرش بلاده غزا عيـــلام التي كافحت من أجل الدفاع عن كيانها ولكن سرجون انتصر عليها في موقعتين حاسمتين ، ومن المحتمل أنه ضم سوسة نفسها إلى ممتلكاته - كذلك كان ولده «مانيشتوسو» موفقاً في حروبه ضد عيلام واستطاعت جيوشه أن تعبر الخليج العربي لتأمـــين الطريق المؤدي إلى المرتفعات التي كان يجلب منها المواد اللازمة للبناء -وفي عهد خليفته « نارام سن » حدثت ثورة في أطراف مملكته ومن بينها عيـلام ولكن هذه الثورة أخضعت بشدة واستطاع أحد قواده أن يشيد بعض المباني الهـامة في سوسة ، وقد حلت اللغة الأكدية (السامية) محل العيلامية وأوشكت الثقافة العيلامية أن تختفي لولا أنها ظلت قائمة في المناطق الجبلية الوعرة .

وقد انتهز حكام عيلام الوطنيون ومن بينهم « بوزور انشوشناق » كل فرصة للنهوض بعيلام من جديد حيث نجد أن نصوصاً كتبت باللغة العيلامية وما قبل العيلامية قد عادت للظهور جنباً إلى جنب مع نصوص كتبت بالأكدية - وانتهز « بوزور انشوشناق » فرصة التظاهر بالدفاع عن سيده « نارام سين » [١] وتوسع

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٥٧ - ٣٥٨

في مد سلطانه نحو الشمال حتى وصل إلى الاحتكاك بقبائل جوتي ، وقد أثرى بلاده بالغنائم التي حصل عليها وشيد الكثير من المباني ، ولما مات « نارام سين » أعلن استقلاله وهاجم بابل نفسها حتى وصل إلى أكد ولكنه رد عنها بصعوبة ومع ذلك فقد احتفظ باستقلاله عن بابل التي أخذت في الضعف تدريجياً ، واتجهت إليها الأنظار وخاصة بعد نجاح « بوزور انشوشناق ففزتهاقبائل اللولوبي والجوتي الواحدة بعد الأخرى - واللولوبي كانوا يعيشون في المنطقة التي تمتد من شرق بغداد الحالية إلى كرمانشاه وحمدان وطهران أما الجوتي فكانوا يعيشون في المنطقة الممتدة بين وادي زاب الأدنى والحوض الأعلى لنهر دياله ، وقد تخلصت بابل بعد ذلك من سيادة الجوتيين بقيام أسرة جديدة في أور تمكنت فضلاً عن ذلك من إخضاع سوسة وما حولها تحت سلطانها ولكن هذه المملكة الجديدة لم يقدر لها البقاء طويلا فبعد مرور نحو قرن من الزمان هاجمتها مملكة « سيماش » (في الجبال الغربية من أصفهان) وهزمت ملكها وحملته أسيراً إلى الجبال ، وأصبحت « سيماش » صاحبة السلطان في سوسة وعيلام - ثم حدث رد فعل جديد حيث تكونت أسرة أيسين التي طردت « سيماش » واستولت على عيلام .

وهكذا نجد أن دور إيران في تاريخ غربي آسيا قد زادت أهميته في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد ، وكان ملوك بلاد النهرين يهدفون في حروبهم ضدها إلى غرضين : سياسي يتلخص في ضمان عدم قيام دولة قوية على حدودهم حتى لا تهدد كيانهم السياسي ، واقتصادي يقصد من ورائه تحويل موارد الثروة من إيران إلى بابل .

ولا يعرف شيء عن الأحوال السياسية في المناطق الداخلية من إيران ولا مدى توغل العيلاميين واللولوبيين والجوتيين في المناطق التي تقع إلى الشرق من تلك التي أشرنا إليها ، ففي سيالك توجد فجوة أثرية تمثل فترة استمرت ما يقرب من ألفي عام لا نعرف ماذا حدث خلالها - ولكن في جيان يبدو

أن المجتمع الذي عاش فيها ظل يتبع نفس أساليب الحياة دون تغيير يذكر فالفخار الملون الذي يحاكي فخار سوسة ظل مستعملا ، وقد وجدت في المقابر حلى كثيرة من البرونز والفضة - وفي حسار حل الفخار الرمادي المسود محل الفخار الملون كما حدث في غرب الهضبة ، وازداد استخدام المعادن وخاصة في صنع الأشياء الصغيرة ، ومن المحتمل أن البرونز كان يقدر لقلته نسبياً أكثر من الفضة وبذلك دخلت إيران الداخلية في عصر البرونز .

وأهم ما حدث في الألف الثاني قبل الميلاد هو ظهور العناصر الهندوأوبية في غربي آسيا (وكان من أثرها دخول الهكسوس إلى مصر على الأرجح) - ويبدو أن هؤلاء جاءوا من المناطق الرعوية في آسيا وتشعبوا إلى شعبتين : غربية دارت حول البحر الأسود (بعد أن عبرت البلقان والفوسفور) ووصلت إلى آسيا الصغرى حيث كونت المملكة الحيثية ، شرقية عرفت باسم الهندوإيرانيين وقد دارت حول بحر قزوين وخرجت منها بضعة فروع اتجه أحدها عبر القوقاز إلى أعالي الفرات حيث اختلط بالحوريين أهل البلاد السابقين وكونوا مملكة ميتاني [1] ، واتجه فرع آخر وسط جبال زاجروس إلى المنطقة الواقعة في جنوب طريق القوافل حيث استقر فيها كأقلية نشيطة (اشتهرت منطقتها فيما بعد بتربية الخيول) عرفت باسم الكاشيين الذين يحتمل بأنهم هم الذين تسببوا في القضاء على مدنية حسار أثناء اندفاعهم غرباً للاستقرار في تلك المنطقة وذلك في حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

ومن المعروف أن أحد أمراء عيلام استطاع أن يغزو بابل في بداية الألف الثانية قبل الميلاد مكوناً بعد ذلك بوقت قصير أسرة لارسا التي استطاعت أن تقضي على أسرة أيسين وبذلك أصبحت سيدة على بابل وأورك ، ولكن حينما تولى

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٩٢ - ٢٩٣

حامورابي عرش بابل سرعان ما أوقف تقدم العيلاميين بل وتمكن بعد ٣١ عاماً من أن يهزم ملكهم « ريم سن » – وبعد عدة محاولات فاشلة من جانب ملوك عيلام حاولوا فيها الاحتفاظ بسلطانهم على لارسا اختفت عيلام لمدة قرن من الزمان ثم أعيد بناؤها بضعة عشرات من السنين واختفت بعد ذلك على إثر غزوات الكاشيين .

وأول ما يطالعنا من النصوص عن الكاشيين في بابل هو ما يذكره خليفة حامورابي من أنه صد هجوماً لجيش من الكاشيين ولكن مع ذلك يبدو أنهم تمكنوا في النهاية من التسلل إلى بابل كمهاجرين مسالمين لمدة قرن ونصف تقريباً ثم استطاعوا أن يستأثروا فيها بالسلطة في حوالي القرن ١٨ ق.م ، وتعد سيطرتهم في بلاد النهرين أطول سيادة أجنبية فرضت فيها [١] ومع ذلك لم يدخلوا عناصر حضارية جديدة تستحق الذكر ، وتدل شواهد الأحوال على أنهم كانوا على صلات بمصر في عهد العمارنة – ويظهر أن مملكة آشور استطاعت أن تنهض وعقدت بينها وبينهم معاهدة على إثر حملة قام بها ملك آشور « أددنيراري الأول » وقد اتفق على فيها الحدود ثم عادت النهضة من جديد في عيلام إلا أن الكاشيين ظلوا قابضين على ناصية الأمور في بابل ولكنهم أصبحوا غاية في الضعف حيث أنهم وحلفاءهم الأشوريين هزموا أمام عيلام التي استطاعت أن تقضي أولاً على سلطان الكاشيين في بابل وخلعت ملكهم عن العرش ووضعت ابنه في مكانـــه وبعدئذ تقدمت جيوشها إلى الشمال واخترقت حوض ديالة ووصلت إلى منطقة كركوك ثم تقدمت نحو آشور كما حاصرت مدينة بابل ، وبذلك أصبح كل حوض الفرات ومعظم ساحل الخليج العربي وسلاسل جبال زاجروس في يد عيلام .

وما أن حلت نهاية الألف الثاني قبل الميلاد إلا وتكونت أسرة قوية جديدة في بابل استطاع ملكها « نبوخذ نصر » أن يحطم قوة عيلام واستولى على سوسة

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٦٩

فاختفت عيلام مرة أخرى وكان ذلك لمدة ثلاثة قرون تقريباً اشتدفيها التنافس بين مملكتي بابل وآشور الجديدتين من أجل السيطرة على الأراضي السهلةبينماظلت الهضبة الإيرانية قليلة الأهمية إلى أن تمكنت بعد بضعة قرون من أن تغير وجه التاريخ .

ثانياً – الايرانيون : الميديون والفرس

الايرانيون

في بداية الألف الأول قبل الميلاد زاد استخدام الحديدوحدثت هجرة جديدة الشعوب الهندو أوروبية وكان لهذين الحادثين أكبر الأثر في تاريخ آسيا .

ومن المحتمل أن الهجرة الهندو أوروبية الجديدة كانت تشبه الهجرة السابقة وربما كانت من نفس المنطقة التي جاءت منها أيضاً – ففي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد تقريباً اتجهت بعض الشعوب الهندوأوربية إلى آسيا الصغرى وحطمت إمبراطورية الحيثيين ، وكان الفلسطينيون الذين استقروا في فلسطين من بين شعوب هذه الهجرة ومازالت فلسطين تحمل اسمهم إلى اليوم –وقدوصلت هذه الهجرة عبر سوريا إلى فلسطين وتقدمت نحو مصر إلا أن رعمسيس الثالث صدها – أما في إيران فإن الشعوب الإيرانية قد اخترقتها في بداية الألف الأول قبل الميلادوأثرت عليها تأثيراً مغايراً لتأثير الغزوة السابقة التي حدثت قبل ذلك بألف سنة تقريباً [١] حيث أنهم لم يندمجوا في السكان الأصليين مثل ما فعله الحوريون والميتانيون والكاشيون من قبل ، فقد وضعوا أنفسهم في مركز السيادة بعد أن تسللوا تسللا بطيئاً إلى المنطقة ثم تمكنوا بعدئذ من الخروج لغزو العالم ، ولم تتمكن الشعبة الشرقية من هؤلاء الإيرانيين من التوغل جنوب هندكوش فاتجهت نحو الغرب

(١) أنظر أعلاه ص ٤٠٤

إلى قلب إيران إلا أنها ظلت تطمح في الوصول إلى بلاد الهند الغنية وأخذت تتحين الفرصة لذلك ، أما الذين اتجهوا إلى الغرب فلم تكن السلاسل الموازية لجبال زاجروس هي التي تحول دون تقدمهم بل وقفت أمامهم سداً منيعاً هناك ولايات قوية لها ماضي وحضارة مستقرة منذ آلاف السنين ، والقبائل الإيرانية التي أرادت الإتجاه إلى الجنوب الشرقي على امتداد زاجروس كانت تواجهها من الشمال إلى الجنوب : آشور وبابل وعيلام ، وإلى الشمال الشرقي حول بحيرة «وان» توجد جبال القوقاز ومملكة أرارات التي أصبحت فيما بعد مملكة أرمينيا - وعلى هذا ظل الإيرانيون لا يستطيعون اختراق ذلك الحاجز وأخذوا خلال الأربعة قرون التالية يمتصون السكان الأصليين ويفرضون ثقافتهم وسلطانهم السياسي في وديان جبال زاجروس .

وكان النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد نقطة التحول في تاريخ البشرية لأن مركز السياده العالمية أصبح لا يوجد في السهول والوديان الخصيبة مثل وادي النيل ووادي دجلة والفرات بل انتقل إلى المرتفعات حيث وجدت ثلاثة قوى في شرق إقليم الشرق الأدنى كانت تتصارع فيما بينها وهؤلاء هم : الأشوريون ومملكة أرارات والإيرانيون - وبعد كفاح مرير تمكن الأخيرون من الإنتصار على خصومهم وأسسوا أول إمبراطورية عالمية ، ومن العسير التعرف على تفصيلات حوادث هذه الفترة إلا عن طريق الوثائق الأشورية حيث لا يوجد ما ينير لنا الطريق عن هذا العصر سواها وإن كان من المحتمل أن نعرف كثيراً عن حضارة هؤلاء الإيرانيين بعد تقدم التنقيبات التي تجري في إيران وخاصة في منطقة سيالك التي أشير إليها فيما سبق ، ومما ساعد على التحول السياسي عن السهول ازدياد استخدام الحديد وهو يوجد بكثرة في جنوب البحر الأسود وعبر القوقاز التي تتحكم فيها مملكة أرارات - وهذه قد حولت اهتمامها نحو إيران التي كانت تكثر بها الخيول اللازمة للجيوش وبعض

المعادن ، وحينما منعت إيران تلك الموارد عن آشور اضطرت هذه إلى اتباع سياسة الإعتداء عليها ولكن ملوكها لم ينجحوا دائماً في إخضاع تلك الجهات – وإذا مانجحوا فإن إدارتهم لها لم تكن فعالة ، وكانت هذه الإعتداءات المتكررة سبباً في تغيير بعض الأساليب الحربية وأصبح الخيالة أهم سلاح في الجيش حيث حلوا محل العربات .

الميديون

نجد في حوليات شلمناصر الثالث أول ذكر للإيرانيين ، ففي سنة ٨٤٤ ق.م عرف الأشوريون الفرس وفي سنة ٨٣٦ ق.م عرفوا الميديين – وكان الفرس في غرب وجنوب غربي بحيرة أورميا ، أما الميديون فكانوا في الجنوب الشرقي إلى جوار همدان ، ومن المرجح أن هذه الأسماء لا تدل على اختلافات جنسية وإنما تدل على أسماء القبائل التي عاشت في تلك المناطق – ويذكر الملك الأشوري « شمشي أدد الخامس » أنه هزم زعيماً إيرانياً شمال بحيرة أورميا سنة ٨٢٣ ق.م .

ويبدو أن الفرس لم يستقروا في الشمال الغربي من إيران طويلا إما نتيجة للغزوات الأشورية وإما نتيجة لضغط مملكة أرارات أو بعض القبائل الأخرى ، وعلى ذلك اتجهوا في القرن الثامن نحو الجنوب الشرقي واستقروا في نهاية هذا الجزء من إيران غرب جبال بختياري في منطقة عرفت باسم «بارسوماش» ولما كانت المملكة الأشورية قد أخذت في الضعف منذ نهاية القرن التاسع فإن مملكة أرارات قد انتهزت الفرصة ووسعت أملاكها وفرضت سلطانها على الفرس ، واستمر النضال بين أرارات وآشور إلى أن اعتلى عرش آشور « تجلات بلاسر الثالث » الذي انتصر على ملك أرارات وتوغل داخل مملكته وحاصر العاصمة نفسها ولكنه لم يستطع الإستيلاء عليها – وقد قام بعدة حملات على الأمراء الإيرانيين والميديين وأخضع مدنهم ونظم إدارتها ، ثم حاول ملك

أرارات الجديد أن يستنهض زعماء القبائل المجاورين له ونجح في تكوين حلف منهم .

وكان من بين هؤلاء زعيم الميديين الذي أسس المملكـــة الميـــدية ولكن « سرجون الثاني » ملك آشور نجح في القضاء على الثورات التي نشبت في أجزاء مختلفة من مملكته كما أنه جلب ٣٠ ألف إسرائيلي وأسكنهم في المدن الميدية — وكلما تجـــددت الثورات ضدد مملكة آشور كان سرجون يقضي عليها ، أما « سناحريب » الذي جاء بعد ذلك بفترة فإن انشغاله في حروبه ضد عيلام ومصر ويهوذا جعله يخفف الضغط على الميديين ، وفي تلك الأثناء دخلت عناصر جديدة هندو أوربية التفت هى وكثير من المدن الايرانية حول أحد زعماء ميديا فبلغت هذه من القوة مبلغاً جعلها تنجح في تكوين مملكة وتمكنت من التحكم في العناصر الهندو أوربية الأخرى ومن بينها القبائل الفارسية — وقـد استغل الميديون فرصة ضعف الامبراطورية الأشورية واتجهوا نحو نينوى محاولين السيطرة على آشور ، ولكن الملك البابلي « نبوبولصر » استطاع إيقاف هذا التوسع الميدي ثم تحالف الميديون والبابليون وتمكنوا مـــن اسقاط نينوى سنة ٦١٢ ق . م وقسمت المملكة الأشورية بين الميديين والبابليين الكلدانيين فاستولى الميديون على المناطق الواقعة شرق وشمال نهر دجلة واستولى الكلدانيون على تلك التي تقع في الجنوب والغرب — ولم يكتف الميديون بذلك بل توسعوا نحو الغرب في آسيا الصغرى وحاولوا فرض سيطرتهم على ليـديا (غربي آسيا الصغرى) وانتهى الأمر بالتحالف بينهما نتيجة لتوسط ملك بابل ، ومع ذلـك لم يأمن البابليون جانب الميديين فاتجهوا نحو عنصر إيراني آخر بدأ يبرز إلى ميدان القـــوة وهذا العنصر حاول تأسيس مملكة بزعامة «أخيمين» (سنة ٧٠٠ — ٦٨٥ ق.م) — وحينما اعتلى العرش ولده تيسبيس أطلق على نفسه لقب «ملك أنشان» ثم قسم

مملكته بين ولديه « أريارامن » و « كورش الأول » ، وقد حكم الأول في بارسا وحكم الثاني في أنشان وبموت « أريارا من » خلفه ولده الذي لم يستمر طويلاً على العرش إذ أن « قمبيز » بن « كورش الأول » وخليفته تمكن من أن يوحد المملكتين تحت سلطانه .

الاخمينيون (الفرس) :

ظل قمبز خاضعاً للنفوذ الميدي على الرغم من أنه كان يحكم مملكة موحدة فلم يكن مستقلاً كل الاستقلال، ولكن في عهد خلفه « كورش الثاني» اصطدمت القوتان الفارسية والميدية واستطاع كورش أن يقضي على هذه المملكة الأخيرة واتخذ عاصمتها « اكباتاما » (همدان) عاصمة إيران الموحدة وبذلك بدأ عهداً جديداً لإيران حيث احتلت بعد ذلك مركز السيادة في الشرق القديم — وقد تمكن كورش من توسيع مملكته فبسط سلطانه حتى حدود البحر المتوسط غرباً والهند شرقاً بل وتمكن كذلك من احتلال بعض المدن والجزر اليونانية واحتل بابل وبذلك قضى على أكبر منافس في الشرق القديم ، ومنذ ذلك الحين انتهت مدنية بلاد النهرين — واستمر كورش الثاني في عملياته الحربية في الشرق والغرب موطداً أركان امبراطوريته ، وكان سياسياً ماهراً فلم يكن قاسياً في معاملته — للاعداء ولم يدمر بابل بعد إسقاطها — أما الأسرى الاسرائيليون الذين كانوا قد جلبوا إلى آشور وميديا فقد أعادهم إلى وطنهم الأول فلسطين[1].

ولما اعتلى « ولدة قمبيز الثاني » عرش الامبراطورية تمكن من غزو مصر فأصبح الفرس يحكمونها من الاسرة السابعة والعشرين إلى الأسرة الحادية والثلاثين باستثناء فترات قصيرة ثار فيها المصريون على الحكم الفارسي — وبعد موت قمبيز

---

(١) انظر أعلاه ٢٩١ - ٢٩٢ .

انقسمت الإمبراطورية إلى عدد من الولايات التي كانت تحاول الاستقلال ولكن خليفته «دارا الأول» تمكن من إنقاذ الامبراطورية وأعاد الاستقرار إلى أجزائها المختلفة بعد أن خاض نحواً من ١٩ معركة حربية .

ويعد « دارا الأول » من أهم الملوك الذين حكموا الامبراطورية الفارسية التي كانت تتكون من عشرين ولاية حيث استطاع هذا الامبراطور بفضل جهوده أن ينعش الحركة التجارية في أجزائها المختلفة وتوسع في إنشاء الطرق وأمر بحفر القناة التي تصل بين النيل والبحر الأحمر ، ولذلك يرى بعض المؤرخين بأن هذا الامبراطور يعد « يهودي عصره » نظراً لما لقيه من نجاح في ميدان التجارة ، كذلك نشط هذا الملك في تشييد المباني وتجميل العاصمة واستخدم في ذلك أرز لبنان والنحاس وخشب الأبنوس الوارد عن طريق مصر واستعان بالعمال الميديين والمصريين والبابليين أيضاً كما استخدم نظام نقد ثابت استعملت فيه العملة بدل المقايضة — وفي نهاية عهده ساءت العلاقات اليونانية الفارسية مما أدى إلى قيام الحرب بينهما ، وقد انهزم الجيش الفارسي في الموقعة المشهورة باسم ماراثون سنة ٤٩٠ ق م — وبعد ذلك بقليل أي في عهد « اجزر كسيس الأول » الذي تولى بعد دارا هزم الأسطول الفارسي في موقعة سلاميس سنة ٤٨٠ ق م ، وقد تلا هذا الملك ملوك ضعاف كان عهدهم مليئاً بالحروب والثورات إلى أن انتهى الأمر بانتصار الاسكندر الأكبر فأصبحت إيران ضمن أملاك السلوقيين ولم تتمكن من العودة الى النهوض الا في عهد الساسانيين[1] الذي استمر الى آن دخل العرب إيران سنة ٦٥١ م .

ولا شك أن الإمبراطورية الايرانية كان لها أكبر الأثر في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم ، فقد استعملت اللغة الآرامية كلغة رسمية وهذه انتشر

---

(١) بدأ حوالي سنة ٢٢٦ ق . م

استعمالها كلغة دولية في الألف الأول قبل الميلاد ، كما أن العقيدة الزرادشتية نمت وترعرعت في ظل الامبراطورية الإخمينية وكانت معاصرة للديانة البوذية وما زالت هاتان العقيدتان منتشرتين في كل من إيران والهند – ولم يحل تمسك الإيرانيين بعقيدتهم دون تسامحهم الديني في غالب الأحيان واتجهوا في سياستهم وحكمهم للشعوب اتجاها نسانيا ، فلم يدمروا مثلما دمر الآشوريون ولم يشتتوا سكان بعض المناطق كما فعل غيرهم بل على العكس من ذلك نجد أنهم في بعض العصور كانوا يميلون إلى اتباع سياسة تهدف إلى انعاش التجارة وتعميم الرخاء في الولايات المختلفة .

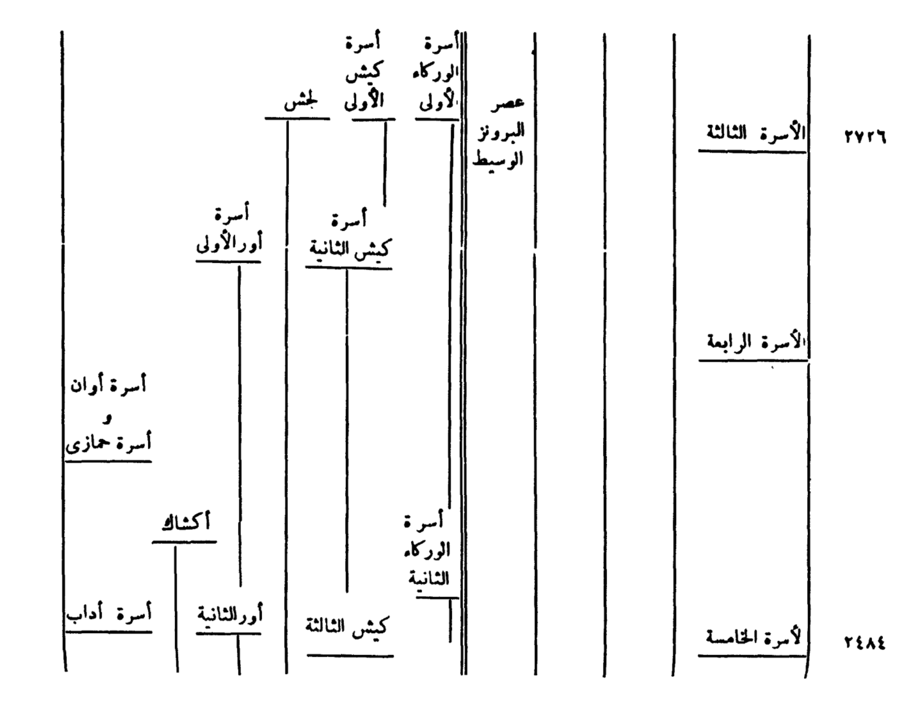
ملحق تاريخي

ملحق تاريخي

ترتيب أهم الأدوار التاريخية في الشرق الأدنى

التاريخ التقريبي ق.م.	مصر	بلاد العرب	الاقليم السوري	آسيا الصغرى	بلاد النهرين	إيران
بعد ظهور الانسان	الحضارة الشيلية					
	الحضارة الأشولية					
	السبيلية		الناطوفية		هزار مرد	
					شاندر	
					بالي جوارا – زرزى	سيالك ١
					كريم شهر	
					جرمو	
	حلوان أ		العمق أ، ب		حسونة	
	ديرتاسا			(حجرى		
٥٠٠٠	البدارى		جريكو	حديث)		
	الفيوم		١٠،٩		حسونة سامراء	سيالك ٢
	العمرة		العمق ج		حلف	
	جرزة حلوان ب		جريكو٨		العبيد	سيالك ٣

٣٥٠٠	حماينة مرمدة بني سلامة المعادى		الغسوليه عصر البرونز الأول		
					الوركاء
	الدولة القديمة				
	الأسرة الأولى				
١٥٠±٣١٠٠ (٣٢٤٦؟) أو (٣٢٣٤؟)					جمدة نصر
(٢٩٨٢؟)	الأسرة الثانية				
				عصر البرونز القديم	


أسرة الوركاء الأولى
أسرة كيش الأولى
لجش
عصر البرونز الوسيط
الأسرة الثالثة
٢٧٢٦
أسرة أور الأولى
أسرة كيش الثانية
الأسرة الرابعة
أسرة أوان
و
أسرة حازى
أكشاك
أسرة الوركاء الثانية
أسرة أداب
أور الثانية
كيش الثالثة
الأسرة الخامسة
٢٤٨٤

أسرة ماري

أكشاك

أور الثانية

خفش تحت حكم الأكديين

كيش الرابعة

أكاد

الوركاء الثالثة

الوركاء الرابعة

غزو السومريين

غزو الأكديين

الأسرة السادسة

٢٣٤٤

٢٢٠٩ عصر الفوضى الأول

الأسرات ٧ — ١١

٢١٥٠

٢١٠٠ الدولة الوسطى

١٩٩١ الأسرة الثانية عشرة

التجار الأشوريين

أكاد

الوركاء الخامسة

أسرة أيسين

أشنونا

لجش تحت حكم الجوتي

لجش تحت حكم لارسا

أور الثالثة

الأسرة البابلية

آشور

أسرة الجوتي

أسرة لارسا

١٧٨٦

عصر الفوضى الثاني

الأسرات ١٣-١٧

الدولة الحديثة

الأسرة ١٨

١٥٧٥

الفتح المصري

التأثير الميتاني

الغزو الحيثي

بتحخانا أنينا

الدولة القديمة

عصر الامبرطورية

دولة أرض البحر

الغزو الحيثي

الأسرة الكاشية

الميتانيون

الحوريون

الكاشيون

عيلام

تابع « الجدول التاريخي »

التاريخ التقريبي ق م.	مصر	بلاد العرب	الإقليم السوري	آسيا الصغرى	بلاد النهرين				إيران
					بابل	آشور	عيلام	الحوريون	
١٣٣٥	الاسرة ١٩			عصر الامبراطورية					
		معين			الاسرة الكاشية				

التاريخ	مصر	الشام وفلسطين	الآراميون	الفريجيون	آشور		
١٢٠٠	الأسرة ٢٠	غزو شعوب البحر الفاسطينون	الآراميون	الغزو الفريجي			
					الأسرة الرابعة		
١١٠٠	عصر الاضمحلال الثالث	العبرانيون عصر القضاة	غزو تيجلات بلاسر الأول				
	الأسرات ٢١ - ٢٥	المملكة / سبأ	غزو الآراميين لبلاد النهرين الممالك الحيثية الجديدة والمملكة الآرامية		الاسرة الخامسة		
١٠٥٠					الاسرة السادسة		

٦٦٤

عصر
النهضة المؤقتة

الأسرة ٢٦

يهودا

إسرائيل

سقوط
سامراء

طرد الآراميين
من بلاد النهرين

غزو شلمنصر
الثالث

أداد نراري
الثالث يستولي
على دمشق

الأشوريون
يهزمون المملكة
الحيثية الجديدة

سيادة
آرارات
وليديا

الأسرة
السابعة

الأسرة
الثامنة

الأسرة
التاسعة

الأسرة
العاشرة

بابل
تدمير بابل

الميديون

الإخمينيون

عصر
الفوضى الأخير
الأسرات ٢٧ - ٣١

الاستيلاء على
أورشليم

الاسرة ١١

سقوط
بابل

سقوط
آشور

سقوط
الميديين

امبراطـــــــــــورية الفـــــــــــرس

امبراطـــــــــــورية الاسكنـــــــــــدر الأكبر



المختار من المراجع العامة

١ – باللغة العربية :

١ – أحمد بدوي « في موكب الشمس » جزءان القاهرة ١٩٤٦ ، ١٩٥٠
٢ – أحمد فخري « مصر الفرعونية » القاهرة (طبعة ثانية) ١٩٦٠
٣ – إرمان – رانكه « مصر والحياة المصرية » مترجم – القاهرة
٤ – برستد « تاريخ مصر السياسي من أقـــدم العصور إلى الفتح الفارسي » ترجمة حسن كمال – القاهرة ١٩٢٩
٥ – ديلابورت « بلاد ما بين النهرين » مترجم – القاهرة
٦ – سليم حسن « مصر القديمة » الأجزاء الاثنى عشر الأولى
٧ – طه باقر «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» جزءان – بغداد ١٩٥٥، ١٩٥٦
٨ – فرانكفورت وآخرون « ما قبل الفلسفة » – مترجم – بغداد ١٩٦٠
٩ – محمد أبو المحاسن عصفور : ١) الشرق الأدنى قبـــل عصوره التاريخية الاسكندرية ١٩٦٢
٢) علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم – الاسكندرية ١٩٦٢
٣) موجز تاريخ الشرق الأدنى – البصرة ١٩٦٦ الاسكندرية ١٩٦٢
١٠ – فيليب حتى « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حـــداد وعبد الكريم رافق – بيروت ١٩٥٨
١١ – نجيب ميخائيل « مصر والشرق الأدنى القديم » ٦ أجزاء – الاسكندرية

ب – باللغة الأوربية :

Arkell, A. J., A History of the Sudan from the Earliest Times to A. D. 1821, London, 1955.

Baumgartel, E. J., The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols. : I (2nd. ed. London 1955) II (London 1960).

Bilabel, F. & Grohman, A., Geschichte Vorderasiens und Aegyptens vom 16 Jahrhundert v. Chr, Heidelberg, 1927.

Breasted. J. H., Ancient Records (Hist. Documents from the Earliest Times to the Persian Conquest (I—IV, Chicago, 1906; V. Index, 1907).

Breasted. J. H., A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest (2nd ed.), London 1925.

أشرنا إلى ترجمته رقم ٤ من المراجع العربية

Budge. E. A. W., A History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra Vols. 13.), London. 1902.

Cambridge Ancient History. (2nd ed. II, Vols. & 4 Vols. pls.), Cambridge 1923 — 36.

Capart & Contenau, Histoire de l'Orient ancien, Paris, 1946.

Cavainac, E, Le Monde méditerranéen jusqu'au IVe siécle av. J. C. (t. II de l'Histoire de Monde), Paris, 1929.

Cavainac, E. Les Hitties, Paris, 1950.

Delaporte, L., Les Hittites, Paris, 1936.

Delaporte, L., Les peuples de l'Orient Mediterranéen t. I «Le Proche Orient Asiatique» (clio 1938).

أشرنا إلى ترجمته رقم ٥ من المراجع العربية

Drioton, E. & Vandier, J., Les Peuples de l'Orient Mediterranéen. t. II «L'Egypte» 4e ed.

Gardiner, A. H., Egypt of the Pharaohs, London 1961.

Ghirshman, Iran, Pelican A. 239.

Gurney, O. R., The Hittites, Pelican A 259.

Hall, H., The Ancient History of the Near East. loth. ed., London 1947.

Hayes, W., The Sceptre of Egypt. I. New York, 1953.

Huzayyin, S. A., The Place of Egypt In Prehistory, Cairo, 1941.

Kees, H., Das Alte Agypten (Eine Kleine Landeskunde), Berlin 1941.

Kienitz, F. R., Die Politische Geschichte Agyptens vom 7 bis Zum 4 Jahr hundert vor der Zeitwende, Berlin, 1953.

Lloyd, S., Early Anatolia, Pelican A354.

Luckenbill, D. D., Ancient Records of Assyria and Babylonia (2 Vols.), Chicago, 1926 — 7.

Mercer, S.A.B., The Tell el Amarna Tablets, 2 Vols. Toronto 1939.

Petrie, W.M.F., A History of Egypt (3 Vols.) London, 1923.

Pritchard, J. B., Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeton, 1950.

G. Roux, Ancient Iraq, Pelican A828.

Sôderbergh, T. Saeve, Aegypten und Nubien, Lund, 1941.

Scharff, A. and Moortgaat, Agypten und Vorderasien in Alertum, Munich, 1950.

Winlock, H. E., The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York 1947.

Zeissl; H., Athiopen und Assyrer in Agypten, Beitrage Zur Geschichte der agyptischen Spatzeit (Agyptologische Forschungen, Heft 14), Gluckstadt und Hamburg, 1944.

فهرس أبجدي

« ب »

« ر »

« ف – ق »

« ك »

« ل »

« هـ »

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب ، أستاذ متخصص في التاريخ القديم ، مشهود له في الجامعات العربية ، والعالمية . وهو يعالج بكتابة هذا ؛ معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ؛ عصور ما قبل التاريخ في هذه المنطقة حتى مجيء الإسكندر ، في خطوطها السياسية العريضة ، وذلك بهدف أن تتاح للقارىء من خلالها ، فرصة فهم المعالم الرئيسية لهذه الحقبة من التاريخ .

هذا ، وقد تناول المؤلف في كتابه ، منهج التاريخ ، ونشأة الحضارة وتطورها ، ثم أشار إلى المعالم الرئيسية لدراسة التاريخ السياسي في المراكز الحضارية في هذه المنطقة ـ مصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والإقليم السوري وآسيا الصغرى وإيران ـ متتبعاً في ذلك المعلومات المستقاة من الغرب والشرق ، في ترابط وتناسق تام ، ودون إغفال دور كل مركز ، أو إقليم من هذه الأقاليم ، في إغناء الحضارة بشكل عام في هذه المنطقة ، التي كانت نقطة الإرتكاز في التطور الحضاري العام .

الناشر